

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا العربية
فرع البلاغة والنقد

المرفق

د. عبد الفتاح عبد السلام
أستاذ

د. محمد بن يحيى
أستاذ

أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم

4



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠١٧٨٠

أسرارها البلاغية

بحث مقدم للحصول على درجة الماجستير
في البلاغة والنقد

٢٠٠٩

إعداد الطالب
يوسف عبد الله الأنصاري



إشراف الأستاذ الدكتور
صباح عبيد طراز

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م



اسم الطالب : يوسف عبدالله الأنصاري
التخصص : البلاغة والنقد
الدرجة : ماجستير

ملخص الرسالة

عنوان الرسالة : « أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية »
* اشتمل البحث على مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة وثبت بالمصادر والمراجع .

وفي المقدمة أشار الباحث إلى أن البلاغة القرآنية لاتزال بكرة في حاجة إلى جهود الباحثين للكشف عن خصائص نظم القرآن وأساليبه البلاغية ، وعن قلة الدراسات التي تناولت البلاغة القرآنية ، ثم تطرق إلى أن أساليب الأمر والنهي لها علاقة مباشرة للنفس الانسانية وكيف أن القرآن قد اتخذهما لتثبيت منهجه في الدعوة إلى الله وإلى طريقه المستقيم .

وكان الباب الأول عن أساليب الأمر تحدث فيه عن دلالة الأمر في اللغة والاصطلاح ، وعن المعاني البلاغية التي يخرج إليها الأمر بمعونة السياق والمقام ، وكيف أفاد الأمر هذه المعاني البلاغية .

وفي الفصل الأول منه كان الحديث عن جهود العلماء وبخاصة اللغويين والنحاة والمفسرين والأصوليين والبلاغيين .

وكان الفصل الثاني دراسة تطبيقية لأساليب الأمر البلاغية في القرآن .

أما الباب الثاني فكان عن أساليب النهي في القرآن الكريم وأساراه البلاغية وقد سار فيه الباحث على نفس المنهج الذي سلكه في الباب الأول . وفي الباب الثالث تحدث عن النسق في توالي أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأساراه البلاغية كشف فيه عن أسرار بلاغية عالية لترتيب الأوامر والنواهي في البيان القرآني .

ثم الخاتمة : تناول فيها أبرز النتائج التي توصل إليها من أهمها :

١ - أن الأوامر والنواهي في القرآن الكريم نوعان :

أ - أوامر ونواه حقيقية تكليفية تشريعية والمطلوب بها طلب الفعل أو تركه على جهة الوجوب وتأتلف بها معان بلاغية تعين على تصوير المراد .

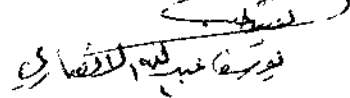
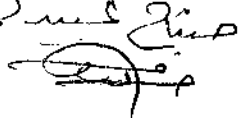
ب - أوامر ونواه ليس المقصود منها الأحكام الشرعية بل المراد منها المعاني البلاغية التي تستفاد من السياق منها النصح والارشاد والاباحة والتهديد والتعجيز والاهانة وغير ذلك .

٢ - تبين من الدراسة أن الأوامر والنواهي في القرآن تخضع في ترتيبها إلى توال متجانس « أمر وأمر » « نهي ونهي » وتوال غير متجانس « أمر ونهي » وهو كثير « نهي وأمر » وهو قليل في القرآن ، وكل ذلك لأسرار بلاغية كشفت الدراسة عن بعض أسرارها في مظانها من هذا البحث .

عميد الكلية

المشرف

اسم الطالب



يوسف عبدالله الأنصاري

المقدمة

الحمد لله الذي جعل القرآن نبراساً يهتدى بهديه ونوراً يستضاء به ،
والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، خير من نطق بالضاد وأفصح من تكلم
بلسان صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين ومن أهتدى بهديه إلى يوم
الدين .

وبعسد ..

فبلاغة القرآن لا تزال بكرة في حاجة إلى جهود الباحثين للكشف عن
خصائص نظم القرآن وأساليبه البليغة .

ومع أن علماءنا السابقين قد أفاضوا في الحديث عن القرآن الكريم تفسيراً
وتأويلاً وبلاغة ظل القرآن نبعا لا ينضب وكنزا لا يفنى .

ومع ذلك مازالت بلاغته في حاجة إلى جهود العلماء والباحثين جمعا بين
النظائر والمتشابهات وغوصا في أسرار الأساليب للكشف ما وسع الجهد عن هذا
الجمال القرآني المعجز .

وقد يسر الله لي أن أحظى بشرف خدمة كتاب الله ، وأن أرتبط به من خلال
هذا الموضوع المبارك وهو « أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم
وأسرارها البلاغية »

ولاشك أن الأمر والنهي في القرآن الكريم من أساليب الاداء في اللغة ،
إتخذهما القرآن مع غيرهما من الأساليب لتثبيت منهجه في الدعوة إلى الله ، وإلى

طريقه المستقيم حثا على الخير وترغيبا فيه ، وزجرا عن الشر وتنفيرا منه ، واتجاها للخالق الواحد الأحد جل وعلا .

وهي دعوة جاءت على مدى الأحقاب والأزمان يحكيها القرآن على السنة الأنبياء والرسل عليهم السلام ، وكيف تتلقاها القلوب المنكره .

وهذه الأساليب لها علاقتها المباشرة بالإنسانيه اقتضتها مواقف الدعوه رغبا أو رهبا ، إهانة أو تكريما إلى غير ذلك من الدواعي والأغراض .
ولذلك نجد هذه الحياة القوية تمثلها أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم في عمر الدعوه المديد كما جاءت على السنة الرسل عليهم السلام .

وقد اضطررتني طبيعة هذا البحث أن أطوف بجوانب خصبه من تراثنا الخالد عند علماء اللغة والنحو والمفسرين والأصوليين والبلاغيين وعلماء الإعجاز القرآني على مدى العصور المتطاولة .

وقد وجدت هذا الجهد العظيم الذي بذله علماءنا رحمهم الله فكننت أقابل فكرة بفكرة ورأيا برأي مرجحا أو مضيفا إليه لأصل بالبحث إلى غايته المرجوه .

ويشتمل البحث بعد هذه المقدمة على ثلاثة أبواب :-

١- الباب الأول : أساليب الأمر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيه .

وقد اشتمل هذا الباب على فصلين :-

أ- الفصل الأول : مناهج العلماء في معالجة أساليب الأمر .

ويحتوي هذا الفصل على المباحث التاليه :

(١) مبحث اللغويين والنحاة

(٢) مبحث المفسريين

(٣) مبحث الأصوليين

(٤) مبحث البلاغيين وعلماء الاعجاز القرآني .

ب - الفصل الثاني : أساليب الأمر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيه .

٢- الباب الثاني : أساليب النهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيه .

وقد اشتمل هذا الباب على ثلاثة فصول :-

أ - الفصل الأول : مناهج العلماء في معالجة أساليب النهي .

ويحتوي على المباحث التالية :-

(١) مبحث اللغويين

(٢) مبحث المفسريين

(٣) مبحث الأصوليين

(٤) مبحث البلاغيين وعلماء الإعجاز القرآني .

ب - الفصل الثاني : أساليب النهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية .

ج - الفصل الثالث : بين النفي والنهي في القرآن الكريم .

٣- الباب الثالث : النسق في توالي أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم
وأسرارها البلاغية .

ويشتمل هذا الباب على ثلاثة فصول :-

أ - الفصل الأول :- توالي أساليب الأمر في القرآن الكريم وبلاغة ذلك .

ب - الفصل الثاني :- توالي أساليب النهي في القرآن الكريم وسره البلاغي

ج - الفصل الثالث :- توالي أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها
البلاغية .

ثم الخاتمة .

وبعد :

فأرجو أن يكون عملي خالصا لوجه الله تعالى ، محققا للنية الصادقة في

خدمة كتاب الله الكريم .

وأرجو من الله تعالى أن يوفق ويعين ويجنبنا الزلل بفضلته ورحمته .

وفي هذا المقام أضرع الى الله تعالى أن يجزي عني والدي الكريمين خير

الجزاء وأن يجزل لهما المثوبه وأن يبارك لهما في عمريهما فقد ربياني على حب

القرآن فأحسننا رعايتي ، ووجدت فيهما الأسوة المباركة .

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى جامعتي الفتية جامعة أم القرى وكليتي الحبيبة كلية اللغة العربية وقسم الدراسات العليا بها .

كما أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى أستاذي الدكتور صباح عبيد دراز الذي أشرف على هذه الرسالة ورعاها منذ أن كانت فكرة حتى خرجت على هذه الصورة ، ولم يبخل عليّ بتوجيهاته السديده وأرائه النيرة التي أضاءت لي الطريق فجزاه الله عني خير الجزاء وأسبغ عليه من نعمه ومد له في عمره .

كما أخص بالشكر أستاذي الدكتور عبد العظيم المطعني وأستاذي الدكتور محمد حسنين أبو موسى حيث فخراني بكرمهما ولم يبخلا عليّ بنصح أو توجيه فجزاهما الله عني خير الجزاء وبارك لهما في علمهما وأسبغ عليهما نعمه سبحانه . كما أتقدم بوافر الشكر إلى أساتذتي في كلية اللغة العربية وزملائي وكل من مد لي يد العون والمساعدة ، وبالله التوفيق وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين .

الباب الأول

أساليب الأعراف في القرآن الكريم

و

أسرارها البلاغية

المذبح

أسلوب الأمر

الأمر بين الدلالة القرآنية واللغوية :-

لمادة أمر في القرآن الكريم دلالات عديدة ، منها الأمر واحد الأوامر بمعنى طلب الفعل وهو ضد النهي ، ومنه قوله تعالى : { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ } (١) وقوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً } (٢) والأمر بمعنى الشأن واحد الأمور ، ومنه قوله تعالى : { وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ } (٣) .

وقوله تعالى { قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ } (٤) وفسر الزمخشري الشأن بالطلب والقصد يقال : شأنت شأنه أي قصدت قصده . (٥) ويقال للإبداع أمر نحو { أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ } (٦) ويختص ذلك بالله دون الخلائق . (٧)

وإِإْمْرُ : العجب ، أو العظيم المنكر قال تعالى { أَخْرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا } (٨) .

ومن الأمر الانتمار بمعنى المشاورة ، إنتمر القوم إذا تشاوروا و منه قوله تعالى : { قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ... } (٩)

(١) سورة البقرة ، الآية " ٤٤ "

(٢) سورة البقرة ، الآية " ٦٧ "

(٣) سورة هود ، الآية " ١٢٣ "

(٤) سورة آل عمران ، الآية " ١٥٤ "

(٥) الكشاف ١ / ٢٦٩ .

(٦) سورة الأعراف ، الآية " ٥٤ "

(٧) مفردات الراغب ص ٢٤ .

(٨) سورة الكهف ، الآية " ٧١ "

(٩) سورة القصص ، الآية " ٢٠ "

وقد غلبت الدالتان الأمر بمعنى الشأن ، وبمعنى الطلب ، فهما أكثر الدلالات وروداً في القرآن الكريم . (١)

أما في اللغة : فقد زادت اللغة على ذلك دلالات يسيرة محدودة منها :-

الأمر النماء والبركة ، والأمر بمعنى المعلم والعلامة ، قال الأصمعي : الأمار والأمانة : الوقت والعلامة . (٢)

الأمر بمعنى البلإغيين -

طلب فعل طلباً جازماً على جهة الاستعلاء . (٣)

ومعنى الاستعلاء " عد الأمر نفسه عالياً سواء كان عالياً في نفسه أم لا " (٤)

وأشار كل من البهاء السبكي في عروس الأفراح (٥) والدسوقي (٦) في

-
- (١) راجع مفردات الراغب ص ٢٤ - ٢٥ ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ٤٩/١ - ٥٢ وبصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي ٣٩/٢ وما بعدها . وذكر الفيروز آبادي لمادة أمر في القرآن ثمانية عشر معنى يمكن تداخل بعضها في بعض انظر بصائر ذوي التمييز ٤٠/٢ وما بعدها .
 - (٢) انظر مقاييس اللغة ١٣٧/١ - ١٣٩ والصحاح ٥٨٠/٢ - ٥٨٢ واللسان ١٢٥/١ - ١٣٠ .
 - (٣) انظر شروح التلخيص ٢٠٨/٢ والأساليب الإنشائية للدكتور صباح دراز ص ١٥ وأساليب بلاغية للدكتور أحمد مطلوب ص ١١٠ .
 - (٤) مختصر السعد - ضمن شروح التلخيص ٣١٢/٢ .
 - (٥) سترد ترجمته في موضع لاحق .
 - (٦) هو محمد بن أحمد بن عرفه الدسوقي المالكي المتوفي سنة ١٢٢٠هـ وله مشاركات في الفقه والكلام والمنطق من أهل سوق بمصر ، تعلم وأقام وتوفي بالقاهرة من مؤلفاته حاشية على مغني اللبيب ، وحاشية على شرح سعد الدين التفتازاني انظر ترجمته الأعلام ١٧/٦ ومعجم المؤلفين ٢٩٢/٨ .



حاشيته على مختصر السعد (١) إلى إختلاف العلماء في الاستعلاء (٢) فمنهم من يشترط الاستعلاء ومنهم لا يشترطه . (٣)

ويرى الرازي (٤) عدم التقيد بالاستعلاء والعلو واستدل بقول فرعون لقومه { فَعَاذًا تَأْمُرُونَ } (٥) ودفع السبكي هذا القول قائلاً " ولا حجة فيه إما لكونه مشتقاً من الأمر بمعنى المشورة ، وإما لأن فرعون إذ ذاك كان مستعلياً عليهم " (٦) ونرى الدسوقي لا يشترط الاستعلاء في الأمر حيث يقول " والصحيح أن الاستعلاء ليس بشرط في الأمر " (٧)

أما دلالة الأمر على الوجوب أو الندب أو الفور أو التراخي أو الاستمرار فبمعونة القرائن ودلالة السياق والمقام ، وقد كان هذا موضع خلاف بين الأصوليين . (٨)

صيغ الأمر :-

للأمر أربع صيغ هي :-

١ - فعل الأمر نحو قوله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ } (٩)

(١) هو سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني " ٧١٢ - ٧٩٣هـ " عالم مشارك في النحو والصرف والمعاني والبيان والفقہ ، من مؤلفاته شرح تلخيص المفتاح ، حاشية على الكشاف ، التهذيب في المنطق انظر ترجمته الأعلام ٢١٩/٧ ومعجم المؤلفين ٣٢٨/١٢ .

(٢) انظر عروس الأفرح ٣١٠/٢ وحاشية الدسوقي ٣٠٩/٢ .

(٣) راجع في الاستعلاء عروس الأفرح ٣١٠/٢ والإبهاج في شرح المنهاج ٦/٢ والمحصل للرازي ج١ ق ٢ ص ٤٥ .

(٤) انظر المحصول ج١ ق ٢ ص ٤٥ - ٤٦ .

(٥) سورة الأعراف ، الآية " ١١ " .

(٦) عروس الأفرح ٣١٠/٢ .

(٧) حاشية الدسوقي ٣٠٩/٢ .

(٨) راجع كتب أصول الفقہ كالمحصل والإبهاج والإحكام في أصول الأحكام والمعتمد في أصول الفقہ والموافقات وغيرها .

(٩) سورة البقرة ، الآية " ٢١ " .

٢ - المضارع المقرون بلام الأمر نحو قوله تعالى { وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً حَسَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً } (١)

٣ - اسم فعل الأمر نحو قوله تعالى : { عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ } (٢)

٤ - المصدر النائب عن فعل الأمر نحو قوله تعالى { وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } (٣) وقوله تعال { وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا } (٤)

المعاني البلاغية لصيغة الأمر :-

تخرج صيغة الأمر عن معناها الأصلي فتفيد معاني أخرى تفهم من السياق بمعونة القرائن ومقتضيات الأحوال ، وفي القرآن الكريم تجد النظم كله بجرسه وألفاظه وتراكيبه يشارك في تصعيد المعنى وتجليته وبحث الحياة فيه . وقد أوصل هذه المعاني بعض شراح التلخيص إلى خمسة وعشرين معنى (٥).

ويمكن تداخل هذه المعاني ، وننبه هنا إلى أن النص على معنى بلاغي واحد في الأسلوب - عند العلماء - لايعني أكثر من وضوح هذا المعنى وشهرته ، وإلا فإن أي أسلوب إنشائي سواء كان أمراً أم غيره يفيد مجموعة من المعاني المتقاربة المتداخلة يثيرها الأسلوب في النفس المتلقية ، وهي معان شعورية أو نفسية ،

(١) سورة النساء . الآية " ٩ " .

(٢) سورة المائدة ، الآية " ١٠٥ " .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٥ " .

(٤) سورة الإسراء ، الآية " ٢٣ " .

(٥) أنظر عروس الأفراح - ضمن شروح التلخيص ٢/٣١٢ - ٢٢٢ .

ولهذا فقد نجد إختلافاً في تسمية هذا المعنى أو تعيينه بين العلماء لأنها أمور ذوقية نفسية متقاربة . (١)

لكن السؤال هنا : كيف أفاد الأمر المعاني البلاغية ؟

ظاهرة خروج الأمر عن دلالة الأصلية إلى معان بلاغية ظاهرة أسلوبية عرفت منذ بداية التأليف في علوم اللغة العربية .

وأول من أهتم بهذه القضية في التراث البلاغي البلاغيون (٢) وخاصة أصحاب الشروح والحواشي والتقارير فانحصرت أراؤهم في ثلاثة أقوال هي : المجاز ، والكناية ، ومستتبعات التراكيب (٣) ، ولكل وجهة .

ورجح الدسوقي الكناية ومستتبعات التراكيب بقوله " لعل الأولى في التحقيق على طريق الكناية أو أنه من مستتبعات الكلام " (٤) .

وأويد هذا الرأي الذي أيده بعض أساتذتنا بأنه عن طريق مستتبعات التراكيب وهو قريب من الكناية (٥) .

-
- (١) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ص ١٦ - ١٧ .
 - (٢) ناقش البلاغيون هذه القضية في مبحث الاستفهام .
 - (٣) انظر شروح التلخيص ٢/٢٩٠ وما بعدها والمطول ص ٢٣٥ وحاشية السيد على المطول ص ٢٣٥ وحاشية عبدالحكيم على المطول ص ٣٩٢ وتقرير الشمس الانبائي ٢/١٤٨ وتجريد البنائي ٢/٢١ والمجاز في اللغة والقرآن الكريم للدكتور عبدالعظيم المطعني ١/٤٢٥ .
 - (٤) حاشية الدسوقي - شروح التلخيص ٢/٢٩٥ ، ورجع العصام الكناية بقوله " إذا لم يمتنع حملها على الحقيقة لكن دلتك القرينة على مايتوسل إليه بالحقيقة فتعسك بالكناية " الأطول ١/٢٤٦ .
 - (٥) انظر البلاغة في تفسير الزمخشري للدكتور محمد أبو موسى ص ٢٠٢ ودلالات التراكيب له أيضاً ص ٢١٦ والأساليب الإنشائية ص ١٢٨ .

الفصل الأول

مناهج العلماء
في

معالجة أساليب الأمر

مناهج العلماء في معالجة أساليب الأمر

نشأ البحثُ البلاغي مع بدايةِ التآليفِ في اللغةِ والنحوِ والأدبِ وا لنقدِ والتفسيرِ على أيدي طوائفٍ متعددةٍ كان لها أكبرُ الأثرِ في نمو البلاغةِ وازدهارِها وإرساءِ قواعدها ، فالبلاغةُ لم يكنِ نضوجها وليدَ ساعةٍ وإنما نضجت في أحضانِ طوائفٍ متعددةٍ وتأثرتُ بمناهجهم وطُبعتْ بطابعهم ، فكانتُ دراساتهم من أهمِّ العوامل التي ساعدتْ على نشأةِ البلاغةِ وأمدتها بفيضٍ زاخرٍ من الملاحظاتِ البيانيةِ والأسلوبيةِ التي أثرتُ البحوثُ البلاغيةُ على مدى القرونِ حتى عصرنا الحاضرِ.

ولعلَّ أهمُّ هذه الطوائفِ التي كان لها جهدٌ واضحٌ في نشأةِ علومِ البلاغةِ طوائفُ اللغويينِ وا لنحويينِ ، والمفسرينِ والأصوليينِ والبلاغيينِ وظاهرةُ التعرّفِ على هذه الأساليبِ - أعني الأمرِ والنهي - ومراميتها البلاغيةُ ووظيفتها في السياقِ اهتداءً بالمقامِ ظاهرةُ أسلوبيةُ عرفت منذ القدم مع بدايةِ التآليفِ في التراثِ الاسلامي على أيدي هؤلاء العلماء .

المبحث الأول

منهج اللغويين والنحاة

في القرون الأولى لم يكن هناك فصل بين اللغة والنحو بل إن الصلة بين العلمين وثيقة محكمة والفصل بينهما لم يكن يدور بخلد واحد من العلماء ، فهذا كتاب سيبويه يجمع بين دفتيه مسائل اللغة والنحو والصرف . (١)

وكتب التراجم والطبقات تجمع بين اللغويين والنحويين في صعيد واحد دون فصل بينهما كطبقات النحويين واللغويين للزبيدي وانباء الرواة للقفطي وغير ذلك .

ولم يكن للغويين والنحويين منهج واضح في دراسة الأمر وخروجه إلى المعاني البلاغية وإنما نجد هذه المعاني في تضاعيف مؤلفاتهم .

١ - سيبويه : (٢)

أشار سيبويه في الكتاب إلى خروج الأمر عن دلالة الوضعية إلى بعض المعاني البلاغية وإن لم يضع لبعضها تسميات من ذلك قوله ((واعلم أن الدعاء بمنزلة الأمر والنهي وإنما قيل دعاء لأنه إستعظم أن يقال أمر أو نهي ، وذلك قولك : اللهم زيدا فاغفر ذنبه ، وزيداً فاصلح شأنه وعمراً ليجزه الله خيراً ،

(١) راجع الكتاب لسيبويه بتحقيق الاستاذ عبدالسلام هارون وأثر النحاة في البحث البلاغي للدكتور عبدالقادر حسين ص ٢٣ وبلاغة القرآن في آثار القاضي عبدالجبار للدكتور عبدالفتاح لاشين ص ٢٢ .

(٢) هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب بسيبويه ولد سنة ١٤٨هـ وتوفي سنة ١٨٠هـ .

أنظر ترجمته : وفيات الأعيان ٣/٤٦٢ - ٣٦٥ والأعلام ٥/٨١ ومعجم المؤلفين ١٠/٨ وطبقات اللغويين والنحويين للزبيدي تحقيق أبي الفضل ابراهيم ص

وتقول : زيداً قطع الله يده ، وزيداً أمر الله عليه العيش ، لأن معناه زيداً ليقطع الله يده ((١))

ونجده يشير إلى خروج الأمر إلى معني التهديد في قول المهلهل بن ربيعة: (٢)

يا لبكر انشروا لي كليباً ... يالبكر أين أين الفرارُ

يقول ((فاستغاث بهم لينشروا له كليباً وهذا منه وعيد وتهدد)) (٣)

ويشير إلى الإباحة بقوله ((تقول جالس عمراً أو خالداً ، كأنك قلت : جالس أحد هؤلاء ولم ترد إنساناً بعينه ، ففي هذا دليل أن كلهم أهل أن يجالس ، كأنك قلت جالس هذا الضرب من الناس)) (٤)

كما أشار إلى خروج الأمر إلى معني التسوية ((تقول : خذه بما عز أو هان ، كأنه قال : خذه بهذا أو بهذا أي لايفوتنك على كل حال)) (٥)

ففي هذه الامثلة نجد سيبويه يشير إلى خروج الأمر عن معناه الأصلي إلى بعض المعاني البلاغية كالدعاء والتهديد والإباحة والتسوية وإن لم يمثل دائماً من القرآن الكريم .

(١) الكتاب ٢ / ١٤١ .

(٢) هو عدي بن ربيعة بن مرة بن هبيرة من بني جشم من تغلب شاعر من أبطال العرب في الجاهلية لقب بالمهلهل لأنه أول من هلل الشعر أي رققه ، ثار المهلهل لما قتل أخوه كليب فكانت وقائع بكر المسماة بالبسوس .

انظر ترجمته : الأعلام ٤ / ٢٢٠ وخزانة الأدب للبغدادي ١ / ٣٠٠ - ٣٠٤ .

(٣) الكتاب ٢ / ٢١٥ .

(٤) الكتاب ٢ / ١٨٤ .

(٥) المصور السابق ٣ / ١٨٤ ومابعدها وانظر أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ص ٢٠٧ .

٢ - أبوه زكريا الفراء: (١)

أَحْسَّ الفراء (٢) بفطنته وحسه البلاغي في الأوامر القرآنية أنها لم تأتِ دائماً للطلب الجازم على جهة الاستعلاء ، وذكر لها بعض المعاني البلاغية من ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: { أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً } (٣) " وهو أمر في اللفظ وليس بأمر في المعنى ، لأنه أخبرهم أنه لن يتقبل منهم ، وهو في الكلام بمنزلة إن في الجزاء كأنك قلت : إنْ أَنْفَقْتَ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً فليس بمقبول منك ، ومثله: { اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ } (٤) " ليس بأمر إنما هو على تأويل الجزاء ومثله قول الشاعر: (٥)

أَسِيءِ بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَامْلُومَةٌ ... لَدِينَا وَلَا مَقْلِبَةٌ إِنْ تَقَلَّتِ (٦)

(١) يحيى بن زياد بن عبدالله الديلمي المعروف بالفراء ولد سنة ١٤٤هـ وتوفي سنة ٢٠٧هـ إمام مدرسة الكوفة في وقته وأعلمهم بالنحو واللغة والأدب من أثاره معاني القرآن والمقصود والممدود .

انظر ترجمته : وفيات الأعيان ١٧٦/٦ - ١٨٢ ؛ والأعلام ١٤٥/٨ - ١٤٦ ؛ ومعجم المؤلفين ١٩٨ / ١٣

(٢) معاني القرآن للفراء هو كتاب في تفسير الآيات القرآنية وايضاح مافيها من غريب اللغة ووجوه نظم القرآن التي لها نظائر في كلام العرب فهو من كتب التفسير وكان حقه أن يكون في مبحث المفسرين لولا أن مؤلفه عرف باللغة والرواية فلهذا أدرجناه في اللغويين ومثله مجاز القرآن لأبي عبيدة .

(٣) سورة التوبة ، الآية ٥٣ .

(٤) سورة التوبة ، الآية ٨٠ .

(٥) البيت لكثير عزة ، وهو كثير بن عبدالرحمن الخزاعي ، عرف بصاحبته عزة التي شيب بها في شعره توفي سنة ١٠٥هـ . انظر ترجمته ذم الهوي لابن الجوزي ص ٤٤٤-٤٤٧ ووفيات الأعيان ١٠٦/٤ - ١١٣ ؛ والأعلام ٢١٩/٥ .

(٦) معاني القرآن ١ / ٤٤١ .

فالامر في هذه الامثلة للتسوية كما نص على ذلك علماء البلاغة المتأخرون .

ومن الشواهد التي ذكرها قوله تعالى : [**وَاجْعَلْ لِي وَاِزِيْرًا مِّنْ اَهْلِيْ هَارُونَ اَخِيْ اَشَدُّ بِهٖ اَزْرِي**] (١) يقول ((فقوله أشدد به : دعاء)) (٢) .

وأشار إلى خروج الامر إلى معنى التوبيخ في قوله تعالى : [**ذُقْ اِنَّكَ اَنْتَ الْعَزِيْزُ الْكَرِيْمُ**] (٣) يقول " فمعناه - فيما نرى والله أعلم - أنه توبيخ أي ذق فإنك كريم كما زعمت ، ولست كذلك " (٤) .

كما أشار إلى خروج الامر الى معنى التهديد في قوله تعالى : [**قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيْلًا**] (٥) ((فهذا تهديد وليس بأمر محض ، وكذلك قوله تعالى : [**فَتَمَتَّعُوْا فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ**] وما أشبهه)) (٦)

وأشار إلى خروج الامر إلى معنى الإباحة في قوله تعالى : [**فَاَنْتَشِرُوْا فِيْ الْاَرْضِ وَابْتَغُوْا مِنْ فَضْلِ اللّٰهِ**] (٧) ، يقول ((هذا إذن وإباحة ، من شاء باع ومن شاء لزم المسجد)) (٨) .

فهذه الشواهد التي ذكرها الفراء نجدها في كتب البلاغة ، وهذا يدل على أن للغويين والنحاة أثراً عظيماً في نمو البحث البلاغي وازدهاره .

-
- (١) سورة طه " ٣٠ - ٣١ " .
 - (٢) معاني القرآن ١٧٨/٢ .
 - (٣) سورة الدخان " ٤٩ " .
 - (٤) معاني القرآن ٤٤/٢ .
 - (٥) سورة الزمر " ٨ " .
 - (٦) معاني القرآن للفراء ٤١٦/٢ .
 - (٧) سورة الجمعة " ١٠ " .
 - (٨) معاني القرآن ١٥٧/٢ .

٣- أبو عبيدة معمر بن المثنى : (١)

مجاز القرآن لابي عبيدة ليس كتاباً بلاغياً وإنما هو كتاب في تفسير ألفاظ القرآن وأساليبه وإيضاح ما فيها من الغريب والاستشهاد بما أُوتِرَ عن العرب في كلامها ، ولم يرد المؤلف من كلمة المجاز المعنى الاصطلاحي المتعارف عليه عند البلاغيين بل المعنى اللغوي للكلمة بمعنى المعبر والطريق إلي فهم المعاني ، ومع ذلك نجد في الكتاب إشارات كثيرة إلى بعض الفنون البلاغية كالتشبيه والاستعارة والتقديم والايجاز والالتفات والاستفهام وخروجه إلي بعض المعاني البلاغية ، وخروج الخبر مخرج الاستفهام (٢) ، وخروج الأمر والنهي إلي المعاني البلاغية ويهمننا - مانحن بسبيله - أن نُشيرَ إلي بعض الصور التي خرج فيها الأمر عن معناه الأصلي إلي المعاني البلاغية عند أبي عبيدة أثناء تعرضه لتفسير الآيات القرآنية في كتاب مجاز القرآن .

يقول في تفسير قوله تعالى : { اَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ } (٣) ((لم يأمرهم بعمل

الكفر وإنما هو توعده)) (٤) فالأمر في هذه الآية خرج إلي معنى الوعيد والتهديد .

(١) أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي بالولاء ولد سنة ١١٠هـ وتوفي سنة ٢٠٩هـ من

أئمة العلم بالأدب واللغة وكان مولده ووفاته بالبصرة ، وقد أخذ عليه شعوبيته

بالإضافة إلى كونه خارجياً من مؤلفات مجاز القرآن ، نقائض جرير والفرزدق .

انظر ترجمته وفيات الأعيان ٢٢٥/٥ - ٢٤٣ ؛ والأعلام ٢٧٢/٧ ؛ ومعجم المؤلفين

١٢ / ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٢) مناهج بلاغية للدكتور أحمد مطلوب ص ٨٥ .

(٣) سورة فصلت ، الآية " ٤٠ " .

(٤) مجاز القرآن ٢ / ١٩٧ .

ويقول في قوله تعالى : [فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا] (١) " مجازه الوعيد
" (٢) كما اشار إلى خروج الأمر إلى معنى الدعاء في قوله تعالى : [رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ
أَسْفَارِنَا] (٣) يقول " مجازه مجاز الدعاء ، وقراه قوم [رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا] (٤) .
وبهذا يتضح لنا أن أبا عبيدة قد أدرك أن الأمر يخرج عن معناه فيفيد
معاني أخرى تفهم من السياق وقرائن الأحوال .

٤ - أبو الحباس المبرد : (٥)

يُعدُّ كتابُ المقتضب للمبرّد من أقدم ما وصل إلينا في النحو والصرف بعد
كتاب سيبويه ، وقد كان تأثره بكتاب سيبويه كبيراً كما صرح بذلك المحقق الشيخ
محمد عبدالخالق عضيمة رحمه الله . (٦)

(١) سورة الزخرف ، الآية ٨٣ .

(٢) مجاز القرآن ٢ / ٢٧٠ .

(٣) سورة سبأ ، الآية ١٩ .

(٤) مجاز القرآن ٢ / ١٤٧ .

(٥) محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي المعروف بالمبرد ولد سنة ٢١٠هـ
وتوفي سنة ٢٨٦هـ أحد أئمة الأدب والنحو واللغة والأخبار كانت ولادته ووفاته
ببغداد ، من أشهر مؤلفاته الكامل ؛ المقتضب .

انظر ترجمته وفيات الأعيان ٤/٣١٣ - ٣٢٢ ؛ والأعلام ٧/١٤٤ ؛ ومعجم المؤلفين
١١٤/١٢ - ١١٥ والبلاغة لأبي العباس المبرد تحقيق الدكتور رمضان عبدالقواب
ص ٥ وما بعدها .

(٦) المقتضب مقدمة المحقق ٨٨/١ .

((وفي هذا الكتاب تناول المبرد كثيرا من الفنون البلاغية كالتقديم والتأخير والحذف والايجاز والمجاز والقصر وخروج الاستفهام عن وضعه الأصلي إلي بعض المعاني البلاغية)) (١) .

وقد فطن المبرد إلى خروج الأمر عن دلالة الأصلية إلى بعض المعاني البلاغية كالتهديد والوعيد يقول : ((أما قوله تعالى : { ذُرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا } (٢). فعلى الجواب . فان قال قائل : أفأمر الله بذلك ليخوضوا ويلعبوا ؟ قيل : مخرجه من الله - عز وجل - على الوعيد ، كما قال عز وجل : { اَعْمَلُوا مَا سَأَلْتُمْ } (٣) ؛ { وَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ } (٤)

وأشار إلى خروج الأمر إلى الدعاء بقوله : ((واعلم أن الدعاء بمنزلة الأمر والنهي في الجزم والحذف عند المخاطبة ، وإنما قيل دعاء وطلب للمعنى لأنك تأمر من هو دونك وتطلب إلى من أنت دونه ، وذلك قولك : ليغفر الله لزيد وتقول : اغفر لي كما تقول اضرب عمراً)) (٥)

وأشار إلى خروج الخبر إلى معنى الأمر بقوله ((أما قولك : غفر الله لزيد ، ورحم الله زيدا ونحو ذلك - فَإِنَّ لَفْظَهُ لَفْظُ الْخَبْرِ وَمَعْنَاهُ الطَّلِبُ ، وَإِنَّمَا كَانَ كَذَلِكَ لِعِلْمِ السَّامِعِ أَنَّكَ لِاتُّخِيرَ عَنِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَإِنَّمَا تَسْأَلُهُ)) (٦) .

(١) انظر أثر النحاة في البحث البلاغي ص ٢٠٥ والفهارس الفنية لكتاب المقتضب . ٢١٨/٤ .

(٢) سورة الحجر ، الآية " ٣ " .

(٣) سورة فصلت ، الآية " ٤٠ " .

(٤) سورة الكهف ، الآية " ٢٩ " وانظر المقتضب ٨٦ / ٢ .

(٥) المقتضب ١٣٢ / ٢ .

(٦) المصدر السابق ١٣٢/٢ وانظر ٢٧٣/٣ ، ١٧٥ / ٤ .

ويشير إلى خروج الأمر إلى معنى التخيير حيث يقول: ((إبت زيداً أو
عمراً ، أي قد جعلتك في ذلك مُخَيَّراً)) (١) ويقول أيضاً: ((وكذلك وقوعها للتخيير
تقول اضرب إما عبدالله وإما خالداً ، فالأمر لم يشك ولكنه خَيَّرَ المأمور)) (٢)
ونصَّ على خروج الأمر إلى معنى الإباحة بقوله: ((وقد يكون لها موضع آخر
معناه الإباحة وذلك قولك : جالس الحسن أو ابن سيرين واثت المسجد أو السوق ، أي
قد أذنت لك في مجالسة هذا الضرب من الناس ، وفي إتيان هذا الضرب من
المواضع)) (٣) وقد ((ظل مثال جالس الحسن أو ابن سيرين يدور عند الكلام على
خروج الأمر للإباحة)) (٤)

هذه بعض معاني الأمر البلاغية التي أشار إليها المبرد وهي بلا شك تبين
أثره الكبير في تطور البحث البلاغي ، وإن أكثر من الأمثلة التأليفية المشهورة
طلباً للإيضاح وإلا فالشواهد القرآنية غزيرة عديدة .

هـ - أبو جعفر النحاس : (٥)

أشار أبو جعفر النحاس في كتابه معاني القرآن إلى بعض المعاني البلاغية

(١) المقتضب ٢٠١/٣ وانظر أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ص ٢٠٧ .

(٢) المقتضب ١١ / ١ .

(٣) السابق الموضع نفسه .

(٤) معجم المصطلحات البلاغية ص ٢١٥ وانظر الإيضاح ٢٤١/١ وشروح التلخيص
٣١٣ / ٢ .

(٥) أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحاس المتوفى سنة

٢٣٨ مفسر وأديب ، كان مولده ووفاته بمصر ، أخذ عن المبرد والأخفش والزجاج ،

من مؤلفاته معاني القرآن ، الناسخ والمنسوخ وأخبار الشعراء .

انظر ترجمته : وفيات الأعيان ٩٩/١ - ١٠٠ ؛ والأعلام ٢٠٨/١ ؛ ومعجم المؤلفين

٨٢/٢ ؛ وطبقات النحويين واللغويين ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

التي يفيدها الأمر في معرض تفسيره لآيات القرآن الكريم منها التكذيب كما في قوله تعالى : { قُلْ فَاتُوا بِالْتَّورَةِ فَاتْلُوهَا إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (١) يقول : ((قال الضحاک : قال اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم حرم علينا هذا في التوراة فكذبهم الله ، وأخبر أن إسرائيل حرّمه على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ودعاهم إلى إحضارهم فقال : { قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين } (٢)

والعظة والاعتبار كما في قوله تعالى : { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَنَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ } (٣)

يقول ، قال أبو عبيدة : ((السنن : الأعلام ، والمعنى على هذا : إنكم إذا سافرتم رأيتم آثار قوم هلكوا فلعلكم تتعظون)) (٤)

والإباحة كما في قوله تعالى : { وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا } (٥) يقول : ((وهذا إباحة بعد حظر وليس بحتم)) (٦) ويقول في تفسير قوله تعالى { كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ } (٧) وهذا أمر على الإباحة * (٨)

والتهديد والوعيد قال تعالى : { وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ } (٩) يقول : * أي وليكتسبوا ، ويقال قرفت الجلد إذا قلعته ، ويقرأ * وَلِيَقْتَرِفُوا * وفيه معنى التهديد * (١٠) .

(١) سورة آل عمران ، الآية * ٩٣ .

(٢) معاني القرآن الكريم تحقيق الشيخ محمد على الصابوني ١٤٤/١ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية * ١٣٧ .

(٤) المصدر السابق ٤٨٠/١ .

(٥) سورة المائدة ، الآية * ٢ .

(٦) المصدر السابق ٢٥٢/٢ .

(٧) سورة الأنعام ، الآية * ١٤٢ .

(٨) المصدر السابق ٥٠٤/٢ وأنظر ٤٠١/٤ .

(٩) سورة الأنعام ، الآية * ١١٣ .

(١٠) المصدر السابق ٤٧٨/٢ .

ويقول في قوله تعالى: [قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ] (١) ((فيه قولان : أحدهما أن المعنى على تمكنكم ، والقول الآخر أنه كما تقول : اثبت مكانك أي اثبت على ما أنت عليه .

فإن قيل كيف يجوز أن يؤمروا بالثبات على ما هم عليه وهم كفار ؟

فالجواب : أن هذا تهديد كما قال جل وعز : [فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا] (٢) ومنه قوله تعالى: [فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ] (٣) .
يقول : وهذا على التهديد كما قال تعالى: [فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ] (٤) .

والدوام والثبات نحو قوله تعالى : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ] (٥) يقول في معنى هذا قولان :

أحدهما : اثبتوا على الإيمان ، كما يقال للقائم : قف حتى أجيء (٦) كما أشار إلى خروج الخبر إلي معنى الأمر في قوله تعالى: [وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ] (٧)

يقول : ((لفظه لفظ الخبر ومعناه معنى الأمر ، لما فيه من الإلزام)) (٨) .

ففي هذه الأمثلة نجد النحاس قد فطن إلى خروج الأمر عن دلالة إلى معان بلاغية أخرى بمعونة السياق والمقام .

(١) سورة الأنعام ، الآية " ١٣٥ "

(٢) سورة التوبة ، الآية " ٨٢ " والمصدر السابق ٤٩٣ / ٢ .

(٣) سورة النحل ، الآية " ٥٥ " .

(٤) سورة الكهف ، الآية " ٢٩ " والمصدر السابق ٧٤ / ٤ وانظر ١٧٣ / ٤ ، ٢٣٢ / ٤ .

(٥) سورة النساء ، الآية " ١٣٦ " .

(٦) المصدر السابق ٢ / ٢١٥ .

(٧) سورة البقرة ، الآية " ٢٢٣ " .

(٨) المصدر السابق ٨ / ٢١٤ .

٦ - ابن جنى : (١)

من بين النحويين الذين كان لهم جهد طيب في الإشارة إلى خروج الأمر إلى المعانى البلاغية ، فقد أشار في مؤلفاته إلى بعض المعانى البلاغية التي خرج إليها الأمر من ذلك قوله " فقد تجد لفظ الأمر في معنى الخبر نحو قوله تعالى : [أسمع بهم وابصر] (٢) يقصد أن لفظه أمر وهو ماضٍ جاء على صورة الأمر ، والماضى خبر ، وإن كان الأسلوب إنشائياً لأنه تعجب .

((وقوله عز اسمه : [قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا] (٣) أي فليمدن ، ووقع أيضاً لفظ الخبر في معنى الأمر نحو قوله سبحانه : [لَا تَضَارُّ وَالِدَةَ بُولَدَهَا] (٤) وقولهم : هذا الهلال معناه : انظر الهلال ونظائره كثيرة " (٥)

ويقول في توجيه قراءة أبي مسلم صاحب الدولة [فلا يسرف في القتل] (٦) ورفع هذا على لفظ الخبر بمعنى الأمر ، ومثله قوله : [وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ] (٧) أي ليتربصن (٨) .

(١) أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي النحوي توفي سنة ٣٩٢ هـ ببغداد ، كان إماماً في النحو واللغة والتصريف من مصنفاة الخصائص وسر الصناعة .
انظر ترجمته وفيات الأعيان ٣/٢٤٦ - ٢٤٨ ؛ والأعلام ٤ / ٢٠٤ ؛ ومعجم المؤلفين ٢٥١/٦ - ٢٥٢ .

(٢) سورة مريم ، الآية ٣٨ - والمنصف ١ / ٣١٧ .

(٣) سورة مريم ، الآية ٧٥ .

(٤) سورة البقرة ، الآية ٢٢٣ .

(٥) الخصائص ٢ / ٣٠١ .

(٦) سورة الإسراء ، الآية ٢٣ .

(٧) سورة البقرة ، الآية ٢٢٨ .

(٨) المحتسب ٢ / ٢٠ .

ويقول أيضاً ((ومن الفاظ الخبر المراد بها الأمر بقوله تعالى : { تَوَمَّنُونَ
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } (١) فهذا في معنى آمنوا ، ألا تراه أجابه بقوله عز وجل : { يَغْفِرُ
لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ } (٢) فهذا معناه : آمنوا يغفر لكم ذنوبكم ، كما
تقول إن تؤمنوا يغفر لكم ذنوبكم ، ولا يكون قوله يغفر لكم جواب { هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى
تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ } (٣) وإن كان أبو العباس المبرد رحمه الله قد
ذهب إليه (((٤)

وأشار إلى خروج الأمر إلى معنى الإباحة بقوله ((من ذلك قولهم)) جالس
الحسن أو ابن سيرين ((ولو جالسهما جميعاً لكان مصيباً مطيعاً وإن كانت " أو "
إنما هي في أصل وضعها لأحد الشينين وإنما جاز ذلك في هذا الموضع لا لشيء رجع
إلى نفس "أو" بل لقرينة انضمت من جهة المعنى إلى " أو " وذلك لأنه قد عرف أنه
إنما رغب في مجالسة الحسن لما لجالسه في ذلك من الحظ ، وهذه الحال موجودة في
مجالسة ابن سيرين أيضاً ، وكأنه قال جالس هذا الضرب من الناس)) (٥)

وهذا المثال الذي ذكره ابن جني نجده يتردد في كتب البلاغة على خروج

الأمر إلى معنى الإباحة (٦) .

كما ذكر خروج الأمر إلى معنى التبكيت في قوله تعالى : { ذُقْ إِنَّكَ
أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } (٧) يقول : ((وإنما هو في النار الذليل المهان ، لكنه خوطب
بما كان يخاطب به في الدنيا ، وفيه مع هذا ضرب من التبكيت له والإذكار بسوء
أفعاله)) (٨)

- (١) سورة الصف ، الآية " ١١ " .
- (٢) سورة الصف ، الآية " ١٢ " .
- (٣) سورة الصف ، الآية " ١٠ " .
- (٤) المنصف لابن جني ٣١٧/١ - ٣١٨ .
- (٥) الخصائص ٣٤٧/١ وما بعدها .
- (٦) انظر الايضاح ٢٤١/١ وشروح التلخيص .
- (٧) سورة الدخان ، الآية " ٤٩ " .
- (٨) المحتسب ١ / ١٠١ .

٧ - أحمد بن فارس : (١)

أولى ابن فارس البلاغة عناية فائقة ، وكتابه الصحابي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها يعد من أهم الكتب التي اعتمد عليها البلاغيون في مباحث علم المعاني لاسيما " باب معاني الكلام " حيث ذكر أنه عند أهل العلم عشرة : خبر واستخبار وأمر، ونهي، ودعاء ، وطلب ، وعرض ، وتحضيض ، وتمن ، وتعجب (٢) أما الأمر فقد نحا به نحواً لم نعهده عند سابقيه من اللغويين والنحويين فامتاز عنهم بالدقة والتنسيق والتبويب ، وقد سار على نهجه عدد من العلماء مثل ابن الشجري في الأمالي ، وعلماء النحو المتأخرين كابن يعيش والاسترلاباني وابن هشام وغيرهم يقول في تعريف الأمر " الأمر عند العرب : ما إذا لم يحتمله المأمور به سمي المأمور به عاصياً ، ويكون بلفظ " افعل ، وايفعل " نحو " أقيموا الصلاة " ونحو قوله سبحانه : { وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْأَنْجِيلِ } (٣) . وما ذكره في تعريف الأمر ليس حداً شائعاً جامعاً وهو قريب من فهم الأصوليين .

ثم نجده يذكر بعض المعاني البلاغية التي يحتملها الأمر ، فيقول: ((أما المعاني التي يحتملها لفظ الأمر فإن يكون أمراً والمعنى مسألة نحو " اضرب زيداً ، ويكون اللفظ أمراً وهو دعاء نحو قولك " اللهم اغفر لي " ويكون أمراً والمعنى وعيد نحو قوله جل ثناؤه { فَتَمَتَّعُوا فَمَن لَّو تَعْلَمُونَ } (٤) وقوله : { أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ } (٥) ويكون اللفظ أمراً ، والمعنى تسليم نحو قوله جل ثناؤه

(١) أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب الرازي توفي بالري سنة ٣٩٥ هـ ، كان إماماً في علوم شتى وخاصة اللغة ، من تصانيفه المجمل ، والصحابي ومقاييس اللغة أنظر ترجمته وفيات الأعيان ١١٨/١ - ١٢٠ والأعلام ١٩٣/١ ومعجم المؤلفين ٤٠/٢ - ٤١ .

(٢) الصحابي ص ٢٨٩ وانظر مناهج بلاغية ص ٩٢ .

(٣) سورة المائدة ، الآية ٤٧ " .

(٤) سورة النحل ، الآية ٥٥ " .

(٥) سورة فصلت ، الآية ٤٠ " .

{ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ } (١) ويكون أمراً والمعنى تكوين نحو قوله : { كُونُوا قِرْدَةً خَاسِئِينَ } (٢) وهذا لا يجوز أن يكون إلا من الله جل ثناؤه ، ويكون أمراً وهو ندب نحو قوله : { فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ } (٣) ويكون أمراً وهو تعجيز نحو قوله تعالى : { فَانفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ } (٤) ، ويكون أمراً وهو تعجب نحو قوله جل ثناؤه { أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ } (٥) ويكون أمراً وهو تمن تقول لشخص تراه " كن فلاناً " ويكون أمراً وهو واجب في أمر الله جل ثناؤه : { أَقِيمُوا الصَّلَاةَ } (٦) ويكون اللفظ أمراً والمعنى تلهيف وتحسير كقول القائل " مت بغيظك " " ومت بدائك " وفي كتاب الله جل ثناؤه { قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ } (٧) فالندب والوجوب معانٍ أصولية ذكرها الأصوليون في مؤلفاتهم ، أما استشهاده على خروج الأمر إلى التعجب بقوله تعالى : { أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ } فالفعل ماضٍ حقيقة جاء على صورة الأمر لإنشاء التعجب لأنه إحدى صيغتي التعجب .

ويضيف أيضاً ((ويكون أمراً والمعنى خبر كقوله جل ثناؤه : { فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا } (٨) أي أنهم سيضحكون قليلاً ويبكون كثيراً)) (٩) .

وبهذا يتضح لنا أن البلاغيين قد أفادوا من الصاحبى ، وبنوا مباحث الخبر والإنشاء على ما بدأ به ابن فارس وإن لم يصرحوا بذلك ، وبالموازنة السريعة بين ما ذكره وما دونه يتضح لنا أنهم اطلعوا على كتاب الصاحبى وترسموا أصوله

-
- (١) سورة طه ، الآية " ٧٢ " .
 - (٢) سورة البقرة ، الآية " ٦٥ " .
 - (٣) سورة الجمعة ، الآية " ١٠ " .
 - (٤) سورة الرحمن ، الآية " ٢٣ " .
 - (٥) سورة مريم ، الآية " ٢٨ " .
 - (٦) سورة البقرة ، الآية " ٤٣ " .
 - (٧) سورة آل عمران ، الآية " ١٦٩ " وانظر الصاحبى ص ٢٩٨ - ٣٠٢ .
 - (٨) سورة التوبة ، الآية " ٨٢ " .
 - (٩) الصاحبى ص ٣٠٢ .

وأفادوا منه ، وبهذا نستطيع أن نرد في إطمئنان على ما صرح به بعض الباحثين بقوله ((إن البلاغيين نسوا هذا الكتاب وأهملوه إهمالاً شنيعاً حتى لقد يسبق إلى الظن أنهم لم يقفوا عليه ولم يقرأوه مع شهرة صاحبه بين العلماء والأدباء)) (١)

ولا يغمض من مكانة ابن فارس وأثره في تطور البحث البلاغي ما ذكره الدكتور عبدالقادر في ابن فارس إذ يقول ((لا نكاد نجد له نظرات جديدة ولا أفكاراً عميقة ولا إثراء لغرض من الأغراض ولا تحليلاً ولا تعليلاً وإنما أكتفى بالسرد والنقل والجمع والحشد من السابقين وهذا قصارى جهده الذي بذله في الكتاب)) (٢)

وقد يشير إلى ذلك قول ابن فارس في مقدمة كتابه ((والذي جمعناه في مؤلفنا هذا مفرق في أصناف العلماء المتقدمين رضي الله عنهم وجزاهم عنا أفضل الجزاء ، وإنما لنا فيه إختصار مبسوط أو بسط مختصر أو شرح مشكل أو جمع متفرق)) (٣)

ورأي الدكتور عبدالقادر حسين فيه تحامل على ابن فارس ، لأن ما صرح به ابن فارس في مقدمة كتابه هو عادة متبعة في التأليف عند علمائنا الأوائل .

ولكن لابن فارس رحمه الله أثر واضح في بناء الصرح البلاغي ((فالفنون البلاغية بتعريفاتها وتقسيماتها لاتخرج عما اختطه المتأخرون من علماء البلاغة ، وبذلك يكون قد خطا بالبلاغة خطوة جريئة أوحث إلى السكاكي ما قام به من وضع أسسها وقواعدها)) (٤) .

٨ - ابن الشجري : (٥)

أشرت قبل قليل إلى أن البحث في أساليب الأمر وأغراضها البلاغية بدأ يأخذ

(١) البيان العربي للدكتور بدوي طبانة ص ١٧٠ وانظر مناهج بلاغية ص ٩٤ وما بعدها .

(٢) أثر النحاة في البحث البلاغي ص ٣٤٢ .

(٣) الصحابي ص ٥ .

(٤) مناهج بلاغية ص ٩٦ .

(٥) الشريف أبو السعادات هبة الله بن علي بن محمد الحسنى المعروف بابن الشجري ولد سنة ٤٥٠ وتوفي سنة ٥٤٢ هـ كان إماماً في النحو واللغة وأشعار العرب وأيامها ، كان نقيب الطالبين بالكرخ ، كان مولده ووفاته ببغداد من أثاره الأمالي والحماسة وغير ذلك انظر ترجمته وفيات الأعيان ٤٥/٦ - ٥٠ . والأعلام ٧٤/٨ ؛ ومعجم المؤلفين ١٢/١٤١ - ١٤٢ وتاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان ١٦٥/٥ .

وجهة لم نعهدها عند السابقين من اللغويين والنحويين ، فبعد ان كان شذراتٍ مبعثرةً في ثنايا الكتب أصبحنا نرى البحث في الأمر ودلالته على المعاني البلاغية يتميز بالشمولية والمنهجية والإكثار من المعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب الأمر في آثار بعض العلماء من بينهم ابن الشجري حيث عرّف الأمر وحدد صيغته وذكر بعض المعاني البلاغية لأسلوب الأمر .

فالأمر عنده " استدعاء الفعل بصيغة مخصوصة مع علو الرتبة ، وقد استحق هذا الاسم باجتماع هذه الثلاثة ، فأما علو الرتبة فإن أصحاب المعاني قالوا الأمر لمن دونك طلب ، والمسألة لمن فوقك كقولك للخليفة أجرتني ، وسموا هذه الصيغة إذا وجهت إلي الله تعالى دعاءً لأن الدعاء الذي هو النداء يصحبها كقولك : " اللهم أغفر لي ، ويارب ارحمني ، وإذا كانت لمن فوقك من الأدميين سموها سؤالاً وطلباً فهي بهذين الاسمين إذا وجهت إلى الله تعالى أولى .

ثم ذكر أن للأمر صيغتين " إحداهما " للمواجه وهي إفعال ، والأخرى للغائب وهي " ليفعل " فمثال الأمر الواجب { كُونُوا قَوَّامِينَ } (١) [قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ] (٢) [فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ] (٣) [لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَدْوَرَهُمْ وَلِيُطَوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ] (٤) ثم ذكر بعض المعاني البلاغية التي يخرج اليها الأمر كالندب والاستحباب ، والندب كل ما في فعله ثواب وليس في تركه عقاب كقوله : [رَاذِكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا] (٥) والإباحة أي إباحة الشيء بعد حظره كقوله [فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ] (٦) بعد قوله :

-
- (١) سورة النساء ، الآية (١٣٥) ؛ سورة المائدة ، الآية (٨) .
 - (٢) سورة التوبة الآية (٢٩) .
 - (٣) سورة البقرة ، الآية (١٨٥) .
 - (٤) سورة الحج ، الآية (٢٩) .
 - (٥) سورة الأنفال ، الآية (٤٥) ؛ سورة الجمعة ، الآية (١٠) .
 - (٦) سورة الجمعة ، الآية (١٠) .

{ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا
 الْبَيْعَ } (١) وكقوله: { إِذَا حُلُّتُمْ فَاصْطَادُوا } (٢) بعد قوله { لَا تَقْتُلُوا
 الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ } (٣) والوعيد كقوله: { أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ } (٤) { فَمَنْ
 شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ } (٥) { وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ
 بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ
 وَعِدْهُمْ } (٦) { قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ } (٧) ، { ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا } (٨) {
 فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ } (٩) والتأديب والارشاد كقوله:
 { اشهدوا إذا تجايعتم } (١٠) وخروج الخبر إلى الأمر نحو: { وَالْمُطَلَّقَاتُ
 يَتَرَبَّصْنَ } (١١) وخروج الأمر إلى الخبر نحو قوله تعالى: { قُلْ مَنْ كَانَ فِي
 الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا } (١٢) المعنى فيمد له الرحمن ، ويكون
 للخضوع كما كان دعاء في نحو ((اللهم اغفر لنا ولترحم زيدا)) وذلك نحو قول
 المذنب لسيده أو لذي السلطان { افعل بي ما شئت وابلغ مني رضاك } تذلاً منه
 وإقراراً بذنبه .

وللتعجيز والتحدي نحو { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ
 مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ } (١٣) .

-
- (١) سورة الجمعة ، الآية (٩) .
 - (٢) سورة المائدة ، الآية (٢) .
 - (٣) سورة المائدة ، الآية (٩٥) .
 - (٤) سورة فصلت ، الآية (٤٠) .
 - (٥) سورة الكهف ، الآية (٢٩) .
 - (٦) سور [الأسراء ، الآية (٦٤) .
 - (٧) سورة الزمر ، الآية (٨) .
 - (٨) سورة الحجر ، الآية (٣) .
 - (٩) سورة القلم ، الآية (٤٤) .
 - (١٠) سورة البقرة ، الآية (٢٨٢) .
 - (١١) سورة البقرة ، الآية (٢٢٨) .
 - (١٢) سورة مريم ، الآية (٧٥) .
 - (١٣) سورة هود ، الآية (١٣) .

فلما عجزوا عن ذلك قال { فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ } (١) يدل ذلك على أن المعنى تبين عجزهم عن ذلك قوله { فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا } (٢) وقوله { لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله } (٣) ويكون للتنبيه على كمال القدرة والمخاطب غير مأمور بأن يحدث فعلاً فيكون بفعل ذلك الفعل مطيعاً ، وبتركه عاصياً كقوله تعالى : { قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً } (٤) يعني لو كنتم حجارة أو حديداً لأعادكم ، ألم تسمع إلى قوله حاكياً عنهم مجيباً لهم { فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } (٥) فهذا يبين لك أن لفظ الأمر في هذا الموضع تنبيه على قدرته سبحانه .

ويكون لفظ الأمر أيضاً لما لا فعل فيه لمن وجه إليه أصلاً كقوله { فَكَلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ } (٦) المعنى كونهم قرده ، ألا ترى أن هذا ليس من الأمر الذي يمكن أن يفعله المأمور أو يتركه ولكنه فعل واقع به الله عز وجل (٧) .

٩ - يحيى بن علي بن يحيى : (٨)

أشار ابن يعيش في كتابه شرح المفصل للعلامة الزمخشري إلى بعض

الصور البلاغية .

(١) سورة يونس ، الآية (٢٨) .

(٢) سورة البقرة ، الآية (٢٤) .

(٣) سورة الأسراء ، الآية (٨٨) .

(٤) سورة الأسراء ، الآية (٥٠) .

(٥) سورة الأسراء ، الآية (٥١) .

(٦) سورة البقرة ، الآية (٦٥) .

(٧) الأمالي الشجرية ١ / ٢٦٨ - ٢٧١ .

(٨) أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش موفق الدين الأسدي ولد سنة ٥٥٣ هـ وتوفي سنة ٦٤٣ من كبار علماء العربية كان مولده ووفاته في حلب من كتبه شرح المفصل للزمخشري - وشرح التصريف الملوكي .

انظر ترجمته تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢٧٤/٥ ، وفيات الأعيان ٤٦/٧ -

٥٣ والأعلام ٢٠٦ / ٨ ، ومعجم المؤلفين ٢٥٦ / ١٢ .

من ذلك خروج الخبر إلى الأمر بقوله ((والخبر قد يستعمل بمعنى الأمر نحو قوله تعالى { وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ } (١) أي ليرضعن ، ومن ذلك قولهم في الدعاء "رحمه الله" لفظه لفظ الخبر معناه الدعاء)) (٢)

ففي هذه الأمثلة نجد ابن يعيش يردد ما ذكره العلماء من قبل دون أن يضيف جديداً يسجل له في هذا الموضوع .

١- الإستراباذي : (٣)

قام رضي الدين الاستراباذي بشرح الكافية في النحو لابن الحاجب ، وفي هذا الكتاب تعرض لذكر بعض المعاني البلاغية التي يفيدها الأمر بعد أن عرفه بقوله "صيغة يطلب بها الفعل من الفاعل المخاطب بحذف حرف المضارعة، ولو قال صيغة يصح أن يطلب بها الفعل لكان أصرح في عمومته لكل ما يسميه النحاة أمراً ، وذلك أنهم يسمون به كل ما يصح أن يطلب به الفعل من الفاعل المخاطب بحذف حرف المضارعة سواء طلب به الفعل على سبيل الاستعلاء وهو المسمى أمراً عند الأصوليين نحو قولك "اضرب" على وجه الاستعلاء ، أو طلب به الفعل على وجه الخضوع من الله تعالى نحو اللهم أرحم ، أو من غيره وهو الشفاعة ، أو لم يطلب به الفعل بل كان إما على الإباحة نحو { كُلُوا وَاشْرَبُوا } (٤) ، أو التهديد نحو { اَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ } (٥) أو غير ذلك من محامل هذه الصيغة)) (٦)

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢٣٣ " .

(٢) شرح المفصل لابن يعيش ٤٩ / ٧ .

(٣) محمد بن الحسن الاستراباذي السمناني رضي الدين المتوفى سنة ٦٨٦ هـ نزيل

النجف ، نحوي صرفي متكلم منطقي من مصنفاته شرح الشافية لابن الحاجب

في التصريف ، وشرح الكافية لابن الحاجب في النحو .

انظر ترجمته الأعلام ٨٦/٦ ، ومعجم المؤلفين ١٨٣/٩ .

(٤) سورة البقرة ، الآية " ٦١ " .

(٥) سورة فصلت ، الآية " ٤٠ " .

(٦) شرح الكافية في النحو ٢ / ٢٦٧ .

ففي هذه الأمثلة نجد الاستراباذي يشير إلى بعض المعاني البلاغية التي يخرج إليها الأمر كالدعاء والإباحة والتهديد ، ولاشك أنه أفاد من سابقه وخاصة علماء النحو والأصول ، فقد أشار إلى أن الأصوليين يشترطون الاستعلاء في الأمر وهذه مسألة اختلف حولها الأصوليون .

١١ - جمال الدين بن هشام : (١)

ذكر ابن هشام في كتابه مغني اللبيب بعض معاني الأمر البلاغية كالدعاء نحو قوله تعالى : { لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ } (٢) والالتماس كقولك لمن يساويك " ليفعل فلان كذا " إذا لم ترد الاستعلاء عليه ، والخبر نحو [مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا] (٣) { اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ } (٤) والتهديد نحو [وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ] (٥) { اَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ } (٦) وقوله : { لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا } (٧) فيحتمل اللامان منه التعليل فيكون ما بعدهما منصوباً ، والتهديد فيكون مجزوماً ويتعين الثاني في اللام الثانية في قراءة من سكنها فيترجح بذلك أن تكون اللام الأولى كذلك ويؤيده أن بعدها { فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } (٨) .

(١) أبو محمد جمال الدين عبدالله بن يوسف بن عبدالله المعروف بابن هشام الأنصاري ولد سنة ٧٠٨ هـ وتوفي سنة ٧٦١ هـ أحد أئمة العربية ولد ومات في مصر من مصنفاته مغني اللبيب وقطر الندى وأوضح المسالك .

انظر ترجمته الأعلام ١٤٧/٤ ، ومعجم المؤلفين ١٦٣/٦ - ١٦٤ .

(٢) سورة الزخرف ، الآية " ٧٧ " .

(٣) سورة مريم ، الآية " ٧٥ " .

(٤) سورة العنكبوت ، الآية " ١٢ " .

(٥) سورة الكهف ، الآية " ٢٩ " .

(٦) سورة فصلت ، الآية " ٤٠ " .

(٧) سورة العنكبوت ، الآية " ٦٦ " .

(٨) مغني اللبيب تحقيق الدكتور مازن المبارك و آخرين ، ص ٢٩٥ .

المبحث الثاني

منهج المفسرين :

أسهم المفسرون بنصيب وافر في نشأة البلاغة وإقامة دعائمها وإرساء قواعدها في معرض تفسيرهم لآيات كتاب الله تعالى وإبراز ماتحويه من صور بيانية وألوان بديعية وجمال فني وروعة أخاذة حتى نرى علماء البلاغة فيما بعد يستشهدون في قواعدهم البلاغية بأمثلة من القرآن الكريم سبقهم إليها المفسرون في الاستشهاد بها.

ولا بد لمن يتصدى للتفسير من شروط يجب توافرها فيه أهمها سعة الأطلاع ، وأن يكون على قدم راسخة في علوم اللغة العربية بصفة عامة وعلوم البلاغة بصفة خاصة ، وقد أفرد الزركشي (١) فصلاً بعنوان " فيما يجب على المفسر البداءة فيه " وذكر منها علوم البلاغة (٢) .

وفي هذا الصدد يقول الزمخشري ((ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعاني وعلم البيان ، وتمهل في إرتيادهما أونه وتعب في التنقيب عنهما أزمنة وبعثته على تتبع مظانها همة في معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله " (٣) " والوقوف على إعجاز القرآن وإدراك نظمها واجتلاء أسرارها لا يقوم إلا على تفهم البلاغة ومعرفة الفصاحة)) (٤) وقد صرح بذلك أبو هلال العسكري (٥) بقوله ((وقد

(١) محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي الشافعي بدر الدين توفي سنة ٧٩٤ هـ فقيه أصولي محدث تركي الأصل مصري المولد والوفاة له تصانيف كثيرة منها شرح جمع الجوامع للسبكي والمعتبر في تخريج أحاديث المنهاج .

انظر ترجمته الأعلام ٦٠/٦ - ٦١ ، ومعجم المؤلفين ٢٠٥/١٠ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ١٧٣/٢ وراجع أثر النحاة في البحث البلاغي ص ٤٢

(٣) الكشف ١٥/١ وما بعدها .

(٤) أثر النحاة في البحث الباغي ص ٤٣ .

(٥) أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري المتوفي سنة ٣٩٥ هـ أديب لغوي ومفسر من أشهر مصنفاة كتاب الصناعتين ، والأوائل ، والفروق اللغوية .

انظر ترجمته الأعلام ١٩٦/٢ ، ومعجم المؤلفين ٢٤٠/٣ .

علمنا أن الانسان إذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب وما شحنه الله به من الإيجاز البديع والاختصار اللطيف وضمنه من الحلاوة وجله من رونق الطلاوة مع سهولة كلمه وجزالتها وعذوبتها وسلاستها إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها وتحيرت عقولهم فيها (((١)

وقد أشار المفسرون إلى بعض المعاني البلاغية التي يفيدها الأمر ، وهذا ماسنوضحه في السطور القادمة :-

١ - ابن قتيبة : (٢)

ألف ابن قتيبة كتابه تأويل مشكل القرآن رد فيه على الطاعنين في القرآن الكريم ، مبيناً بعض الوجوه البلاغية في الذكر الحكيم . وفي هذا الكتاب تحدث ابن قتيبة عن بعض الفنون البلاغية وعقد لها أبواباً كالجاز والاستعارة والحذف والاختصار والكناية والتعريض وتكرار الكلام ومخالفة ظاهر اللفظ معناه .

وفي باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه أشار إلى بعض المعاني البلاغية التي يخرج إليها الأمر من ذلك قوله " ومنه أن يأتي الكلام على لفظ الأمر وهو تهديد كقوله { اَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ } (٣) وأن يأتي على لفظ الأمر وهو تأديب كقوله : { وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ } (٤) وعلى لفظ الأمر وهو إباحة كقوله : { فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا } (٥)

(١) الصناعتين تحقيق البجاوي وأبي الفضل ابراهيم ص ٧ .

(٢) ابو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ولد سنة ٢١٢ هـ وتوفي سنة ٢٧٦ هـ أحد أئمة العلم والأدب ، ولي قضاء دينور فترة من الزمن فنسب إليها من مؤلفاته " تأويل مختلف الحديث ، أدب الكاتب ، الشعر والشعراء ، وعيون الأخبار والمعارف . انظر ترجمته طبقات اللغويين والنحويين للزبيدي ص ١٨٣ والمنتظم لابن الجوزي ١٠٢/٥ ووفيات الأعيان ٤٢/٣ - ٤٤ ، والأعلام ٤ / ١٣٧ ، ومعجم المؤلفين ١٥٠/٦ - ١٥١ .

(٣) سورة فصلت ، الآية " ٤٠ " .

(٤) سورة الطلاق ، الآية " ٢ " .

(٥) سورة النور ، الآية " ٣٣ " .

فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض " (١) .

٢ - الطبري : (٢)

يعد ابن جرير الطبري من أشهر المفسرين الذين تصدوا لتفسير القرآن الكريم ، وقد خلف لنا كتابه المشهور " جامع البيان في تفسير القرآن " وفيه تحدث عن بعض الألوان البلاغية وهو يتناول القرآن الكريم بالشرح والتحليل والتفسير " وهو في عرضه لصور البيان وألوان البلاغة في القرآن الكريم يلتزم عرض الأديب الذائق فلا يجردها من الجمال ولا يعريها من الرواء ويمتعنا بإسلوبه وأرائه " (٣) من تلك المعاني التي أشار إليها في تفسيره - والتي هي موضع عناية هذه الدراسة - إشارته إلى خروج الأمر عن دلالة الأصلية إلى معان بلاغية كالتكذيب والتحدي كما في قوله تعالى [قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ] (٤) يقول : ((قل هاتوا برهانكم أي حجتكم وهذا الكلام وإن كان ظاهره دعاء القائلين : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى إلى إحضار حجة على دعواهم ما ادعوا من ذلك فإنه بمعنى تكذيب من الله لهم في دعواهم وقيلهم لأنهم لم يكونوا قادرين على إحضار برهان على دعواهم تلك أبدأ وقد أبان قوله : [بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ] (٥) على أن الذي ذكرنا من الكلام بمعنى التكذيب لليهود والنصارى في دعواهم ما ذكر الله عنهم)) (٦)

(١) سورة الجمعة ، الآية " ١٠ " وانظر تأويل مشكل القرآن تحقيق سيد صقر ص ٢٨٠ .
(٢) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري ولد سنة ٢٢٤ وتوفي سنة ٣١٠ هـ كان إماماً في فنون كثيرة منها التفسير والحديث والفقه والتاريخ ولد في طبرستان واستوطن بغداد وتوفي فيها من مؤلفاته أخبار الرسل والملوك ، وجامع البيان في تفسير القرآن .

انظر ترجمته وفيات الأعيان ١٩١/٤ - ١٩٢ ، والأعلام ٦٩ / ٦ ، ومعجم المؤلفين ١٤٧/٩

(٣) أثر النحاة في البحث البلاغي ص ٤٤ .

(٤) سورة البقرة ، الآية " ١١١ " .

(٥) سورة البقرة ، الآية " ١١٢ " .

(٦) تفسير الطبري ١ / ٣٩٣ .

وفي قوله تعالى : [**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ**
وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] (١) أشار إلى أن الأمر
في هذه الآية الكريمة للتعجيز يقول ((إن كنتم صادقين في أن محمداً افتراه فأتوا
بسورة مثله من جميع من يعينكم على الإتيان بها فإن لم تفعلوا فلاشك أنكم كذبة
في زعمكم أن محمداً افتراه لأن محمداً لن يعدو أن يكون بشراً مثلكم فإذا عجز
الجميع من الخلق أن يأتوا بسورة مثله فالواحد منهم عن أن يأتي بجميعه أعجز))
(٢) والتعجيز كما في قوله تعالى { **وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا**
فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ } (٣) يقول : ((قال الله جل ثناؤه وإن كنتم أيها
المشركون من العرب والكفار من أهل الكتابين في شك وهو الريب مما نزلنا على
عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم من النور والبرهان وآيات الفرقان أنه من عندي
وأني الذي أنزلته إليه فلم تؤمنوا به ولم تصدقوه فيما يقول فأتوا بحجة تدفع
حجته لأنكم تعلمون أن حجة كل ذي نبوة على صدقه في دعواه النبوة أن يأتي
ببرهان يعجز عن أن يأتي بمثله جميع الخلق ومن حجة محمد صلى الله عليه وسلم
على صدقه وبرهانه على نبوته وأن ما جاء به من عندي عجز جميعكم وجميع من
تستعينون به من أعوانكم وأنصاركم عن أن يأتوا بسورة من مثله وإذا عجزتم عن
ذلك وأنتم أهل البراعة في الفصاحة والبلاغة والدراية فقد علمتم أن غيركم عما
عجزتم عنه من ذلك أعجز)) (٤) ونلاحظ التحليل المبسوط بعبارة سهلة بارعة .
وأشار إلى أن الأمر يفيد التهديد في قوله تعالى : { **كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا**
إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ } (٥) يقول تعالى ذكره تهدداً ووعيداً للمكذبين بالبعث كلوا في
بقية أجالكم وتمتعوا ببقية أعماركم إنكم مجرمون } (٦)

(١) سورة يونس ، الآية " ٢٨ " .

(٢) تفسير الطبري ١١ / ٨٢ وما بعدها .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٣ " .

(٤) تفسير الطبري ١ / ١٢٨ .

(٥) سورة المرسلات ، الآية " ٤٦ " .

(٦) تفسير الطبري ٢٩ / ١٤٩ .

وأفاد الأمر الإباحة في قوله تعالى : { كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ } (١)
يقول الطبري : ((عنى بقوله { كلوا من طيبات ما رزقناكم } من حلاله الذي
أبحناه لكم فجعلناه لكم رزقاً)) (٢) وأشار إلى خروج الأمر إلى معنى السخرية
والاستهزاء في قوله تعالى : { وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَآ قَبْلَ يَوْمِ
الْحِسَابِ } (٣) يقول الطبري ((وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال إن
القوم سألوا ربهم تعجيل صكاكهم بحظوظهم من الخير أو الشر الذي وعد الله عباده
أن يؤتيهموها في الآخرة قبل يوم القيامة في الدنيا استهزاء بوعيد الله)) (٤)

هذه بعض الصور البلاغية في تفسير الطبري وهي غيض من فيض كما
يقولون ، ولاشك أن كثيراً من المفسرين الذين عنوا بالجوانب والملامح البلاغية قد
أفادوا من الطبري إفادة طيبة وإن لم ينل حظه من الدرس البلاغي (٥)

وقراءة يسيرة في تفسير الطبري والكشاف - أو غيره من المفسرين - توضح
لنا تأثر الزمخشري - ومن جاء بعده - بالطبري في كثير من تحليلاته البلاغية ،
وهناك أمثلة كثيرة نكتفي بإزجاء بعضها وهي تدل دلالة قاطعة على تأثر الزمخشري
بالطبري من ذلك ما ذكره في تفسير قوله تعالى : { اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ
إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } (٦) " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد

(١) سورة البقرة ، الآية " ٥٧ " .

(٢) تفسير الطبري ١ / ٢٣٧ .

(٣) سورة ص ، الآية " ١٦ " .

(٤) تفسير الطبري ٢٣ / ٨٦ .

(٥) ظهرت دراسات عديدة تناولت بلاغات المفسرين وبخاصة الزمخشري بيّنت
مكانته وأثره في المفسرين والبلاغيين على حد سواء لكن الطبري لم يحظ إلى
الآن فيما أعلم بعناية الدارسين لبلاغة القرآن ، ومن هذه الدراسات البلاغة
القرآنية في تفسير الزمخشري والبلاغة في تفسير أبي السعود وغير ذلك كثير .

(٦) سورة التوبة ، الآية " ٣٨ " .

صلى الله عليه وسلم أدع لهؤلاء المنافقين الذين وصف صفاتهم في هذه الآيات بالمغفرة أو لاتدع لهم بها وهذا كلام خرج مخرج الأمر تأويله الخبر ومعناه إن استغفرت لهم يامحمد أو لم تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم (((١) .

وينقل الزمخشري في تفسير هذه الآية ما ذكره الطبري إذ يقول : ((وقد ذكرنا أن هذا الأمر في معنى الخبر كأنه قيل لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم)) (٢) وفي تفسير قوله تعالى : [قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ ۖ] (٣) يقول الطبري : ((وخرج قوله انفقوا طوعاً أو كرهاً مخرج الأمر ومعناه الخبر والعرب تفعل ذلك في الأماكن التي يحسن فيها " إن " التي بمعنى الجزاء كما قال جل ثناؤه : [اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ] فهو في لفظ الأمر ومعناه الخبر ومنه قول الشاعر :

أسييء بنا أو أحسني لا ملومة . . . لدينا ولا مقلية إن تقلت

فكذلك قوله : [أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً] إنما معناه : إن تنفقوا طوعاً أو كرهاً

لن يتقبل منكم (((٤) .

ونجد الزمخشري يردد ما ذكره الطبري إذ يقول : ((فإن قلت كيف أمرهم بالإنفاق ثم قال : [لن يتقبل منكم] قلت هو أمر في معنى الخبر كقوله تعالى : [قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا] (٥) ومعناه لن يتقبل منكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً - ونحو قوله تعالى : [اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ] - وقوله - أسييء بنا أو أحسني لا ملومة - أي لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم)) (٦)

ويقول الطبري مفسراً قوله تعالى : [بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً

-
- (١) تفسير الطبري ١٠ / ١٣٦ .
 - (٢) الكشاف ٢ / ٢٠٤ وما بعدها .
 - (٣) سورة التوبة ، الآية " ٥٣ " .
 - (٤) تفسير الطبري ١٠ / ١٠٧ .
 - (٥) سورة مريم ، الآية " ٧٥ " .
 - (٦) الكشاف ٢ / ١٩٥ .

الْبِيَمَاءِ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَتُونَ عِنْدَهُمُ
الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً } (١) يقول الطبري ((بشر المنافقين أي أخبر
المنافقين ...)) (٢)

وقد استفاد الزمخشري من هذا التفسير ، إذ نجده يقول ((وضع بشر مكان
أخبر تهكما بهم)) (٢) وهناك أمثلة كثيرة (٤) نجد الزمخشري ينسج فيها على
منوال الطبري ويسير على خطوه وإيقاعاته لكنني اكتفي بهذا القدر مشيراً إلى
أن ((عادة الأقدمين في التأليف كانت النقل عن يعجبون به دون إسناده لصاحبه
إما لشهرة القول عنه أو لأن العلم ملك الجميع يؤخذ منه ما يؤخذ ويترك ما يترك
مادامت شخصية الناقل تسيطر على ماتنقل بعلمها ومعرفتها ولاكتفي بتقليد أو
نقل فحسب)) (٥) وهذا حال الزمخشري فيما أفاده من تفسير الطبري .

٢ - الزمخشري : (٦)

تناول كثير من الباحثين المعاصرين بلاغة الزمخشري (٧) ، وما أضافه إلى
البلاغة العربية ، وأثره في البلاغيين والمفسرين الذين جاءوا بعده .
فالزمخشري علم من أعلام التفسير والبلاغة وهو من أكثر المفسرين عناية

-
- (١) سورة النساء ، الآية " ١٣٨ " .
 - (٢) تفسير الطبري ٥ / ٢١١ .
 - (٣) الكشاف ٢ / ٥٧٢ .
 - (٤) انظر تفسير الطبري ٦ / ٤١ ، ٨ / ٢٩ وما بعدها ، ٢٥ / ٨٠ ، ٢٧ / ١٤ والكشاف
١ / ٥٩٢ ، ٢ / ٥٢ ، ٣ / ٥٠٧ ، ٤ / ٢٣ .
 - (٥) منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان اعجازه ص ٨٧ .
 - (٦) جار الله أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري
ولد سنة ٤٦٧ وتوفي سنة ٥٣٨ هـ من مصنفاته الكشاف وأساس البلاغة
والمستقصى في الأمثال انظر ترجمته وفيات الأعيان ٥ / ١٦٨ - ١٧٣ ، والأعلام ٧
/ ١٧٨ ، ومعجم المؤلفين ١٢ / ١٨٦ ، وتاريخ الادب العربي كارل بروكلمان ٥ /
٢١٧ - ٢١٥ .
 - (٧) انظر مثلاً منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان اعجازه للدكتور مصطفى
الصاوي الجويني والبلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقي ضيف والبلاغة
القرآنية في تفسير الزمخشري للدكتور محمد أبو موسى .

بالبلاغة وقد نثر في الكشاف مسائلها واستعان بها في تفسير القرآن الكريم ، فعلمنا المعاني والبيان من الوسائل المهمة في التفسير حيث يقول :

((ولا يفوص علي شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما : علم المعاني وعلم البيان)) (١) .

((وإذا كان الزمخشري قد طبق في كشافه كثيراً مما قرره الشيخ عبدالقاهر - وتوصل إليه بثاقب نظره وطول تأمله في التراكيب - في الدلائل والأسرار - فقد أضاف أصولاً بلاغية هامة لم يعرض لها عبدالقاهر ونمى كثيراً من الأصول السابقة وحرر كثيراً من المسائل)) (٢)

ومن الفنون البلاغية التي ضمها الكشاف القصر والوصل والفصل والتقديم والتأخير والالتفات والتشبيه والتمثيل والاستعارة والجناس والطباق وغير ذلك من الفنون البلاغية ولعل من أهم الفنون البلاغية التي تناولها الزمخشري في كتابه والتي نسعى لإبرازها في هذه الدراسة خروج الأمر عن دلالة الأصلية إلى معان بلاغية تستفاد من السياق بمعونة القرائن ودلالة المقام .

ويشرح لنا الزمخشري معنى الأمر عند تفسير قوله تعالى : { وَيَقَطُّونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ } (٣) فيقول : ((فإن قلت ما الأمر ؟ قلت هو طلب الفعل ممن هو دونك وبعثه عليه وبه سمي الأمر الذي هو واحد الأمور لأن الداعي الذي يدعو إليه من يتولاه شبه بأمر يأمره به ف قيل له أمر تسمية للمفعول به بالمصدر كأنه مأمور به ، كما قيل له شأن ، والشأن : الطلب والقصد يقال شأنك شأنه أي قصدت قصده)) (٤)

وهاتان الدالتان اللتان ذكرهما الزمخشري للأمر نجدها تتردد في المعاجم اللغوية .

وقد لاحظ الزمخشري - أن الأمر قد يفيد معاني أخرى تفهم من السياق وقرائن الأحوال ، منها التهكم كما في قوله تعالى : { ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } (٥)

- (١) الكشاف ١ / ١٦ وراجع مناهج بلاغية ص ٥٨ .
- (٢) البلاغية القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٥ .
- (٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٧ " .
- (٤) الكشاف ١ / ٢٦٩ وراجع البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٣٠٤ .
- (٥) سورة الدخان ، الآية " ٤٩ " .

يقول ((ذق إنك أنت العزيز الكريم على سبيل الهزؤ والتهمك بمن كان يتعزز ويتكرم على قومه * (١)

ومنها الاستهزاء كما في قوله تعالى : [قُلْ قَادِرُوا عَلَآ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتِ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] (٢) يقول * استهزاء بهم أي إن كنتم رجالاً دفاعيين لأسباب الموت فادرأوا جميع أسبابه حتى لا تموتوا)) (٣) .

ومنها الإباحة نحو قوله تعالى : [وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا] (٤) يقول : ((إباحة للاصطياد بعد حظره عليهم كأنه قيل : وإذا حللتهم فلا جناح عليكم أن تصطادوا)) (٥)

ومنها التخلية والوعيد كما في قوله عز وجل [لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ] (٦) يقول : [فتمتعوا فسوف تعلمون] تخلية ووعيد ... (٧)

ومنها أن يأتي الأمر مراداً به الخبر كما في قوله تعالى : [قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا] (٨) يقول ((أي مد له الرحمن : يعني أمهله وأملى له في العمر فأخرج على لفظ الأمر إيذاناً بوجوب ذلك ، وأنه مفعول لا محالة كالمأمور به الممثل لتقطع معاذير الضال)) (٩)

ولايستطيع باحث أن يغفل جهد الزمخشري في البحث البلاغي بصفة عامة ، وأثره القوي فيمن جاء بعده من المفسرين والبلاغيين وبخاصة ما أضافه إلى الأمر من معان بلاغية جديدة لم يسبق إليها .

-
- (١) الكشاف ٣ / ٥٠٧ .
 - (٢) سورة آل عمران ، الآية ٦٨٠ .
 - (٣) الكشاف ١ / ٤٧٩ .
 - (٤) سورة المائدة ، الآية ٢٠ .
 - (٥) الكشاف ١ / ٥٩٢ .
 - (٦) سورة النحل ، الآية ٥٥ .
 - (٧) الكشاف ٢ / ٤١٤ .
 - (٨) سورة مريم ، الآية ٧٥ .
 - (٩) الكشاف ٢ / ٢١ .

ولهذا نستطيع أن نقول باطمئنان ونردد ما ذكره بعض المعاصرين من أن البلاغيين ((لم يستنفدوا كل ما ضمنه الزمخشري في تفسيره من دقائق المعاني الإضافية للصيغ المختلفة)) (١)

٤ - فخر الرازي (٢)

حوى التفسير الكبير للرازي ألواناً بلاغية كثيرة ليس هنا مجال ذكرها ويكفي أن نشير إلى بعض المعاني البلاغية التي ذكرها للأمر منها التهديد والوعيد كما في قوله تعالى : [قُلْ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ] (٣) وهذا وعيد وتهديد (٤) وللتهديد قوله تعالى : [قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ] (٥) يقول ((لما ذكر الله تعالى عنهم هذا الفعل المتناقض هدهم فقال [قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا] وليس المراد منه الأمر بل الزجر)) (٦)

والإباحة كما في قوله تعالى : [هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ] (٧) يقول (فامشوا في مناكبها) أمر إباحة وكذا القول في قوله [كلوا من رزقه] (٨) والدوام والاستمرار كما في قوله تعالى : [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ]

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ٢٥٦ .

(٢) أبو عبدالله محمد بن الحسين بن الحسن التيمي البكري الملقب بفخر الدين ولد سنة ٥٤٤ هـ وتوفي سنة ٦٠٦ هـ الفقيه الشافعي فاق عصره في المعقول والمنقول وهو قرشي الأصل من آثاره مفاتيح الغيب في تفسير القرآن . انظر ترجمته : وفيات الأعيان ٢٤٨/٤ - ٢٥٢ ، والأعلام ٢١٣ / ٦ ، ومعجم المؤلفين ٧٩/١١ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية " ١٥٨ " .

(٤) التفسير الكبير ١٤ / ٨ .

(٥) سورة الزمر ، الآية " ٨ " .

(٦) التفسير الكبير ٢٦ / ٢٤٩ .

(٧) سورة الملك ، الآية " ١٥ " .

(٨) التفسير الكبير ٣٠ / ٦٩ .

وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا { (١) يقول : إنه أمر بالمداومة * (٢) .

ومنها أن يأتي الأمر بمعنى الخبر كما في قوله تعالى : { قَلِيلٌ حَسْبُكُمْ قَلِيلًا } وَلِيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ { (٣) يقول : ((هذا وإن ورد بصيغة الأمر إلا أن معناه الإخبار بأنه ستحصل هذه الحالة والدليل عليه قوله بعد ذلك : جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)) (٤) .

هـ - أَبُو حَيَّانِ الْأَنْدَلُسِيِّ : (٥)

تناول أبو حيان في تفسيره البحر المحيط مايتناوله المفسرون من تأويل لآي الذكر الحكيم واتكأ على الزمخشري والرازي وغيرهما ، وإن كان له فضل عناية بالنحو والصرف والقراءات ومسائل اللفظة ، وكثيراً ماكان يعترض على الزمخشري في مسائل النحو والإعراب والتصريف فكلاهما - كما نعلم - إمام في العربية .

وعلى الرغم من عنايته بالنحو والصرف فإن عنايته بالبلاغة أمر واضح فقد نثر في تفسيره كثيراً من الفنون البلاغية كالتشبيه والاستعارة والتمثيل والطباق والكناية وغير ذلك .

وقد نص في بعض أوامر القرآن الكريم الى أن الأمر فيها يخرج عن معناه الأصلي إلى معان بلاغية كالتهديد كما في قوله تعالى : { ذُرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمُ قَلِيلًا } (٦) يقول : ((ومهلهم قليلاً وعيد لهم بسرعة الانتقام والقليل موافاة أجالهم)) (٧)

(١) سورة الأحزاب ، الآية (١) .

(٢) التفسير الكبير ١٩٠ / ٢٥ .

(٣) سورة التوبة ، الآية (٨٢) .

(٤) التفسير الكبير ١٥٣ / ١٦ .

(٥) أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي الأندلسي ولد سنة ٦٤٥ هـ وتوفي سنة ٧٤٥ هـ من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات ، ولد في غرناطة وتوفي بالقاهرة ، من مصنفاة: البحر المحيط وتحفة الأريب بما في القرآن من الغريب .

انظر ترجمته : الأعلام ١٥٢ / ٧ ؛ ومعجم المؤلفين ١٢ / ١٢ - ١٣١ .

(٦) سورة المزمل ، الآية (١١) .

(٧) البحر المحيط ٣٦٤ / ٨ .

وعدهم به ، وعصيائهم لأمر الله ومخالفتهم لدعوته واستخفافهم بها دليل على ذلك)) (١)

وللتعجيز أيضا قوله تعالى : { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (٢) يقول إنه ((من باب التعجيز وإلقام الحجر)) (٣)

والإباحة كما في قوله تعالى : { وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ } (٤) . يقول : ((وهذا كما ترى إطلاق كلي حيث أبيع لهما الأكل منها على وجه التوسعة البالغة المزيحسة للعلل)) (٥) .

والتهديد نحو قوله تعالى : { قُلْ يَا قَوْمِ اِعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } (٦) .

يقول أبو السعود : ((أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين بأن يواجههم بتشديد التهديد وتكرير الوعيد)) (٧) ويضيف قائلاً : ((وإيراد التهديد بصيغة الأمر مبالغة في الوعيد كأن المهدي يريد تعذيبه مجمعا عليه فيحمله بالأمر على ما يؤديه إليه وتسجيل بأن المهدي لا يتأتى منه إلا الشر كالذي أمر به بحيث لا يجد إلى التفصي عنه سبيلاً)) (٨)

(١) انظر البلاغة في تفسير أبي السعود ص ٢٠١ - بحث مخطوط بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر -

(٢) سورة البقرة ، الآية " ٢٣ " .

(٣) إرشاد العقل السليم ١ / ١١١ .

(٤) سورة البقرة ، الآية " ٣٥ " .

(٥) إرشاد العقل السليم ١ / ١٥٨ .

(٦) سورة الأنعام ، الآية " ١٣٥ " .

(٧) إرشاد العقل السليم ٢ / ٢٨٨ .

(٨) المصدر السابق الموضع نفسه ؛ وانظر البلاغة في تفسير أبي السعود ص

٧- الشهاب الخفاجي : (١)

ألف الشهاب الخفاجي حاشية الشهيرة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير الإمام البيضاوي (٢) وقد نثر فيها الفنون البلاغية والخصائص البيانية التي يمتاز بها الأسلوب القرآني في معرض تفسيره لآيات القرآن المجيد ، من ذلك خروج الأمر إلي بعض المعاني البلاغية كالتعجيز نحو قوله تعالى : [مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَنفَآ تَذْكُرُونَ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ فَآتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ] (٣) يقول : ((قوله مالكم إلخ ...)) إلتفات لزيادة التوبيخ والأمر في قوله : { فآتوا } للتعجيز والإضافة للتهكم ((٤)

والتهديد نحو قوله تعالى : [فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ] (٥) يقول : { فذوقوا } أمر تهديدي توبيخي (٦) .

والإباحة كما في قوله تعالى : [يَا أَيُّهَا الرَّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ] (٧) يقول : ((قوله إباحة الطيبات إشارة إلى أن الأمر للإباحة والترفيه)) (٨)

(١) أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي المعروف بشهاب الدين ، ولد بمصر سنة ٩٧٧ وتوفي بها سنة ١٠٦٩ هـ ، قاضي القضاة صاحب التصانيف في اللغة والأدب من مصنفاته : شرح درة الغواص في أوهام الخواص للحريري وريحانة الالباب وزهرة الحياة الدنيا وشفاء الغليل بما في كلام العرب مسن الدخيل .

انظر ترجمته : الأعلام ١ / ٢٢٨ ؛ ومعجم المؤلفين ٢ / ١٢٨ .

(٢) أو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي ناصر الدين البيضاوي المتوفى سنة ٦٨٥ هـ ، قاض وعالم بالتفسير والفقه والعربية والحديث ، توفي في تبريز ، من مصنفاته : منهاج الوصول إلى علم الأصول ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل في التفسير .

انظر ترجمته : الأعلام ٤ / ١١٠ ؛ ومعجم المؤلفين ٦ / ٩٧ - ٩٨ .

(٣) سورة الصافات : الآيات ١٥٤ - ١٥٧ .

(٤) حاشية الشهاب ٧ / ٢٨٩ .

(٥) سورة السجده : الآية ١٤ .

(٦) حاشية الشهاب ٧ / ١٥٢ .

(٧) سورة المؤمنون : الآية ٥١ .

(٨) حاشية الشهاب ٦ / ٢٣٥ .

والتحقيق نحو قوله تعالى : { قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَن تُلْقِي وَإِنَّمَا أَن نَكُون نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرَهُبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَزِيمٍ } (١)

يقول الشهاب : ((فجاز لهم التقديم لا لإباحة فعلهم بل لتحقيرهم وقلة مبالاته بهم وللوثوق بالتأييد الإلهي وأنه لن يغلب سحر معجزة قط ، وهذا لا دلالة له على الرضا بتلك المعارضة ، وأيضاً اذن لهم ليبطل سحرهم)) (٢) .

ومنها الأمر بمعنى الخبر كقوله تعالى : { فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً } (٣) يقول : ((فجاء بلفظ الأمر ومعناه الخبر)) (٤) .

ففي هذه الأمثلة السابقة أشار الشهاب إلى بعض المعاني البلاغية التي يفيدها الأمر بمعونة القرائن ودلالة السياق والمقام .

٨ - الألويسي : (٥)

تناول الألويسي في تفسيره روح المعاني الفنون البيانية والنكات البلاغية التي يتسم بها النظم الفني في القرآن الكريم .

ويهمنا هنا أنه تعرض لذكر بعض المعاني البلاغية التي يفيدها الأمر كالتعجيز نحو قوله تعالى : { وَإِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ } (٦)

يقول : ((والأمر من باب التعجيز وإلقام الحجر وفيه من التبكيث والتخجيل لهم في الارتياح ما لا يخفى)) (٧) .

(١) سورة الأعراف ، الآيتان " ١١٥ - ١١٦ " .

(٢) حاشية الشهاب ٤ / ٢٠٤ .

(٣) سورة التوبة ، الآية " ٨٢ " .

(٤) حاشية الشهاب ٤ / ٣٣٥ .

(٥) أبو الثناء شهاب الدين محمود شكرى الألويسي الحسني مفسر محدث فقيه أديب لغوي نحوي مشارك في بعض العلوم ، كان مولده ببغداد في سنة ١٢١٧ هـ في ١٤ من شهر شعبان وبها توفي في سنة ١٢٧٠ هـ في ٢٥ من شهر ذي القعدة ، من تصانيفه : روح المعاني ، وكشف الطرة عن الغرة في شرح درة الفواص .

أنظر ترجمته : الأعلام ١٧٦/٧ - ١٧٧ : ومعجم المؤلفين ١٧٥/١٢ .

(٦) سورة البقرة ، الآية " ٢٣ " .

(٧) معجم المعاني : ١ / ١٩٣ .

والإباحة كما في قوله : { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ
وَأَعْمَلُوا صَالِحاً إِنَّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } (١) يقول : ((والأمر للإباحة
والترفيه)) (٢)

وللإباحة أيضاً قوله تعالى : { وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ
وَكُلَا مِنْهَا رَغْداً حَيْثُ شِئْتُمَا } (٣) يقول : ((أباح لهما الأكل إزاحة للعدر في
التناول مما حظر)) (٤)

والتسوية أو التخيير كما في قوله تعالى : { اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا
تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ } (٥) يقول : ((الظاهر أن المراد به وبمثله التخيير)) ، ... واختار
غير واحد أن المراد التسوية بين الأمرين كما في قوله تعالى : { أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ
كَرْهاً } (٦) .

وجدير بالذكر إلى أن الألويسي لم يقدم جديداً في ميدان البحث البلاغي ،
فقد كان يستمد توجيهاته البلاغية من المفسرين السابقين وخاصة البيضاوي وأبا
السعود ولانبالغ إن قلنا إنه أحياناً ينقل عباراتهم وألفاظهم .
٩ - محمد الطاهر بن عاشور : (٧)

طبق الطاهر بن عاشور في كتابه التحرير والتنوير القواعد البلاغية
تطبيقاً رائعاً ، وكتابه ملء بالفنون البلاغية والنكات واللطائف البيانية ،
فالطاهر استطاع أن يهضم علوم البلاغة - مفيداً مما سبقه من كتب الأئمة - هضمأ
جيداً وأن يطبقها على آيات القرآن الكريم محاولاً في ذلك إبراز خصائص التعبير
الفني للقرآن الكريم .

(١) سورة المؤمنون ، الآية " ٥١ " .

(٢) روح المعاني ١٨ / ٣٩ وما بعدها .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٥ " .

(٤) روح المعاني ١ / ٢٣٤ .

(٥) سورة التوبة ، الآية " ٨٠ " .

(٦) سورة التوبة ، الآية " ٥٣ " وانظر روح المعاني ١٠ / ١٤٧ .

(٧) محمد الطاهر بن عاشور ولد سنة ١٢٩٦ هـ وتوفي سنة ١٣٩٣ هـ عالم أديب
تولي القضاء والفتيا ونقابة الأشراف بتونس وكان من أعضاء الجمعيتين
العربيتين في دمشق والقاهرة له مصنفات عديدة منها مقاصد الشريعة
الاسلامية والتحرير والتنوير في تفسير القرآن الكريم وأصول الإنشاء
والخطابة وموجز البلاغة .

انظر ترجمته : الأعلام ٦ / ١٧٤ ، ومعجم المؤلفين ١٠ / ١٠٠ .

وفي مواطن عديدة أشار الطاهر إلى خروج الأمر عن دلالة الأصلية إلى معان بلاغية كالتعجيز نحو قوله تعالى : { قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أُحَقِّمُ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } (١) يقول ((والأمر في قوله { أروني } مستعمل في التعجيز وهو تعجيز للمشركين عن إبداء حجة لإشراكهم ، وهو انتقال من الاحتجاج على بطلان إلهية الأصنام بدليل النظير في قوله { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ } (٢) إلى إبطال ذلك بدليل البداهة)) (٣) .

والإباحة كما في قوله تعالى : { وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا } (٤) يقول :

((فالأمر فيه للإباحة)) (٥) .

والتكوين والتسخير نحو قوله تعالى : { يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ } (٦) يقول : ((والأمر في قوله { أوبي } أمر تكوين وتسخير)) (٧) .

فالأمر في هذه الآية للتكوين ، ويبدو أن الذي دفع الطاهر بن عاشور إلى هذا القول إختلاط دلالاتي التكوين والتسخير في ذهنه ، فالأمر للتكوين لأن التسخير التبديل من حالة إلى حالة أخرى فيها مهانة وذلة كما ذكر البلاغيون . (٨)

والدوام كما في قوله تعالى : { وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } (٩) يقول ((الأمر في قوله { ادع إلى ربك } مستعمل في الأمر بالدوام على الدعوة إلى الله لا إلى إيجاد الدعوة لأن ذلك حاصل ، أي لا يصدنك إعراض المشركين عن إعادة دعوتهم إنذاراً لهم)) (١٠) .

- (١) سورة سبأ ، الآية " ٢٧ " .
- (٢) سورة سبأ ، الآية " ٢٤ " .
- (٣) التحرير والتنوير ٢٢ / ١٩٦ .
- (٤) سورة المائدة ، الآية " ٢ " .
- (٥) التحرير والتنوير ٦ / ٨٥ .
- (٦) سورة سبأ ، الآية " ١٠ " .
- (٧) التحرير والتنوير ٢٢ / ١٥٦ .
- (٨) انظر شروح التلخيص ٢ / ٣١٧ .
- (٩) سورة القصص ، الآية " ٨٧ " .
- (١٠) التحرير والتنوير ٢٠ / ١٩٦ .

والتحريض والحث كقوله تعالى : { وفي ذلك فليتنافس المتنافسون } (١) يقول : ((ولام الأمر في { فليتنافس })) مستعملة في التحريض والحث (((٢) والتسوية نحو قوله تعالى : { قُلْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ لَكُمْ عَلَيْهَا أَنْفِقُوا } (٣) يقول الأمر في { أنفقوا } للتسوية)) (٤) .
والتخيير كما في قوله تعالى : { فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ } (٥) يقول ((الأمر في { أمسكوهن } أو { فارقوهن } للإباحة أو فيه للتخيير)) (٦) ويبدو أن الإباحة والتخيير عنده متداخلان .

وبعد هذه الجولة السريعة مع المفسرين أصبح واضحاً أن للمفسرين نصيباً كبيراً - وبخاصة الزمخشري ومن سار على دربه - في نشأة علوم البلاغة ونضجها وإقامة دعائمها ، وتأثيراً واضحاً في البحث البلاغي بصفة عامة ، والكشف عن خصائص النظم الفني في القرآن الكريم بصفة خاصة .

-
- (١) سورة المطففين ، الآية ٢٦ .
 - (٢) التحرير والتنوير ٢٠ / ١٩٦ .
 - (٣) سورة التوبة ، الآية ٥٣ .
 - (٤) التحرير والتنوير ١٠ / ٢٢٦ .
 - (٥) سورة الطلاق ، الآية ٢ .
 - (٦) التحرير والتنوير ٢٨ / ٢٠٨ .

البحث الثالث

منهج الأصوليين :

ليس من شك في أن للأصوليين أثراً كبيراً في تطور البحث البلاغي ، فقد أسهموا في إثراء البحث البلاغي وبخاصة في الدلالة والخبر والإنشاء والحقيقة والمجاز وغير ذلك .

وكثير من البلاغيين أشاروا إلى الصلة الوثيقة بين علمي المعاني وأصول الفقه، يقول بهاء الدين السبكي ((أعلم أن علمي أصول الفقه والمعاني في غاية التداخل فإن الخبر والإنشاء اللذين يتكلم فيهما المعاني هما موضوع غالب الأصول ، وإن كل ما يتكلم عليه الأصولي من كون الأمر للوجوب والنهي للتحريم ومسائل الأخبار والعموم والخصوص والإطلاق والتقييد والإجمال والتفصيل والتراجع كلها ترجع إلى موضوع علم المعاني وليس في أصول الفقه ما ينفرد به كلام الشارع من غيره إلا الحكم الشرعي والقياس وأشياء يسيرة)) (١)

وعلى الرغم من إشارة السبكي السابقة التي كان من الممكن أن تفتح مجالاً رحباً من الدراسة البلاغية عند المهتمين بالتأريخ لعلوم البلاغة نجد كثيراً من المعاصرين قد غفلوا عما كتبه الأصوليون من بحوث بلاغية خصبة ، وهم بصنيعهم هذا يطمون صفحات مشرقة من البحث البلاغي ويهملون حلقة من حلقات التطور التاريخي لعلوم البلاغة . (٢)

وقد وقفت من خلال قراءتي المتأنية في كتب أصول الفقه على كنز بلاغي يضيف إلى البحث البلاغي مدداً لا ينضب .

وإذا كان البلاغيون ذوي عناية بالمعاني التي تدل عليها الصيغ في سياقها بمعونة القرائن والمقام فإنه - والحق أبلج - لم يستطيعوا أن يقدموا في دراستهم لأسلوب الأمر والنهي ما قدمه الأصوليون من المعاني البلاغية التي يفيدها الأمر والنهي ، فقد تجاوزت دلالة الأمر ثلاثين وجهاً من وجوه المعاني الثوان ، وبلغت دلالة النهي خمسة عشر وجهاً وذلك يفوق ما قدمه البلاغيون - وبخاصة مدرسة

(١) عروس الأفراح ١/ ٥٢ وراجع مناهج بلاغية ص ٦٤ .

(٢) لا تري ذكراً للأصوليين في كتب كثيرة اهتمت بالتطور التاريخي لعلوم البلاغة ، انظر علي سبيل المثال البلاغة تطور وتاريخ ، ومناهج البحث البلاغي للدكتور عبدالسلام عبدالحفيظ وتاريخ علوم البلاغة للشيخ المراغي وتاريخ نشأة علوم البلاغة وأطوارها للدكتور عبدالعزيز عرفه .

السكاكي - في هذا ، إلى غير ذلك من الدقائق ذات العلاقة الوثقى بخصائص التراكيب ودلالاتها (١) مثل التفريق بين الإباحة والامتنان ، وبين التسخير والتكوين ، وبين التهديد والإنذار ، وغير ذلك من المعاني البلاغية المتقاربة التي سنكشف عنها في هذا المبحث إن شاء الله .

١ - أبو الحسين البصري المهترلي : (٢)

ضم كتاب المعتمد في أصول الفقه لأبي الحسين البصري كثيراً من البحوث البلاغية كالحقيقة والمجاز والأمر والنهي والعموم والخصوص والمجمل والمبين ، ونجده يقول في باب ترتيب أبواب أصول الفقه ((أعلم أنه لما كانت أصول الفقه هي طرق الفقه وكيفية الاستدلال بها وما يتبع كيفية الاستدلال بها ، وكان الأمر والنهي من طرق الفقه ، وكان الفصل بين الحقيقة والمجاز تفتقر إليه معرفتنا بأن الأمر والنهي والعموم ما الذي يفيد على الحقيقة والمجاز ، وجب تقديم أقسام الكلام وذكر الحقيقة منه والمجاز وأحكامهما وما يفصل به بينهما على الأوامر والنواهي ليصح أن نتكلم في أن الأمر إذا استعمل في الوجوب كان حقيقة ، ثم الحروف لأنه قد يجري ذكر بعضها في أبواب الأمر ، فلذلك قدمت عليها ، ثم نقدم الأوامر والنواهي على باقي الخطاب لأنه ينبغي أن يعرف فائدة الخطاب في نفسه ، ثم نتكلم في شمول تلك الفائدة وخصوصها وفي إجمالها وتفصيلها ، ونقدم الأمر على النهي لتقديم الإثبات على النفي)) (٣)

وقد أشار البصري في أكثر من موضع في كتابه إلى بعض المعاني البلاغية التي يفيدها الأمر من ذلك قوله ((إن صيغة الأمر يجوز إستعمالها في التهديد والإباحة)) (٤)

(١) راجع دلالة الألفاظ عند الأصوليين للدكتور محمود توفيق محمد سعد ص ١٠٠ وما بعدها .

(٢) محمد بن علي بن الطيب البصري المتكلم على مذهب المعتزلة وهو أحد أئمتهم الأعلام المشار إليه في هذا الفن ، كان إمام وقته ، سكن بغداد وبها توفي يوم الثلاثاء خامس شهر ربيع الآخر سنة ٤٣٦ هـ من مصنفاته المعتمد في أصول الفقه وشرح الأصول الخمسة وكتاب في الإمامة .

انظر ترجمته المنتظم لابن الجوزي ٨ / ١٢٦ ، وفيات الأعيان ٤ / ٢٧١ ، ومعجم المؤلفين ١١ / ٢٠ .

(٣) المعتمد في أصول الفقه تحقيق محمد حميد الله وآخرين ١ / ١٣ .

(٤) المعتمد في أصول الفقه تحقيق محمد حميد الله وآخرين ١ / ٧٧ .

ويقول في موضع آخر ((وقد قال قاضي القضاة : إن الأمة إنما حملت قول الله سبحانه وتعالى : { فَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا } (١) وقوله سبحانه [فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ] (٢) على الإباحة ، لأنها علمت من قصد النبي صلى الله عليه وسلم ، ضرورة أن هذه الأشياء مباحة لولا ما عرض فيها من إحرام ، أو تشاغل بالصلاة وما أشبه ذلك)) (٣) .

مما سبق يتضح لنا أن أبا الحسين البصري قد فطن إلى خروج الأمر عن دلالة وضعه الأصلي إلى معان بلاغية كالتهديد والإباحة .

٢ - محفوظ بن أحمد الكلوزاني الحنبلي : (٤)

تناول الكلوزاني في كتابه التمهيد في أصول الفقه الأمر ووضع له تعريفاً ، وذكر بعض المعاني البلاغية التي تفيدها صيغة الأمر ، حيث يقول ((إن صيغة الأمر ترد والمراد بها الأمر كقوله تعالى : { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ } (٥) وترد والمراد بها التهديد كقوله { اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ } (٦) وترد والمراد بها التعجيز كقوله تعالى : { فَآتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ } (٧) وترد والمراد بها التكوين كقوله تعالى : { كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ } (٨) .

(١) سورة المائدة ، الآية " ٢ " .

(٢) سورة الجمعة ، الآية " ١٠ " .

(٣) المعتمد في أصول الفقه ٨٤/٨ .

(٤) ابو الخطاب محفوظ بن أحمد بن الحسن الكلوزاني البغدادي الأزجي الحنبلي ولد سنة ٤٢٢ هـ وتوفي سنة ٥١٠ هـ ، إمام الحنبيلة في عصره أصله من كلوازي من ضواحي بغداد ، كان مشاركاً في أنواع عديدة من العلوم من مؤلفاته التمهيد في أصول الفقه والهداية في فروع الفقه الحنبلي .

انظر ترجمته الأعلام ٤ / ٣٠٢ ، ومعجم المؤلفين ٧ / ١٢٧ .

(٥) سورة البقرة ، الآية " ٤٣ " وتكررت في مواضع عديدة .

(٦) سورة فصلت ، الآية " ٤٠ " .

(٧) سورة البقرة ، الآية " ٢٣ " .

(٨) سورة البقرة ، الآية " ٦٥ " والأمر في هذه الآية للتسخير كما ذكر علماء البلاغة

انظر الإيضاح ١ / ٢٤٢ وشروح التلخيص ٢ / ٣١٧ .

وترد والمراد بها الهوان كقوله تعالى: { أَخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ } (١)
وترد والمراد بها الإباحة كقوله تعالى (٢) { وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا } (٣)
٢ - فخر الجيبر الرازي: (٤)

لاشك أن فخر الدين الرازي قد تأثر بثقافته الموسوعية في كل ماكتبه وبخاصة في علم أصول الفقه والتفسير ، فقد جمع الله له خمسة أشياء ماجمعا لغيره في عصره: سعة العبارة في القدرة على الكلام وصحة الذهن والأطلاع الذي لا مزيد عليه والحافظة المستوعبة التي تعينه على مايريد من تقدير الأدلة والبراهين (٥)

ولعل أهم مؤلفاته الأصولية كتابه المحصول في علم الفقه ، بل هو أهم كتاب في أصول الفقه كما قيل ، لأن فيه حصيلة أهم كتب الأصول التي كتبت قبل الفخر بأفصح أساليب التعبير وأجود طرائق الترتيب والتهذيب مضافا إليها من آرائه وفوائده فكره وحسن إيراداته الكثير (٦) .

وقد تأثر بالرازي في منهجه عدد كبير من الأصوليين ، ((فما إن ظهر المحصول حتى أقبل طلاب الأصول عليه واستغنوا عن كتب المتقدمين ورأوا فيه كل مايبتغيه طلاب الأصول منه ، فأقبل عليه الأصوليون ما بين دارس وشارح ومعلق ومختصر)) (٧) .

والرازي تناول كغيره من الأصوليين الأمر والنهي في (المحصول) وذكر للأمر خمسة عشر وجهاً ، وإن كنا نرى سابقه من الأصوليين يشيرون إلى قدر يسير من المعاني التي تفيدها صيغة الأمر ، أما الرازي فقد أفاض في الحديث عن

(١) سورة المؤمنون ، الآية " ١٠٨ " .

(٢) سورة المائدة ، الآية " ٢ " .

(٣) التمهيد في أصول الفقه تحقيق الدكتور مفيد أبو عمشة ١ / ١٢٩ ومابعدها .

(٤) سبق أن تناولنا الرازي في طائفة المفسرين وسنعرض له هنا في طائفة الأصوليين .

(٥) الوافي بالوفيات للصفدي ٤ / ٢٤٨ وراجع المحصول مقدمة المحقق الجزء الأول القسم الأول ص ٣٩ .

(٦) المحصول مقدمة المحقق ص ٥٣ ومابعدها .

(٧) راجع المحصول مقدمة المحقق ص ٥٩ - ٦٤ .

هذه المعاني بشكل منقطع النظير لم نظفر على مثله عند سابقه ، والسبب في ذلك تاثره بهذه الثقافة الموسوعية .

يقول الرازي ((قال الأصوليون صيغة (افعل) مستعملة في خمسة عشر وجهاً : الأول الايجاب كقوله تعالى : [أَقِيمُوا الصَّلَاةَ] (١) الثاني الندب كقوله : [فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا] (٢) و[احسنوا] (٣) ويقرب منه التأديب كقوله عليه السلام ((كل مما يليك)) (٤) فإن الإذن مندوب إليه وإن كان قد جعله بعضهم قسماً مغيراً للمندوب. الثالث : الإرشاد كقوله تعالى : [وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ] (٥) [فَكَاتِبُوهُ] (٦) .

والفرق بين الندب والإرشاد : أن الندب الثواب الآخرة ، والإرشاد لمنافع الدنيا فإنه لا ينقص الثواب بترك الاستشهاد في المداينات ولا يزيد بفعله ((.

الرابع : الإباحة كقوله تعالى : [كُلُوا وَاشْرَبُوا] (٧) ، الخامس : التهديد كقوله تعالى : [اَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ] (٨) [وَاسْتَفِزُّوْا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكُمْ] (٩) ويقرب منه الإنذار كقوله تعالى : [قُلْ تَمَتَّعُوا] (١٠) وإن كانوا جعلوه قسماً آخر . السادس : الامتنان [فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ] (١١) السابع : الإكرام [ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ] (١٢) الثامن : التسخير كقوله : [كُونُوا قِرَدَةً] (١٣) التاسع : التعجيز [فَاتُوا بِسُورِقٍ] (١٤) .

(١) سورة البقرة ، الآية " ٤٣ " .

(٢) سورة النور ، الآية " ٣٣ " .

(٣) جزء من الآية " ١٩٥ " من سورة البقرة .

(٤) الحديث في صحيح مسلم كتاب الأشربة ١٥٩٩/٣ وفتح الباري ٥٢١/٩ .

(٥) (٦) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٢ " .

(٧) سورة البقرة ، الآية " ٦٠ " .

(٨) سورة فصلت ، الآية " ٤٠ " .

(٩) سورة الإسراء ، الآية " ٦٤ " .

(١٠) سورة إبراهيم ، الآية " ٣٠ " .

(١١) سورة النحل ، الآية " ١١٤ " .

(١٢) سورة الحجر ، الآية " ٤٦ " .

(١٣) سورة البقرة ، الآية " ٦٥ " .

(١٤) سورة البقرة ، الآية " ٢٣ " .

العاشر : الإهانة [ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ] (١) (الحادي عشر :
التسوية [فَأَصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا] (٢) . الثاني عشر : الدعاء [رَبِّ اغْفِرْ
لِي] (٣) . الثالث عشر : التمني كقول الشاعر : ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي .
الرابع عشر : الاحتقار كقوله : [أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ] (٤) . الخامس عشر :
التكوين كقوله (٥) [كُنْ فَيَكُونُ] (٦) .
٤ - الأُمْدِي : (٧)

من بين الأصوليين الذين أشاروا إلى معانى الأمر البلاغية الأمدية في كتابه
الإحكام في أصول الأحكام فقد ذكر أن الأصوليين اتفقوا على إطلاق صيغة الأمر في
خمسة عشر وجهاً : ((الوجوب كقوله تعالى : [أَقِمِ الصَّلَاةَ] (٨) والندب
[فَكَاتِبُوهُمْ] (٩) والإرشاد كقوله تعالى : [فَاسْتَشْهِدُوا] (١٠) وهو قريب من
الندب لاشتراكهما في طلب تحصيل المصلحة غير أن الندب لمصلحة أخرويه
والإرشاد لمصلحة دنيوية ، والإباحة كقوله : [فَاصْطَلُوا] (١١) والتأديب وهو
داخل في الندب كقوله : (كل مما يليك) والامتنان كقوله : [كُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ
اللَّهُ] (١٢) والإكرام كقوله [ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ] (١٣) .

-
- (١) سورة الدخان ، الآية " ٤٩ " .
 - (٢) سورة الطور ، الآية " ١٦ " .
 - (٣) سورة الأعراف ، الآية " ١٥١ " .
 - (٤) سورة الشعراء ، الآية " ٤٣ " .
 - (٥) سورة البقرة ، الآية " ١١٧ " .
 - (٦) المحصول تحقيق الدكتور طه العلواني ح ١ ق ٢ ص ٥٧ - ٦١ .
 - (٧) على بن محمد بن سالم التغلبي أبو الحسن سيف الدين الأمدى " ٥٥١ - ٦٣١ " هـ فقيه متكلم أصولي منطقي حكيم ولد بأمد من ديار بكر وأقام ببغداد والقاهرة وتوفي بدمشق بسفح جبل قاسيون من مصنفاة الإحكام في أصول الأحكام وأبكار الأفكار ولباب الألباب ومختصر السؤل في علم الأصول انظر ترجمته وفيات الأعيان ٣/٢٩٣-٢٩٤ ، والأعلام ٤/٣٣٢ ، ومعجم المؤلفين ١٥٥ / ٧ .

- (٨) سورة هود ، الآية " ١١٤ " .
- (٩) (١٠) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٢ " .
- (١١) سورة المائدة ، الآية " ٢ " .
- (١٢) سورة النحل ، الآية " ١١٤ " .
- (١٣) سورة الحجر ، الآية " ٤٦ " .

والتهديد كقوله : [اَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ] (١) والإنذار كقوله : [تَمَتَّعُوا] (٢) وهو في معنى التهديد ، والتسخير كقوله : [كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ] (٣) والتعجيز كقوله [كُونُوا حِجَارَةً] (٤) والإهانة كقوله تعالى : [ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ] (٥) والتسوية كقوله [اَصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا] (٦) والدعاء كقوله : [اغفر لي] والتمني كقول الشاعر : ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي ، وكمال القدرة كقوله (٧) : [كُنْ فَيَكُونُ] (٨) .

ه - علي بن عبد الكافي السبكي (٩) وولده تاج الدين عبد الوهاب : (١٠) حظي كتاب الإمام البيضاوي (١١) " منهاج الوصول في علم الأصول " بمنزلة

- (١) سورة فصلت ، الآية " ٤٠ " .
- (٢) سورة ابراهيم ، الآية " ٢٠ " .
- (٣) سورة البقرة ، الآية " ٦٥ " .
- (٤) سور [الإسراء ، الآية " ٥٠ " والأمر للإهانة كما ذكر البلاغيون ، انظر الإيضاح ٢٤٢/١ وشروح التلخيص ٣١٧/٢ .
- (٥) سورة الدخان ، الآية " ٤٩ " .
- (٦) سورة الطور ، الآية " ١٦ " .
- (٧) سورة البقرة ، الآية " ١١٧ " .
- (٨) الإحكام في أصول الأحكام ١٣ / ٢ .
- (٩) أبو حسن بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي الأنصاري الخزرقي تقي الدين " ٦٨٣ - ٧٥٦ هـ " شيخ الاسلام في عصره وأحد الحفاظ المفسرين شارك في علوم شتى كالفقه والحديث والقراءات والنحو والأدب من مصنفاته الدر النظيم في التفسير والإبهاج في شرح المنهاج .
- انظر ترجمته الأعلام ٣٠٢/٤ ، ومعجم المؤلفين ١٢٧ / ٧ .
- (١٠) أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي " ٧٢٧ - ٧٧١ هـ " تاج الدين فقيه أصولي مؤرخ أديب ، ولد بالقاهرة وانتقل مع والده إلى دمشق وبها مات ، من مصنفاته طبقات الشافعية وشرح منتهى السؤل وشرح منهاج الوصول في علم الأصول للبيضاوي .
- انظر ترجمته الأعلام ١٨٤-١٨٥/٤ ، ومعجم المؤلفين ٢٢٥/٦ - ٢٢٦ .
- (١١) أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي ناصر الدين البيضاوي المتوفي سنة ٦٨٥ هـ قاض وعالم بالتفسير والفقه والعربية والحديث توفي في تبريز من مصنفاته منهاج الوصول ، وأنوار التنزيل في أسرار التأويل في التفسير .
- انظر ترجمته الأعلام ١١٠ / ٤ ، ومعجم المؤلفين ٩٧ / ٦ - ٩٨ .

رفيعة بين العلماء وتعددت شروحيهم (١) عليه منها " الإبهاج في شرح المنهاج " للسبكي وولده وقد أشار السبكي وولده إلي بعض المعاني البلاغية التي يفيدها الأمر ، واستطاعا أن يفرقا بين بعض المعاني البلاغية المتقاربة كالإباحة والامتنان وبين التسخير والتكوين " يقول السبكي وولده : " قال المصنف ((صيغة افعل ترد لسته عشر معنى الأول : الإيجاب كقوله : [أَقِيمُوا الصَّلَاةَ] (٢) . الثاني : الندب كقوله تعالى : [فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا] (٣) . الثالث : الإرشاد كقوله : [وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ] (٤) . الرابع : الإباحة [كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ] (٥) . الخامس : التهديد [اَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ] (٦) ومن التهديد الإنذار كقوله تعالى : [قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ] (٧) وقد جعله جماعة قسماً آخر ولاشك في ثبوت الفرق بينهما إذ التهديد هو التخويف ، والإنذار هو الإبلاغ لكن لا يكون إلا في التخويف فقوله [قل تمتعوا] أمر بإبلاغ هذا الكلام المخوف الذي عبر عنه بالأمر ، وقال صفي الدين الهندي (٨) وغيره الفرق بينهما أن الإنذار يجب أن يكون مقروناً بالوعيد كما في الآية المذكورة ، والتهديد لا يجب فيه ذلك بل قد يكون مقروناً وقد لا يكون ، وقيل في الفرق بينهما إن التهديد في العرف أبلغ من الوعيد والغضب من الإنذار وكلها فروق صحيحة ... " ، السادس : الامتنان [وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ] (٩) والفرق بينه وبين الإباحة أن الإباحة مجرد إذن ، وأنه لا بد من إقتران الامتنان بذكر احتياج الخلق إليه وعدم قدرتهم عليه ، ونحو ذلك كالتعرض في هذه الآية إلى أن الله تعالى هو الذي رزقه ،

(١) من أهم هذه الشروح أيضاً نهاية السؤل للأسنوي .

(٢) سورة البقرة ، الآية " ٤٣ " .

(٣) سورة النور ، الآية " ٣٣ " .

(٤) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٢ " .

(٥) سورة المؤمنون ، الآية " ٥١ " .

(٦) سورة فصلت ، الآية " ٤٠ " .

(٧) سورة إبراهيم ، الآية " ٣٠ " .

(٨) حمد بن عبدالرحيم بن محمد الشيخ صفي الدين الهندي الأرموي كان أعلم

الناس بمذهب الأشعري من مؤلفاته الزبدة " في علم الكلام ، و " النهاية " في

أصول الفقه توفي بدمشق سنة ٧١٥ هـ .

انظر ترجمته طبقات الشافعية لابن السبكي ٩ / ١٦٢ - ١٦٣ .

(٩) سورة المائدة ، الآية " ٨٨ " .

والعلاقة بين الامتنان والوجوب المشابهة في الإذن أن المنون لا يكون إلا مأثونا فيه ، السابع : الإكرام [**إَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ أَمِينٍ**] (١) فإن قرينة قوله بسلام آمين يدل عليه ، والعلاقة أيضاً الإذن . الثامن : التسخير مثل [**كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**] (٢) والفرق بينه وبين التكوين أن التكوين سرعة الوجود عن العدم وليس انتقال إلى حالة ممتهنة بخلاف التسخير ، فإنه لغة الذلة والامتهان في العمل والعلاقة فيه وفي التكوين المشابهة المعنوية ، وهي تحتم الوقوع ، وقد سمي الشيخ أبو اسحاق الشيرازي (٣) وإمام الحرمين (٤) هذا القسم بالتكوين . التاسع : التعجيز [**فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ**] (٥) والعلاقة المضادة ، إذ لا يكون التعجيز إلا في الممتنع . العاشر : الإهانة [**ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ**] (٦) . الحادي عشر : التسوية [**فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا**] (٧) . الثاني عشر : الدعاء مثل القائل ((اللهم اغفر لي)) وقوله تعالى : [**رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا**] (٨) . الثالث عشر : التمني : مثل قول إمريء القيس : ((ألا ايها الليل الطويل ألا انجلي)) . الرابع عشر : الاحتقار : كقوله [**أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ**] (٩)

يعني أن السحر وإن عظم فإن عظم ففي مقابلة ما أتى به موسى عليه السلام حقير ،

(١) سورة الحجر ، الآية "٤٦" .

(٢) سورة البقرة ، الآية "٦٥" .

(٣) أبو اسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي الفيروزآبادي ولد بفيروزآباد سنة ٢٩٢ هـ وتوفي ببغداد سنة ٤٧٦ كان إمام وقته ببغداد من مؤلفاته المذهب في المذهب والتنبيه في الفقه واللمع في أصول الفقه .

انظر ترجمته وفيات الأعيان ٢٩/١ - ٣١ ، ومعجم المؤلفين ٦٨/١ ، والأعلام ٤٤/١ - ٤٥ .

(٤) أبو المعالي عبد الملك بن عبدالله بن يوسف بن عبدالله بن يوسف بن محمد بن حيوية الجويني الفقيه الشافعي المعروف بإمام الحرمين شيخ الإمام الغزالي ولد سنة ٤١٩ هـ وتوفي ودفن بنيسابور سنة ٤٧٨ .

انظر ترجمته وفيات الأعيان ١٦٧/٣ - ١٧٠ ، والأعلام ٥٩٨/٢ ، ومعجم المؤلفين ١٨٤/٦

(٥) سورة البقرة ، الآية "٢٣" .

(٦) سورة الدخان ، الآية "٤٩" .

(٧) سورة الطور ، الآية "١٦" .

(٨) سورة الأعراف ، الآية "٨٩" .

(٩) سورة يونس ، الآية "٨٠" .

والفرق بينه وبين الإهانة أن الإهانة إنما تكون بالقول أو الفعل أو بتركهما دون مجرد الاعتقاد، والاحتقار إما مختص بمجرد الاعتقاد أو لابد من الاعتقاد بدليل أن من اعتقد في شيء أنه لا يعبأ به ولا يلتفت إليه يقال إنه احتقره ولا يقال أهانه ما لم يصدر منه قول أو فعل ينبيء عن ذلك . الخامس عشر : التكوين { كُنَّ فَيَكُونُ } (١) وقد سما الغزالي (٢) إلي هذا القسم بكمال القدرة وتبعه الأمدي ، السادس عشر : الخبر كقوله صلى الله عليه وسلم ((إذا لم تستح فاصنع ما شئت)) (٣) أي صنعت ما شئت ، ... وعكسه أي قد يستعمل الخبر ويراد به الأمر مثل قوله : [وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ] (٤) المعنى والله أعلم ليرضعن الوالدات أولادهن ، وهذا أبلغ من عكسه لأن الناطق بالخبر مريداً به الأمر كأنه نزل المأمور به منزلة الواقع ...

فهذا شرح الأقسام الستة عشر التي في الكتاب ، وهي في الحقيقة أكثر لاشتمال بعض أقسامها على نوعين كما عرفت ، وقد زاد إمام الحرمين في البرهان الأمر بمعنى الإنعام كقوله تعالى : [كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ] (٥) قال هذا وإن كان فيه معنى الإباحة فإن الظاهر منه تذكير النعمة ، وزاد أيضا الأمر بمعنى التفويض كقوله [فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ] (٦) وزاد صفي الدين الهندي تاسع عشر وهو التعجب ومثل له بقوله تعالى : [قَلِّ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً] (٧) وهذا المثال جعله الأمدي وابن برهان (٨) من قسم التعجيز ، ورأيت في طبقات الفقهاء

(١) سورة البقرة ، الآية " ١١٧ " .

(٢) أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الملقب حجة الاسلام زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي ولد سنة ٤٥٠ هـ وقيل سنة ٤٥١ بالطبران إحدى بلدتي طوس وتوفي بها سنة ٥٠٥ هـ من مصنفاته أحياء علوم الدين والمستضفي في أصول الفقه والخلاصة في الفقه والوسيط والبسيط والوجيز والمضنون به على غير أهله انظر ترجمته وفيات الأعيان ٢١٦/٤-٢١٩ ، ومعجم المؤلفين ٢٦٦/١١ وما بعدها .

(٣) الحديث في فتح الباري ٥١٥/٦ كتاب أحاديث الأنبياء .

(٤) سورة البقرة ، الآية " ٢٣٣ " .

(٥) سورة البقرة ، الآية " ١٧٢ " .

(٦) سورة طه ، الآية " ٧٢ " .

(٧) سورة آل عمران ، الآية " ٧٣ " .

(٨) أحمد بن علي بن محمد الوكيل المعروف بابن برهان الفقيه الشافعي ولد ببغداد في جمادى الأولى سنة ٤٧٩ هـ وولي التدريس بالمدرسة النظامية وتوفي ببغداد سنة ٥٢٠ هـ من مؤلفاته البسيط والوسيط والوجيز في أصول الفقه

انظر ترجمته وفيات الأعيان ٩٩/١ ، ومعجم المؤلفين ٢٢/٢ .

في ترجمة أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي زيادات أخر منها التعجب كما قال الشيخ الهندي لكن مثله له بقوله تعالى: [انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ { (١) ومنها الأمر بمعنى التكذيب مثل قوله تعالى: [قُلْ فَاتَوْا بِالَّتُورَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ { (٢) وقوله: [قُلْ هَلْمْ شُهَدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا { (٣) ومنها الأمر بمعنى المشورة مثل [فَانظُرْ مَاذَا تَأْتَى { (٤) وزاد أبو عاصم أيضاً في غير هذه الترجمة الأمر بمعنى الاعتبار مثل قوله تعالى: [انظروا إلى ثمره إذا أثمر { (٥) والأمر بمعنى التسليم مثل [فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ { (٦) وهذا ماتقدم عن إمام الحرمين ، وقد وصلت الأقسام بزيادات أبي عاصم وإمام الحرمين والقسم الذي ذكره الهندي إلى اثنين وعشرين (((٧)

وصنيع الشيخين في الإبهاج يثير الإعجاب والتقدير جمعاً ودقة وترتيباً
وذكاءً وأسلوباً مبيناً .

٦ - الشاطبي (٨)

من بين كتب الأصول التي يعتد بها كتاب الموافقات في أصول الفقه للإمام الشاطبي وقد أشار فيه المؤلف إلى بعض معاني الأمر البلاغية كالتعجيز والتهديد ، ومثل للتعجيز بقوله تعالى: [فَلْيَعِدُّوا سَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ { (٩) وللتهديد بقوله تعالى: [اَعْمَلُوا مَا هُنْتُمْ { (١٠)

(١) سورة الاسراء ، الآية " ٤٨ " .

(٢) سورة آل عمران ، الآية " ٩٣ " .

(٣) سورة الانعام ، الآية " ١٥٠ " .

(٤) سورة الصافات ، الآية " ١٠٢ " .

(٥) سورة الأنعام ، الآية " ٩٩ " .

(٦) سور طه ، الآية " ٧٢ " .

(٧) الإبهاج في شرح المنهاج ١٧/٢ - ٢٢ .

(٨) أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي المالكي الشهير بالشاطبي المتوفى سنة ٧٩٠هـ محدث وفقه وأصولي ولغوي ومفسر من أهل غرناطة من مؤلفاته الموافقات ، والمجالس ، والاتفاق في علم الاشتقاق .

انظر ترجمته الأعلام ٢٧٥/١ ، ومعجم المؤلفين ١١٨/١ .

(٩) سورة الحج ، الآية " ١٥ " .

(١٠) سورة فصلت ، الآية " ٤٠ " ، والموافقات للشاطبي ٣ / ٧٤ .

٧ - ابن اللّحام : (٣)

ألف ابن اللّحام كتابه المختصر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد ، وقد تعرض فيه لذكر المعاني البلاغية التي تفيدها صيغة الأمر وحصرها في ستة عشر معنى ، إذ يقول ((ترد صيغة أفعال ستة عشر معنى : الوجوب { أَقِيمُوا الصَّلَاةَ } (٢) الثاني : الندب { فَكَاتِبُوهُمْ } (٣) . الثالث : الإرشاد { وَأَشْهَدُوا } (٤) . الرابع : الإباحة { فَاصْطَادُوا } (٥) . الخامس : التهديد { اَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ } (٦) ومنه { قُلْ تَمَتَّعُوا } (٧) . السادس : الامتنان { كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ } (٨) . السابع : الإكرام { ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ } (٩) الثامن : التسخير { كُونُوا قِرَدَةً } (١٠) . التاسع : التعجيز { فَاتُوا بِسُورَةٍ } (١١) . العاشر : الإهانة { ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } (١٢) . الحادي عشر : التسوية { فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا } (١٣) . الثاني عشر : الدعاء ((اللهم اغفر لي . الثالث عشر : التمني (ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي) . الرابع عشر : الاحتقار { أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ } (١٤) الخامس عشر : التكوين { كُنْ فَيَكُونُ } (١٥) . السادس عشر : الخبر " فاصنع ماشئت ،

(١) أبو الحسن علاء الدين علي بن محمد بن عباس بن شيبان المعروف بابن اللّحام المتوفى سنة ٨٠٣هـ فقيه أصولي أصله من بعلبك سكن دمشق ، من مصنفاته القواعد الأصولية ، والأخبار العلمية في اختيارات الشيخ ابن تيمية والمختصر في أصول الفقه . انظر ترجمته الأعلام ٧ / ٥ ، ومعجم المؤلفين ٧ / ٢٠٦ .

- (٢) سورة البقرة ، الآية " ٤٣ "
- (٣) سورة النور ، الآية " ٣٣ "
- (٤) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٢ "
- (٥) سورة المائدة ، الآية " ٢ "
- (٦) سورة فصلت ، الآية " ٤٠ "
- (٧) سورة ابراهيم ، الآية " ٢٠ "
- (٨) سورة المائدة ، الآية " ٨٨ "
- (٩) سورة الحجر ، الآية " ٤٦ "
- (١٠) سورة البقرة ، الآية " ٦٥ "
- (١١) سورة البقرة ، الآية " ٢٣ "
- (١٢) سورة الدخان ، الآية " ٤٩ "
- (١٣) سورة الطور ، الآية " ١٤ "
- (١٤) سورة يونس ، الآية " ٨٠ "
- (١٥) سورة البقرة ، الآية " ١١٧ "

وعكسه (١) { وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ } (٢)

٨ - ابن بدران الجدمشقي : (٣)

تناول ابن بدران في كتابه المدخل إلى مذهب الإمام أحمد الأوامر والنواهي ، وذكر أن صيغة الأمر تطلق في الاستعمال اللغوي لمعان أحدها الطلب الجازم نحو : { أَقِيمُوا الصَّلَاةَ } (٤) وثانيها الندب كقوله تعالى في حق الأرقاء الطالبين للكتابة { فَكَاتِبُوهُمْ } (٥) والكتابة مندوبة عند الأكثرين ، وثالثها الإباحة نحو قوله تعالى : { فَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا } (٦) { فَاْمَشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ } (٧) . ورابعها : التعجيز نحو قوله تعالى : { كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا } (٨) . أي فلن تعجزني إعادتكم . وخامسها التسخير نحو قوله تعالى : { فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ } (٩) أي مسخت أجسامهم لانقلابها عن الانسانية إلى القرذية بالأمر الإلهي . وسادسها التسوية نحو قوله تعالى : { فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا } (١٠) أي الصبر وعدمه متساويان ، وسابعها : الإهانة نحو قوله عز وجل { ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } (١١) على جهة الإهانة له ، وقوله تعالى :

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢٣٣ "

(٢) المختصر في أصول الفقه تحقيق الدكتور محمد مظهر بقا ص ٩٨ وما بعدها .

(٣) عبدالقادر بن أحمد بن مصطفى بن عبدالرحيم بن محمد بن عبدالرحيم الدوسي ثم الدمشقي المعروف بابن بدران المتوفي سنة ١٢٤٦هـ فقيه أصولي حنبلي ، ولد بروما وعاش بدمشق وتوفي بها من مؤلفاته المدخل إلى مذهب الإمام أحمد وجواهر الأفكار ومعادن الأسرار في التفسير .

انظر ترجمته الأعلام ٤ / ٣٧ ، ومعجم المؤلفين ٥ / ٢٨٣ - ٢٨٤ .

(٤) سورة البقرة ، الآية " ٤٣ "

(٥) سورة النور ، الآية " ٣٣ "

(٦) سورة المائدة ، الآية " ٢ "

(٧) سورة الملك ، الآية " ١٥ "

(٨) سورة الاسراء ، الآية " ٥٠ "

(٩) سورة البقرة ، الآية " ١٢ "

(١٠) سورة الطور ، الآية " ١٤ "

(١١) سورة الدخان ، الآية " ٤٩ "

{ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ } (١) . { ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } (٢) . { ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ } (٣) وثامنها الإكرام نحو قوله تعالى : { ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ أَمِينٍ } (٤) وتاسعها التهديد نحو قوله تعالى : { اَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ } (٥) { لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا } (٦) فهذا أمر بلازم الأمر ، وعاشرها الدعاء نحو اللهم اغفر لي .. { رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ } (٧) وحادي عشرها الخبر كحديث إذا لم تستح فاصنع ما شئت " وثاني عشرها التمني كقول إمرئ القيس إلا أيها الليل الطويل إلا انجلي ، وثالث عشرها الإرشاد إلى مصلحة دنيوية أو غيرها نحو { وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ } (٨) { قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا } (٩) يعني بالتأديب والتعليم ، ورابع عشرها نحو { كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ } (١٠) وخامس عشرها الإنذار نحو { خُذُوا حِذْرَكُمْ } (١١) وسادس عشرها الاحتقار { أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ } (١٢) وسابع عشرها التفويض نحو { فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ } (١٣) وثامن عشرها المشورة نحو { فَانظُرْ مَاذَا تَرَى } (١٤) وتاسع عشرها الاعتبار نحو { انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ } (١٥) والعشرون التكذيب نحو { قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ } (١٦) والحادي والعشرون الالتماس كقولك لنظيرك " افعل "

-
- (١) سورة القمر ، الآية " ٤٨ " .
 - (٢) سورة آل عمران ، الآية " ١٨١ " .
 - (٣) سورة الزمر ، الآية " ٢٤ " .
 - (٤) سورة الحجر ، الآية " ٤٦ " .
 - (٥) سورة فصلت ، الآية " ٤٠ " .
 - (٦) سورة العنكبوت ، الآية " ٦٦ " .
 - (٧) سورة الأعراف ، الآية " ١٢٦ " .
 - (٨) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٢ " .
 - (٩) سورة التحريم ، الآية " ٦ " .
 - (١٠) سورة البقرة ، الآية " ٥٧ " .
 - (١١) سورة النساء ، الآية " ١.٢ " .
 - (١٢) سورة يونس ، الآية " ٨٠ " .
 - (١٣) سورة طه ، الآية " ٧٢ " .
 - (١٤) سورة الصافات ، الآية " ١.٢ " .
 - (١٥) سورة الأنعام ، الآية " ٩٩ " .
 - (١٦) سورة البقرة ، الآية " ١١١ " .

والثاني والعشرون التلخيص نحو (١) [مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ هَذَا] (٢) .

وهكذا نرى الأصوليين يشاركون البلاغيين في تطور البحث البلاغي ويدلون بدلوهم كغيرهم من الطوائف الأخرى التي كان لها نصيب في نمو البلاغة وتطورها . وفي مجال الأمر استطاع الأصوليون بثاقب نظرهم ونصاعة بيانهم أن يضعوا أيدينا على تلك الفروق الدقيقة بين المعاني البلاغية المتقاربة ، والتي ليس من شك في أن البلاغيين أفادوا منها .

" هذا ما كان من أمر القديم ، ولو نظرنا في كتب الأصول الحديثة لرأينا أنها لاتخرج غالباً عما اختطه الأصوليون ، ووجدنا العناية كبيرة بموضوعات البلاغة وفنونها كالخاص والعام والأمر والنهي والحقيقة والمجاز والكناية والتصريح .. إن إهتمام علماء أصول الفقه بالمباحث البلاغية التي وشحوا بها كتبهم واعتبروها من طرق الفقه دفع البلاغة إلى وضع القواعد الواضحة والتقسيمات الدقيقة لحاجتهم إليها في استنباط الأصول والأحكام . (٣)

(١) سورة آل عمران ، الآية " ١١٩ " .

(٢) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ١٠١ ، وما بعدها .

(٣) مناهج بلاغية ص ٧٨ وراجع الأمر والنهي ومايتوقف عليه المطلوب للدكتور على مصطفى رمضان ص ١٢ وما بعدها والأمر ودلالته على الأحكام الشرعية للدكتور محمود أحمد عبدالله ص ٤٣ - ٤٧ .

المبحث الرابع

منهج علماء البلاغة والإعجاز:

ارتبط البحث البلاغي من حيث نضجه واكتماله بظهور طائفتين هما طائفة البلاغيين وطائفة علماء الإعجاز القرآني ، اللتان أرسدت قواعد البلاغة حتى أصبح هذا النوع من الدراسة علماً مستقلاً بذاته كغيره من علوم اللغة العربية يهتم به المشتغلون بهذا الفن .

ولاريب في أن المنهج الذي اختطه البلاغيون في دراسة الأمر يعد من أمثل المناهج في التراث الإسلامي ، فهو يبدأ بتعريف الأمر تعريفاً جامعاً مانعاً ، ثم تحديد صيغ الأمر ثم يعقبه الإشارة إلى بعض معاني الأمر البلاغية المتولدة عن صيغة الأمر بمعونة القرائن ودلالة السياق والمقام .

١ - السكاكي : (١)

أشار السكاكي في كتابه مفتاح العلوم في القسم الثالث منه إلى بعض المعاني البلاغية التي تفيدها صيغة الأمر إن استعملت في غير الطلب حيث يقول " ثم أنها حينئذ تولد بحسب قرائن الأحوال ما ناسب المقام إن استعملت على سبيل التضرع كقولنا : " اللهم اغفر " ولدت الدعاء ، وإن استعملت على سبيل التلطف كقول كل أحد لمن يساويه في المرتبة " افعل " بدون الاستعلاء ولدت السؤال والالتماس كيف عبرت عنه ، وإن استعملت في مقام الإذن كقولك جالس الحسن أو ابن سيرين لمن يستأذن في ذلك بلسانه أو لسان حاله ولدت الإباحة ، وإن استعملت في مقام تسخط المأمور به ولدت التهديد " (٢) .

ففي هذا النص نجد السكاكي يشير إلى بعض المعاني البلاغية التي تفيدها صيغة الأمر كالدعاء والسؤال والالتماس والإباحة والتهديد .

-
- (١) أبو يعقوب سراج الملة والدين يوسف بن أبي بكر السكاكي الخوارزمي الحنفي ولد سنة ٥٥٥ بخوارزم وتوفي سنة ٦٢٦ هـ عالم في النحو والتصريف والمعاني والبيان والعروض والشعر من كتبه مفتاح العلوم ورسالة في علم المناظرة .
انظر ترجمته الأعلام ٨ / ٢٢ ، ومعجم المؤلفين ٢٨٢/١٣ وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢٤٨/٥ والبلاغة تطور وتاريخ ص ٢٨٦ وما بعدها .
- (٢) مفتاح العلوم تحقيق نعيم زرزور ص ٣١٩ .

٢ - الخطيب القزويني : (١)

أشار الخطيب القزويني في الإيضاح إلى بعض معاني الأمر البلاغية ، يقول " ثم أنها " - أعني صيغة الأمر - قد تستعمل في غير طلب الفعل بحسب مناسبة المقام كالإباحة كقولك في مقام الإذن : جالس الحسن أو ابن سيرين ، ومن أحسن ما جاء فيه قول كثير : أسيء بنا أو أحسني لاملومة . . . لدينا ولا مقلية إن تقلت أي لا أنت ملومة ولا مقلية ...

والتهديد كقولك لعبد شتم مولاه وقد أدبه : اشم مولاك ، وعليه [اعملوا مَاشِئْتُمْ] (٢) والتعجيز كقولك لمن يدعي أمراً تعتقد أنه ليس في وسعه : افعله ، وعليه [فَاتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ] (٣) .

والإهانة نحو " كونوا حجارة أو حديداً (٤) وقوله : { ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } (٥) والتسوية كقوله : { أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ } (٦) وقوله : { اسْبِرُوا أَوْ لَا تَسْبِرُوا } (٧) والتمني كقول إمرئ القيس : ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي (٨) .

والدعاء إذا استعملت في طلب الفعل علي سبيل التضرع نحو { رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ } (٩)

(١) أبو المعالي جلال الدين محمد بن عبدالرحمن بن عمر بن أحمد محمد القزويني الشافعي المعروف بخطيب دمشق ، ولد بالموصل سنة ٦٦٦ هـ وولي القضاء في ناحية بالروم ثم قضاء دمشق فقضاء القضاة بمصر من مصنفاة ، تلخيص المفتاح والايضاح والصور المرجاني من شعر الأرجاني .
انظر ترجمته الأعلام ١٩٢/٦ ، معجم المؤلفين ١٤٥/١ - ١٤٦ ، والبلاغة تطور وتاريخ ص ٣٣٥ .

(٢) سورة فصلت ، الآية " ٤٠ " .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٣ " .

(٤) سورة الإسراء ، الآية " ٥٠ " .

(٥) سورة الدخان ، الآية " ٤٩ " .

(٦) سورة التوبة ، الآية " ٥٣ " .

(٧) سورة الطور ، الآية " ١٦ " .

(٨) هذا صدر بيت وعجزه : بصبح وما الإصباح منك بأمثل . وهذا البيت من معلقة إمرئ القيس " قفانبك " والبيت في ديوانه ص ١٨ تحقيق أبي الفضل إبراهيم .

(٩) سورة نوح ، الآية " ٢٨ " .

والالتماس إذا استعملت في طلب الفعل على سبيل التلطف كقولك لمن يساويك في الرتبة "افعل" بدون الاستعلاء .

والاحتقار نحو (١) { أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ } (٢)

ليس من شك في أن البحث البلاغي قد توقف عند القزويني ، أما من جاءوا بعده فقد داروا في فلكه ونهجوا نهجه ، فاتخذوا من مباحثه نقطة بدء انطلقوا منها إلى غايات بعيدة وأفاق رحيبة ، مهتدين أينما ساروا بما كتبه ملخصاً أو موضحاً بحيث لانكاد نعثر على جديد فيما كتبه أصحاب الشروح والحواشي والتقارير ، وإنما كلام معاد مكرر لا ينمي ذوقاً ولا يربي ملكة فقدت بذلك البلاغة هدفها الرئيس .

وفي مباحث الإنشاء الطلبي تناول الشراح الأمر ودلالته على المعاني البلاغية (٣) واستطاع البهاء السبكي (٤) أن يوصل هذه المعاني إلى خمسة وعشرين معنى ، أما علماء الإعجاز فالمتقدمون منهم مثل الخطابي (٥) والرماني (٦) والباقلاني (٧)

-
- (١) سورة يونس ، الآية " ٨٠ " .
 - (٢) الإيضاح تحقيق الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي ٢٤١/١ - ٢٤٣ .
 - (٣) أنظر شروح التلخيص ٣١٢/٢ وما بعدها والمطول ص ٢٤٠ - ٢٤١ وتجريد البناني على مختصر السعد ٢٨/٢ - ٣١ وتقدير الشمس الإنبائي ١٦٦/٣ - ١٧٣ .
 - (٤) عروس الأفراح ١٣٢/٢ - ٣٢٢ .
 - (٥) أبوسليمان حمد بن إبراهيم بن خطاب الخطابي البستي " ٣١٩ - ٣٨٨ " هـ فقيه ومحدث وأديب ولغوي ولد بمدينة بنست من بلاد كابل من نسل زيد بن الخطاب رضي الله عنه من مصنفاته غريب الحديث وأعلام السنن في شرح صحيح البخاري .
 - انظر ترجمته الأعلام ٨٦/٦ ، ومعجم المؤلفين ١٨٣/٩ .
 - (٦) أبو الحسن علي بن عيسى الرماني " ٢٩٦ - ٣٨٤ " هـ أحد الأئمة المشاهير ، جمع بين علم الكلام والعربية من مؤلفاته الجامع الكبير في التفسير ومعاني الحروف والاشتقاق والنكت في إعجاز القرآن .
 - انظر ترجمته وفيات الأعيان ٢٩٩/٣ ، والأعلام ٣١٧/٤ ، ومعجم المؤلفين ٢٨٢/١٣
 - (٧) القاضي أبو بكر محمد بن الطيب المعروف بالباقلاني البصري متكلم على مذهب الأشعري ولد بالبصرة وسكن بغداد وتوفي سنة ٤٠٣ هـ من مؤلفاته إعجاز القرآن .
 - انظر ترجمته وفيات الأعيان ٢٦٩/٤ - ٢٧٠ ومعجم المؤلفين ١٠٩/١٠ - ١١٠ .

وعبدالقاهر الجرجاني لانكاد نجد في مصنفاتهم مايفيد أنهم أشاروا إلى بعض المعاني البلاغية لأسلوب الأمر ، أما المتأخرون منهم مثل الزملكاني والزرکشي والسيوطي فقد أشاروا إلى بعض معاني الأمر البلاغية في مؤلفاتهم سنقف معهم في هذه الدراسة حسب ما يقتضيه المقام .

١ - الزملكاني : (١)

أشار الزملكاني في كتابه البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن إلى بعض معاني الأمر البلاغية من ذلك قوله " وما جاء في صورة الخبر وهو أمر في المعنى قوله تعالى : [قال تزرعون سبع سنين دأبا] (٧) المعنى ازرعوا سبع سنين متواليات بدليل " فذروه في سنبله " ومن ذلك [وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ] (٣) وقوله تعالى : [وَالْمَطْلَقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ] (٤) فإنه حكم مندوب إليه " (٥)

وأشار إلى أن الأمر في قوله تعالى : [فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا] (٦) في

معنى الخبر " (٧)

٢ - الزركشي : (٨)

ألف الزركشي كتابه البرهان في علوم القرآن تناول فيه بلاغة القرآن الكريم

(١) كمال الدين عبدالواحد بن عبدالكريم الزملكاني السماكي الشافعي المتوفي سنة ٦٥١هـ ويقال له ابن خطيب زملكا ولي القضاء بصرخد ودرس ببعلبك وتوفي بدمشق من مؤلفاته التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن والبرهان ، الكاشف عن إعجاز القرآن .

انظر ترجمته ، الأعلام ١٧٦/٤ ومعجم المؤلفين ٢٠٩/٦ .

(٢) سورة يوسف ، الآية " ٤٧ " .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٢٣ " .

(٤) سورة البقرة ، الآية " ٢٢٨ " .

(٥) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن تحقيق الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٦) سورة التوبة ، الآية " ٨٢ " .

(٧) المصدر السابق ص ٣٠٤ .

(٨) محمد بن بهادر الزركشي الشافعي بدر الدين أبوعبدالله " ٧٤٥-٧٩٤هـ فقيه أصولي محدث تركي الأصل مصري المولد والوفاء من مؤلفاته الديباج في توضيح

المنهاج للنووي وشرح جمع الجوامع للسبكي والبرهان في علوم القرآن .

انظر ترجمته ، الأعلام ٦٠/٦ - ٦١ ، ومعجم المؤلفين ٢٠٥/١٠ .

وإعجازه ، ونثر فيه كثيراً من الفنون البلاغية .

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب معدود في كتب علوم القرآن يعد بحق مصدراً من مصادر البلاغة القرآنية لاحتوائه على جوانب مشرقة من بلاغة القرآن وإعجازه ، ويهمننا هنا أن الزركشي أشار إلى بعض معاني الأمر البلاغية في الفصل الذي عقده لوجوه الخطاب والمخاطبات في القرآن الكريم كخطاب الكرامة نحو [يَا أَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجَكَ الْجَنَّةَ] (١) وقوله : [ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ] (٢) .

وخطاب الإهانة نحو قوله تعالى : [قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ] (٣) وقوله : [وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَبِيلِكَ وَرَجِّكِ] (٤)

وخطاب التهكم : وهو الاستهزاء بالمخاطب مأخوذ من " تهكم البئر " إذا تهدمت كقوله تعالى : [ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ] (٥) وهو خطاب لأبي جهل لأنه قال " ما بين جبلية - يعني مكة - أعز ولا أكرم مني " .

وقال [فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ] (٦) جعل العذاب مبشراً به ... وخطاب الاعتبار كقوله [قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا] (٧) وقوله [انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ] (٨)

وخطاب الجمادات خطاب من يعقل كقوله تعالى : [فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ انْتَبَيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ] (٩) تقديره طائعة .

ومنه قوله تعالى : [يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ] فأمرها كما تؤمر الواحدة المخاطبة المؤنثة لأن جميع ما لا يعقل كذلك يؤمر . (١٠)

وهذه الأمثلة التي يذكرها الزركشي هي خطابات التكوين ، وهي قضية اختلفت

(١) سورة الأعراف ، الآية " ١٩ " .

(٢) سورة الحجر ، الآية " ٤٦ " .

(٣) سورة المؤمنون ، الآية " ١٠٨ " .

(٤) سورة الإسراء ، الآية " ٦٤ " .

(٥) سورة الدخان ، الآية " ٤٩ " .

(٦) سورة التوبة ، الآية " ٢٤ " .

(٧) سورة العنكبوت ، الآية " ٢٠ " .

(٨) سورة الأنعام ، الآية " ٩٩ " .

(٩) سورة فصلت ، الآية " ١١ " .

(١٠) البرهان ٢/٢٤٦ - ٢٤٧ .

أراء العلماء حولها سنناقشها بالتفصيل في موضعها إن شاء الله تعالى .
وخطاب التهيج كقوله [وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] (١) ولا يدل على أن من لم يتوكل ينتفي عنهم الإيمان بل حث لهم على التوكل .
وقوله تعالى : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] (٢) فإنه سبحانه وصفهم بالإيمان عند الخطاب ثم قال [إن كنتم مؤمنين] فقصده حثهم على ترك الربا وأن المؤمنين حقهم أن يفعلوا ذلك .
وقوله [أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] (٣) وقوله [إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ] (٤)
وخطاب التشجيع والتحريض كقوله تعالى : [وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ] (٥) وخطاب التعجيز نحو [فَاتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ] (٦) [فليأتوا بحديثٍ مثله] (٧) [قل فاتوا بعشر سورٍ مثله] (٨) [فادراؤا عن أنفسكم الموت] (٩)
وجعل بعضهم منه [قل كونوا حجارة أو حديداً] (١٠) ورد ابن عطية (١١)
بأن التعجيز يكون حيث يقتضي بالأمر فعل ما لا يقدر عليه المخاطب ، وإنما معنى الآية ((كونوا بالتوهم كذا)) (١٢) .
وخطاب التحسير والتلف كقوله تعالى : [قل موتوا بغيظكم] (١٣) .

- (١) سورة المائدة ، الآية " ٢٣ " .
- (٢) سورة البقرة ، الآية " ٢٧٨ " .
- (٣) سورة الأنفال ، الآية " ١ " .
- (٤) سورة يونس ، الآية " ٨٤ " .
- (٥) سورة الأنفال ، الآية " ٦٠ " .
- (٦) سورة البقرة ، الآية " ٢٣ " .
- (٧) سورة الطور ، الآية " ٣٤ " .
- (٨) سورة هود ، الآية " ١٣ " .
- (٩) سورة آل عمران ، الآية " ١٦٨ " .
- (١٠) سورة السراء ، الآية " ٥٠ " .
- (١١) هو أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن ب عطية المحاربي الغرناطي ٤٨١-٥٥٤٢م عالم له مشاركات في التفسير والحديث والفقه والآداب ، من مؤلفاته: الجامع الحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، وبرنامج ضمنه مروياته وأسماء شيوخه . انظر ترجمته الأعلام ٢/٢٨٢ ومعجم المؤلفين ٩٣/٥ .
- (١٢) البرهان ٢ / ٢٥٠ - ٢٥١ .
- (١٣) سورة آل عمران ، الآية " ١١٩ " .

وخطاب التكذيب نحو قوله تعالى : [قُلْ فَاتُوا بِالْتَّورَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ] (١) [قُلْ هَلْ مِنْكُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ] (٢)

وخطاب التشريف : وهو كل ما في القرآن العزيز من مخاطبة بقل ، كالقلاقل وكقوله " قُلْ آمَنَّا " (٣) وهو تشريف منه سبحانه لهذه الأمة بأن يخاطبها بغير واسطة لتفوز بشرف المخاطبة ، إذ ليس من الفصيح أن يقول الرسول للمرسل إليه قال لي المرسل " قل كذا وكذا " ولأنه لا يمكن إسقاطها ، فدل على أن المراد بقاؤها ، ولا بد لها من فائدة فتكون أمراً من المتكلم للمتكلم بما يتكلم به أمره شفاهاً بلا واسطة كقولك لمن تخاطبه " افعل كذا " (٤) .

وفي أقسام معنى الكلام أشار الزركشي إلى خروج الخبر والاستفهام إلى معنى الأمر . (٥)

٣ - جلال الدين السيوطي : (٦)

للسيوطي مؤلفات كثيرة تناول فيها مختلف العلوم الإسلامية كالتفسير والنحو واللغة والحديث والفقه والبلاغة وإعجاز القرآن الكريم وغير ذلك . ويهمننا أن نشير هنا إلى بعض مؤلفاته البلاغية منها عقود الجمان في علم المعاني والبيان ، وشرح أبيات تلخيص المفتاح ، ونكت على حاشية المطول للفنري ومعتك الأقران في إعجاز القرآن .

وهو في هذه الكتب ينحو منحى القزويني من غير أن يضيف شيئاً إلى البلاغة وقد بحث في كتابه " المزهرة " الفصاحة والحذف والاختصار والحقيقة والمجاز والاستعارة والعام والخاص ، وتكلم بإيجاز في كتاب " النقاية " وشرحها " إتمام الدراية

(١) سورة آل عمران ، الآية " ٩٣ " .

(٢) سورة الأنعام ، الآية " ١٥٠ " .

(٣) سورة آل عمران ، الآية " ٧٤ " .

(٤) البرهان ٢ / ٢٥١ - ٢٥٢ .

(٥) انظر المصدر السابق ٢ / ٣٢٠ ، ٢ / ٣٣٩ .

(٦) جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضير السيوطي " ٨٤٩ - ٩١١ هـ - إمام حافظ مؤرخ أديب شارك في التصنيف في معظم العلوم ، ولد ومات في القاهرة له مصنفات كثيرة جداً منها الإتيقان في علوم القرآن والأشباه والنظائر والمزهرة في اللغة . انظر ترجمته ، الأعلام ٣ / ٣٠١ - ٣٠٢ ، ومعجم المؤلفين ١٢٨ / ٥

لقراء النقاية * وهو في هذين الكتابين يتجه اتجاه القزويني في العرض والتقسيم والأمثلة ولعل بحثه لبعض موضوعات البلاغة في كتابه الإتقان في علوم القرآن كان أحسن منه في كتبه الأخرى لأنه تحرر قليلاً من سيطرة منهج القزويني حينما تكلم على الحقيقة والمجاز والتشبيه والاستعارة والكناية والتعريض والخبر والإنشاء ، وعلّة ذلك أنه لم يكن يبحث في البلاغة حينما ألف الإتقان وإنما كان يؤلف كتاباً في علوم القرآن وبذلك ابتعد عن منهج السكاكي والقزويني وانصرف إلى مافي الكتاب العزيز من علوم وفنون * (١)

وليس هنا مجال الحديث عن جهود السيوطي البلاغية وإنما الذي يهمنا أن السيوطي أشار إلى بعض معاني الأمر البلاغية في كثير من مؤلفاته .

فذكر وجوه المخاطبات في القرآن الكريم في كل من الإتقان ومعتك الأقران سنتناول ما جاء منها على صيغة الأمر كخطاب الإهانة نحو قوله تعالى : (أَخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ) (٢)

وخطاب التهكم نحو [ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ] (٣) وخطاب الجمادات خطاب من يعقل نحو [فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً] (٤) وهذا النوع من الخطابات اصطلح المتأخرون على تسميته بخطاب التكوين

وخطاب التهييج نحو [وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] (٥)

وخطاب التعجيز نحو [فَأْتُوا بِسُورَةٍ] (٦)

وخطاب التشريف : وهو كل مافي القرآن مخاطبةً بقل ، فإنه تشريف منه

تعالى لهذه الأمة بأن يخاطبها بغير واسطة لتفوز بشرف المخاطبة . (٧)

ونلاحظ أن السيوطي في وجوه المخاطبات قد اقتبس كلام الزركشي الذي سبق

ذكره فيما مضى ، بل إن السيوطي نفسه قد صرح في الإتقان بأنه اطلع على كتاب

(١) مناهج بلاغية ، ص ٣١٢ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية " ١٠٨ " .

(٣) سورة الدخان ، الآية " ٤٩ " .

(٤) سورة فصلت ، الآية " ١١ " .

(٥) سورة المائدة ، الآية " ٢٣ " .

(٦) سورة البقرة ، الآية " ٢٣ " .

(٧) انظر الإتقان ٣/ ١٠٠ - ١٠٤ ومعتك الأقران ١/ ٢٣٢ - ٢٣٧ .

البرهان للزركشي (١) ، وعده أصلاً من الأصول التي بنى عليها كتابه وتأسى طريقته وسار على نهجه ، فأدمج بعض فصوله في بعض ، ونقل كثيراً من فصوله مرة معزوة إليه ومرة بدون عزو ، وإن كان فيما نقل عنه قد اقتضب الكلام اقتضاباً واختصره اختصاراً (٢) كما هو واضح في وجوه المخاطبات .

وفي معترك الأقران تناول الخبر والإنشاء وعدهما وجهاً من وجوه إعجاز القرآن الكريم ، وتحدث بالتفصيل عن الأمر باعتباره قسماً من أقسام الإنشاء الطلبي وعرفه بقوله " هو طلب فعل غير كف وصيغته أفعل ويفعل وهي حقيقة في الإيجاب نحو [آقِيمُوا الصَّلَاةَ] (٣) [فَلْيُصَلُّوا مَعَكُمْ] (٤) .

وأشار إلى أن هذه الصيغة ترد مجازاً لمعان كثيرة منها النذب نحو [وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا] (٥) والإباحة نحو [فَكَاتِبُوهُمْ] (٦) نص الشافعي على أن الأمر فيه للإباحة ومنه [إِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا] (٧) والدعاء من السافل للعالي نحو [رَبِّ اغْفِرْ لِي] (٨) .

والتهديد نحو [اَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ] (٩) إذ ليس المراد الأمر بكل عمل شاءوا والإهانة نحو [ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ] (١٠) والتعجيز نحو [فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ] (١١) إذ ليس المراد طلب ذلك منهم بل إظهار عجزهم والامتنان نحو [كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ] (١٢) .

(١) انظر الاتقان ١١/٨ وما بعدها .

(٢) انظر البرهان مقدمة المحقق ص ١٤ .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٤٣ " .

(٤) سورة النساء ، الآية " ١٠٢ " .

(٥) سورة الأعراف ، الآية " ٢٠٤ " .

(٦) سورة النور ، الآية " ٣٣ " .

(٧) سورة المائدة ، الآية " ٢ " .

(٨) سورة نوح ، الآية " ٢٨ " .

(٩) سورة فصلت ، الآية " ٤٠ " .

(١٠) سورة الدخان ، الآية " ٤٩ " .

(١١) سورة البقرة ، الآية " ٢٣ " .

(١٢) سورة الأنعام ، الآية " ١٤١ " .

- والعجب نحو [انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ] (١)
 والتسوية نحو [اصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا] (٢)
 والإرشاد [وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ] (٣)
 والاحتقار نحو [أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ] (٤)
 والإنذار نحو [قُلْ تَمَتَّعُوا] (٥)
 والإكرام نحو [ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ] (٦)
 والتكوين - وهو أعم من التسخير نحو [كُنْ فَيَكُونُ] (٧)
 والإنعام أي تذكير النعمة نحو [كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ] (٨)
 والتكذيب نحو [قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَآتَلُوهَا] (٩) [قُلْ هَلْ مِنْ شُهَدَاءِكُمْ
 الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَمَ هَذَا] (١٠)
 والمشورة نحو [فَانظُرْ مَاذَا تَرَى] (١١)
 والاعتبار نحو [انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ] (١٢)
 والتعجب نحو [أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ] (١٣) ذكره السكاكي في استعمال
 الإنشاء بمعنى الخبر * (١٤) .

-
- (١) سورة الإسراء ، الآية * ٤٨ .
 (٢) سورة الطور ، الآية * ١٦ .
 (٣) سورة البقرة ، الآية * ٢٨٢ .
 (٤) سورة يونس ، الآية * ٨٠ .
 (٥) سورة إبراهيم ، الآية * ٢٠ .
 (٦) سورة الحجر ، الآية * ٤٦ .
 (٧) سورة البقرة ، الآية * ١١٧ .
 (٨) سورة الانعام ، الآية * ١٤٢ .
 (٩) سورة آل عمران ، الآية * ٩٣ .
 (١٠) سورة الأنعام ، الآية * ١٥٠ .
 (١١) سورة الصافات ، الآية * ١٠٢ .
 (١٢) سورة الأنعام ، الآية * ٩١ .
 (١٣) سورة مريم ، الآية * ٢٨ .
 (١٤) انظر معترك الأقران ١/٤٤١ - ٤٤٣ وراجع الاتقان ٣/٢٤٣ - ٢٤٤ .

وفي كتابه شرح عقود الجمان الذي شرح فيه أرجوزته التي نظم فيها التلخيص أشار إلى بعض المعاني البلاغية التي تفيدها صيغة الأمر كالدعاء من السافل للعالي نحو { رب اغفر لي } (١) والإباحة نحو جالس الحسن أو ابن سيرين ... إلى أن قال : ((وغالب هذه الأمور من زيادتي على التلخيص والذي فيه الإباحة والتهديد والإهانة والتسخير والتعجيز والتسوية والتمني)) (٢) .
وهذا إعتذار من السيوطي إذ لم يلتزم بما ذكر في التلخيص ، وهو يبين أمانة العلماء ودقتهم رحمهم الله .

وليس في هذا الكتاب آراء جديدة أو إلتفاتات نقدية ذات قيمة وإنما هو تكرار لآراء السابقين وإيضاح لأقوال القزويني .
ولأنحسب أنا نتجنى على السيوطي حين نقول إن جهده لم يسفر عن إضافة حقيقية إلى ما قدمه البلاغيون قبله ، وإنما هو إمتداد لمدرسة الشراح التي نسجت على منوال السكاكي والقزويني ، ويكفيه أنه من حفاظ العلم وخزنته رحمه الله .

منهجي :

ومنهجي في هذا البحث يقوم على استقصاء أساليب الأمر والنهي في القرآن ماوسع الجهد ، ثم مراجعة ما ذكره العلماء السابقون والمعاصرون ، ومحاولة الاقتراب من الأسلوب القرآني تفهماً لأسراره ودقائقه البلاغية ، وقد تنعقد موازنات بين الآيات المتشابهات التي اكتفى بها علماء المتشابه القرآني ، وهذا المنهج على صعوبته ليس بدعاً فقد طبقه حشد من علمائنا قديماً وحديثاً ، ونسأل الله التوفيق والتيسير والسداد .

(١) سورة نوح ، الآية ٢٨ .

(٢) شرح عقود الجمان للسيوطي ص ٥٥ - ٥٦ .

الفصل الثاني

أساليب الأعراف في القرآن الكريم

4

أسرارها البلاغية

النصح والإرشاد

دلالة النصح والإرشاد في اللغة والقرآن الكريم :

قدمنا الحديث عن الإرشاد لأنه شاع عند المتقدمين كمصطلح بلاغي ، ومعناه في

اللغة والقرآن :

أرشدته الله وأرشدته إلى الأمر ورشده : هداه ، وأرشدته غيره : هداه وسدده

إلى الرشاد " (١)

وقد عدَّ الأصوليون الإرشاد من بين المعاني البلاغية التي يخرج إليها الأمر ،

وأشاروا إلى الفرق بين الندب والإرشاد : بأن : الندب مطلوب لثواب الآخرة والإرشاد

لمنافع الدنيا " (٢)

وأضاف السبكي رأياً آخر نقله عن الغزالي والإمام حيث يقول " قال الغزالي

والإمام الإرشاد الندب لمصالح الدنيا والآخرة فيحتمل أن يكون قسماً من المندوب

تحصل به مصلحتان دنيوية وأخروية فيكون حكماً شرعياً ، ويحتمل أن يكون من نوع

الإشارة والاختيار أن ذلك مصلحة في الدنيا فيكون قسماً آخر ليس من الحكم

الشرعي " (٣)

أما النصح فمعناه في اللغة مطلق الخير ، يقال " نصح له ونصحه نصحاً

ونصيحة : تحرى ما ينبغي له وما يصلح وأراد له الخير وأخلص في تدبير أمره ، وهو

من قولهم : نصحت له الود : أخلصته ، أو من قولهم : نصحت الجلد : خبطته " (٤) .

ودلالة النصح في القرآن قريبة من الدلالة اللغوية ، وهي خاصة بالتكاليف

الشرعية . وقد ذكر المفسرون عند تفسير قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام :

{ أٰبَلٰغُكُمْ رِسٰلَاتِ رَبِّيْ وَانصَحْ لَكُمْ وَاَعْلَمُ مِنَ اللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ } (٥) تفسيراً

(١) انظر المفردات ص ١٩٦ ، ومعجم الفاظ القرآن الكريم ٥٠١/١ واللسان ١٦٤٩/٣ .

(٢) انظر المحصول ج ١ ق ٢ ص ٥٨ والإبهاج في شرح المنهاج ١٧/٢ والإحكام في

أصول الأحكام ١٣ / ٢ .

(٣) عروس الأفراح ٢ / ٣٢١ .

(٤) انظر المفردات ص ٤٩٤ ومعجم ألفاظ القرآن ٧١٨/٢ ومقاييس اللغة ٤٣٥/٥

وأساس البلاغة ص ٤٥٨ والصحاح ٤١٠/١ وما بعدها واللسان ٤٤٣٨/٦ وما بعدها .

(٥) سورة الأعراف ، الآية " ٦٢ " .

لدلالة النصح اللغوية حيث قال أحدهم ((وحقيقة النصح الإرسال إلى المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه)) (١) ، ويضيف الطاهر بن عاشور قائلاً " والنصح والنصيحة كلمة جامعة يعبر بها عن حسن النية وإرادة الخير من قول أو عمل " (٢) وهذا القول لا يبعد كثيراً عما ذكره الراغب في المفردات . (٣)

ما سبق يتضح لنا أن الإرشاد يراد به الهداية إن أُريد به المندوب فهو قريب من النصح عند الغزالي والرازي ، وعلى الرأي الأول اختصاص بمنافع الدنيا ، أما النصح فيراد به مطلق الخير .

الدلالة الاصطلاحية :

ذكر الأصوليون والبلاغيون الإرشاد ضمن معاني الأمر البلاغية (٤) ، ولم أعثر على النصح في كتب المتقدمين من علماء البلاغة والمتأخرين ، (٥) ، لكنه شاع عند المعاصرين واقترن بالإرشاد ، وقد عرفت ما بينهما من إختلاف في الدلالة . (٦) وقد عرفه بعضهم بقوله " النصح والإرشاد هو الطلب الذي لا إلزام فيه وإنما النصيحة الخالصة " (٧) وليس هذا تعريفاً جامعاً مانعاً .

وحديثنا في هذا المبحث عن النصح والإرشاد من باب التساهل والتجاوز وذلك لما بينهما من قرب في الدلالة .

- (١) التفسير الكبير ١٤ / ١٥٧ .
- (٢) التحرير والتنوير القسم الثاني من الجزء الثامن ص ١٩٤ .
- (٣) راجع المفردات ص ٤٩٤ .
- (٤) انظر عروس الأفراح ٢ / ٣٢١ ، والإتقان ٣ / ٢٤٣ ومعتك الأقران ١ / ٤٤٢ والمحصل ج ١ ق ٢ ص ٥٨ ، والإحكام في أصول الأحكام ٢ / ١٣ والإبهاج في شرح المنهاج ١٧ / ٢ .
- (٥) راجع تأويل مشكل القرآن ص ٢٨ . والصاحبي ص ٢٩٨ - ٣٠١ ، ومفتاح العلوم تحقيق نعيم زروز ص ٣١٨ ، والإيضاح ص ٢٤١ وما بعدها ، وشروح التلخيص ٢ / ٢١١ والمطول ص ٢٤٠ وما بعدها وبغية الإيضاح ٢ / ٥٣ - ٥٥ .
- (٦) انظر علم المعاني للدكتور درويش الجندي ص ٢٨ ومن بلاغة النظم العربي ٢ / ٨٤ وأساليب بلاغية ص ١١٢ .
- (٧) أساليب بلاغية ص ١١٢ .

وقد ورد الإرشاد في القرآن الكريم وخاصة فيما يتعلق بالآداب والأخلاق الإسلامية التي دعا القرآن المسلمين إلى التمسك والتحلي بها .

ونلاحظ في كثير من الأوامر التشريعية معنى النصح والتوجيه والترغيب بدليل قول نوح عليه السلام وهو يدعو قومه إلى عبادة الله وحده قال تعالى : { **أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** } (١) وقوله تعالى على لسان هود عليه السلام { **أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ** } (٢) .

فأوامر التشريع أوامر حقيقية تكليفية مبنية على النصح والإرشاد والتوجيه والترغيب لأن الله سبحانه وتعالى لا يأمر إلا بالخير .

وقد أفاد الأمر في القرآن الكريم النصح والإرشاد في كثير من الأساليب ، نرجع الآن على بعض هذه الأساليب :-

الرسول صلى الله عليه وسلم وزيد بن حارثة :

ورد النصح والإرشاد على لسان النبي صلى الله عليه وسلم في محكم التنزيل ينصح مولاة زيد بن حارثة رضي الله عنه في قوله تعالى : { **وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ** ... } (٣)

" فقول النبي صلى الله عليه وسلم " أمسك عليك زوجك " توفية بحق النصيحة وهو أمر نصح وإشارة بخير لا أمر تشريع لأن الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا المقام متصرف بحق الولاء والصحبة لا بصفة الرسالة والتشريع " (٤) .

وفي التعبير بقوله : " وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه ... " ثناءً على زيد رضي الله عنه وتنويه بعلو منزلته وقربه من الله ورسوله فهو ممن أنعم الله عليه ورسوله وهذا نهاية الرضا .

إبراهيم عليه السلام مع أبيه :

ورد النصح والإرشاد في القرآن الكريم على لسان إبراهيم عليه السلام يعظ

(١) سورة الأعراف ، الآية " ٦٢ " .

(٢) سورة الأعراف ، الآية " ٦٨ " .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية " ٢٧ " .

(٤) انظر التحرير والتنوير ٢٢ / ٣١ .

أباه قال تعالى : [إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً يَا أَبَتِ إِنَّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً] (١)

هذا السياق يفصح عن أدب إبراهيم عليه السلام وتواضعه وإخلاص النصيحة

له ، ففي إعادة نداءه بوصف الأبوه تأكيد لإحضار الزهن وإمحاء النصيحة . (٢)

وقد أشار كثير من المفسرين إلى أن الأمر في قوله " اتبعني " للنصح والإرشاد ، (٣) يقول الرازي فقوله " اتبعني " ليس أمر إيجاب بل أمر إرشاد ، (٤) أي فاتبعني وأقبل نصيحتي وإن كنت أصغر منك لأنني ولدك فأعلم أنني قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت ، ولم يصرح له بالتجهيل تأدباً وتلطفاً ، ولم يدع العلم الفائق تواضعاً ولأنه أقرب إلى الإجابة حيث قال " جاءني من العلم " أي بعضه ، (٥) أي إن معي طائفة من العلم وشيئاً منه ليس معك ، وذلك علم الدلالة على الطريق السوي فلا تستنكف ، وهب أنني وإياك في مسير وعندي معرفة بالهداية دونك فاتبعني أنجك من أن تضل وتتيه " (٦)

لقمان وابنه :-

ورد النصح والإرشاد في محكم التنزيل على لسان الحكيم لقمان ينصح ابنه قال تعالى { يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } . إلى قوله { وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ } (٧) تفصح هذه الآيات الكريمة عن حرص الحكيم لقمان على هداية ابنه وإصلاح أمره حيث جمع له في هذه النصيحة الجامعة الإرشاد إلى فعل الخير وبنه في الناس والنهي عن المنكر بجميع أشكاله وصوره ، ثم أعقب ذلك بأن

- (١) سورة مريم ، الآيتان " ٤١ - ٤٤ " .
- (٢) التحرير والتنوير ١٦ / ١١٥ .
- (٣) انظر تفسير الطبري ٦٨/٢٦ والكشاف ٥١١/٢ والتفسير الكبير ٢٢٦/٢١ .
- (٤) التفسير الكبير ٢١ / ٢٢٦ .
- (٥) انظر الطبري ٢٦ / ٦٨ وحاشية الشهاب ٦ / ١٦١ وجوه الخطاب في القرآن الكريم ص ١٩٣ .
- (٦) الكشاف ٢ / ٥١٠ وما بعدها .
- (٧) سورة لقمان ، الآيتان " ١٧ - ١٩ " .

أمره بالصبر على ما يصيبه ، ووجه تعقيب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بملازمة الصبر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يجران للقائم بهما معادة من بعض الناس فإذا لم يصبر على ما يصيبه من الأذى والصد والإعراض أوشك أن يتركهما (١) ثم تأمل هذه الجمل كيف عطف بعضها على بعض وبنيت بناءً محكماً حيث بدأ بالصلاة وعطف عليها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والمقيم لها جدير أن يأخذ على عاتقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن من يعرض نفسه لذلك جدير أن يلم به بعض الأذى ، فوصى من ينهض بهذا العبء أن يحتمل ويصبر ، وإذا كان قد أمره بالصلاة وهي خضوع للرب فجدير به ألا يمتلىء بالتيه والخيلاء وأن يسير على الأرض في تودة ويتحدث إن تحدث في وداعة وهدوء لأنه أوقر للمتكلم وأبسط لنفس السامع وأرجى لفهمه حيث علله بقوله " إن أنكر الأصوات لصوت الحمير " ذماً وتنقيراً وتهجيناً لرفع الصوت " (٢) يحقوب عليه السلام وأبناؤه :

ورد النصح والإرشاد على لسان يعقوب عليه السلام في قوله تعالى : [وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ لَا يَدْرُونَ لَوْلَا أَلَمَتْ أَعْيُنُهُمْ الْإِبْصَارُ وَاللَّهُ يَسْمَعُ وَبَصُرٌ بَصِيرٌ] (٣)

فالأمر في قوله : " ادخلوا " للنصح والإرشاد والإشفاق ، والسياق يوضح إشفاق يعقوب عليه السلام على أبنائه وخوفه الشديد عليهم مما قد يسوءهم من أثر العين فقال ناصحاً لهم لما أزمع على إرسالهم جميعاً (٤) ، بأن لا يدخلوا من باب واحد بل من أبواب متفرقة كما هو مذكور في الآية الكريمة .

كما أن المراد بالجملة المنفية " وما أغني عنكم من الله من شيء ... " تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة تأديباً مع واضع الأسباب ومقدر اللطف في رعاية الحاليين لأننا لانستطيع أن نطلع على مراد الله في الأعمال فعلينا أن نتعرفها بعلاماتها ولا يكون ذلك إلا بالسعي لها " (٥)

(١) راجع التحرير والتنوير ٢١ / ١٦٥ .

(٢) راجع من بلاغة القرآن ص ١٧٦ .

(٣) سورة يوسف ، الآية " ٦٧ " .

(٤) انظر تفسير أبي السعود ١١٦١٣ وروح المعاني ١٣ / ١٥ .

(٥) التحرير والتنوير ١٣ / ٢١ .

ومنه قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام يرشد أبناءه وينصحهم
[يَابَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْتَسُّوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا
يِيَّاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ] (١) .

يكشف السياق عن رغبة يعقوب عليه السلام في الاهتداء إلى إبنيه يوسف
وأخيه وشدة تعلقه بهما حيث طلب من أبنائه مواصلة البحث عنهما ، فالأمران في
قوله " اذهبوا " ، فتحسسوا " للنصح والإرشاد والرغبة ، وفي هذا يقول بعض
المفسرين " وهذا إرشاد لهم إلى بعض ما أبهم في قوله { وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ } (٢) ثم حذرهم عن ترك العمل بموجب نهيه " إنه لا ييأس من روح الله
إلا القوم الكافرون " لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته فإن العارف لا يقنط في حال من
الأحوال أو تأكيداً لما يعلمونه من ذلك " (٣) وهذه الجملة واقعة موقع التعليل للنهي
المتقدم في قوله " لا تيتسوا من روح الله " .
هُؤْمُرُ آلِ فِرْعَوْنَ :-

جاء النصح والإرشاد على لسان مؤمن آل فرعون في قوله تعالى : { وَقَالَ
الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ } (٤)
ففي قوله " اتبعون " يظهر جلياً معنى النصح والإرشاد والموعظة على لسان
هذا المؤمن فقد أخلص وأجمل النصيحة لقوله حين أمرهم بإتباعه لأنه وحده الذي
يهدىهم سبيل الرشاد وطريق الهداية وفي هذا التعبير " اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد
" كما يقول الزمخشري " تعريض شبيهه بالتصريح بأن ما عليه فرعون وقومه هو
سبيل الغي والضلال " (٥)

ومنه قوله تعالى : { وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى
إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَتَمَرُّونَ بِكَ لَيَقْتُلُونَكَ فَأَخْرِجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ } (٦) .

(١) سورة يوسف ، الآية " ٨٧ " .

(٢) سورة يوسف ، الآية " ٨٦ " .

(٣) انظر تفسير أبي السعود ١٨٢ / ٣ وما بعدها ، وروح المعاني ٤٤ / ١٣ .

(٤) سورة غافر ، الآية " ٢٨ " .

(٥) انظر الكشاف ٤٢٨ / ٣ والبحر المحيط ٤٦٦ / ٧ وغرائب القرآن بهامش تفسير

الطبري ٤٦ / ٢٤ ، وتفسير أبي السعود ١٨ / ٥ .

(٦) سورة القصص ، الآية " ٢٠ " .

فالأمر في قوله " اخرج " للنصح والإرشاد بدليل قوله " إني لك من الناصحين والفعل " اخرج " بجرسه وصوته السريع مناسب لمقام النصح والإرشاد ، لذا فقد أثر هذا الناصح التعبير بالفعل " اخرج " الدال بجرسه وإيقاعه السريع لأنه يكشف عن رغبته في خروج موسى بسرعة خوفاً عليه من بطش القوم .
للمسلمين :

ورد النصح والإرشاد للمسلمين في كثير من الأوامر القرآنية المتعلقة بالآداب الإسلامية والأخلاق العالية من ذلك قوله تعالى : { وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } (١)

فالأمر في قوله " استمعوا له وانصتوا " للإرشاد ، وفي هذا يقول الطاهر بن عاشور ((وهذا الخطاب للكفار على وجه التبليغ ، وللمسلمين على وجه الإرشاد لأنهم أرجى للانتفاع بهديه)) (٢)

ومنه قوله تعالى : { ... فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مَبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } (٣)

فالأمر في قوله " فسلموا " للندب والإرشاد لأنه أدب من آداب الإسلام التي حض الله عباده على التمسك بها وليس أمر تكليف .

ومنه قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } (٤)

فالأمر في قوله " فتبينوا " للنصح والإرشاد والتوجيه كما هو واضح من نظم الآية الكريمة .

وقد قررنا من قبل أن الأوامر التشريعية أوامر حقيقية تأتلف بها بعض المعاني البلاغية كالنصح والإرشاد والتوجيه والترغيب ، لذلك فقد وهم بعض الأصوليين والبلاغيين وتابعهم بعض المعاصرين (٥) ، حين استشهدوا على إفادة الأمر

(١) سورة الأعراف ، الآية " ١٠٤ " .

(٢) التحرير والتنوير ٢٣٩ / ٩ .

(٣) سورة النور ، الآية " ٦١ " .

(٤) سورة الحجرات ، الآية " ٦ " .

(٥) انظر المحصول ج١ ق ٢ ص ٥٨ والإبهاج في شرح المنهاج ١٧/٢ ، والأحكام في

أصول الأحكام ١٣/٢ ، وعروس الأفراح ٣٢١/٢ ، والاتقان ٢٤٣/٣ ومعتك الأقران

٤٤٢/١ ، وأساليب بلاغية ص ١١٢ وعلم المعاني للدكتور درويش الجندي ص ٢٨ .

لمعنى الارشاد بأوامر حقيقية تشريعية هي من صميم الأحكام الشرعية التي كلف الله بها عباده المسلمين منها قوله تعالى : { **وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ** } (١) وقوله تعالى : { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ** } (٢) .

والواقع أن الأوامر في الآيات التي استشهدوا بها هي أوامر حقيقية تشريعية للتكليف وليست للإرشاد إلا تبعاً كما هو واضح من السياق القرآني . والله أعلم .

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٢ " .

(٢) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٢ " .

الرجاء

بدلالة الرجاء لغة واصطلاحاً :

ذكر الراغب في المفردات بأن الرجاء : " ظن يقتضي حصول ما فيه مسرة " (١)
أما المفسرون فقد تعرضوا عند تفسير قوله تعالى : [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ
هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ] (٢) إلى تحديد دلالة الرجاء ، حيث عرفه الرازي بقوله " هو عبارة عن ظن
المنافع التي يتوقعها ، وأراد تعالى في هذا الموضع أنهم يطمعون في ثواب الله ، وذلك
لأن عبدالله بن جحش ماكان قاطعاً بالفوز والثواب في عمله ، بل كان يتوقعه
ويرجوه " (٣)

أما الطاهر بن عاشور فقد نص على أن الرجاء " ترقب الخير مع تغليب
ظن حصوله " (٤) .

أما البلاغيون فقد عدوا الرجاء من أساليب الإنشاء غير الطلبي ، ثم تعرضوا
عند حديثهم عن التمني إلى الفرق الدقيق بين التمني والترجي حيث يقول صاحب
المطول " الترجي ارتقاب شيء لا وثوق بحصوله ، فمن ثم لا يقال لعل الشمس تغرب ،
ويدخل في الارتقاب الطمع والإشفاق ، فالطمع ارتقاب المحبوب نحو لعلك تعطينا ،
والاشفاق ارتقاب المكروه نحو لعلني أموت الساعة ، وبهذا ظهر أن الترجي ليس بطلب
" (٥) ويقول العصام " وفيه بحث لأنه لا طلب في الترجي وإنما هو طمع وترقب فإذا
كان طلب المرجو على سبيل المحبة كان هناك تمن وترجي فإذا أتى بليت فقد أفيد
التمني دون الترجي ، وإذا أتى بلعل أفيد الترجي " (٦) .

(١) المفردات ص ١٩٠ انظر معجم مقاييس اللغة ٤٩٤/٢ ، واللسان ١٤٠٦/٣ ، ومعجم
الفاظ القرآن الكريم ١ / ٤٧٩ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢١٨* وراجع في الآية الكشاف ٣٥٧/٨ ، والبحر المحيط
١٥٢/٢ وتفسير أبي السعود ٣٢٩/٨ وحاشية الشهاب ٢٠٢/٢ وروح المعاني
١١١/٢ .

(٣) التفسير الكبير ٦ / ٤١

(٤) التحرير والتنوير ٢ / ٣٣٨ .

(٥) المطول ص ٢٢٦ .

(٦) الأول ١ / ٢٣٢ .

ويقول الدسوقي ((وعلى ما في المطول وهو التحقيق من أن الترجي ليس بطلب بل هو ترقب الحصول [حيث] (١) يكون التباين بينهما أظهر)) (٢) .
ونستخلص مما سبق أن الرجاء : ترقب الخير وطمع في حصوله ، كما أن بعضهم نص على أن الرجاء ليس بطلب . (٣)

وعلى كل حال فخرج الأمر إلى معنى الرجاء لا ضير فيه لأن الأساليب الإنشائية - كما نعلم - تخرج إلى معنى الخبر الصرف نحو قوله تعالى : { فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا } (٤) والرجاء كفرض من الأغراض البلاغية التي يفيدها أسلوب الأمر في القرآن الكريم جاء على السنة الشخصيات في سياق محاورات تأخذ بمجامع القلوب لنصاعة بيانها المشرق وعطائها المتجدد .
١ - في قصة يوسف عليه السلام :-

عرض القرآن الكريم قصة يوسف عليه مفصلة في سورة تحمل اسمه عليه السلام تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتثبيتاً لفؤاده وللتأسي به في صبره وجهاده في دعوته - حيث أیده الله بنصره ورفع مكانه علياً - ، ولأخذ العظة والعبرة منها .

وفي نسق هذه القصة جاءت بعض أساليب الأمر تفيد معنى الرجاء على السنة شخصيات متنوعة ، حيث جاءت على لسان أخوة يوسف ، وعلى لسان مبعوث الملك .

١ - يحقوب عليه السلام وأبناءؤه :-

ورد الرجاء على لسان إخوة يوسف عليه السلام في مواضع متفرقة من سورة يوسف منها قوله تعالى : { قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ، أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } (٥)

تكشف هذه الآية عن خداع إخوة يوسف ومكرهم للتفريق بين يوسف وأبيه ، فاستطاعوا بمكرهم إخراج يوسف معهم ، حيث تلطفوا في الحديث مع أبيهم وذكروا

(١) حاشية الدسوقي ٢ / ٢٣٩ .

(٢) انظر المصادر السابقة المطول ، والأطول وحاشية الدسوقي .

(٣) ما بين القوسين زيادة مني ليستقيم المعنى .

(٤) التوبة ٨٢ * وراجع في الآية الكشاف ٢/٢٠٥ والرازي ١٦/١٥٢ والبحر ٥/٨٠ وأبا

السعود ٢/٥٨٥ وحاشية الشهاب ٤/٣٥ .

(٥) سورة يوسف ، الآيتين ١٤ - ١٣ .

نصحهم له وما في إرساله معهم من انشراح صدر يوسف باللعب والارتعاء ،
وذكروا حفظهم وحرصهم على أخيهما مما قد يسوؤه .

ففي التعبير بقوله : " مالك لاتأمننا " دليل على أنهم تقدم منهم سؤال في أن
يخرج معهم وذكروا سبب الأمن وهو النصيح ، ((أي لم لاتأمننا عليه وحالتنا أننا له
ناصحون)) (١) .

كما أن في التعبير بقوله " يرتع ويلعب " استدراجاً لأبيهم ، وتحقيقاً لما راموه
من استصحاب يوسف عليه السلام بتصويرهم له بصورة مايلئم حالة يوسف عليه
السلام . (٢)

وبهذا يتضح أن الأمر في قوله " أرسله " للرجاء ونظيره قوله تعالى { فلما
رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسَلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلُ
وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } (٣) فالأمر في هذه الآية كسابقه للرجاء .

ومنه قوله تعالى { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا
فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } (٤) فالأمر في قوله " وأسأل " للرجاء كما هو واضح من
السياق بمعونة القرائن والأحوال .

ومنه قوله تعالى { قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا
خَاطِئِينَ } (٥) الأمر في قوله " استغفر لنا " يصور رغبة نفسية ورجاءً واعترافاً
بالذنب وتوبة نصوحاً ، فسألوا أباهم أن يطلب لهم المغفرة من الله الغفور الرحيم .
ب - يوسف ورسول الملك :-

ورد الرجاء على لسان رسول الملك في قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا
وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ } (٦)

فالأمر في قوله " أرسلون للرجاء والرغبة ، وهو خطاب إما للملك والجمع أو للملك
وحده على سبيل التعظيم ، وفي الكلام حذف تقديره فأرسلون إلى يوسف وإنما لم

(١) انظر البحر المحيط ٢٨٥/٥ وراجع الكشاف ٣٠٥/٢ .

(٢) تفسير أبي السعود ١١٥/٣ .

(٣) سورة يوسف ، الآية " ٦٣ " .

(٤) سورة يوسف ، الآية " ٨٢ " .

(٥) سورة يوسف ، الآية " ٩٧ " .

(٦) سورة يوسف ، الآية " ٤٥ " .

يذكره ثقة بما سبق من التذکر ومالحق من قوله في الآية التي بعدها " يوسف

أيها الصديق " (١)

ج - يوسف عليه السلام والفتيا :-

قال تعالى { يُوَسِّفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ } (٢)

ابتداء الرسول كلامه ببناء يوسف عليه السلام ووصفه بالصديق لأنه " ذاق

أحواله وتعرف صدقه ، وهذا من براءة الاستهلال كما ذكر أبو السعود . (٣)

والأمر في قوله " أفتنا " للرجاء والرغبة ، وفي الكلام حذف أي أفتنا في رؤيا

ذلك ، وإنما لم يصرح به لوضوح مراده بقريئة ماسبق من معاملتهما ولدلالة مضمون

الحادثة عليه حيث لا إمكان لوقوعه في عالم الشهادة أي بين لنا مآلها وحكمها ، وحيث

عين علو رتبته عليه السلام في الفضل عبر عن ذلك بالإفتاء ولم يقل كما قال هو

وصاحبه أولاً نبئنا بتأويله " ، كما أن في التعبير بقوله " أفتنا " مع أنه المستفتي

وحده إشعاراً بأن الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له ملابسة بأمور العامة وأنه في ذلك

معبر وسفير كما أذن بذلك حيث قال " لعلي أرجع إلى الناس " والمراد بالناس هنا

الملك وأهل مجلسه " (٤) .

د - إخوة يوسف والعزير :-

لاشك أن الأحداث في قصة يوسف عليه السلام تمضي في سرعة عجيبة ،

والمشاهد أو المناظر تتوالى مسرعة مع أن مكان الأحداث إما مصر وإما فلسطين ،

حيث يطوى السياق ذلك البعد وتقتضب الأسفار الشاقة (٥) ، من ذلك ما نراه في هذا

المشهد حيث نجد إخوة يوسف أمام العزيز قال تعالى { قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ

أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } (٦)

(١) انظر الكشاف ٢/٢٢٤ والتفسير الكبير ١٨/١٥٢ وتفسير أبي السعود ٣/١٥٣ .

(٢) سورة يوسف ، الآية " ٤٦ " .

(٣) تفسير أبي السعود ٣/١٥٣ وانظر الزمخشري ٢/٣٢٤ .

(٤) انظر تفسير أبي السعود ٣/١٥٣ والتحرير والتنوير ١٢/٢٨٥ .

(٥) انظر من الاعجاز البلاغي للقرآن ص ٢٣١ .

(٦) سورة يوسف ، الآية " ٧٨ " .

بالغ إخوة يوسف في استعطاف العزيز واسترحامه لإطلاق سراح أخيه حيث وصفوا أباهم بثلاث صفات تقتضي الترقيق عليه ، وهي حنان الأبوة ، وصفة الشيخوخة ، واستحقاقه جبر خاطره لأنه كبير قومه أو لأنه إنتهى في الكبر إلى أقصاه ، كما عرضوا عليه أن يأخذ بدله واحداً منهم ، واستعانوا في رجائه بتذكيره بإحسانه وصلاحه وبره لعله يلين قال تعالى : " إنا نراك من المحسنين " أي فاتهم إحسانك بإطلاق سراحه أو من عادتك الاحسان فأجر على عادتك ولا تغيرها . (١)

فالامر في قوله " خذ " للرغبة والرجاء، ومثله قوله تعالى على لسان إخوة يوسف [فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ] (٢)

تبين هذه الآية الكريمة حالة اخوة يوسف عند دخولهم على العزيز فهي حالة الضعف والضييق والانكسار حيث أضرت بهم المجاعة ونفدت نقودهم ، وجاءوا ببضاعة رديئة هي الباقية لديهم يشترون بها الزاد ، وفي حديثهم إنكسار لم يعهد في أحاديثهم من قبل ، وشكوى من المجاعة تدل على ما فعلت بهم الأيام ، وهي بلاشك حالة تبعث على الرحمة والشفقة والعطف " (٣)

ونلاحظ في هذا السياق كيف تعانق الفعلان " أوف " و " تصدق " لإفادة معني

الرجاء .

٢ - في قصة موسى عليه السلام :-

١ - موسى مع فرعون :-

ورد الرجاء في القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام في دعوته

لفرعون من ذلك قوله تعالى [وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ] (٤) .

(١) انظر الكشاف ٢/٢٣٦ وأبا السعود ٣/١٧٧ والتحرير والتنوير ١٢/٣٦ وفي ظلال

القرآن المجلد الرابع ص ٢٠٢٢ .

(٢) سورة يوسف ، الآية " ٨٨ " .

(٣) انظر تفسير أبي السعود ٣/١٨٢ وفي ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٠٢٦ وما

بعدها .

(٤) سورة الأعراف ، الآية " ١٠٤ - ١٠٥ " .

تكشف هذه الآيات عن رغبة موسى عليه السلام في إطلاق بني إسرائيل وتخليصهم من ظلم فرعون ويطشه ، فالأمر في قوله " ارسل معي بني إسرائيل " مستعمل في الرجاء والرغبة أي فخلهم حتى يذهبوا معي راجعين إلى الأرض المقدسة (١) .

وتقييده بقوله " معي " لأن المقصود من اخرجهم من مصر أن يكونوا مع الرسول ليرشدهم ويدبر شئونهم . (٢)

ونظيره قوله تعالى على لسان موسى وهارون عليهما السلام : [قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَاتِيَاهُ فَنَقُولًا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبَهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى] (٣)

فالأمر في قوله " فأرسل معنا بني إسرائيل " للرجاء والرغبة كما هو واضح من السياق وخصائص التراكيب .

ونلاحظ في هذا السياق تأييد الله لهما بأنه معهما يسمع ويرى وهذا تأييد

ليس بعده تأييد .

ب - بنو إسرائيل وموسى عليه السلام :-

تفيض بعض الآيات القرآنية التي جاءت على لسان بني إسرائيل بالرجاء والرغبة من ذلك قوله تعالى : [وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ...] (٤)

يبدو أن الأمر في قوله " ادع لنا ربك " للرجاء ، فهذه الآية تصور رغبتهم الأكيدة فيما ذكروه من مختلف الأطعمة ، ونلمح في طلبهم من الجفاء والغلظة وكفران النعمة مع الرسول ومع المنعم ما فيه حيث قالوا " لن نصبر على طعام واحد " فعبروا عن تناول المن والسلوى بالصبر المستلزم الكراهية حيث أكدوه بلن التي تدل على استغراق النفي .

" فادع لنا ربك " أي سله لأجلنا بدعائك إياه " يخرج لنا مما تنبت الأرض "

(١) الكشاف ١٠١/٢ وانظر تفسير أبي السعود ٢٨٥/٢ .

(٢) التحرير والتنوير ٩ / ٤٠ .

(٣) سورة طه ، الآيتين " ٤٦ - ٤٧ " .

(٤) سورة البقرة ، الآية " ٦١ " .

فهذا التعبير دليل على ثقتهم بإجابة الله لدعائه ، أي إن إخراج ماتنبتة الأرض يحصل بمجرد دعاء موسى ربه " (١)

وعلى كل حال فالفعل " ادع " جاء في القرآن يفيد أكثر من معنى بلاغي منها الرجاء (٢) ، من ذلك قوله تعالى على لسان بنى إسرائيل في قصة البقرة التي أمرهم الحق سبحانه بذبحها { قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافعلوا ما تؤمرون } (٣)

لاشك أن سؤالهم عن البقرة وصفتها دليل على مآطلتهم وقد نص القرآن على ذلك في قوله تعالى { فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ } ويدل على التعجب وفي هذا يقول الزمخشري " وذلك أنهم تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا ، فسألوا عن صفة تلك البقرة العجيبة الشأن الخارجة عما عليه البقر " (٤)

فقولهم " ادع " المراد منه الدعاء المعروف الذي هو طلب بخضوع وحرص على إجابة المطلوب فيكون في الكلام رغبتهم في حصول البيان لتحصيل المرجو من ذبح البقرة " (٥) فالامر في " ادع " للرجاء والرغبة ونظيره قوله تعالى : { قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لُونَهَا ... } (٦) وقوله تعالى : { قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَابَهُ عَلَيْنَا ... } (٧)

ج - موسى عليه السلام في مدين :-

إتجه موسى عليه السلام بعد خروجه من مصر خائفاً إلى مدين ، وتفاصيل هذه القصة معلومة لدينا ساقها القرآن في كثير من سوره ، وبخاصة في سورة القصص ، وفي معرض مشهد من مشاهد هذه القصة ، - مشهد موسى عليه السلام في مدين - جاءت بعض الآيات تنبض بالرجاء من ذلك قوله تعالى على لسان إبنة شعيب عليه

(١) التحرير والتنوير ٥٢١/٨ وما بعدها .

(٢) انظر المعجم المفهرس ص ٢٥٩ .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٦٨ " .

(٤) سورة البقرة ، الآية " ٧١ " .

(٥) الكشاف ٢٨٧/٨ وينظر تفسير أبي السعود ١٨٧/٨ وما بعدها .

(٦) سورة البقرة ، الآية " ٦٩ " .

(٧) سورة البقرة ، الآية " ٧٠ " .

السلام {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ
الْأَمِينُ} (١) فهذه الآية تفيض بمعاني الرجاء والرغبة والإشفاق على أبيها والخوف
عليه لكبر سنه والنصح له كما أن في وصفها لموسى عليه السلام " إن خير من
استأجرت القوي الأمين " تعليلاً جارياً مجرى الدليل على أنه حقيق بالاستئجار (٢)
وحول هذا المعنى يقول الزمخشري " هذا كلام جامع لايزداد عليه ، لأنه إذا
اجتمعت هاتان الخصلتان ، أعني الكفاية والأمانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم
مرادك ، وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذي سياقه سياق المثل والحكمة أن تقول
استأجره لقوته وأمانته " (٣) ويضيف ابن المنير " وهو أيضاً أجمل في مدح النساء
للرجال من المدح الخالص وأبقى للحشمة ، وخصوصاً إن كانت فهمت أن غرض أبيها
عليه السلام أن يزوجها منه " (٤)

د - بنو إسرائيل بحمد موسى عليه السلام :-

قال تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ
قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ
كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَالْنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ
أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ } (٥)

فالأمر في قوله " ابعث لنا " للرجاء والرغبة حيث طلبوا من نبيهم أن يعين
لهم ملكاً يقاتلون تحت إمرته " في سبيل الله " وهذا التحديد منهم لطبيعة القتال
وأنه في سبيل الله يشي بقوة العقيدة ويقظة الإيمان في نفوسهم ، وشعورهم بأنهم
أهل دين وعقيدة وحق ، وأن أعداءهم على ضلالة وكفر وباطل .

لكن نبيهم أراد أن يتأكد من صدق عزمهم وثبات نيتهم ، وجدهم فيما
يعرضون عليه من الأمر كما يفهم من قوله " قل هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا
تقاتلوا " فأجابوه بقول ينم عن صدقهم موضحين له من الأسباب التي تدفعهم إلى

(١) سورة القصص ، الآية " ٢٦ " .

(٢) تفسير أبي السعود ٤ / ٣٠١ .

(٣) الكشاف ٣ / ١٧٢ .

(٤) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال بهامش الكشاف ٣ / ١٧٢ .

(٥) سورة البقرة ، الآية " ٢٤٦ " .

القتال في سبيل الله في قولهم " ومالنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا " لكن السياق يكشف عن نكتهم بالوعد حيث يقول الحق سبحانه " فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم " وفي هذا دليل على جبنهم الشديد وعلى تخاذلهم ونكوصهم عن الحق المبين " (١) ، بيد أن السياق يستثني طائفة منهم جاهدت في سبيل الله " وهم الذين اكتفوا بالغرفة من النهر كما صرح بذلك أبو السعود " (٢) **داود عليه السلام والخصم** :

ورد الرجاء في قصة داود عليه السلام على لسان الملكين اللذين بعثهما الله إليه ليحكم بينهما بالعدل قال تعالى : [وَهَلْ آتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ، إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ] (٣)

توضح هذه الآيات الابتلاء الذي أبتلي به داود عليه السلام ، حيث أرسل الله - سبحانه وتعالى - إليه ملكين على هيئة البشر ليحكم بينهما بالحق ، لكن النبي الكريم تعجل بالحكم وقضى لأحدهما دون أن يستمع إلى الخصم الآخر .

وهو بلاشك إمتحان صعب لهذا النبي الملك الذي ولاه الله أمر الناس ليقضي بينهم بالحق والعدل ، وليتبين الحق قبل إصدار الحكم ، فهو إرشاد وتعليم له عليه السلام (٤) وليس بخاف أن الفعلين احكم . و " اهدنا " للرجاء .

المنافقون :

ورد الرجاء على لسان المنافقين في الآخرة قال تعالى : [يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ] (٥) .

(١) في ظلال القرآن المجلد الأول ص ٢٦ .

(٢) تفسير أبي السعود ١ / ٣٧١ .

(٣) سورة ص ، الآيتين " ٢١ - ٢٢ " .

(٤) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٣٠١٨ .

(٥) سورة الحديد ، الآية " ١٣ " .

تبين هذه الآية الكريمة حقيقة المنافقين وتبرز هذا النفاق المتأصل في نفوسهم المريضة فهم لا يستطيعون ترك النفاق والخداع والمداراة حتى في الآخرة يوم العرض والحساب (١) ، وعلى كل حال فالأمر في قوله " انظرونا نقتبس من نوركم " للرجاء "

المعذبون في الآخرة :-

ورد الرجاء في الآخرة على السنة المعذبين في نار جهنم من ذلك قوله تعالى
[وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ] (٢)

تكشف هذه الآية عن استجداء أهل النار لأهل الجنة ورجائهم في أن يمنوا عليهم بشربة ماء ، وأصحاب النار يعلمون أن ما في الجنة محرم عليهم ولكنهم لفرط ما هم فيه من الهول صاروا يطلبون ما لا سبيل إلى تحقيقه .

فعلى هذه الصورة ينتهي الحال بأصحاب النار ، وهي حالة تدل على الانكسار والذلة والحيرة والتخبط ، لقد أصبحت شربة الماء منتهى رجائهم ، ويا له من بلاء ذلك الذي أذل هذه النفوس المتطاولة وأرغم الأنوف الشامخة ، فما هي في العذاب وترجو الخلاص منه " (٣)

فالأمر في قوله " افيضوا علينا الماء " للرجاء والاستغاثة والتحسر على مافات منهم . ومنه قوله تعالى [وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ، قَالُوا أَوْ لِمَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي هَلَلٍ] (٤)
فالأمر في قوله " ادعوا " للرجاء ، ويجسد رغبة نفسية في الخلاص من عذاب جهنم ولو يوماً واحداً كما ذكروا .

(١) راجع مبحث السخرية من هذه الدراسة .

(٢) سورة الأعراف ، الآية " ٥٠ " .

(٣) انظر الكشف ٨٢/٢ ، ودلالات التراكيب ص ٢٥٢ وما بعدها وأسلوب الدعوة القرآنية ص ١٤٥ .

(٤) سورة غافر ، الآيتين " ٤٩ - ٥٠ " .

ولعل السر من وراء التعبير بقوله " خزنة جهنم " بدل قوله " لخزنتها " لأن في ذكر جهنم تهويلاً وتفظيلاً أو لبيان محلهم فيها بأن تكون جهنم أبعد دركات النار وفيها أعتى الكفرة وأطغاهم ، أو لكون الملائكة الموكلين بعذاب أهلها أقدر على الشفاعة لمزيد قربهم من الله تعالى " (١) والأخير غير قريب .

كما أن في قوله " يوماً " محذوفاً تقديره عذاب يوم ، أي مقدار يوم ، وهو كناية عن القلة أي يخفف عنا ولو زمنناً قليلاً " (٢) .

(١) انظر الكشاف ٤٢٠/٣ وتفسير أبي السعود ٥ / ٢١ .
(٢) التحرير والتنوير ٢٤ / ١٦٤ وما بعدها .

التمني

التمني في إصطلاح البلاغيين : طلب حصول الشيء على سبيل المحبة : (١)
وللتمني أدواته الموضوعة له أصلاً ، ومن بين الأساليب التي تفيد معنى
التمني في القرآن الكريم أسلوب الأمر حيث يخرج عن دلالة وضعه الأصلي فيفيد
التمني بدلالة القرينة والمقام .

والتمني في القرآن الكريم أدي بأساليب متنوعة كالأمر والنهي
والاستفهام والخبر ويهمننا في هذا الموضوع أن نتناول أساليب الأمر التي أفادت
معنى التمني في القرآن الكريم .

والتمني المفاد عن طريق الأمر في القرآن جاء فقط على السنة الكافرين
المعذبين في الآخرة بتنوع مراحلها ، ولتمنيهم درجات فحين يرون العذاب وأهواله
قبل معاناة ويلاته واصطلائهم بلهب جهنم المحرقة تكون الرغبة جارفة قوية والأمل
حياً حاراً في العودة إلى الدنيا ، وحين يقذفون في جهنم تتنوع أمانيتهم ومطالبهم
بالخروج منها أو العودة إلى الدنيا أو الهلاك والخلص النهائي .

ولعل السر البلاغي من وراء إفادة الأمر معنى التمني هو الرغبة الملحة في
سرعة تنفيذ التمني ، حيث نجد المأمور يسارع إلى تنفيذ ما أمر به ، كما أن الأمر
يتوقع تنفيذ المأمور به في الأمر مطلقاً .

والواقع أن أساليب الأمر التي تفيد معنى التمني في القرآن تتنوع بتنوع
مراحل الآخرة على نحو ماتكشف عنه وتبينه الصفحات التالية بعون من الله
وتوفيقه .

أول منازل الآخرة :-

لاشك أن الموت يعد المرحلة الأولى من مراحل الآخرة ، فبعده يفارق الإنسان
الحياة الدنيا وينتقل إلى الآخرة ، والمؤمن لايجزع عندما تحين ساعة وفاته بل يفرح
بلقاء ربه أما المشرك فيجزع منه ويتمنى أن يعود إلى الدنيا ليعمل جاهداً لإصلاح

(١) انظر شروح التلخيص ٢٣٨/٢ والمطول ص ٢٥٥ وتقدير الشمس الإنبايي

ما فات ، من ذلك قوله تعالى : [حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ
لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ
بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ] (١) .

تبدأ الآيات بمنظر الاحتضار ، وإعلان التوبة عند مواجهة الموت ، وطلب
الرجعة إلى الدنيا لتدارك ما فات ، فيتمنى العودة إلى الدنيا ليعمل صالحاً ، لكن
الرد على هذا التمني لا يوجه إلى صاحبه بل يعلن على رؤوس الأشهاد " كلا إنها
كلمة هو قائلها " (٢) فكلا " كلمة رددع للسامع ليعلم بإبطال طلب الكافر ، أما قوله :
إنها كلمة هو قائلها " فهذا تركيب يجري مجرى المثل وهو من مبتكرات القرآن ،
وحاصل معناه أن قول المشرك " رب أرجعون " لا يتجاوز أن يكون كلاماً صدر من
لسانه لا جدوى له فيه أي لا يستجاب طلبه . (٣)

وعلى هذا فالأمر في قوله : " رب أرجعون " للتمني (٤) .

وذكر الزركشي أن قوله " أرجعون " بمعنى ارجعني ، وإنما خاطب الواحد
المعظم بذلك وقيل " رب " استغاثة و" أرجعون " خطاب للملائكة ، وقال السهيلي (٥) -
وكان ذا حس رهف - هو قول من حضرته الشياطين وزبانية العذاب فاختلط
ولا يدري ما يقول من الشطط وقد اعتاد أمراً يقوله في الحياة من رد الأمر إلى
المخلوقين " وهي لفظة نفسية مصورة (٦) .

(١) سورة المؤمنون " ٩٩ - ١٠٠ " .

(٢) انظر في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٤٨. ومشاهد القيامة ص ٢٠٠ .

(٣) التحرير والتنوير ١٢٣/١٨ .

(٤) انظر الاساليب الإنشائية ص ٥٧ .

(٥) هو ابوالقاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد بن أصبغ الخثعمي السهيلي
الاندلسي المالكي ، مؤرخ أديب ، نحوي لغوي ، محدث ولد بمدينة مالقة سنة
٥٠٨ هـ وتوفي بمراكش سنة ٥٨١ هـ من مؤلفاته الروض الأنف ونتائج الفكر
والتعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام انظر ترجمته
وقيات الأعيان ٣٧١/٣ ومعجم المؤلفين ١٤٧/٥ .

(٦) انظر البرهان ٢٣٥/٢ والاتقان ١٠١/٣ والاساليب الإنشائية ص ٢٧٩ ودلالات

في الآخرة :-

١ - قبل دخول النار :-

ورد التمني في الآخرة على السنة المشركين ، وتمني المعذبين العودة إلى الدنيا إنما يعكس حسرة وندماً وألماً نفسياً لا يطاق تنبض به هذه الأساليب من ذلك قوله تعالى { وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتِكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ } (١) .

في هذه الآية الكريمة أمر الله سبحانه رسوله الكريم - صلى الله عليه وسلم - بإنذار المشركين وتخويفهم بالعذاب ((والمراد بالناس الكفار المعبر عنهم بالظالمين)) ولعل في التعبير بقوله " وأنذر الناس " بدل قولنا " وأنذرهم " للإشعار بأن المراد بالإنذار هو الزجر عما هم عليه من الظلم شفقة عليهم لا التخويف للإزعاج والإيذاء .

أما قوله { فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا } أي فيقولون ، والعدول عنه إلى ما عليه النظم الكريم للتسجيل عليهم بالظلم وللإشعار بأن ما لقوه من الشدة إنما هو لظلمهم ، ثم إن إيثاره على صيغة الفاعل حسبما ذكر أولاً للإيذان بأن الظلم في الجملة كاف في الإفضاء إلى ما ذكر من الأهوال من غير حاجة إلى الاستمرار كما ينبىء عنه صيغة الفاعل ، فالمعنى الذين ظلموا منهم وهم الكفار أو يقول كل من ظلم بالشرك والتكذيب من المنذرين وغيرهم . (٢)

ثم يضرع المشركون إلى الحق سبحانه متمنين أن يؤخرهم إلى أجل قريب { ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجيب دعوتك ونتبع الرسل } أي ردنا إلى الدنيا وأمهلنا

(١) سورة إبراهيم ، الآية " ٤٤ " .

(٢) انظر تفسير أبي السعود ٢٧٦/٣ وروح المعاني ٢٤٨/١٣ .

إلى أمد وحد من الزمان قريب نتدارك ما فرطنا فيه من إجابة دعوتك وإتباع رسلك " (١) .

فالأمر في قوله " ربنا أخرنا " للتمني .

ومنه قوله تعالى { وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ } (٢)

تصور هذه الآية الكريمة مشهداً من مشاهد الآخرة ، مشهد الخزي والاعتراف بالخطيئة والاقترار بالحق الذي جحدوه ، وإعلان اليقين بما شكوا فيه ، وطلب العودة إلى الأرض لإصلاح مافات في الحياة الدنيا ، وهم ناكسوا رؤوسهم خجلاً وخزياً وهذه الكلمة " ناكسوا رؤوسهم " بما لها من ارتباط نفسي تبرزهم في ذلة وضياع وإهمال ، وقوله [عند ربهم] - الذي كانوا يكفرون بلقائه في الدنيا - يكمل صورة الحقارة والهوان والخجل من التفريط ترهيباً من الكفر يبلغ المدى . (٣)

ثم تكشف الآية عن أمنيتهم في العودة إلى الدنيا لإصلاح مافات بإخلاص الطاعة والعبادة لله وحده ، فالأمر في قوله تعالى [ارجعنا] للتمني .

٢ - في النار :-

تعكس أساليب التمني التي جاءت على ألسنة المعذبين في نار جهنم رغبة ملحة وأملاً قوياً في الخروج منها والعودة إلى الدنيا أو القضاء عليهم ، من ذلك قولهم لمالك خازن النار قال تعالى : { وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ } (٤) .

(١) الكشاف ٢/٢٨٢ وراجع البحر المحيط ٥/٤٣٦ وتفسير أبي السعود ٣/٢٧٧ ومشاهد القيامة ص ١٩٦ .

(٢) سورة السجدة ، الآية " ١٢ " .

(٣) انظر من الاعجاز البلاغي للقرآن ص ١٢ للدكتور صباح دراز وظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٨١١ .

(٤) سورة الزخرف ، الآية " ٧٧ " .

أشار الرازي إلى أن العلماء اختلفوا في قوله { يامالك ليقض علينا ربك } فقال بعضهم للتمني ، وقال آخرون للاستغاثه (١) بيد أن الإمام البيضاوي وتابعه الشهاب الخفاجي وأبو السعود والألوسي رجح أن يكون الأمر للتمني حيث يقول " سل ربنا أن يقضي علينا من قضى عليه إذا أماته وهو لا ينافي إبلاسه فإنه جوار وتمن " (٢)

وإفتتاح الآية بندائهم بالفعل الماضي { نادوا } مع أنه مما سيقع يوم القيامة تنزيلاً للفعل المستقبل منزلة الماضي في تحقق وقوعه ، ولعل في التعبير بقوله "ربك" حيث أضافوا الرب إلى ضميره قصداً إلى حثه لا للإنكار . . (٣)

ويقول الزمخشري " فإن قلت كيف قال ونادوا يامالك بعدما وصفهم بالإبلاس ؟ قلت : تلك أزمنا متطاولة وأحقاب ممتدة فتختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتاً لغلبة اليأس عليهم وعلمهم أنه لا فرج لهم ويفوثون أوقاتاً لشدة ما بهم " (٤) .

ومنه قوله تعالى { أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاكْتُمْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ، رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ } (٥)

يتجلى في إعراف المعذبين الحسرة والمرارة والشقوة والضلال ، أما الأمر في قوله " أخرجنا " للتمني (٦) .

(١) التفسير الكبير ٢٢٨/٢٧ .

(٢) انظر تفسير البيضاوي بهامش حاشية بهامش حاشية الشهاب ٤٥١/٧ وتفسير

أبي السعود ٩٥/٥ وروح المعاني ١٠٢/٢٥ وراجع الأساليب الإنشائية ص ٥٧ .

(٣) روح المعاني ١٠٢ / ٢٥ .

(٤) الكشاف ٤٩٦ / ٣ .

(٥) سورة المؤمنون " ١٠٥ - ١٠٧ " .

(٦) أنظر الأساليب الإنشائية ص ٥٧ .

ونظيره قوله تعالى [وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ، وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ...] (١)

تصور هذه الآيات الكريمات مشهداً من مشاهد العذاب في نار جهنم يبدو فيه - بوضوح - القلق والاضطراب الذي ينتاب المعذبين ، فهم في عذاب دائم "لا يقضي عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها" ثم يطرق أسمعنا صوت غليظ مختلط الأصداء إنه صوت المعذبين في نار جهنم وكلمة " يصطرخون " بظلالها وجرسها الغليظ تلقي في الحس هذه الحركة وهذه الأصوات الغليظة المنبعثة من كل حذب وصوب ، منبعثة من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة إنها حناجر أدها العذاب وأضناها الجوار ، فهذه الكلمة تجسد صورة صوتية مستغيثة تفوق كل تصور . (٢)

أما قوله " ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل " فيبدو في هذا التعبير الاعتراف والندم لكن بعد فوات الأوان ، فهم يتمنون أن يخرجوا من النار فالأمر في " أخرجنا " للتمني وليس للدعاء لأن الدعاء لا يكون إلا في الدنيا .

ومنه قوله تعالى على لسان المعذبين في نار جهنم [قالوا ربنا من قدم

لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار] (٣) .

وتحتل هذه الأساليب أيضاً معنى الدعاء .

(١) سورة فاطر ، الآيتين " ٣٦ - ٣٧ " .

(٢) انظر من الاعجاز البلاغي للقرآن ص ١٤ ، وظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٩٤٥ ومشاهد القيامة ص ١١٧ وما بعدها

(٣) سورة ص ، الآية " ٦١ " .

المشورة

تعريف المشورة

ذكر الراغب في المفردات بأن المشاورة والمشورة : استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض ، وهي مأخوذة من قولهم شرت العسل إذا اتخذته من موضعه واستخرجته منه . (١)

والمشورة لون من الألوان البلاغية التي يفيدها أسلوب الأمر في القرآن الكريم .

من ذلك مشورة إبراهيم الخليل لولده إسماعيل عليهما السلام قال تعالى :
﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٢)

فالأمر في قوله { انظر ماذا ترى } للمشورة في أمر جليل لعلمه عليه السلام قوة يقينه وكمال عقله ورجاحته . (٣)

ويقول الزمخشري ((فإن قلت لم شاوره في أمر هو حتم من الله ؟ قلت : لم يشاوره ليرجع إلى رأيه ومشورته ولكن ليعلم ماعنده فيما نزل به من بلاء الله فيثبت قدمه ويصبره إن جزع ويأمن عليه من الزلل إن صبر وسلم ، وليعلمه حتى يراجع نفسه فيوطنها ويهون عليها ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به ، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله قبل نزوله)) (٤) .

وفي ابتداء الجواب بالنداء واستحضار المنادى بوصف الأبوة وإضافة الأب إلى ياء المتكلم المعوض عنها بالناء مزيد من الترقيق والتحنن والاستعطاف ، كما أن في التعبير عن الذبح بالموصول وهو " ما تؤمر " دون أن يقول " اذبحني " إيماء إلى السبب الذي جعل جوابه إمتثالاً لذبحه . (٥)

ومن ذلك قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام { قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ فَأَرَادُوْهُ بِكِدٍ أَكْبَرًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ } (٦) .

(١) المفردات ص ٢٧٠ .

(٢) سورة الصافات ، الآية " ١٠٢ " .

(٣) الأساليب الانشائية وراجع عروس الأفراح ٢ / ٢٢١ .

(٤) الكشاف ٢ / ٣٤٨ .

(٥) التحرير والتنوير ٢٣ / ١٥١ .

(٦) سورة الصافات ، الآيتين " ٩٧ - ٩٨ " .

لما غلبهم إبراهيم عليه السلام بالحجة مالوا إلى الغلبة بقوة الشوكة والجمع حيث أشار بعضهم على بعض بإلقائه في النار لكن الله سبحانه وتعالى رد كيدهم إلى نحورهم وجعلهم من الخاسرين .

ونظيره قوله تعالى: { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } (١)
فالأمر في قوله: { اقتلوه أو أحرقوه } للمشورة وإن صور شدة الانفعال والحقد ورغبتهم الأكيدة في الانتقام منه والضيق به (٢)

ومما جاء للمشورة قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته { اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ، قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ قَاعِلِينَ } (٣)

تصور هذه الآيات الكريمات ضعف النفوس والحقد الذي يغلي في الصدور ، وتعرض هذه القصة كإنموذج يوضح هذه الحقيقة .

وليس من شك في أننا نلمس من خلال التعبير القرآني في هذا السياق سيطرة الحقد العجيب الذي سيطر على أخوة يوسف عليه السلام وكيف أوصلهم إلى ما أوصلهم إليه حيث تشاوروا فيما بينهم في قتله أو نفيه ، وفي هذا الصدد يقول أبو حيان ((قيل هو من قول قوم استشارهم إخوة يوسف فيما يفعل به فقالوا ذلك والظاهر أن أو اطرحوه هو من قولهم أن يفعلوا به أحد الأمرين ويجوز أن تكون أو للتنويع أي قال بعض اقتلوا يوسف وبعض اطرحوه)) (٤) وعموماً فالأمر للمشورة كما يدل عليه السياق ويقتضيه المقام .

ومن المشورة قوله تعالى على لسان ملك مصر { يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنَّ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبِرُونَ } (٥) .

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٢٤ .

(٢) راجع في الآية الكشاف ٢٠٢/٣ والبحر المحيط والنهر الماد ٢٤٧/٧ وروح المعاني ١٥/٢ .

(٣) سورة يوسف ، الآيتين ٩ - ١٠ .

(٤) البحر المحيط ٢٨٢/٥ وراجع في الآية الكشاف ٣٠٥/٢ والتفسير الكبير ٩٧/١٨ وحاشية الشهاب ١٥٨/٥ .

(٥) سورة يوسف ، الآية ٤٣ .

ومنه قوله تعالى على لسان بلقيس { يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأَوْلُو بِأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ } (١) فالأمر في قوله (أفتوني - وانظري) للمشورة ، والأسلوب ينبىء مع المشورة عن الحيرة والفزع ومحاولتها كأنثى التخفف من أعباء ثقال وخوفها من اتخاذ القرار ، بل إن الجملة الثانية { ماكنت قاطعة أمراً حتى تشهدون } لتكشف القناع عن ضعف بشري زاده ضعف الأنثى إرتعاشاً وقلقاً . (٢)

ونلمح في جواب المستشارين مطلق الطاعة والأمانة والاستعداد لتنفيذ كل ما تأمرهم به وكمال الأدب حيث قالوا { فانظري ماذا تأمرين } ولم يقولوا فانظري ماذا ترين أو ماذا تفعلين أو نحو ذلك ، وإنما قالوا نحن مستعدون لتنفيذ أي أمر تأمرين ، فنحن أولوا قوه وبأس شديد . (٣)

ومنه قوله تعالى على لسان قوم فرعون عندما استشارهم فرعون اللعين في موسى وأخيه هارون عليهما السلام { قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَا تَوَكُّبِكُمْ لِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ } (٤)

ذكر كثير من المفسرين في تفسير هذه الآيات الكريمات أن الأمرين (أرجه وأرسل) للمشورة (٥) ، بدليل قوله { فَمَاذَا تَأْمُرُونَ } بمعنى تشيرون .

ومما جاء للمشورة قوله تعالى في قصة أصحاب الكهف { ... إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمُ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِدًا } (٦) .

فالأمر في قوله " ابنوا " كما يفهم من السياق للمشورة .

-
- (١) سورة النمل ، الآيتين " ٢٢ - ٢٣ " .
 - (٢) الأساليب الإنشائية ص ٦٢ .
 - (٣) انظر أسلوب المحاورة في القرآن الكريم ص ١٣٠ - ١٣٤ .
 - (٤) سورة الأعراف ، الآيتين " ١٠٨ - ١١٢ " .
 - (٥) انظر الكشاف ٢ / ١٠٢ والبحر المحيط ٤ / ٣٥٩ وتفسير أبي السعود ٢ / ٣٨٦ وما بعدها والتحرير والتنوير ٩ / ٤٣ .
 - (٦) سورة الكهف ، الآية " ٢١ " .

الإلتماس

الإلتماس لغة واصطلاحاً :

١ - في اللغة :-

الالتماس : الطلب ، والتمس : التطلب مرة بعد أخرى ، والتمس الشيء

وتلمسه : طلبه . (١)

٢ - في الاصطلاح :

عرف البلاغيون الالتماس : بأنه طلب الأمر من المتساويين منزلة ، وقد

أوضحه القزويني بقوله ((إذا استعملت فيه على سبيل التلطف كقولك لمن

يساويك في الرتبة " افعل " بدون الاستعلاء)) (٢)

واسلوب الالتماس أسلوب تنسم في أعطافه الرقة وحسن الخطاب وأدب

التعبير ، وهذا ما نلمسه في لغتنا العادية كقولك لصديقك مثلاً : اعطني القلم لو

سمحت أو لو تكرمت ، أو فضلاً لا أمراً وغير ذلك .

وقد أوماً البلاغيون إلى هذا المعنى وألحوا إليه بقولهم ((على سبيل

التلطف)) واشترطهم عدم الاستعلاء في أساليب الأمر التي تفيد معنى الالتماس .

والالتماس كلون من الألوان البلاغية في البيان القرآني أدبي بأساليب

متنوعة من بينها الأمر . ، ونقدم هذا التحليل من خلال الأغراض القرآنية :-

يوسف عليه السلام في السجن -

أفادت بعض أساليب الأمر التي وردت في قصة يوسف عليه السلام وهو في

السجن الالتماس من ذلك قوله تعالى على لسان الفتيتين اللذين كانا معه في السجن

((وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي

أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)) (٣)

فالامر في قوله " نبئنا " للالتماس .

(١) انظر مقاييس اللغة ٢١٠/٥ والصحاح ٩٧٥/٣ واللسان ٤٠٧٣/٥ .

(٢) انظر الايضاح ٢٤٢/١ وشروح التلخيص ٢٢٠/٢ وبغية الايضاح ٥٥/٢ ومعجم

المصطلحات البلاغية ص ٢١٧ وعلم المعاني د. درويش الجندي ص ٣٧ .

(٣) سورة يوسف ، الآية " ٣٦ " وراجع في الآية الكشاف ٣١٩/٢ والتحرير والتنوير

وقد توسم الفتیان فی یوسف علیہ السلام رجاجة العقل وكمال الفهم ، وظنا أنه یحسن تعبیر الرؤیا یتضح ذلك من خلال التعبیر بقولهم { إنا نراك من المحسنین } ومنه قوله تعالى : { وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ } (١) .

الأمر فی قوله " اذكرني " مستعمل فی الالتماس كما هو واضح من السياق ومنه قوله تعالى : { وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النُّسُوءِ الَّتِي كُتِبَ عَلَيْكُنَّ بِهَا لُجُومٌ مِّنْكُمْ فَأَجَابَ لَهُنَّ رَبُّهُنَّ إِنَّ رَبَّيَ بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ } (٢) وفي هذه الآية بنظمها وتراكيبها الموحية نجد يوسف عليه السلام قد أبى الخروج من السجن قبل أن تثبت براءته ، ولهذا ((قدم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن بسببه لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عند الملك ويجعلوه سلماً إلى حط منزلته لديه ، ولئلا يقولوا ماخذ في السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم وجرم كبير حق به أن يسجن ويعذب ويستكف شره)) (٣) .

كما أن في التعبیر بقوله { ارجع إلى ربك فأسأله } ولم يقل سله أن يفتش عن شأنهن ذروة الأدب وكماله ، ولأن السؤال مما يهيج الإنسان ويحركه للبحث عما سئل عنه ، فأراد أن يورد عليه السؤال ليجد في التفتيش عن حقيقة القصة حتى تتضح له براءة يوسف عليه السلام ونزاهته .

ثم يجيء قوله : إن ربي بكيدهن عليم ((تذييلاً وتعريضاً بأن الكشف سينجلي عن براءته وظهور كيد الكائدات له ثقة بالله ربه أنه ناصره لا محالة)) . (٤)

أهل الكهف :-

في قصة أصحاب الكهف ومن خلال الحوار الذي دار بينهم جاءت أساليب الأمر

(١) سورة يوسف ، الآية " ٤٢ " .

(٢) سورة يوسف ، الآية " ٥٠ " .

(٣) الكشاف ٢ / ٢٢٥ .

(٤) انظر الكشاف ٢/٣٢٥ وما بعدها وتفسير أبي السعود ١٥٦/٣ والتحرير والتنوير

٢٨٨/١٢ وما بعدها .

تفيد معنى الالتماس من ذلك ماورد في قول الحق سبحانه في كتابه العزيز { وَكَذَلِكَ
بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ
بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى
الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ
بِكُمْ أَحَدًا } (١)

في هذا السياق القرآني نلاحظ توالي أساليب الأمر وتعانقها في إفادة معنى
الالتماس والتشاور ، حيث أشار بعضهم بإرسال أحدهم إلى المدينة لطلب الطعام ،
وأوصوه بتوخي الحرص وأخذ الحيطة والخذر حتى لايفتضحوا وينكشف أمرهم ، كما
أنني ألح في نصيحتهم له { وليتلطف ولايشعرون بكم أحداً } الخوف والوجل
الشديد (٢)

المنافقون والالتماس :-

ورد الالتماس في القرآن الكريم على السنة المنافقين في قوله تعالى { قَدْ يَعْلَمُ
اللَّهُ الْمُعْوِقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا } (٣)
فالتعبير بقوله " هلم " أمراً أو اسم فعل أمر على خلاف بين النحاة (٤) ،
للالتماس لوجود قوله { القائلين لإخوانهم } الذي يؤكد أن الأمر - أو الطلب بمعنى
أدق - صادر من المتساويين منزلة ورتبة .

وإفتتاح هذه الآية بقوله { قد يعلم الله المعوقين منكم } دليل على تحقيق علم
الله لهؤلاء المثبطين من المنافقين ، وتحقيق علم الله يعني تحقيق الوعيد والتهديد ،
لأن المراد بهذا الإخبار تهديد هؤلاء ووعيدهم بما أعد لهم العليم من العذاب والسعير .
أما التعبير بقوله { والقائلين لإخوانهم هلم إلينا } يصف خلقاً ثانياً من أخلاق
المنافقين ، يصف تجمعهم وتحالفهم ضد الحق ومسيرة الخير ، وهذا أخطر من التثبيط

(١) سورة الكهف ، الآية " ١٩ " .

(٢) راجع في الآية الكشاف ٤٧٦/٢ ومابعدها وتفسير أبي السعود ٥٠٩/٣ والتحرير
والتنوير ٢٨٤/١٥ ومابعدها والتصوير الفني ص ١٩٢ - ١٩٣ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية " ١٨ " .

(٤) راجع الكتاب ٢٤١/١ - ٢٤٦/١ - ٢٥٢ ، ٥٢٩/٣ والمقتضب ٢٥/٣ وشرح المفصل
لابن يعيش ٤١/٤ ومابعدها وشرح الكافية في النحو للاستراباذي ٧٢/٢ .

نفسه لأنه بناء كيان لهذا الشر في حياة الناس ، وهذا الكيان يتوارث تلقائياً في أجيال البشرية يجده كل جيل في صورة هذه الشخوص التي عنتها الآيات ((١) .

(١) انظر أسرار التعبير القرآني ص ٧١ - ٧٤ .

الدعاء

دلالة الدعاء في اللغة والقرآن الكريم :

للدعاء في اللغة والقرآن الكريم دلالات لغوية متعددة منها :

أن الدعاء بمعنى النداء ، يقال دعاه يدعوه دعاءً : ناداه وطلبه

وبمعنى العبادة : يقال : دعاه : عبده .

وبمعنى الاستعانة والاستغاثة يقال دعاه : استعانه واشتغاث به .

وبمعنى التسمية نحو دعوت ابني زيداً أي سميته زيداً .

وبمعنى الحث على الشيء يقال دعاه إلى الشيء وللشيء : حثه عليه ، ودعاه

إلى الله : أي إلى عبادته .

وبمعنى التضرع إلى الله - وهو مايعنينا هنا - فيقال : دعا الله يدعوه

دعاء : سأله كشف ضر أو سوق نفع . (١)

ويقول صاحب اللسان " والدعاء على ثلاثة أوجه : فضرب منها توحيد

والثناء عليه كقول: " ربنا لك الحمد " إذا قلته دعوتك بقولك " ياربنا " ثم أتيت

بالثناء والتوحيد ومثله قوله تعالى : { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ

الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي .. } (٢) فهذا ضرب من الدعاء ، والضرب

الثاني : مسألة العفو والرحمة ومايقرب منه كقولك : اللهم اغفر لنا ، والضرب

الثالث : مسألة الحظ من الدنيا : اللهم ارزقني مالا وولداً ، وإنما سمي هذا جميعه

دعاء لأن الانسان يُصَدَّرُ في هذه الأشياء بقوله : ياالله ، يارب ، يارحمن ، فلذلك

سمي دعاء (٣) .

والدعاء عند البلاغيين :-

طلب الفعل على سبيل التضرع والخضوع لله تعالى ، وذلك بأن يكون صادراً

من الأدنى إلى الأعلى " (٤)

(١) انظر المفردات ص١٦٩ ومابعدها والصحاح ٢٣٣٦/٦ ومابعدها واللسان ١٣٨٥/٢

ومابعدها ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ٤٠٨/١ .

(٢) سورة غافر ، الآية " ٦٠ " .

(٣) اللسان ١٣٨٥/٢ .

(٤) انظر الايضاح ٢٤٣/١ وشروح التلخيص ٢٣٠/٢ والمطول ص٢٤١ والأطول

٢٤٩/١ وبغية الايضاح ٥٥/٢ .

والدعاء في البيان القرآني جاء بأساليب متنوعة من الأمر والنهي والاستفهام والخبر خروجاً عن المعنى اللغوي إلى معنى الدعاء وهو التضرع والخضوع من العبد لخالقه عز وجل . (١)

كما جاء في صورة المصدر النائب عن فعله - وهذه كما نعلم إحدى صيغ الأمر عند البلاغيين - قال تعالى { وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } (٢) .

كما جاء الدعاء بصيغة الاستعاذة لجأ الى الله وهرباً إليه قال تعالى { رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ } (٣) .

والدعاء في البيان القرآني ورد على السنة الأنبياء عليهم السلام ، وعلى

السنة المؤمنين ، وعلى لسان إبليس اللعين ، بل وعلى السنة المعذبين في الآخرة .

فمن دعاء نوح عليه السلام وقد علمه الله إياه قال تعالى : { فَإِذَا اسْتَوَيْتَ

أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَقُلِ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ } (٤) ومنه قوله تعالى

على لسان إبراهيم عليه السلام . { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأصْنَامَ } (٥) ، وقوله تعالى { رَبَّنَا وَأَبْعَثْ

فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } (٦)

ودعاء سليمان عليه السلام قال تعالى: { فَتَبَسَّمْ ضاحكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ

رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ

(١) راجع الساليب الإنشائية ص ٦٧ .

(٢) سورة البقرة، الآية " ٢٨٥ " .

(٣) المؤمنون " ٩٧ " وراجع الأساليب الإنشائية ص ٦٤ .

(٤) سورة المؤمنون ، الآيتين " ٢٨ - ٢٩ " .

(٥) سورة إبراهيم ، الآية " ٣٥ " .

(٦) سورة البقرة ، الآية " ١٢٩ " .

صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ { (١) .

في هذا السياق نلاحظ إيثار التعبير بقوله { أوزعني } لما يشي به من معان وظلال تتناسب مع هذا الموقف .

فهو يصور رغبة سليمان عليه السلام في إخلاص الدعاء والشكر لله ، أي ألهمني وأجمع كل جوارحي ومشاعري ولساني وجميع طاقاتي لتكون كلها في شكر نعمتك عليّ وعلى والدي .

وهذا التعبير يشي بنعمة الله التي مست قلب سليمان عليه السلام في تلك اللحظة ويصور نوع تأثيره وقوة توجهه ، وارتعاشه وجدانه ، وهو يستشعر فضل الله الجزيل ، ويتمثل يد الله عليه وعلى والديه ، ويحس بالنعمة والرحمة في ارتياح وابتهاال (٢) .

ودعاء زكريا عليه السلام { وَكَانَتْ إِمْرَاتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً يَرْثُنِي وَيَرْثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً } (٣)

وانظر إلى جمال التعبير بقوله { هب لي } حيث يصور رغبة زكريا عليه السلام الملحة في أن يرزقه الله ولداً ، ويجسد بجرسه السريع شدة فاقته وحاجته لهذا الولد ولا ينسى زكريا عليه السلام أن يصور أمله في ذلك الوريث الذي ينتظره أن يجعله الله رضيعاً لا جباراً ولا غليظاً ولا متبظراً ولا عاقاً ، ولفظه " رضى " تلقي هذه الظلال ، فالرضي الذي يرضى ويرضى ، وينشر ظلال الرضى فيما حوله ومن حوله

فالألفاظ والمعاني والظلال وجرس الألفاظ ، كلها تشارك في تصوير مشهد هذا الدعاء . (٤)

(١) سورة النمل ، الآية " ١٩ " .

(٢) انظر مفردات الراغب ص ٥٢٢ وظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٦٣٦ وما بعدها .

(٣) سورة مريم ، الآيتين " ٥ - ٦ " .

(٤) انظر في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٣٠٢ .

ومما جاء منه على السنة المؤمنین قوله تعالى { رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ } (١) .

وعلى لسان امرأة فرعون قال تعالى { وَضُرِبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } (٢) .

في هذا الدعاء نلاحظ أنها أثرت التعبير ببعض الألفاظ التي تجسد رغبتها في الخلاص والنجاة من طغيان فرعون وجبروته وطغيان قومه . فالتعبير بقوله " ابن لي عندك بيتاً " يصور خوفها وعدم استقرارها رغم أنها كانت تعيش في قصر مشيد لكنها لا تشعر فيه بالأمان والسكينة فلذلك لهجت بالدعاء إلى الله بأن يبني لها بيتاً في الجنة تطمان فيه وتركن إلى الهدوء والسكينة وتشعر فيه بالأمان . كما أن تكرار الفعل " نجني " يجسد ضعف المرأة وخوفها الشديد من فرعون وملئه .

ومما جاء على السنة الملائكة للمؤمنين قوله تعالى { الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ } (٣) .

كما جاء الدعاء على لسان إبليس اللعين حيث طلب من الله أن يمهله إلى يوم البعث ولم يطلب إلا مقدوراً إختباراً من الله لعباده قال تعالى { قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ } (٤) .

(١) سورة آل عمران " ١٩٣ - ١٩٤ " .

(٢) سورة التحريم ، الآية " ١١ " .

(٣) سورة غافر ، الآية " ٧ " .

ومما جاء على السنة المعذبين في نار جهنم قوله تعالى : { كَلِمًا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ } (١) فهذا السياق يجسد غيظهم الشديد وضيقهم بهؤلاء المذبلين ، ويصور رغبتهم في أن يضاعف الله للمذبلين العذاب ضعفين ، ولذا نلمح السرعة والخفة المناسبة للانفعال والضيق من خلال إثارة التعبير بالأمر من الفعل ((أت)) .

مما سبق نلاحظ كماله الدكتور صباح دراز :-

أن كل دعاء يتناسب مع الداعي وقدره ومطلبه ، وكل دعاء يختلف عن الآخر فدعاء الأنبياء مثلاً يختلف أسلوباً ومقاماً عن دعاء عباد الرحمن ، وكذلك الحال بالنسبة لدعاء الملائكة يختلف عن دعاء اللعين إبليس .

كما يلتزم في أساليب الدعاء اسم رب وربنا دون أي اسم آخر من أسمائه الحسنى لأن صفة الربوبية - بما فيها من معاني التربية والإنعام والتفضل وهي آثار لاتنقطع دنيا وأخرة - أنسب وفيها اعتراف بالربوبية ولجوء إلى مصدر الخير أملاً في الإجابة .

ولم يذكر وصف آخر إلا في موطن واحد في سورة يوسف من دعائه ختاماً لهذه القصة قال تعالى : { رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } (٢) .

فقد بدأ بالاسم { رب } ثم { فاطر } أي يفاطر السموات والأرض ، وهذا مناسب لعظيم العطاء والاعتدال على النعم الخاصة في أحداث القصة المحكمة من إخراجة من السجن وإيتائه الملك وتعليمه التأويل ، كما أنه مناسب لحكمة يوسف في جوامع دعائه (٣) .

(١) سورة الأعراف ، الآية " ٢٨ " .

(٢) سورة يوسف ، الآية " ١٠١ " .

(٣) الأساليب الإنشائية ص ٦٥ - ٦٦ .

كما التزم في الدعاء حذف أداة النداء " يا " من " رب " لكثرة الاستعمال أو

لإحساس الداعي وشعوره بالقرب من ربه ، والإيناس بهذا القرب . (١)

وعلى كثرة مانودي الرب في القرآن كما يقول الدكتور أحمد بدوي - لم أعر عليه مسبقاً بحرف النداء إلا في تلك الآية الكريمة { وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّيُؤْمِنُونَ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } (٢) وألح في المجيء بحرف النداء هنا خاصة ، تعبيراً عن حالة نفسية أملت بالرسول ، وقد أفرغ جهده في دعوة قومه وإنذارهم ، فلم يزداهم ذلك إلا تمادياً في كفرهم ، فأطبق السهم على فؤاده ، وكأنما شعر بتخلي الرب عن نصرته ، وبعده عن أن يمد إليه يد المساعدة ، فأتى بحرف النداء ، كأنما يريد أن يرفع صوته زيادة في الضراعة إلى الله ، واستجلاب رضاه " (٣)

وقد يسبق النداء ثناء على الله كثناء يوسف عليه السلام قال تعالى :

{ قَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ... } (٤)

وقد يعقب الدعاء بتذليل يؤكد مضمونه ويقوي الأمل في الإجابة (٥) نحو قوله تعالى على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام { رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } (٦) وقوله تعالى : { رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ } (٧) .

كما نلاحظ في أساليب الأمر التي تفيد الدعاء في القرآن الكريم تقديم

ضمير الداعي على المفعول وهو ذات الدعاء أملاً في الإجابة وطمعاً في الرحمة

(١) الأساليب الإنشائية ص ٦٦ ومن بلاغة القرآن للدكتور أحمد بدوي ص ١٦٨ .

(٢) سورة الزخرف ، الآية " ٨٩ " .

(٣) سورة يوسف ، الآية " ١٠١ " .

(٤) من بلاغة القرآن ص ١٦٩ .

(٥) انظر الأساليب الإنشائية ص ٦٦ .

(٦) سورة البقرة ، الآية " ١٢٧ " .

(٧) سورة الأعراف ، الآية " ١٥١ " .

وتصويراً لأشواق النفس حين تضع أمالها على باب الكريم المنان قال تعالى { فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا } (١) وقوله تعالى : { رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي } (٢) .

كما نلاحظ أن أساليب الأمر التي أفادت الدعاء في القرآن تفاوتت وتباينت من حيث المقاصد فبعضها مقاصد دنيوية كما في قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام : { فَهَبْ لِي وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثْ أَلْ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا } (٣) وقوله تعالى : { أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } (٤) وبعضها مقاصدها دينية أخروية نحو قوله تعالى : { رَبَّنَا فَارْحَمْنَا إِنَّ دُنُوبَنَا كَثِيرٌ مَعَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ، رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ } (٥) .

(١) سورة مريم ، الآية " ١٢٧ " .

(٢) سورة طه ، الآية " ٢٥ " وانظر الاساليب الإنشائية ص ٦٧ .

(٣) سورة مريم ، الآية " ٥ - ٦ " .

(٤) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٦ " .

(٥) سورة آل عمران ، الآيتين " ١٩٣ - ١٩٤ " .

الإلهاب والتهيج

الإلهاب في اللغة :-

ألهب النار فالتهمت أي أوقدها ، وألهب البرق إلهاباً ، وإلهابه : تداركه حتى لا يكون بين البرقتين فرجة ، وفي حديث صعصعة قال لمعاوية : إني لأترك الكلام فما أرفه به ولا ألهب فيه أي لا أمضيه بسرعة ، والأصل فيه الجري الشديد الذي يثير اللهب وهو الغبار الساطع كالدخان المرتفع من النار . (١)

أما التهيج : فمأخوذ من هاجت الحرب إذا اشتدت . (٢)

الإلهاب والتهيج في إصطلاح البلاغيين :

ذكر العلوي (٣) بأنهما ((مقولان على كلام دال على الحث على الفعل لمن لا يتصور منه تركه وعلى ترك الفعل لمن لا يتصور منه فعله ، ولكن يكون صدور الأمر والنهي ممن هذه حالة على جهة الإلهاب والتهيج له على الفعل أو الكف لاغير)) . ثم يضيف ((فهذان نوعان من الكلام يردان في الكلام الفصيح والخطب البالغة ولولا موقعها في البلاغة أحسن موقع لما وردا في كتاب الله تعالى الذي أعجز الثقلين الإتيان بمثله أو بأقصر سورة من سوره)) (٤)
بإلغة هذا النوع :

إثارة الشعور والوجدان والانفعال وهز المشاعر ودغدغة العواطف حيث تكون النفس عند سماعه أحسن تلقياً وأكثر تمسكاً به ، ولذلك نجد هذا الفن مستعملاً في المعاني الهامة التي هي أصول في هذا الدين . (٥)

(١) اللسان ٤٠٨٢/٥ وما بعدها وانظر معجم المصطلحات البلاغية للدكتور أحمد مطلوب ص ٢٠٩ .

(٢) السابق ٦ / ٤٧٣٣ .

(٣) أشار الدكتور محمد أبو موسى في كتابه البلاغية القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٦٢٦ * بأن هذا النوع من البديع في كلام العلوي مستنبط من الكشاف وليس له فيه إلا أنه جعله صنفاً مستقلاً وجمع فيه هذه الشواهد وهي منثورة في الكشاف .

(٤) الطراز ٣ / ١٦٥ - ١٦٧ .

(٥) راجع من أسرار التعبير القرآني ص ٨

و حين ننظر إلى أساليب الإلهاب والتهبيج في القرآن الكريم نجدها تختلف باختلاف المخاطب على نحو ما يتضح في هذه الدراسة :
بين الإلهاب والتهبيج والدوام :

تتداخل دلالة الإلهاب والتهبيج بدلالة الدوام في كثير من الأساليب لما بينهما من قرب شديد ، بحيث يصعب علينا أن نميز بينهما ، وهذا لا يعني أنه لا تباين بينهما بل بينهما فرق دقيق هو أن الإلهاب والتهبيج فيه قوة وهز للمخاطب وإثارة لوجدانه

ومشاعره ، وحث له على الفعل أو على تركه ، أما الدوام فليس فيه هذا المستوى من الإثارة .

بعد هذا يمكننا أن نقول إن ما بينهما من اختلاف يعود إلى اختلاف في الدرجة والمرتبة ، فالإلهاب يمثل درجة أعلى من درجة الدوام والاستمرار .
أولاً : الإلهاب والتهبيج :-

و حين ننظر إلى أساليب الإلهاب والتهبيج في القرآن نجدها تختلف باختلاف المخاطب على ما نوضحه في الصفحات التالية :-
١ - مع خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وسلم :-

خو طب الرسول صلى الله عليه وسلم بأساليب عديدة تفيد معاني الإلهاب والتهبيج والدوام نكتفي بإزاء بعضها وتحليلها ليقاس بعد ذلك النظير على نظيره ، وإن كنت ألاحظ أن بعضاً منها يفيد الدوام وبعضها الآخر الإلهاب والتهبيج :
فمن أساليب الأمر التي أفادت الإلهاب والتهبيج قوله تعالى ﴿ فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (١) يقول العلوي " والمعالم من حالة عليه السلام أنه محصل لهذه الأمور كلها من عبادة الله .. ، لا يفتر عن ذلك ولا يتصور منه

(١) سورة الشورى ، الآية ١٥٠ .

خلافها لأن خلافها معصوم منه الأنبياء ، فلا يمكن تصوّره من جهتهم بحال ، ولكن ورودها على هذه الأوامر إنما كان على جهة الحث له عليه السلام . (١)

ومنه قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا } (١)

الأوامر في هذا السياق للإلهاب والتهييج له صلى الله عليه وسلم لأنه لا يتصور منه خلافها وذكر الزركشي أن الخطاب في هذه الآية من خطاب العين والمراد غيره ، فالخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان تقياً وحاشاه من طاعة الكافرين . (٢)

فإذا كان الخطاب في هذه الآية ونظائرها لغيره صلى الله عليه وسلم فلا وجود للإلهاب والتهييج ، لأن الإلهاب والتهييج لا يتحقق إلا إذا كان هناك مخاطب معين . لذا أرجح أن يكون الخطاب في هذه الأساليب له صلى الله عليه وسلم على سبيل الإلهاب والتهييج .

ومنه قوله تعالى: { فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَرَدِّينَ } (٤)

وحاشاه صلى الله عليه وسلم من الشك ، وإنما المراد بالخطاب التعريض بالكافرين ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما لم يشك الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يسأل .

ومثله قوله تعالى: { وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا يَعْبُدُونَ } (٥)

(١) الطراز ١٦٦ / ٢ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآيتين " ١ - ٣ " .

(٣) البرهان في علوم القرآن ٢ / ٢٤٢ .

(٤) سورة يونس ، الآية " ٩٤ " .

(٥) سورة الزخرف ، الآية " ٤٥ " وانظر الاتقان ١٠٣ / ٣ .

((الكلام على سبيل الفرض والتمثيل للمجال بياناً بأن القرآن حق وأنه من عند الله وحده وأن الرسول صادق في التبليغ مع إبراز جلال الألوهية وقوة الحفظ لهذا الذكر الحكيم)) (١)

ومنه قوله تعالى : [فَاسْتَقِمُّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْفُوا إِنَّهُ ، بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ] (٢) .

الامر في هذه الآية للحث والإلهاب والتهيج .

ونلاحظ في هذه الآية سمو التعبير القرآني حيث نجد الخطاب في هذه الآية موجهاً للرسول صلى الله عليه وسلم ، ولما كان النهي في قوله : [لا تطفوا] فيه مظنة العنف ، جمع الرسول صلى الله عليه وسلم مع غيره تلييناً في الأسلوب رحمة به صلى الله عليه وسلم وتشريفاً له ، وهذا نمط من بلاغة التعبير القرآني .

٢ - مع الأنبياء عليهم السلام :

في القرآن الكريم صور عديدة أفادت عن طريق الأمر معنى الإلهاب والتهيج فوق الدوام والاستمرار كما في بعض خطابات رسل الله وأنبيائه عليهم السلام من ذلك قوله تعالى خطاباً لموسى وهارون عليهما : [قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ] (٣)

في هذه الآية تعانق الأمر والنهي لإفادة الإلهاب والتهيج ، وفي هذا يقول الطاهر بن عاشور ((وإذا كان موسى وهارون مستقيمين ، وناهيك باستقامة النبوة كان أمرهما بالاستقامة مستعملاً في الأمر بالدوام عليها ، وأعقب حثهما على الاستقامة بالنهي عن اتباع طريق الذين لا يعلمون وإن كان ذلك مشمولاً للاستقامة تنبيهاً على توخي السلامة من العدول عن طريق الحق إهتماماً بالتحذير من الفساد)) (٤) .

(١) انظر الكشاف ٢/٢٥٢ والأساليب الإنشائية ص ٥٨ .

(٢) سورة هو ، الآية " ١١٢ " .

(٣) سورة يونس ، الآية " ٨٩ " .

(٤) التحرير والتنوير ١١ / ٢٧٣ .

ومنه قوله تعالى خطاباً لداود عليه السلام { يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .. } (١)

والأمر والنهي للإلهاب والتهبيج ، والتعبير بقوله { فيضلك } جاء تصعيداً لمعنى الإلهاب والتهبيج .

يقول أبو حيان * فاحكم بين الناس بالحق أمر بالديمومة وتنبية لغيره ممن ولي أمور الناس * (٢)

وفي قوله تعالى خطاباً للمؤمنين { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } (٣) وقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } (٤) .

الإلهاب والتهبيج ليس مستفاداً من صيغ الأمر بل من أسلوب الشرط [إن كنتم مؤمنين] وقد ((تكرر كثيراً عقب توجيهات وأوامر إلهية حفزاً للهمم وحثاً على التسابق للخير وإلهاباً وترغيباً أي إن كان لديكم قدر من الإيمان فداموا بإخلاص على المأمور به من توكل أو طاعة أو نحوهما)) (٥)

ثانياً : الدوام والاستمرار :

الدوام طلب وقوع فعل واقع (٦) ، وقد تفاوتت أساليب الأمر التي أفادت

الدوام والاستمرار في القرآن على نحو ما يتضح في السطور الآتية :

(١) سورة ص ، الآية " ٢٦ " .

(٢) البحر المحيط ٧ / ٣٩٥ .

(٣) سورة الأنفال

(٤) سورة البقرة ، الآية " ٢٧٨ " .

(٥) الأساليب الإنشائية ص ٥٧ .

(٦) المرجع السابق الموضوع نفسه .

١ - مع الأنبياء عليهم السلام :-

من ذلك قوله تعالى خطاباً لذكرياً عليه السلام : [قَالَ آيَتِكَ إِلَّا تَكَلَّمَ
النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَانْكَرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبَّحَ بِالْعَشِيِّ
وَإِلْبَاقٍ] (١)

٢ - مع الرسول صلى الله عليه وسلم :-

أساليب الامر التي أفادت الدوام في القرآن الكريم التي خوطب بها
الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرة تند عن الحصر نكتفي بالإشارة إلى بعضها
ليقاس بعد ذلك عليها :

من ذلك قوله تعالى [يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ
فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ] (٢)

أمر الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الآية بتبليغ ما أنزل إليه وهو
صلى الله عليه وسلم قد بلغ ما أنزل إليه فهو أمر بالديمومة . (٣)

ومنه قوله تعالى [وَاتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ
وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ] (٤) .

في هذه الآية الكريمة أمر الله نبيه باتباع ما يوحي إليه فهو أمر بالديمومة
وبالصبر على ما يناله في الله من أذى الكفار وإعراضهم . (٥)

(١) سورة آل عمران ، الآية * ٤١ .

(٢) سورة المائدة ، الآية * ٦٧ .

(٣) البحر المحيط ٢ / ٥٢٩ .

(٤) سورة يونس ، الآية * ١٠٩ .

(٥) البحر المحيط ٥ / ١٩٧ وراجع تفسير أبي السعود ٧١٣/٢ ، ورح المعاني

٢٠١/١١ وما بعدها .

ومنه قوله تعالى : [كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَأَسْجِدْ وَاقْتَرِبْ] (١) . فالأمر بالسجود والتقرب إلى الله للدوام أي دم وأثبت على ما أنت عليه من السجود والتقرب إلى الله (٢)

ومنه قوله تعالى : [وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ] (٣) .
يقول الطاهر بن عاشور ((والأمر في)) وكن من الساجدين وأعبد ربك ((مستعملان في طلب الدوام (٤) .

ومنه قوله تعالى : [فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ] (٥) وقوله تعالى : [فَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ] (٦) .
ولعلك تلاحظ أن السياق يفيد هذه المعاني عن طريق صيغة واحدة من صيغ الأمر أو عن طريق تكرار الأمر مثلما جاء عليه قوله تعالى : [بل الله فاعبد وكن من الشاكرين] (٧) .

وكثيراً ما يردف الأمر بما يفيد التعليل له مبالغة في أمر الحث والتحريض عليه في مثل قوله تعالى : [فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ] (٨) حيث جاء قوله [إن العاقبة للمتقين] تعليلاً للأمر بالصبر زيادة في التثبيت والدوام .
ومثله قوله تعالى : [وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ] (٩)

(١) سورة العلق ، الآية ١٩ .

(٢) راجع الكشاف ٢٧٢/٤ والبحر المحيط ٤٩٥/٨ وغرائب القرآن ١٣٢/٣ وحاشية الشهاب ٢٨٢/٨ .

(٣) سورة الحجر ، الآية ٩٩ .

(٤) التحرير والتنوير ٩١ / ١٤ .

(٥) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩ .

(٦) سورة الذاريات ، الآية ٥٥ .

(٧) سورة الزمر ، الآية ٦٦ .

(٨) سورة هود ، الآية ٤٩ .

(٩) سورة الحج ، الآية ٧٧ وانظر وجوه الخطاب في القرآن الكريم ص ٢٩١ .

٢ - صح المؤمنين :-

تفيض بعض أساليب الأمر التي جاءت خطاباً للمؤمنين بالدوام والاستمرار من ذلك قوله تعالى على لسان المؤمنين : { إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } (١) فالأمر في إهدنا للدوام والثبات والاستمرار . (٢)

ومنه قوله تعالى خطاباً للمؤمنين : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ } (٣) فالأمر في قوله { آمنوا } أي أثبتوا وداموا على الإيمان وازدادوا منه . (٤)

وقوله تعالى : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } (٥) .

رجح أبو حيان وتابعه بعض المفسرين بأن الأمر في هذه الآية للدوام حيث يقول { وليؤمنوا بي } معطوف على { فليستجيبوا } ومعناه الأمر بالإيمان وحمله على الأمر بإنشاء الإيمان فيه بعد لأن صدر الآية يقتضى أنهم مؤمنون فلذلك يؤول على الديمومة . (٦)

ومنه قوله تعالى : { فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } (٧)

يقول الطاهر بن عاشور ((والأمر في { ادعوا } مستعمل في طلب الدوام لأن المؤمنين قد دعوا الله مخلصين له ، فالمقصود دوموا على ذلك وله كره الكافرون (٨) .

(١) سورة الفاتحة ، الآية " ٦ " .

(٢) انظر الطبري ٥٥/٨ والكشاف ٦٧/٨ والتحرير والتنوير ١٨٩/٨ والأساليب الإنشائية ص ٥٧ .

(٣) سورة النساء ، الآية " ١٣٦ " .

(٤) أنظر الكشاف ٥٧١/٨ والتفسير الكبير ٧٦/١١ والبحر المحيط ٣٧١/٣ والتحرير والتنوير ٢٣٠/٥ ومن أسرار التعبير القرآني ص ٨ .

(٥) سورة البقرة ، الآية " ١٨٦ " .

(٦) أنظر البحر المحيط ٤٧ / ٢ والتحرير والتنوير ١٨٠/٢ .

(٧) سورة غافر ، الآية " ١٤ " .

(٨) التحرير والتنوير ١٠٥/٢٤ .

ومنه قوله تعالى : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا
خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ] (١)

ذكر الرازي في هذه الآية وجوهاً كثيرة يهمننا منها قوله ((ورابعها هذا
الخطاب واقع على المسلمين : [يا أيها الذين آمنوا] بالأسنة [ادخلوا في
السلم كافة] أي دوموا على الاسلام فيما تستأنفونه من العمر ولا تخرجوا عنه ولا
عن شيء من شرائعه)) (٢) .

ومنه قوله تعالى خطاباً للمؤمنين : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا
وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] (٣) .

يفهم من كلام الرازي والطاهر بن عاشور أن الأوامر في هذه الآية تفيد
الدوام والثبات (٤) .

وتخصيص المصابرة بالأمر بعد الأمر بمطلق الصبر لكونها أشد منه
وأشق (٥) .

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢.٨ " .

(٢) التفسير الكبير ٢٢٤/٥ وانظر التحرير والتنوير ٢٧٧/٢ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية " ٢.٠ " .

(٤) ينظر التفسير الكبير ١٦٢/٩ والتحرير والتنوير ٢.٨/٤ .

(٥) تفسير أبي السعود ٦٣٦/١ وينظر الكشاف ٤٩١/١ .

أسلوب التأمل والاعتبار :-

دعا القرآن - ببيانه المعجز الفريد - إلى لفت الأنظار إلى مافي الكون والنفس الإنسانية من أسرار باهرة ودلائل ساطعة تؤكد أنه الخالق المهيمن المتفرد بالملك ، والصانع المبدع الحكيم الخبير ، حيث أوضح عن ذلك في كتابه الكريم قال تعالى [سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعِنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ] (١) ((والقرآن الكريم حافل بهذه الدعوة للإنسان أن يفتح بصيرته على آيات الله في الكون ويستشعر من ورائها يد القدرة القادرة الخلاقة المبدعة في أسلوب أخاذ يأخذ بمجامع النفس ويوقظها من إلفها وعادتها فتتفتح للكون كأنه جديد)) (٢) والواقع أن فكرة التأمل والاعتبار أصيلة أساسية في البيان القرآني جاءت في أساليب متنوعة خبيراً واستفهاماً وأمرأ . (٣)

ويهمنا في دراستنا هذه أن نتناول أساليب الأمر التي أفادت معنى التأمل والاعتبار في القرآن الكريم والواقع أن الأمر بالتدبر والتأمل والاعتبار قد يكون في آيات الله المبتوثة في الكون ، وقد يكون في النفس الإنسانية ، وقد يكون في أحوال الأمم السابقة والتفكير في أسباب هلاكهم والتأمل فيما آلوا إليه حيث حل بهم سخط الله وغضبه وجام إنتقامه وفي هذا من التخويف والإنذار والتحذير ما لا يخفى .

مظاهر الاعتبار في آيات الله في الكون :-

في القرآن الكريم أوامر كثيرة تفيد معنى التأمل والتفكير في آيات الله

(١) سورة فصلت ، الآية " ٥٣ " .

(٢) منهج الفن الإسلامي للشيخ محمد قطب ص ١٤٤ .

(٣) في القرآن ألفاظ عديدة جاءت دالة على هذا المعنى منها لفظة العبرة ، والفعل " اعتبروا " والفعل " تفكر " ولفظ آيات وآيات تعقيباً على آيات كونية في الطبيعة ومظاهرها والكون ومشاهدة وما خلق الله من أجناس وأنواع وما أبدعه من آيات أثراً لصفات القدرة والخلق والعلم والحكمة سبحانه وتعالى ، انظر الأساليب الإنشائية ص ٢٢ - ٢٣ .

الكونية المبتوثة حولنا ماعظم منها وما دق ، وهي مناظر خلافة تأسر القلوب بجمالها الساحر وتثير في النفس مشاعر البهجة والسرور من ذلك قوله تعالى " { انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ } (١) " وقوله تعالى { قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُنْفِئُ الْآيَاتِ وَالنُّذُرِ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ } (٢)

فالامر في قوله " انظروا " للتأمل والاعتبار فيما أودعه تعالى في السموات والأرض إذ السبيل إلى معرفته هو بالتفكر في مخلوقاته " (٣)

والخطاب للكافرين بعثا لهم على إعمال فكرهم المتعطل أن يفكروا فيما يحيط بهم من آيات دالة على قدرة الخالق الصانع جل وعلا .

والواقع أن للفعل " انظر " في القرآن أكثر من معنى بلاغي (٤) حيث جاء في أكثر مواضعه يفيد معنى التأمل والاعتبار ، بيد أني ألمح في بعضها إقتران التعجب بالتأمل والاعتبار في السياق القرآني الواحد .

أما إفادته لمعنى التعجب فقد جاء في مواضع يسيرة منها قوله تعالى : { انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً } (٥) وسيأتي لاحقاً الحديث عنه .

ومن الآيات التي جاءت تحت الإنسان وتدعوه إلى التفكير والتأمل في آيات الله الكونية قوله تعالى : { فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا } (٦) .

(١) سورة الأنعام ، الآية " ٩٩ " .

(٢) سورة يونس ، الآية " ١٠١ " .

(٣) انظر الكشاف ٢/٢٥٥ والتفسير الكبير ١٧/١٧٦ - ١٧٧ والبحر المحيط ٥/١٩٤

والأساليب الانشائية ص ١٩ .

(٤) راجع المعجم المفهرس ص ٧٠٦ .

(٥) سورة الاسراء ، الآية " ٤٨ " .

(٦) سورة عبس ، الآيتين " ٢٤ - ٢١ " .

نص كثير من المفسرين على أن الأمر في قوله " فليُنظر " للتأمل والاعتبار . (١)

ولما عدد تعالى نعمه في نفس الإنسان ذكر هنا النعم التي بها قوام حياته وأمره بالنظر إلى طعامه وكيفيات الأحوال التي اعتورت على طعامه وهي بلاشك تدل على عظمة الخالق وعلى رحمته ورأفته بالإنسان ، والطعام هنا بمعنى المطعوم .
والحق إن الخيال ليعجز عن متابعة هذه الأحداث المتعاقبة من صب الماء وشق الأرض وإنبات ما اختلف لوناً وطعماً ونفعاً ومكاناً وزماناً وفاكهة وغذاء ، فهي آثار رحمته ومنته وقدرته لا يقدر عليها سواه ، ولذا كثرت " نا " الدالة على العظمة والتفرد العالي بالإبداع والإنشاء " (٢)

ومن ذلك قوله { اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيُبْسِطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمَحْيٍ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } (٣) .

تبدأ الآيات الكريمات بذكر تفاصيل لعملية خارقة معقدة تتم في طبقات الجو بعيداً عن متناول الإنسان تشغل عقله ولبه وتثير إنتباهه ، فهي مخلوقات مسخرة متفاعله واعدة بيد القدرة إرسال الرياح وإثارة السحاب وبسطه ثم تراكمه وتجاذبه وتلاقحه ثم يتحول ودقاً غائثاً مبشراً ، والأفعال مضارعة حالبة مصورة تعين على إطالة الصورة ودوران العقل والخيال حولها وبخاصة العقل العلمي الذي يجد في هذه الآيات ومثيلاتها عوناً له في أبحاثه في الظواهر الجوية المثيرة .

والفاء في قوله " فانظر إلى آثار رحمته " للدلالة على سرعة هذا التحول وهذا التغير فما أن ينزل الغيث حتى تنفض الأرض غطاءها الترابي ليتحول زرعاً وخضرة وأشجاراً ما لعطائها نفاذ كما ذكر صاحب الأساليب الانشائية (٤) ، والمراد

(١) الطبري ٣٦/٣ والكشاف ٢١٩/٤ والتفسير الكبير ٦٢/٣١ وغرائب القرآن ٢٩/٣ والبحر المحيط ٤٢٩/٨ والتحرير والتنوير ١٢٩/٣ .

(٢) انظر البحر المحيط ٤٢٩/٨ ونظم الدرر للبقاعي ٢٦٤/٢١ والأساليب الانشائية ص ١٩-٢٠ .

(٣) سورة الروم ، الآية " ٤٨ - ٥٠ " .

(٤) ص ٢٠ .

بالأمر بالنظر التنبيه على دوام الشكر لله والتوجيه إلى سعة رحمته وعظيم قدرته والإدلال بالنعمة والمن بالعطاء * (١)

موازنة بين آيتين :-

قال تعالى : [هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرَجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] (٢)

وقوله [وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ] (٣) .

عقد الدكتور صباح دراز موازنة بين هاتين الآيتين مفيداً من علمائنا رحمهم

الله * (٤) اذ يقول * وتلحظ معي من الموازنة مايلي :

١ - في الآية الأولى أمر بالنظر في الأحوال والاعتبار بالمتغيرات والاستدلال على وجود الصانع وماتحصل به من معرفة الخالق والسعادة الروحانية الأبدية وهذا مقدم على فكرة الانتفاع المادي في الآية الثانية التي أخرجها لذلك ولذا قدم الزرع - والله أعلم - في الآية الأولى لأنه سريع التغير والتحول تناسباً مع غرض الآية ، وقدم النخل في الثانية لأنه جل إهتمام العرب فقد كان للنخلة أثر في حياتهم وفي لغتهم ، وذكر الزرع في مرتبة تالية للنخل وهو مناسب للانتفاع به وصرف جزء منه للفقراء .

(١) انظر تفسير أبي السعود ٣٦٧/٤ وما بعدها والأساليب الإنشائية ص ٢٠ والتصوير الغني ص ٦٨ وظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٧٧٥ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية * ٩٩ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية * ١٤١ .

(٤) انظر في الآيتين التفسير الكبير ١١٧ / ١٣ ، ٢٢٢ ، والبحر المحيط ١٩١/٤ - ٢٢٦ وما بعدها .

٢ - لما كان الاعتبار والتأمل مقصد الآية الأولى ذكر فعل النظر وعلقه بالثمر بدء الإثمار ونهايته لما يتوالى على الثمر من تغير في اللون والطعم والرائحة ، وكلمة "ينعه" لها وقع جمالي خاص مناسب للفعل " انظر " مراداً به عميق التأمل والاعتبار ، أما الآية الثانية فجاءت في سياق يبين ما أحل الله وما حرم من خير الأرض والأنعام وما هو مباح للانتفاع به ووقته وحق الله تعالى للفقراء ولذلك أتى بالفعل " كلوا " إفادة لترجيح الفعل وقيده ببدء الإثمار إباحة للمضطر وغيره أن ينتفع به قبل إخراج الحق لأن رعاية النفس مقدمة على رعاية الغير ، ثم إن الأصل في الأشياء الإباحة ، ومن هنا قدم الفعل جارياً مجرى قوله " خلق لكم مافي الأرض جميعاً " وفيه الامتنان وطلب الشكر .

٣ - ثم إن في إطالة الآية الأولى ملائمة لفكرة الاعتبار فقد اتسعت المشاهد زمنياً وأحداثاً أو كثرة جزئيات ، وهي مشاهد متوالدة متداخلة يخرج من المنظر منظر آخر، ومن هنا تكرر الفعل " أخرجنا ، ونخرج " ثلاثاً ، فالخضر يخرج من النبات ، والحب المتراكم يخرج من الزرع والخضر ، ومعنى التبديل والإخراج قائم في القنوان الدانية في النخل ، وهنا جنات على الإطلاق فهو مشهد عام ولذا كان التعبير مشتبهاً أدل على التداخل وقرب الشبه بين الثمار ، وفي الآية الثانية ذكر الجنات المعروشات وغير المعروشات دلالة على تدخل اليد الإنسانية عناية وإهتماماً بالانتفاع ، وجاءت مادة الأكل مرتين " مختلفاً أكله - وكلوا " والمشاهد قصيرة لهذه الغاية ، ثم إنه لم يذكر " الينع " أي نهاية الإثمار لأن إباحة الأكل وقت الإثمار منسحبة على ما بعده من أوقات ومنها حال النضج التام فهنا أمر تشريعي للإباحة ، وإخراج الحق لذويه والنهي عن الإسراف والتحذير منه لأنها نعم يجب أن توضع موضع موضعها .

بينما الآية الأولى عَقِبَتْ بما يدل على أثرها في القلوب الصافية " إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون " باسم الإشارة المفخّم ، والجمع والتذكير المغني عن الوصف أي آيات جليلات مؤثرات مع تكرار تأكيد هذه الحقيقة وهي آيات ينتفع بها المؤمنون .

وكلمة المؤمن بما فيه من رقة وشفافية وصفاء مناسبة لهذه المشاهد الجليلة

الجميلة * (١)

ومنه قوله تعالى: { الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَاتَرِي فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ } (٢) * فالبصر في هذه الآية مستعمل في حقيقته والمراد به البصر المصحوب بالتفكير والاعتبار بدلالة الموجودات على موجدتها سبحانه وتعالى * (٣)

مظاهر الاعتبار في النفس الإنسانية :-

حث القرآن الكريم الإنسان على التأمل والتفكير فيما حوله من آيات كونية باهرة تدل على أن وراءها صانعاً حكيماً ، ولفت نظره إلى مافي نفسه - أي النفس الإنسانية - من أجهزة تعمل بنظام عجيب ودقة متناهية لا يحيط بها إلا اللطيف الخبير .

ففي القرآن من النماذج ما لا يحصى من الآيات التي وجهت النظر ودعت إلى التأمل في آيات الله في النفس الإنسانية ، حيث عرض لنا قصة خلق الإنسان ومراحل تكوينه من تراب وانتهاءً بالنطفة فالعلقة حتى أصبح جنيناً في بطن أمه ، واستخلاص مافيها من قدرة الخالق ودقيق صنعه ، وهي بلا شك تنطق بعظمة الباري وقدرته وأنه وحده الخالق المدبر { صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً } (٤) . وهذه الأساليب جاءت في القرآن عن طريق الخبر والاستفهام والأمر ، وقد

كان الأمر أقلها حظاً حيث ورد عن طريقه أساليب يسيرة منها قوله تعالى : { فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ } (٥) .

(١) الأساليب الإنشائية ص ٢٢ - ٢٤ وراجع الكشاف ٤١/٢ ، ٥٦ والتفسير الكبير ١١٧/١٣ و ٢٢٢ والبحر المحيط ١٩١/٤ ، ٢٣٦ وما بعدها وأبا السعود ٢٥٧/٢ ، ٢٩٣ ، وروح المعاني ٢٣٨/٧ - ٤٠ ، ٢٧/٨ وما بعدها .

(٢) سورة الملك ، الآيتين ٣ - ٤ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٩ / ١٨ - ١٩ .

(٤) سورة البقرة ، الآية " ١٣٨ " .

(٥) سورة الطارق ، الآيتين ٥ - ٨ .

فالأمر في قوله " فليُنظر " للتأمل والاعتبار ، وقال الزمخشري " لما ذكر أن على كل نفس حافظاً أتبعه بوهية الإنسان بالنظر في أول أمره ونشأته الأولى حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه ليوم الإعادة والجزاء " (١) .
ومنه قوله تعالى { أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ، قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } (٢) .
فالأمر في هذه الآية كما هو واضح من السياق يفيد التأمل والاعتبار .

الإعتبار من أحوال المكذِبِ الأصم السابقة :-

من خلال إحصاء أساليب التأمل والاعتبار في القرآن الكريم نجد أن أكثرها جاءت موجهة إلى التأمل والاعتبار في أحوال السابقين وأخذ العظة والعبرة بما حل بهم من عذاب الله وانتقامه السريع وبطشه الشديد من ذلك قوله تعالى : { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ } (٣)
في هذه الآية الكريمة حث الله سبحانه وتعالى أمة محمد صلى الله عليه وسلم على النظر في سوء عواقب المكذِبين قبلهم والاعتبار من آثار هلاكهم ، وتأمل أحوالهم ليصير ذلك داعياً لهم إلى الإيمان به سبحانه وتعالى " (٤)

ونلاحظ في الآية الكريمة إرتباط فعل النظر بفعل السير لترتبه عليه بل هو وحده الوسيلة إلى النظر والإكتشاف لجاهل التاريخ أو لما أعلمنا به القرآن الكريم اعتباراً بسنن الله في الأولين وهو نوع - آخر - من دلائل التوحيد ممزوج بنوع من

-
- (١) الكشاف ٢٤١ / ٤ وراجع في الآية البحر المحيط ٤٥٥ / ٨ وأبا السعود ٥١٤ / ٥ ،
والتحرير والتنوير ٢٦١ / ٢٠ .
(٢) سورة العنكبوت ، الآيتين " ١٩ - ٢٠ " .
(٣) سورة آل عمران ، الآية " ١٣٧ " .
(٤) انظر الكشاف ٤٥٦ / ١ والتفسير الكبير ١٢ / ٩ وغرائب القرآن ٨٠ / ٤ والبحر المحيط ٦١ / ٣ والبيضاوي بهامش حاشية الشهاب ٦٤ / ٣ وروح المعاني ٦٥ / ٤ والتحرير والتنوير ٩٥ / ٤ .

التخويف كما ذكر الرازي في تفسيره (١) .

بل إن الفعلين جاءا متواليين في القرآن الكريم في ستة مواضع عدا آية واحدة جاءا متعاطفين بحرف العطف " ثم " في سورة الأنعام (٢) ، لبيان ما بينهما " السير والنظر " من التفاوت لبيان خطر النظر والتأمل وهو الهدف من السير في الأرض كما وضع ذلك أبو السعود " (٣) ، وقد عقبنا المواضع الستة بالاستفهام بكيف عن عاقبة المكذبين ماعدا آية واحدة وهي قوله تعالى : [قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] (٤) .

ففي التعبير بالاستفهام في هذه الآية [كيف بدأ الخلق] تعقيباً على جملة [قل سيروا في الأرض فانظروا] دعوة وتوجيه للإنسان إلى التأمل والتدبر في خلق الله ، وتنبية لحواسه ومشاعره لرؤية آثار قدرة الله على إنشاء الحياة في هذه المشاهد التي تتكرر في ساعات الليل والنهار تقريراً لقدرة الله وسيطرته على هذا الكون الفسيح .

كما أن التعبير بالإعادة عن النشأة الآخرة المشعرة بكون البدء نشأة أولى للتنبية على أنهما شأن من شئونه تعالى حقيقة واسما من حيث إن كلا منهما إختراع وإخراج من العدم إلى الوجود ولا فرق بينهما إلا بالأولية والآخرة ، وفي إظهار الاسم الجليل في قوله " ثم الله ينشئ النشأة الآخرة " إبراز لمزيد الاعتناء ببيان تحقق الإعادة بالإشارة إلى علة الحكم وتكرير الإسناد أما قوله " إن الله على كل شيء قدير " فهو تعليل لما قبله بطريق التحقيق فإن من علم قدرته تعالى على جميع الأشياء التي من جملتها الإعادة لا يتصور أن يتردد في قدرته عليها ولا في وقوعها بعد ما أخبر به سبحانه وتعالى علواً كبيراً " (٥) .

(١) انظر التفسير الكبير ٢٤/١٣ والأساليب الإنشائية ص ٢٦ .

(٢) آية " ١١ " قال تعالى " قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين " .

(٣) انظر المعجم المفهرس ص ٢٧٤ وتفسير أبي السعود ١٧٧/٢ والأساليب الإنشائية ص ٢٧ .

(٤) سورة العنكبوت ، الآية " ٢٠ " .

(٥) انظر تفسير أبي السعود ٢٣٢/٤ وفي ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٧٣ .

وفي هذه الأساليب نجد الدعوة إلى الضرب في الأرض والنظر والاعتبار بأحوال الماضين والتفكر في أسباب هلاكهم وصولاً إلى من بيده الخلق والأمر والإحياء والإفناء وتضييف أساليب الاستفهام التوبيخ والتقدير والإنكار لعدم السير والنظر وتعطيل العقول والقلوب لتعطل منافذ الإدراك ، ثم هذا التعجب المثير الذي تختتم به الآيات بكيف ، كما أن العاقبة قد تكون عامة خصصت في آيات أخرى ، أو خاصة تعود على ما في النسق ((١)

بيد أن في القرآن الكريم آيات إنفرد بها فعل الأمر " انظر " (٢) جاء بعده الاستفهام بكيف في كثير من مواضعه ، وهذا في العقاب الخاص الذي أنزله بهم تعجبياً من هول الانتقام وشدته وعظم الذنب كقوله تعالى في قوم لوط عليه السلام { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } (٣) والتنوين في " مطراً " للتنوين أي نوعاً عجيباً من المطر وهو الحجارة بدليل أنه بينه في آية أخرى قال تعالى : { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ } (٤) .

أما الخطاب في قوله " فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ((فهو خطاب لكل ما يتأتى منه التأمل والنظر تعجبياً من حالهم وتحذيراً من أعمالهم)) (٥)

ومنه قوله تعالى في إهلاك قوم نوح عليه السلام بالطوفان { فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ } (٦) .

ومنه قوله تعالى في ثمود لعنهم الله حيث تأمروا على قتل نبي الله صالح عليه السلام فردَّ الله مكرهم إلى نحورهم { وَمَكْرُوهًا مَكْرًا وَمَكْرُوهًا مَكْرًا وَهُمْ

(١) الأساليب الانشائية ص ٢٧ .

(٢) مراجع المعجم المفهرس ص ٧٠٦ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية " ٨٤ " .

(٤) سورة الحجر ، الآية " ٧٤ " وانظر الكشاف ٩٢/٢ والتفسير الكبير ١٧٩/١٤ وتفسير أبي السعود ٣٦٨/٢ .

(٥) تفسير أبي السعود ٣٦٩/٢ .

(٦) سورة يونس ، الآية " ٧٣ " .

لَا يَشْعُرُونَ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ] (١)

فالامر في " انظر " مراد به التأمل والاعتبار والتعجب من عاقبة مهولة لكفر فاجر ، ويجوز أن يكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم إيماءً إلى أن الاعتبار بمكر الله هو المقصود من سوق القصة تعريضاً بأن عاقبة أمره مع قريش أن يكف عنه كيدهم وينصره عليهم ، وفي ذلك تسلية له صلى الله عليه وسلم ، ويجوز أن يكون عاماً لكل من يتأتى منه النظر . (٢)

ومنه قوله تعالى في قصة إغراق فرعون وملئه في اليم عقاباً لهم [فَاخْذَنَاهُ
وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ] (٣)

هذه الآية مهولة بتراكيبها العنيفة وألفاظها الغاضبة المصورة من الأخذ والنبد في اليم دلالة على الاقتدار الظاهر ثم هوانهم عليه تعالى ما لا يخفى كأنه تعالى أخذهم مع كثرتهم في كف وطرحهم في البحر ، (٤) ثم أيضاً هذه اللازمة التي تكررت في مقامات متشابهة وكانت بمعنى خاص وعاقبة خاصة وقوم معينين بعيداً عن التكرار ، ثم انظر الفارق في الوصف بين إجرام قوم لوط وظلم فرعون وطغيانه تجد الدقة الملائمة لنوع الكفر وأسلوب الجرم (((٥) .

(١) سورة النمل ، الآيتين " ٥٠ - ٥١ " .

(٢) انظر التحرير والتنوير ٢٨٤/١٩ وما بعدها والأساليب الإنشائية ص ٢٨ .

(٣) سورة القصص ، الآية " ٤٠ " .

(٤) تفسير أبي السعود ٤ / ٣٠٧ .

(٥) الأساليب الإنشائية ص ٢٨ - ٢٩ .

التعجب

التعجب في اللغة :

ذكر صاحب اللسان أن العُجْبَ والعَجَبَ : إنكار ما يرد عليك لقلّة اعتياده . (١)
وعند النحاة : إنفعال يعرض للنفس عند الشعور بأمر يخفى سببه ولهذا
قيل إذا عُرِفَ السببُ بَطَلَ العجب ، (٢) وعرّفه آخر بقوله " هو معنى يحصل عند
التعجب عند مشاهدة ما يجهل سببه ويقل في العادة وجود مثله . (٣)

فالتعجب إذن هو النظر إلى شيء غير مألوف ولا معتاد ، فهو حالة تعرض
للإنسان حين يعظم موقع الشيء عنده ويخفى ، والشيء الذي يكون كذلك عجيب
وعجيبة . (٤) واشترط الرماني في التعجب الإبهام حيث يقول (المطلوب في التعجب
الإبهام ، لأن من شأن الناس أن يتعجبوا مما لا يعرف سببه وكلما استبهم السبب كان
التعجب أحسن (٥) . وذكر الزمخشري - وتابعه أبو حيان - تحليلاً طريفاً لدلالة
التعجب عند تفسير قوله تعالى { كبر مقتاً عند الله } قائلاً ، ومعنى التعجب تعظيم
الأمر في قلوب السامعين لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظامه
وأشكاله (٦) .

لكن هل يقع من الله سبحانه وتعالى ؟ أو بمعنى آخر هل يصح إسناد التعجب
إلى الله ؟

هذه القضية شغل بها العلماء قديماً ونجم عنها أراء ثلاثة :

- ١ - رأي السلف : إثبات هذه الصفات كما أثبتها الله لنفسه على نحو يليق بجلاله
من غير تكييف ولا تمثيل ، ومن غير تحريف ولا تعطيل .
- ٢ - أما المأولون فيأولون هذه الصفات كالضحك والرجاء والاستواء والتعجب
وغيرها على نحو يليق بجلاله وعظمته .
- ٣ - أما أصحاب الرأي الثالث فيقولون إن ورد التعجب من الله صرف إلى المخاطب

(١) اللسان ٤ / ٢٨١١

(٢) شرح الكافية ٣/٢٠٧ وشرح الأشموني ٣/١٥٢ والنحو القرآني ص ٥٦٤ .

(٣) شرح المفصل لابن يعيش ٧/١٤٢ .

(٤) انظر المفردات ص ٣٢٢ ومفردات ألفاظ القرآن ٢/١٨٨ والاساليب الانشائية
ص ٢٤٣ .

(٥) انظر البرهان ٢/٣١٧ والاتقان ٣/٢٢١ ومعتك الأقران ١/٤٢٣ .

(٦) الكشاف ٤/٩٧ والبحر المحيط ٨/٢٦١ .

كقوله تعالى { فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ } أي هؤلاء ممن يجب أن يتعجب منهم ، ولا يوصف سبحانه بالتعجب لأنه استعظام يصحبه الجهل وهو تعالى منزّه عن ذلك ، ونظير ذلك مجيء الدعاء والترجي منه وإنما هو بالنظر إلى ماتفهمه العرب أي هؤلاء مما يجب أن يقال لهم عندكم هذا . (١)

وأول من قال بهذا فيما أعلم سيبويه حيث قال في قوله تعالى { ويل للمطففين } لا ينبغي أن تقول له إنه دعاء ها هنا ، لأن الكلام بذلك قبيح واللفظ به قبيح ولكن العباد إنما كلموا بكلامهم ، وجاء القرآن على لغتهم وعلى مايعنون ، فكأنه والله أعلم قيل لهم ويل للمطففين ، وييل يؤمنذ للمكذبين ، أي هؤلاء ممن وجب هذا القول لهم لأن هذا الكلام إنما يقال لصاحب الشر والهلكة ، فقيل : هؤلاء ممن دخل في الشر والهلكة ووجب لهم هذا .

ومثل ذلك قوله تعالى { فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَكَ بِتَذَكُّرٍ أَوْ يَخْشَى } *

فالعلم قد أتى من وراء ما يكون ، ولكن اذهبا على رجاكما وطمعكما ومبلغكما من العلم ، وليس لهما أكثر من ذا ما لم يعلما * (٢)

ونحن على رأي سلف هذه الأمة من ذلك قول ابن تيمية * وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبتته من الصفات من غير تكليف ولا تمثيل ، ومن غير تحريف ولا تعطيل * (٣)

ومعلوم أن للتعجب صيغه القياسية والسماعية لكن الذي يعيننا في هذا

المبحث أن نتناول أساليب الأمر التي أفادت معنى التعجب في القرآن الكريم .
التعجب من آيات الله في خلقه :

قال تعالى { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى

(١) انظر البرهان ٣١٨/٢ والإتقان ٢٢٧/٢ ومعتك الأقران ٤٢٤/١ .

(٢) الكتاب لسيبويه تحقيق عبدالسلام هارون ٣٢١/١ وراجع اللسان ٢٨١١/٤ والأمالى الشجرية ٢٣٧/٢ وشرح المفصل ١٤٢/٧ وشرح الكافية ٢٠٧/٢ والكشاف ٥٢٨/٢ ، ٢٣٧/٣ والبرهان ٣١٨/٢ - ٣٢٠ . ومعتك الأقران ٤٢٤/١ وأساليب الاستفهام في القرآن الكريم ص ٢١٥ - ٢١٧ .

(٣) الرسالة التدمرية ص ٧ .

الْعِظَامُ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ { (١)

هذه الآية الكريمة تصور مشهداً موحياً ، مشهد الموت والبلى والخراب والخواء
الذي حل بهذه القرية يتضح لنا ذلك جلياً من خلال الوصف " وهي خاوية على عروشها
" ومن خلال مشاعر الرجل الذي مر على القرية ، هذه المشاعر التي ينضح بها تعبيره "
أنى يحيى هذه الله بعد موتها " فهذا التعبير يفيض بالدهشة والحيرة والاستغراب .
فالآية بالفاظها وتراكيبها تصور هذا المشهد وتعرضه شاخصاً للأبصار
والمشاعر .

وقد جاءت محاوررة الله تعالى له بعد إمامته وبعثه ليكون هو ذاته وما وقع
عليه إجابة لتساؤله .

ولاشك أن التعجيب جاء من تكرار الفعل " انظر " في الآية ثلاثاً " انظر إلى
طعامك ، انظر إلى حمارك ، انظر إلى العظام " فهو تعجيب من آثار قدرة الله ، وإثارة
للتأمل والاعتبار في آيات الله في مخلوقاته وعظيم قدرته . (٢)

ومنه قوله تعالى في قصة المسيح بن مريم وأمه عليهما السلام { مَا الْمَسِيحُ
بُنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ
انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } (٣)

جاءت هذه الآية في سياق الرد على إبطال مزاعم أهل الكتاب بأن الله ثالث
ثلاثة وقد نصب الحق سبحانه الأدلة على بشريته بالولادة وأكل الطعام ، وفي هذا
التعبير " كانا يأكلان الطعام " كناية رائعة عن الحاجة والنقص والعوز والضعف
كسائر أفراد البشر مدة الحياة والارتزاق ، وإحتراساً حتى لا يتوهم أحد أن المقصود به
الذم وصفه بالرسالة ووصف أمه البتول بأنها صديقة ، أما قوله " انظر كيف نبين
لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون " فالأمر بالنظر للتعجيب كما نص على ذلك كثير من
أهل التفسير (٤)

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢٥٩ " .

(٢) راجع في الآية الكشاف ٢٨٩/١ وما بعدها والتفسير الكبير ٣٤/٧ وما بعدها وأبا
السعود ٣٩٣/١ - ٣٩٥ والتحرير والتنوير ٣٦/٣ - ٣٧ وظلال القرآن المجلد الأول
ص ٢٩٣ .

(٣) سورة المائدة ، الآية " ٧٥ " .

(٤) انظر الكشاف ٦٣٥/١ وأبا السعود ١٠٣/٢ والتحرير والتنوير ٦ / ٢٨٧ .

كما أن الاستفهام بقوله " أنى " مبالغة في التعجيب " (١) وتكرير الأمر بالنظر للتعجيب أيضاً ، وثم لإظهار ما بين العجيبين من التفاوت أي إن بياننا للآيات أمر بديع عجيب ، وأن إعراضهم عنها أعجب منه وأبدع (٢) .
والخطاب يجوز أن يكون للرسول صلى الله عليه وسلم ويجوز أن يكون لكل من تتأتى منه الرؤية والنظر .

٢ - التعجيب من أعمال المكذابين بالرسول :

ساق لنا القرآن في كثير من سوره إفتراءات المكذبين وتفننهم العجيب في اختلاق الأكاذيب ودأبهم المتواصل في تكذيب رسل الله عليهم السلام وقد جاءت الآيات القرآنية تحكى ذلك وتعقب عليه بأساليب تفيض تعجباً وإثارة واعتباراً .
" وقد جاءت بعض أساليب الأمر في القرآن للتعجيب من أعمال هؤلاء المكذبين وإثارة للتأمل والاعتبار من ذلك قوله تعالى تعجبياً للنبي صلى الله عليه وسلم من أفعال المشركين المريبة وأقوالهم العجيبة ثم تعجيب أكثر من إعجاز القرآن وتصريفه البيان الباهر والآيات المنزلة القاهرة الاعجاز " (٣)

قال تعالى " قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظُرْ كَيْفَ نَصَّرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ " (٤)

بدأت الآية الكريمة بالاستفهام الإلزامي تبيكياً وتهديداً وإلزاماً بالحجة فإن أخذ الله ما أعطاهم من حاسة السمع والبصر وطمس قلوبهم ، فهل ثم إليه غير الله يرد عليهم ما أخذ منهم ، والاستفهام الثاني للنفي ولتعظيم شأن الله تعالى وإثبات الوجدانية له ونفيها عما سواه ، وهي حجة ملزمة مزلزلة فيها تهديد صعده الالتفات بالخطاب المهين المرعد ، ثم اتجه الخطاب نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه من تصريف البيان وقهر الحجة بالقرآن لهم - التي تصدع الصخر قبل القلوب - ولكنهم عنها معرضون غير متأثرين (٥) ، فالأمر في قوله " انظر " تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من عدم تأثرهم بما عاينوا وشاهدوا من الآيات الباهرة أي انظر

(١) الأساليب الإنشائية ص ٣١ .

(٢) انظر الكشاف ٦٣٥/٨ وتفسير أبي السعود ١٠٢/٢ .

(٣) الأساليب الإنشائية ص ٢٩ .

(٤) سورة الأنعام ، الآية " ٤٦ " .

(٥) الأساليب الإنشائية ص ٢٩ .

كيف نكررها ونقررها مصروفة من أسلوب إلى أسلوب تارة بترتيب المقدمات العقلية وتارة بطريق الترغيب والترهيب وتارة بالتنبيه والتذكير (١) ومنه قوله تعالى (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ اُنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) (٢) .

فهذه الآية كما نلاحظ بدأت بهذا الأسلوب الخبري الذي يجعل العذاب معلقاً بالقدرة والإرادة متوقفاً على الإذن رسداً ينصب عليهم من فوقهم عذاباً أو يأتيهم من تحت أرجلهم من حيث لا يحتسبون أو يوقع العذاب بينهم دماراً وقتلاً لأن الكون بيده والقلوب بين أصابعه عز شأنه ، والتعجب هنا كما في الآية السابقة من تصريف الآيات التي جاءت على طريق الالتفات بياناً لجلالها واقتدارها ثم يختم سبحانه وتعالى الآية ذاماً لهم بعدم الفقه مرجواً منهم أن يفقهوا ذلك ، ولذا فإن هذا التصريف للآيات سبب حامل على التدبر والفهم والفقه أو لمن عنده استعداد ، ولهذا قال الرازي " أما من أعرض وتمرد فلا يصرف الله هذه الآيات لهم " (٣)

لكن لما كان الحديث مع كفار قريش وهم أعرف الناس بمواقع الألفاظ وما تحمله الكلمات من معاني عديدة في النظم القرآني واعجازه الباهر الفذ الفريد كان التعبير بالفعل " نصرف " من تنويع الأساليب والافتنان في التراكيب كما ذكر الدكتور صباح دراز .

ولما كان الحديث مع اليهود في سياق قصة المسيح وأمه عليهما السلام في قوله تعالى " ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة " والتي أتى فيها بأدلة دامغة على بشريته عليه السلام ختمها بقوله (انظر كيف نبين لهم الآيات ثم أنظر أنني يؤفكون) أتى بالفعل " نبين " لأن الجدل معهم باق إلى يوم الدين بالحجة والبرهان الدامغ لم يأت بالفعل « نصرف » إذ ليس لهم فطرة العرب في مكة " بل أتى بالفعل " نبين " لأنه الملائم لإيضاح الحجة " (٤) . ومنه قوله تعالى : (اُنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيْلًا) (٥) .

(١) تفسير أبي السعود ٢/٢٠٨ .

(٢) سورة الانعام ، الآية " ٦٥ " .

(٣) انظر التفسير الكبير ١٣/٢٥ والأساليب الإنشائية ص ٢٠ .

(٤) راجع الأساليب الإنشائية ص ٣٠ وما بعدها .

(٥) سورة الفرقان ، الآية " ٩ " .

فالمراد والله أعلم إستعظام تلك الأباطيل التي إجتروا على التفوه بها وتعجيب منها أي أنظر كيف قالوا في حقل تلك الأقاويل العجيبة والأحوال النادرة الخارجة عن حد العقول السليمة والفطر القويمة الجارية لغرابتها مجرى الأمثال حيث اقترحوا لك تلك الأحوال البعيدة * (١)

* وفرغ على هذا التعجيب إخبار عنهم بأنهم ضلوا في تلفيق المطاعن في رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم فسلخوا طرائق لاتصل بهم إلى دليل مقنع على مرادهم ، ففعل * ضلوا * مستعمل في معنييه ، معنى عدم التوفيق في الحجة ، ومعنى عدم الوصول للدين الحق ، وهو هنا تعجيب من خلطهم وإعراض عن مجاوبتهم * (٢)

ونظير هذا ما جاء في قوله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم من افتراء اليهود وإدعاء زكائهم ومكانتهم عند الله { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يَخْلَعُونَ قَتِيلًا ، أَنْظَرُ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا } (٣) .

فالأمر في * انظر * تعجيب وتنبيه على أن ما إرتكبه متضمن لأمرين عظيمين موجبين للتعجب : إدعائهم الاتصاف بما هم متصفون بنقيضه ، وإفترائهم على الله سبحانه . (٤)

ويقول صاحب التحرير والتنوير * جعل افتراءهم الكذب لشدة تحقق وقوعه كأنه أمر مرئي ينظره الناس بأعينهم ، وإنما هو مما يسمع ويعقل ، وكلمة * وكفى به إثمًا مبينًا * نهاية في بلوغ زعمهم غاية الإثم كما يؤذن به تركيب * وكفى به كذا * (٥) مما يستتبع غاية التعجيب * (٦) .

وقد ذكر السكاكي في استعمال الإنشاء بمعنى الخبر قوله * أحسن بزيد * ومنه

(١) حاشية المرشدي على عقود الجمان ١٩٢/١ نقلًا عن وجود الخطاب في القرآن ومواقعها البلاغية ص ٣٥٣ .

(٢) التحرير والتنوير ١٨ / ٣٣٠ .

(٣) سورة النساء ، الآيتين ٤٩ - ٥٠ .

(٤) تفسير أبي السعود ١ / ٧١٤ .

(٥) التحرير والتنوير ٥ / ٨٥ .

(٦) وجود الخطاب في القرآن الكريم ص ٣٥٥ .

قوله تعالى : [أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي هَلالٍ
مبين] (١) كما ذكر هذه الآية ابن فارس والسيوطي على إفاة الأمر معنى التعجب
(٢) ، والواقع أن المعنى إنشائي وهو التعجب واللفظ خبري ، وهذه الصيغة إحدى
صيغتي التعجب القياسي وليست أمراً لأن الضمير في " بهم " في محل رفع
فاعل " (٣) .

-
- (١) سورة مريم ، الآية "٣٨" وانظر مفتاح العلوم ص ١٥٥ وعروس الأقران ٣٢٢/٢
ومعجم المصطلحات البلاغية ص ٣١٩ ومعتك الأقران ٤٤٣/١ .
- (٢) انظر الصاحبى ص ٣٠١ والانتقان للسيوطي ٢٧٨/٣ ومعتك الأقران له أيضاً
٤٤٣/٣ .
- (٣) الاساليب الانشائية ص ٥٦ وما بعدها .

الإباحة والإمتنان

دلالة الإباحة اللغوية والإصطلاحية :-

١ - الدلالة اللغوية :

الإباحة في اللغة مصدر أباح ، وأبحتك الشيء : أحلته لك ليس بمحظور عليك ، فأمره واسع غير مضيق .

والمباح خلاف المحظور . (١)

٢ - في إصطلاح البلاغيين :

((وذلك إذا استعملت صيغة الأمر في مقام توهم السامع فيه عدم جواز الجمع بين أمرين)) (٢) .

وبدهي أن ((العلاقة بين الطلب والإباحة أن كلاً منهما مأذون فيه ولا يقال الجزئية لأن المباح جنس للواجب)) (٣) .

والإباحة لون من المعاني الثانية التي يخرج إليها الأمر في القرآن الكريم ، وكثيراً ما يرتبط بها في الأسلوب القرآني الامتنان والرضا والتكريم والادلال بالنعمة للمنعم الوهاب .

وحين ننعم النظر في أساليب الأمر التي أفادت الإباحة في القرآن نجدها تتنوع حسب الأغراض القرآنية على نحو ما نوضحه في الصفحات التالية بعون الله :-

(١) انظر مقاييس اللغة ٢١٥/١ والصحاح ٢٥٧/١ وأساس البلاغة ص ٢٣ واللسان . ٢٨٤/١

(٢) حاشية الدسوقي ٢١٣/٢ وانظر شروح التلخيص ٢١٣/٢ .

(٣) عروس الأفراح ٢١٣/٢ .

١ - الرسول صلى الله عليه وسلم :-

ورد الأمر مراداً به الإباحة في قوله تعالى خطاباً لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم : { فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَاتَّقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ } (١)

إن كان المراد بالنعمة النبوة والرسالة فالأمر حقيقي للتكليف ، وإن كان المراد بها عموم النعم فالأمر للإباحة والامتنان والادلال بالنعمة .

يقول الزمخشري ((التحديث بنعمة الله شكرها وإشاعتها ، يريد ما ذكره من نعمة الإيواء والهداية والاغناء وما عدا ذلك)) (٢) ورجح أبو حيان أن يكون للامتنان حيث يقول ((ويظهر أنه لما تقدم ذكر الامتنان عليه بثلاثة ، أمره بثلاثة فذكر اليتيم أولاً وهي البداية ثم ذكر السائل ثانياً وهو العائل ، وكان أشرف ما إمتن به عليه هي الهداية فترقى من هذين إلى الأشرف وجعله مقطع السورة)) (٣) . ويؤيده ما ذكره الشيخ محمد عبده قائلاً : ((وقد يقال إن المراد من النعمة النبوة ولكن سياق الآيات يدل على أن هذه الآية مقابلة لقوله : [ووجدك عائلاً] (٤) .

فتكون النعمة بمعنى الغنى ولو كانت بمعنى الرسالة لكانت مقابلة [ووجدك ضالاً] (٥) .

وردته بنت الشاطيء ورجحت الأول وهو ما يدل عليه السياق حيث تقول ((ومن هنا نؤثر أن تكون النعمة هنا ، مهما يكن من دلالتها المعجمية اللغوية هي

(١) سورة الضحى ، الآيتان " ٩ - ١١ " .

(٢) الكشاف / ٤ / ٢٦٥ .

(٣) البحر المحيط / ٨ / ٤٨٧ .

(٤) سورة الضحى ، الآية " ٨ " .

(٥) سورة الضحى ، الآية " ٧ " وانظر تفسير جزء عم ص ١١٧ .

الرسالة ، أكبر النعم التي يؤثر بها نبي مرسل)) (١) .

فالسباق القرآني يفيض بهذه العطاءات ولا يمنع الحمل على الوجهين السابقين غير أنني أرجح أن يكون المراد بالنعمة الرسالة ، ويكون الأمر بالتحديث للتكليف .

ومنه قوله تعالى أمراً نبيه الكريم أن يأذن للمؤمنين [.. فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ] (٢) .

فالامر في قوله " فأذن " للإذن والإباحة بدليل قوله " لمن شئت منهم " على نحو ما هو واضح من السياق بمعونة القرائن والمقام .

٢ - فعل الأكل والشرب في القرآن :

من أساليب الأمر التي أفادت الإباحة والامتنان في القرآن الفعلان " كلوا واشربوا " والواقع أن لهذين الفعلين في البيان القرآني دلالات بلاغية كثيرة كالإباحة والامتنان والتكريم والرضا نحو قوله تعالى [كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا آسَلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ] (٣) .

وقد ورد الأمر من الفعل " أكل " في تسعة وعشرين موضعاً * (٤) ، وتوالى الفعلان " كلوا واشربوا " في سبعة مواضع * (٥) ، وانفرد فعل الأكل عن الشرب ببعض المعاني البلاغية كالتهديد والوعيد في قوله تعالى خطاباً للمشركين :

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم ٥٤/٨ .

(٢) سورة النور ، الآية " ٦٢ " .

(٣) سورة الحاقة ، الآية " ٢٤ " .

(٤) انظر المعجم المفهرس ص ٣٥ وما بعدها .

(٥) انظر المعجم المفهرس ص ٣٧٧ .

{ كَلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مَجْرُمُونَ } (١) والإلهام والتسخير في قوله تعالى
خطاباً للنحل { ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا } (٢)

أما المخاطبون بهذين الفعلين في القرآن فمتنوعون على نحو مايتضح لك

فيمايلي :-

١ - آدم وزوجه في الجنة :

قال تعالى خطاباً لآدم وزوجه في الجنة { وَقَلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ
الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ
الظَّالِمِينَ } (٣) .

لاشك أن نداء آدم قبل خطابه بسكنى الجنة فيه تنويه بذكر اسمه في الملأ
الأعلى تشريفاً وثناءً وتعظيماً له ، والأمر في قوله " اسكن " مستعمل في الامتنان
والتكريم (٤) ، وهذا الرأي أقرب وأنسب من الذهاب به إلى معنى الإباحة أو
الوجوب " (٥) .

ولعل إيثار التعبير بأسكن " على " أسكنا " للتنبيه على أنه عليه السلام هو
المقصود بالحكم وزوجه تبع له كما أنها في الخلقة كذلك " (٦) كما يظهر أن المراد
بالجنة هنا دار ثواب المؤمنين على مايشهد به السياق وبعض صحيح الخبر
والمأثور " (٧) .

(١) سورة المرسلات ، الآية " ٤٦ " .

(٢) سورة النحل ، الآية " ٦٩ " .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٥ " .

(٤) انظر التحرير والتنوير ٤٢٨/١ والأساليب الإنشائية ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٥) انظر الطبري ١٨٢/١ والتفسير الكبير ٢/٣ والبحر المحيط ١٥٨/١ والدر

اللقيط ١٥٥/١ وتفسير أبي السعود ١٥٨/١ وروح المعاني ٢٣٤/١ .

(٦) روح المعاني ٢٣٣/١ .

(٧) المصدر السابق ووجوه الخطاب في القرآن ص ٢١٢ .

والأمر في قوله " كلا منها " للإباحة والامتنان والتكريم والرضا ، وإنما ((وجه الخطاب إليهما تعميماً للتشريف والترفيه ومبالغة في إزاحة العلل والإعذار وإيذاناً بتساويهما في مباشرة الأمور به)) (١) .

و " رغداً " ((" صفة " للمصدر المؤكد أي أكلا راغداً واسعاً رافهاً)) (٢) و ((حيث شئتما " وحيث للمكان المبهم أي من أي مكان في الجنة الواسعة فمع الإباحة التكريم والرضا)) (٣) .

((وهو كما ترى إطلاق كلي حيث أبيع لهما الأكل من الجنة على جهة التوسعة البالغة المزيحة للعلل ولم يحظر عليهما بعض الأكل ولا بعض المواضع الجامعة للمأكولات حتى لا يبقى لهما عذر في التناول من شجرة واحدة من بين أشجارها الفائتة للحصر)) (٤) .

ب - الرسل عليهم السلام :

قال تعالى خطاباً للرسل عليهم السلام [يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ] (٥) .

وهذه الآية الكريمة " جيء بها ((إثر حكاية إيواء عيسى عليه السلام وأمه إلى الربوة إيذاناً بأن ترتيب التنعم لم يكن من خصائصه عليه السلام بل إباحة الطيبات شرع قديم ، وتعريضاً ببطلان ما عليه الرهبانية من رفض الطيبات بحيث لا يخفى)) (٦) .

(١) تفسير أبي السعود ١ / ١٥٨ .

(٢) الكشاف ١ / ٢٧٣ .

(٣) انظر المصدر السابق والأساليب الإنشائية ص ٣٤ .

(٤) انظر الكشاف ١ / ٢٧٣ وتفسير أبي السعود ١ / ١٥٨ .

(٥) سورة المؤمنون ، الآية " ٥١ " .

(٦) انظر تفسير أبي السعود ٤ / ٦٨ وراجع الأساليب الإنشائية ص ٣٤ وما بعدها .

وروى الطبري (١) " أن ذلك الخطاب لعيسى عليه السلام تعظيماً وتكريماً " وهو "كلوا" .

((وعن الحسن ومجاهد وقتادة والسدي والكلبي رحمهم الله تعالى أنه خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وحده على دأب العرب في مخاطبة الواحد بلفظ الجمع وفيه إبانة لفضله وقيامه مقام الكل في حيازة كما لاتهم فالأمر للإباحة والترفية)) (٢) .

ولاريب أن " هذه الآية الكريمة مظهر من ظاهرة الإيجاز القرآني المثير حين يجمع المنادى في صياغة واحدة مع اختلاف أفراده زماناً ومكاناً وذاتاً وصفة وذلك لوحدة الفاعل والقول أو المفعول ووحدة الصفة في المخاطبين أعنى الرسل " (٣) عليهم السلام .

ج - مريم عليها السلام :

أفاد الأمر معنى الإباحة في قوله تعالى خطاباً لمريم عليها السلام وهي تلك المعجزة { وَهَزَّيْ إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ تَسَاقُطُ عَلَيْكَ رَطْباً حَنِياً فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً } (٤) .

السياق في هذه الآية دال على الرحمة والرافة والتفضل والإنعام والإحسان أي فطبيبي نفساً ولا تغتمي وارفضي عنك ما أحزنك وأهمك ، وتأمل جمال التعبير بقوله "وقري عينا" وهي على عين الرحمن حفظاً ورعاية وعناية . (٥)

(١) انظر الطبري ١٨ / ٢٢ .

(٢) انظر تفسير أبي السعود ٦٨/٤ وروح المعاني ٣٩/١٨ وما بعدها .

(٣) الأساليب الإنشائية ص ٣٤ .

(٤) سورة مريم ، الآيتان " ٢٥ - ٢٦ " .

(٥) انظر الكشاف ٥٠٧/٢ والأساليب الإنشائية ص ٢٦ .

ولعل في التعبير به كنايةً عن طيب النفس ورضاها وكشف ما يحزنها ،
فاشتقاقه في الأصل إما من القرار فإن العين إذا رأَت ما يسر النفس سكنت إليه من
النظر إليه ، أو من القر وهو البرد ، فإن دمة السرور باردة ودمة الحزن حارة ،
فاستعمل كناية عن طيب النفس من إطلاق اللازم وإرادة الملزوم ، وواضح ما فيها
من تصوير مؤثر في النفس لأنه أبرز المعنى الذهني في صورة محسة
ملموسة (١) .

فالأمر في قوله " كلي واشربي " للإباحة (٢) كما هو واضح من السياق .

د - بنو إسرائيل :

تفيد بعض صيغ الأمر في القرآن التي جاءت خطاباً لبني إسرائيل بالإباحة
والامتنان من ذلك قوله تعالى : { ... قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كَلُوا
وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } (٣) الأمر في هذه
الآية للإباحة (٤) .

ومنه قوله تعالى : { وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ
مَا رَزَقْنَاكُمْ } (٥) فالأمر للإباحة كما أشار كثير من المفسرين (٦) .
ومنه قوله تعالى : { وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ
شِئْتُمْ رَغَدًا .. } (٧) .

(١) انظر أسلوب الدعوة القرآنية ض ٢٩٧ وراجع تفسير أبي السعود ٥٧٩/٣ .

(٢) انظر روح المعاني ٨٦ / ١٦ .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٦٠ " .

(٤) انظر البحر المحيط والدر اللقيط ٢٣٠ / ١ .

(٥) سورة البقرة ، الآية " ٥٧ " .

(٦) انظر الطبري ٢٣٧ / ١ وغرائب القرآن ٢٩٢ / ١ والبحر المحيط ٢١٤ / ١ وروح

المعاني ٢٦٤ / ١ .

(٧) البقرة " ٥٨ " وراجع التفسير الكبير ٩٤ / ٣ والدر اللقيط ٢٢١ / ١ .

هـ - عامة الناس :

جاء الأمر مراداً منه الإباحة في قوله تعالى خطاباً لعامة الناس { يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً } (١) .

يقول أبو حيان " كلوا " أمر إباحة وتسويغ لأنه تعالى هو الموجد للأشياء فهو المتصرف فيها على ما يريد " (٢) .

ومنه قوله تعالى خطاباً لبني آدم أي عامة الناس : { يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } (٣) .

وأفتح النظم بهذا النداء " يا بني آدم " ليهيئ النفوس ويشد انتباهها إلى ما سيقى عليها ، " ويلفت الناس جميعاً إلى الأصل الواحد والأبوة الواحدة مهما تنوعت أجناسهم وتباينت لغاتهم وتفرقت أماكنهم فهم فرع عن رجل واحد وهذه القرابة تعود بالناس إلى المنبع الواحد وتضعهم جميعاً في المستوى الواحد دون تفاضل بينهم إلا بما يكون من تقوى وعمل " (٤) .

والمراد بأخذ الزينة عند كل مسجد على ما روي في أسباب النزول ستر العورة بالثياب (٥) .

((ونفهم من توجيه الأمر بأخذ الزينة إلى بني آدم دلالة العموم المطلق ، ويكون " كل مسجد " عاماً كذلك في دور العبادة)) (٦) .

(١) سورة البقرة ، الآية " ١٦٨ " .

(٢) انظر البحر المحيط ٤٧٨/١ وراجع روح المعاني ٣٨/٢ والتحخير والتنوير ١٠١/٢ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية " ٣١ " .

(٤) من أسرار التعبير في القرآن . الدكتور عبدالفتاح لاشين ص ١٨٦ .

(٥) انظر أسباب النزول للواحدي ص ١٦٨ والباب النقول للسيوطي ص ١٠٥ وتفسير الطبري ١١٩/٨ .

(٦) انظر الشخصية الإسلامية . الدكتورة بنت الشاطيء ص ٧٥ .

أما قوله " كلوا واشربوا " فالظاهر أنه أمر بإباحة الأكل والشرب من كل ما يمكن أن يؤكل أو يشرب مما لم يحظر أكله أو شربه في الشريعة " (١) .
وجملة " ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين " معطوفة على الجملة السابقة جيء بها لتأكيد الأمر بالأكل والشرب أي كلوا واشربوا ولا تسرفوا بتحريم الحلال أو بالتعدي إلى الحرام أو بالإفراط في الأكل والشرب عليه (٢) ، كما إن جملة " إنه لا يحب المسرفين ، تذييل مؤكد لمضمون ما قبله فيه تنفير وتقبيح للإسراف .
ويظهر أن الزينة كما يؤخذ من كلام العلماء هي كل ما يتجمل ويتزين به الإنسان من لبس الثياب الساترة للعورة مع التقيد بالتقاليد الإسلامية ، والذي يعنينا هنا كيف التأمّت وتناسقت هذه الكلمة مع الفعل خذ القوي ؟ .

جاء السياق ينبض بالقوة والحسم والرغبة الجارفة والإلحاح الشديد في ستر العورة في الصلاة .
وستر العورة مطلب أساسي في صحة الصلاة ، لهذا نرى الاهتمام الشديد ، وذلك أن الإسلام دين طهارة ونظافة وجمال وبها يختلف عن جميع الأديان السماوية .

فالتعبير بقوله " خذوا زينتكم " جاء على أبلغ وجه وأكدته إتساقاً مع هذا المعنى ، وهذا أقوى من قولنا " تزينوا " فكأن في الآية تكراراً للفعل مرتين مرة بالأخذ ومرة بالزينة .

(١) البحر المحيط ٢٩٠/٤ وانظر التفسير الكبير ٦٥/١٤ والدر اللقيط ٢٨٩/٤ وروح المعاني ١١١/٨ والتحرير والتنوير الجزء الثامن القسم الثاني ص ٩٤ .
(٢) انظر تفسير أبي السعود ٢ / ٣٣٩ .

و - للمؤمنين :

تفيد بعض أساليب الأمر التي جاءت خطاباً للمؤمنين بالإباحة والامتنان في القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ] (١) . فالأمر في هذه الآية للإباحة كما ذكر كثير من المفسرين . (٢)

كما أفاد هذا الفعل معنى الإباحة في خطابات المسلمين خاصة بحال معينة توهم فيها المؤمنون تحريم الأكل بذاته أو مطلق الانتفاع كما في الصيام والحج والزكاة وغنيمة القتال (٣) وغير ذلك نحو قوله : [وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ ...] (٤) فالأمر في قوله " كلوا واشربوا " للإباحة .

وقوله تعالى : [فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ...] (٥) يقول الطبري " وقوله " فكلوا منها " وهذا مخرجه مخرج الأمر ومعناه الإباحة والاطلاق ، يقول الله فإذا نحررت فسقطت ميتة بعد النحر فقد حل لكم أكلها وليس بأمر إيجاب " (٦)

ومنه قوله تعالى : [كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهْيِ] (٧)

(١) سورة البقرة ، الآية " ١٧٢ " .

(٢) انظر الطبري ٥٠/٢ والتفسير الكبير ١٠/٥ والبحر المحيط ٤٨٥/١ وغرائب

القرآن ١١٣/٢ والتحرير والتنوير ١١٤/٢ .

(٣) انظر الأساليب الإنشائية ص ٣٥ .

(٤) المائة " ٨٨ " وانظر التفسير الكبير ٧٧/١٢ وغرائب القرآن ٢٣/٧ .

(٥) سورة الحج ، الآية " ٣٦ " .

(٦) التحرير والتنوير ٧٩/١٠ .

(٧) سورة طه ، الآية " ٥٤ " .

في هذا السياق توالى الفعلان " كلوا وارعوا " لإفادة معنى الإباحة والإذن بمعونة السياق ومقتضيات الأحوال ، وفي هذا الصدد يقول الزمخشري " أخرجنا أصناف النبات أذنين في الانتفاع بها مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلقوا بعضها " (١)

ز - في قصة سبأ :-

ورد الأمر مراداً به الامتنان في قوله تعالى : { لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ } (٢) فالأمر في قوله " كلوا " ليس للإباحة بدليل قوله " من رزق الله " ففيه الأدل بالنعمة والتفضل عليهم .

وهنا تجدر الإشارة إلى أن السياق الواحد يفيض بمعان أصلية ومعان ثانوية يعين على إبرازها السياق والمقام ، فالإباحة في كثير من الأساليب وغيرها المعنى الأصلي أما الامتنان والتكريم والرضا فهي معان ثانوية تبرز بجوار الإباحة . والواقع أن هذين الفعلين " كلوا واشربوا " في أكثر مواضعهما جاءا للإباحة والامتنان ، فحيث ذكر معهما " رزق الله " فالأمر للامتنان والأدلال بالنعمة والحث على شكر المنعم جل جلاله نحو قوله تعالى : { كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ } (٣) ، وإن خلا السياق من هذه القرينة فهو للإباحة نحو قوله تعالى : { كلوا من ثمره إذا أثمر ... } (٤) .

(١) الكشاف ٥٤١/٢ وانظر التفسير الكبير ٦٩/٢٢ والبحر المحيط ٢٥١/٦ وغرائب

القرآن ١١٥/١٦ وحاشية الشهاب ٢٠٩/٦ والتحرير والتنوير ٢٣٩/١٦ .

(٢) سورة سبأ ، الآية " ١٥ " .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٦٠ " .

(٤) سورة الأنعام ، الآية " ١٤١ " .

٢ - ماتقاربت دلالاته فيما دل على الحركة :

في القرآن أفعال ذات دلالات متقاربة وذلك نحو " سيروا - سيحوا - امشوا - اسعوا - وإن اختلفت دلالاتها ، وكل فعل له من حيث بنيته دلالة ومقامه الخاص به لا يغني عنه سواء يتضح هذا من خلال عقد الموازنات فيما بينها :-

قال تعالى : { بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ... } (١)

وقوله تعالى : { وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّاماً آمِنِينَ } (٢)

وقوله تعالى : { إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ... } (٣)

وقوله تعالى : { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ... } (٤)

وإذا تتبعنا هذه الأفعال في معاجم اللغة والمعاجم القرآنية نجدها دالة على

الحركة :-

ساح : ساح فلان في الأرض مر مر السائح قال تعالى : " فسيحوا في

الأرض " ورجل سائح وسياح وقوله " والسائحون " أي الصائمون ، وقيل السائحون

(١) سورة التوبة ، الآية " ٢ " .

(٢) سورة سبأ ، الآية " ١٨ " .

(٣) سورة الجمعة ، الآية " ٩ " .

(٤) سورة الملك ، الآية " ١٥ " .

هم الذين يتحرون ما اقتضاه قوله [أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها] (١)

والسير : هو المضي في الأرض ، ورجل سائر وسيار ، والسيارة الجماعة ... وأما قوله " سيروا في الأرض " فقد قيل حث على السياحة بالجسم وقيل حث على إجاله الفكر ومراعاة أحواله " (٢)

والمشي : هو الانتقال من مكان إلى مكان بإرادة قال تعالى : [فامشوا في مناكبها] (٣)

والسعي : هو المشي السريع وهو دون العدو ، ويستعمل للجد في الأمر خيراً كان أو شراً (٤) .

وبتأمل سياقات هذه الصيغ في القرآن نجد كل صيغة منها جاءت مناسبة للمقام بشكل تعجز عن القيام به أي صيغة أخرى .

وقد نص جمع من المفسرين على أن الأمر في قوله تعالى خطاباً للمشركين ((فسيحوا في الأرض)) للإباحة (٥) ، وأضاف أبو حيان قائلاً " فسيحوا " أمر إباحة وفي ضمنه تهديد " (٦) .

وما ذهب إليه أبو حيان بعيد ، بل فيه مع الإباحة الأمان والترفية ، ولهذا

(١) الحج " ٤٦ " وانظر مفردات الراغب ص ٢٤٦ ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ٦٣٩/١ وما بعدها .

(٢) انظر المفردات ص ٢٤٧ ومعجم ألفاظ القرآن ٦٤٠/١ وما بعدها .

(٣) الملك " ٢ " وانظر المفردات ص ٤٦٩ ومعجم ألفاظ القرآن ٦٤٠/١ وما بعدها .

(٤) المفردات ص ٢٣٣ ومعجم ألفاظ القرآن ٥٩٠/١ .

(٥) انظر الكشاف ١٧٢/٢ والتفسير الكبير ٢٢٧/١٥ والبحر المحيط ٥/٥ وتفسير

أبي السعود ٥١٥/٢ وروح المعاني ٤٣/١٠ .

(٦) البحر المحيط ٥ / ٥ .

نجد أبا السعود يقول " فسيحوا " السياحة والسيح الذهاب في الأرض والسير فيها بسهولة على مقتضى المشيئة كسيح الماء على موجب الطبيعة ففيه من الدلالة على كمال التوسعة والترفية ما ليس في سيروا ونظائره ، ... وإيثار صيغة الأمر مع تسني إفادة ذلك المعنى بطريق الإخبار أيضاً كأن يقال مثلاً فلکم أن تسيحوا أو نحو ذلك لإظهار كمال القوة والغلبة وعدم الاكتراث لهم ولا استعدادهم فكأن ذلك أمر مطلوب منهم " (١) .

والأمر في قوله " سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين " للإباحة (٢) ، ويقول الزمخشري ((وقلنا لهم سيروا ولا قول ثم ، ولكنهم لما مكنوا من السير وسويت لهم أسبابه كأنهم أمروا بذلك وأذن لهم فيه ، فإن قلت مامعنى قوله " ليالي وأياماً " ؟ قلت : معناه سيروا فيها آمنين لاتخافون وإن تطاولت مدة سفركم وإمتدت أياماً وليالي ، أو سيروا فيها لياليكم وأيامكم مدة أعماركم فإنكم في كل حين وزمان لاتلقون فيها إلا الأمن)) (٣) .

وكذلك الأمر في قوله : " فامشوا في مناكبها " للإباحة (٤) ، واختار الطاهر ابن عاشور أنه للدوام والتذكير حيث يقول " فصيغة الأمر مستعملة في معنى الإدامة تذكيراً بما سخر الله لهم من المشي في الأرض إمتناناً بذلك ، ومناسبة " وكلوا من رزقه " أن الرزق من الأرض ، والأمر مستعمل في الإدامة أيضاً للامتنان " (٥) .

(١) تفسير أبي السعود ٢ / ٥١٥ .

(٢) انظر الكشاف ٢٨٦/٣ وحاشية الشهاب ١٩٨/٧ وروح المعاني ١٢٠/٢٢ .

(٣) الكشاف ٢ / ٢٨٦ .

(٤) انظر التفسير الكبير ٦٩/٣٠ وغرائب القرآن ٩/٢٩ وروح المعاني ١٥/٢٩ .

(٥) التحرير والتنوير ٣٢/٢٩ .

ويبدو أن الأمر بالسعي في قوله " فاسعوا إلى ذكر الله " حقيقي فيه حث وإرشاد وترغيب في الصلاة مع الجماعة .

وخلاصة القول : إن الأفعال في هذه الآيات يجمعها رباط واحد فهي دالة على الحركة والانتقال بيد أن للحركة درجات مختلفة ، فكل فعل منها دل على درجة معينة من الحركة ، وجاء مناسباً لسياقه ومقامه .

ونستطيع أن نرتب درجات الحركة على ضوء ما ذكرناه في اطمئنان - بمعونة السياق والمقام - من الأبطأ إلى الأسرع ، فيكون الترتيب على هذا النحو : المشي ، ثم السياحة ، فالسير ، وأخيراً السعي .

فهذا نمط عجيب من بلاغة القرآن فكل لفظة فيه وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى ، ولهذا " لاتجد في القرآن ترادفاً بل كل كلمة تحمل إليك معنى جديداً " (١) ، كما هو واضح من هذه الأفعال السابقة .

٤ - بين الزوجين :

تفيد بعض أساليب الأمر في القرآن الكريم معنى الإباحة وقد جاءت في أسلوب كنائي رفيع يدل على المراد أبلغ دلالة وخاصة فيما يتصل في تلك العلاقة التي تكون بين الزوجين ، وقد أثر القرآن التعبير بالكناية على التصريح حثاً منه للمسلمين ودعوة منه إلى تمسكهم بهذا الأدب الرفيع والخلق^{الكريم} ، وهذا ما صرح به بعض الباحثين حيث يقول " كنايات القرآن تعد انعكاساً صادقاً للأدب الرفيع والخلق الكريم الذي يدعو إليه ذلك الكتاب " (٢)

(١) من بلاغة القرآن ص ٥٧ .

(٢) من بدائع النظم القرآني ، الدكتور / السيد عبدالفتاح حجاب ٦٨/١ .

من ذلك قوله تعالى : [نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَاَتُوا حَرْثَكُمْ اَنَّى شِئْتُمْ
وَقَدِّمُوا لِاَنْفُسِكُمْ ...] (١) .

في هذه الآية الكريمة يصور لنا القرآن لونا من ألوان العلاقة الزوجية في
تعبير دقيق يبين طبيعة هذه العلاقة ، أما مناسبة السياق هنا فيتنسق معها
التعبير بالحرث لأنها مناسبة إخصاب وتوالد ونماء ، ومادام حرثاً فأتوه بالطريقة
التي تشاؤون ولكن في موضع الإخصاب الذي يحقق غاية الحرث * (٢) .

والأمر في قوله " فأتوا حرثكم " للإباحة والإذن (٣) .

ومنه قوله : [اَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الرَّفَثُ اِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ
لَّكُمْ وَاَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ اَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ اَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ
وَعَفَا عَنْكُمْ فَاَلآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَاَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ ...] (٤) .

يبين السياق رحمة الله بعباده حيث شرع لهم في هذه الآية وفصل بعض

أحكام الصيام وحكم المباشرة في فترة الاعتكاف في المساجد .

ولا ريب أن الأمر في قوله " الآن باشروهن " للإباحة لكونه ورد بعد الحظر

والنهي * (٥) .

ويقول ابن القيم ((أرشدهم سبحانه إلى أن يطلبوا رضاه في مثل هذه

اللذة ، ولا يباشروهن بحكم مجرد الشهوة ، بل يبتغوا ما كتب الله لهم من الأجر

(١) سورة البقرة ، الآية * ٢٢٣ .

(٢) راجع في ظلال القرآن المجلد الأول ص ٢٣٦ .

(٣) انظر التفسير الكبير ٦ / ٧٩ .

(٤) سورة البقرة ، الآية * ١٨٧ .

(٥) انظر الطبري ٩٤/٢ والكشاف ٢٨١/٢ والبحر المحيط والدر اللقيط ٤٩/٢

والتحرير والتنوير ١٨٢/٢ وخصائص التشبيه في سورة البقرة ص ١٢٦ -

والولد الذي يخرج من أصلابهم يعبد الله ولا يشرك به شيئاً)) (١)، ثم يقول " رحمه الله)) مما تعلق ذلك بإباحة مباشرة أزواجهم ؟

فيقال : فيه إرشاد إلى أن لا يشغلهم ما أبيح لهم من المباشرة عن طلب هذه الليلة التي هي خير من ألف شهر ، فكأنه سبحانه يقول " اقضوا وطركم من نسائكم ليلة الصوم ولا يشغلكم ذلك عن ابتغاء ما كتب الله لكم من هذه الليلة التي فضلكم بها والله أعلم)) (١) .

ومنه قوله تعالى : [وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمِحْيِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا
النِّسَاءَ فِي الْمِحْيِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ
حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ] (٢) .

يقول الطبري " فإن قال فما معنى قوله " إذا تطهرن فاتوهن " قيل ذلك إباحة ما كان منع قبل ذلك من جماعهن وإطلاق لما كان حظر في حال الحيض وذلك كقوله : [وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا] (٣) .

ومنه أيضاً قوله تعالى : [فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّنِّي
وَأُولَئِكَ وَرَبَّاعٌ ..] (٤) . فالأمر في قوله " انكحوا " للإباحة والإذن كما هو واضح من السياق بمعونة القرائن والمقام .

(١) التفسير القيم لابن القيم ص ١٤٥ .

(٢) سورة البقرة ، الآية " ٢٢٢ " .

(٣) سورة المائدة ، الآية " ٢ " ؛ وانظر تفسير الطبري ٢٢٨/٢ وراجع البحر المحيط

١٦٩/٢ وحاشية الشهاب ٢٠٨/٢ .

(٤) سورة المائدة ، الآية " ٣ " .

٥ - المسلمون :

١ - إباحة الرعي :

قال تعالى خطاباً للمسلمين : { وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا } (١) أشار كثير من المفسرين والبلاغيين (٢) إلى أن الأمر في قوله " فاصطادوا " للإباحة ، فأباح لهم الاصطياد بعد حظره عليهم كأنه قيل : إذا حللتهم فلا جناح عليكم أن تصطادوا .

ب - في الجهاد :

تفيد بعض أساليب الأمر التي جاءت خطاباً للمسلمين بالإباحة والإذن في الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته من ذلك قوله تعالى : { فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ } (٣) .

يقول الطاهر بن عاشور " الأمر في " فاقتلوا المشركين " للإذن والإباحة بإعتبار كل واحد من المأمورات على حدة ، أي فقد أذن لكم في قتلهم ، وفي أخذهم ، وفي حصارهم ، ، وفي منعهم من المرور بالأرض التي تحت حكم الإسلام " (٤) .
وحيث جاء الأمر في القرآن بقتال المشركين في الأشهر الحرم أو بعد انقضائها ، أو في المسجد الحرام فهو للإباحة والإذن نحو قوله تعالى خطاباً

(١) سورة المائدة ، الآية " ٢ " .

(٢) انظر الطبري ٤١/٦ والكشاف ٥٩٢/١ والتفسير الكبير ١٣٣/١١ والبحر

المحيط ٤٢١/٣ وحاشية الشهاب ٢١٤/٣ وتفسير أبي السعود ٧/٢ وروح المعاني

٥٦/٦ والتحرير والتنوير ٨٥/٦ والأساليب الإنشائية ص ٣٤ .

(٣) سورة التوبة ، الآية " ٥ " .

(٤) التحرير والتنوير ١٠ / ١١٥ .

للمسلمين : [... وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَرَنْ قَاتِلُوهُمْ فَاَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جِزَاءَ الْكَافِرِينَ] (١) .

ونلاحظ أن الأمر بقتال المشركين في هذه الآية ونظائرها جاء من قبل الحق سبحانه وتعالى حيث أباح للمسلمين فيها بقتال المشركين وأذن لهم فيه بعد أن كان محظوراً عليهم .

وقد جاء الأمر بقتل المشركين واليهود وغيرهم من أعداء الإسلام في أكثر مواضعه في القرآن حقيقياً (٢) ، فيه حث وترغيب في الجهاد في سبيل الله نحو قوله تعالى : [وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ] (٣) وقوله تعالى : [فَقاتِلُوا أَنْتُمْ الْكُفْرَ ..] (٤) وقوله تعالى : [وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً] (٥) .

جـ - فِي الْقِصَاصِ :

قال تعالى خطاباً للمؤمنين : [وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ] (٦)

الأمر في هذه الآية للإباحة كما ذكر أبو السعود أي " إن أردتم المعاقبة فعاقبوا بمثل ما فعل بكم ، وقد عبر عنه بالعقاب على نهج المشاكلة " ويضيف رحمه الله " والأمر وإن دل على إباحة المماثلة في المثلة من غير تجاوز لكن تقييده بقوله

(١) سورة البقرة ، الآية " ١٩١ " .

(٢) انظر المعجم المفهرس ص ٥٢٤ - ٥٢٥ .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٢٤ " .

(٤) سورة التوبة ، الآية " ١٢ " .

(٥) سورة التوبة ، الآية " ٣٦ " .

(٦) سورة النحل ، الآية " " .

" وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبت به " حث على العفو تعريضاً ، وقد صرح به على الوجه الأكدر فقول " (١) " ولئن صبرتم " وأكد كون الصبر خيراً بلام القسم زيادة في الحث عليه ، وعبر عنهم بالصابرين إظهاراً في مقام الإضمار لزيادة التنويه بصفة الصابرين أي الصبر خبر لجنس الصابرين " (٢) .

ومنه قوله تعالى : { فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ .. } (٣) .

الأمر في هذه الآية للإباحة إذ العفو جائز (٤) ، أي فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، هكذا " بلا تجاوز ولا مغالاة ، والمسلمون موكولون في هذا إلى تقواهم ، وقد كانوا يعلمون أنهم ينصرون بعون الله ، فيذكروهم هنا بأن الله مع المتقين بعد أمرهم بالتقوى ، وفي هذا الضمان كل الضمان " (٥) .

د - فِي التَّنَاجِي :

قال تعالى خطاباً للمسلمين : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } (٦) ، يقول الطاهر بن عاشور " الأمر في قوله " تناجوا بالبر والتقوى " مستعمل في الإباحة كما اقتضاه قوله إذا تناجيتم " (٧) وهو تأكيد للنهي الجازم .

(١) تفسير أبي السعود ٤١٧/٣ وما بعدها .

(٢) انظر التحرير والتنوير ٣٣٦/١٤ .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ١٩٤ " .

(٤) انظر روح المعاني ٧٧/٢ وخصائص التصوير البياني . الدكتور/ محمد أبو موسى ص ٢٤٨ .

(٥) في ظلال القرآن المجلد الأول ص ١٨٥ .

(٦) سورة المجادلة ، الآية " ٩ " .

التخيير

بين الإباحة والتخيير :-

يبدو أن دلالة الإباحة قريبة من دلالة - التخيير ، وهذا القرب أوقع بعض العلماء في الخلط بينهما ، وقد نبه السبكي على هذا الخلط مشيراً إلى الفرق الدقيق بينهما فقال ((الإباحة في جالس الحسن أو ابن سيرين)) ليست من اللفظ وكذلك التخيير في ((خذ درهماً أو ديناراً)) بل من خارج فحينئذ كل من هذين المثالين كالأخر يقتضى إباحة أحدهما والتخيير ، وأما إباحة الأخذ من أحدهما وامتناع ذلك في المثال الآخر فليس من اللفظ ، ثم إن الأصوليين قاطبة فسروا الإباحة بالتخيير وإن كان التحقيق خلافه فإن الإباحة هو إذن في الفعل وإذن في الترك بنظم إذن معاً ، والتخيير إذن في أحدهما لا بعينه (١)

ويزيد هذا الأمر وضوحاً ما ذكره الكفوي (٢) في الكليات والإباحة : ترديد الأمر بين شيئين يجوز الجمع بينهما ، وإذا أتى بواحد منهما كان امتثالاً للأمر كقوله ((جالس الحسن أو ابن سيرين)) فلا يكون إلا بين مباحين في الأصل ، وهي تدفع توهم الحرمة ، كما أن التسوية تدفع توهم الرجحان .

وأما التخيير : فهو ترديد الأمر بين شيئين ولا يجوز الجمع بينهما كقولك ((تزوج زينب أو أختها)) فلا يكون إلا بين ممنوعين في الأصل ومن ثمة يجوز بين المعطوف والمعطوف عليه (٣)

والواقع أن التخيير شيء من طبيعة البشر ، وحين يأتي في كثير من أساليب التشريع كما في الدعاء أو في التحية أو في الجهاد في سبيل الله أو في الحدود كما في الطلاق فهو مبني على السعة رحمة من الله بعباده ورأفة بهم .

-
- (١) عروس الأفراح - ضمن شروح التلخيص ٢/٢١٢ وما بعدها وراجع مواهب الفتاح وحاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ٢/٢١٢ .
- (٢) أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي الحنفي ولد في كفا بالقرم سنة ١٠٢٨هـ وتوفي وهو قاض بالقدس سنة ١٠٩٤هـ من مؤلفاته الكليات .
- انظر ترجمته الأعلام ١/١٨٢ ومعجم المؤلفين ٣/٢١ .
- (٣) الكليات ١ / ٢٧ .

كما جاء التخيير في خطابات الأنبياء مناً وعطاءً أو رحمة بهم وبياناً لفضلهم عليهم السلام .

ونتناول الآن أساليب الأمر التي أفادت معنى التخيير نكتفي بإزجاء بعض النماذج وتحليلها ومحاورة العلماء فيما ذكروه :-

التخيير في الدعاء " بمعنى التسمية " :-

من ذلك قوله تعالى { قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } (١) نص كثير من المفسرين على أن الأمر في هذه الآية الكريمة للتخيير (٢) والدعاء هنا بمعنى التسمية لا بمعنى النداء أي سموا ربكم الله أو سموه الرحمن فله الأسماء الحسنى .

فه التحيّة :

أرشد الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين إلى مكارم الأخلاق وأدبهم بأدب الإسلام حيث أمرهم في هذه الآية برد التحية قال تعالى { وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا } (٣) .

فهذه الآية الكريمة تشتمل على أدب من آداب الإسلام العليا التي أدب بها المؤمنين وليس بخاف على أحد أن الأمر برد السلام للوجوب لإجماع الفقهاء على ذلك ، ولكن المفسرين أشاروا إلى أن قوله { فحييوا بأحسن منها أو ردوها } يفيد التخيير بين الزيادة وتركها ، (٤) وعلم من تقديم قوله { أحسن منها } أن ذلك أفضل ولذا أعقبه بقوله { إن الله كان على كل شيء حسيباً } "وعلى كل فالتخيير مستفاد من " أو " والفعل في هذه الآية الكريمة .

(١) سورة الاسراء ، الآية " ١١٠ " .

(٢) انظر الكشاف ٢ / ٤٧٠ ، والتفسير الكبير ٢١ / ٧١ ، والبحر المحيط ١٠ / ٩٠ والتحرير والتنوير ١٥ / ٢٣٥ وما بعدها ودراسات لأسلوب القرآن ، الجزء الأول القسم الأول ص ٥٨٦ .

(٣) سورة النساء ، الآية " ٨٦ " .

(٤) انظر الكشاف ١ / ٥٤٩ والبحر المحيط ٣ / ٣١٠ وأبا السعود ١ / ٧٥٠ وروح المعاني ٥ / ٩٩ والتحرير والتنوير ٥ / ١٤٦ ودراسات لأسلوب القرآن الجزء الأول من القسم الأول ص ٥٨٥ .

في الجهاد في سبيل الله :

تنبض بعض الآيات القرآنية التي جاءت ترغيب المسلمين وتحثهم على الجهاد في سبيل الله بالتخيير من ذلك قوله (وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ...) (١)

فالامر في هذه الآية للالتماس لكن هذا لا يمنع أن يكون الامر في قوله (قاتلوا أو ادفعوا) للتخيير " يؤيد هذا ما ذكره القاضى البيضاوي قائلاً ((فهذا تقسيم للامر عليهم ، وتخيير بين أن يقاتلوا للأخرة أو للدفع عن النفس والأموال)) (٢) ومن ذلك قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثَبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعاً) (٣) أمر الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية المسلمين بالخروج للجهاد في سبيله ، وخيرهم بين أن ينفروا جماعات متفرقة أو أن ينفروا مجتمعين . وعلى هذا فالامر في قوله (انفروا ثبات أو انفروا جميعاً) للتخيير ، وهذه الجملة تفريع عن أخذ الحذر لأنهم إذا أخذوا حذرهم تخيروا أساليب القتال بحسب حال العدو (٤) في الطلاق :-

من ذلك قوله تعالى (وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تَمْسِكُوهُنَّ هِرَاراً لَتَعْتَدُوا ...) (٥) يقول الطاهر بن عاشور ((ذكر التسريح هنا مع الإمساك ليظهر معنى التخيير بين أمرين وليتوسل بذلك إلى الإشارة إلى رغبة الشريعة في الإمساك وذلك بتقديمه في الذكر ، إذ لو لم يذكر الأمران لما تأتى التقديم المؤذن بالترغيب)) (٦)

(١) سورة آل عمران ، الآيتين " ١٦٦ - ١٦٧ " .

(٢) تفسير البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ٧٩/٣ وراجع الألويسي ١١٨/٤ .

(٣) سورة النساء ، الآية " ٧٨ " .

(٤) انظر الكشاف ٥٤١/٨ والبحر المحيط ٢٩٠/٣ والتحرير والتنوير ١١٨/٥ ودراسات لأسلوب القرآن القسم الأول الجزء الأول ص ٥٨٥ .

(٥) سورة البقرة ، الآية " ٢٣١ " .

(٦) التحرير والتنوير ٤٢٢/٢ وراجع الكشاف ٣٦٨/١ .

فالأمر في قوله [أمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف مستعمل في التخيير . ونظيره قوله تعالى " فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذُوَيْ عَدْلِ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ .] (١) ذكر كثير من أئمة التفسير بأن الأمر في قوله [أمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف] للتخيير (٢) ، غير أن الطاهر بن عاشور ذكر بأنه للإباحة وأو فيه للتخيير (٣) .

والواقع أن التخيير متفرع عن الإباحة التي هي الأصل كما هو واضح من سياق الآية الكريمة .
موازنة بين سياقين :-

وإذا كان الأمر في الآيتين السابقتين للتخيير كما ذكرنا فما السر من وراء إختلاف الصياغة في الآيتين حيث ذكر في الآية الأولى [سرحوهن بمعروف] وفي الثانية [فارقوهن بمعروف] ؟

الواقع أنني لم أظفر على شيء في كتب المتشابه التي تعنى بهذا النوع من الدراسة ، لكنني عثرت على كلام طيب للسيوطي في معترك الأقران حيث يقول ((فإن قلت ما الحكمة في تعبيره في آية البقرة بالسراح في مكان الفراق هنا)) ؟
والجواب : لاكتناف آية البقرة النهي عن مضارة النساء وتحريم أخذ شيء منهن ما لم يكن منهن ما يسوغ ذلك من ألا يقيما حدود الله ، فلما اكتنفها ما ذكر وأتبع ذلك بالمنع عن عضلن ، وتكرار أثناء ذلك ما يفهم الأمر بمجاملتهم والإحسان إليهن حالي الاتصال والانفصال لم يكن ليناسبها - قصد من هذا أن يعبر بلفظ [أو فارقوهن] لأن لفظ الفراق أقرب إلى الإساءة منه إلى الإحسان ، فعول إلى ما يحصل منه المقصود مع تحسين العبارة وهو لفظ التسريح فقال تعالى [فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف] ولايجري مع ماتقدم من قوله تعالى [الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان] وقيل هنا : بإحسان ليناسب به تعالى المذكور من قوله [أو تسريح] وقد روعي في هذه الآية كلها مقصد التلطف وتحسين الحال في الصحبة

(١) سورة الطلاق ، الآية ٢ .

(٢) انظر تفسير الطبري ٨٨/٢٨ والكشاف ١١٩/٤ والتفسير الكبير ٣٢/٣٠ وغرائب القرآن ٨٧/٢٨ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٨ / ٣٠٨ .

التسوية

بإزالة التسوية لفة وإصطلاحاً :

التسوية في اللغة : ((ساوى الشيء الشيء : عادله ومائله ، وساوى الرجل الشيء بالشيء وساوى بينهما جعلهما متعادلين فاستويا وتساويا)) (١)
وتكون التسوية عند الأصوليين والبلاغيين في مقام يتوهم فيه المخاطب رجحان أحد الطرفين (٢)
بإزالة الإباحة والتسوية :-

أشار البلاغيون إلى الفرق الدقيق بين الإباحة والتسوية ((بأن الإباحة يخاطب بها من هو بصدده أن يتوهم المنع من الفعل فيخاطب بالإذن ونفي الحرج كما في قوله تعالى { وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا } (٣) والتسوية يخاطب بها من هو بصدده أن يتوهم أن أحد الطرفين المذكورين في محلها من الفعل ومقابلته أرجح من الآخر وأنفع فيرفع ذلك ويسوي بينهما)) (٤)

وعلى الرغم من أن البلاغيين عدوا التسوية من المعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب الأمر نجد أن التسوية ليست غرضاً مستقلاً بذاته وإنما جاءت مرتبطة أو متفرعة عن معان بلاغية أخرى في البيان القرآني كالتهديد والإهانة أو في مقام العتاب والتوبيخ للرسول صلى الله عليه وسلم في شأن استغفاره للمنافقين حيث مات رأس النفاق عبدالله بن أبي سلول فنزلت آيات بينات تهدد المنافقين وتبين للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ما كان ينبغي أن يستغفر لهم ، وبأن الله لن يغفر لهم .

والتسوية جاءت في القرآن بأساليب مختلفة من الخبر والاستفهام والأمر والنهي تعديلاً للفكر أو السلوك أو إظهاراً لحقيقة ينبغي ألا تغرب عن المخاطب ، وهي لاتبعد عن فكرة الترغيب والترهيب بمعناها الواسع في دعوة القرآن الكريم كما نص

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم ٦٣٦/١ وانظر مفردات الراغب ص ٢٥٢ واللسان . ٢١٦١/٣

(٢) انظر الايضاح ٢٤٣/١ والطراز ٢٨٣/٣ والمطول ص ٢٤١ وشروح التلخيص ٣١٨/٢ وما بعدها والأساليب الانشائية ص ٥٤ وعلم المعاني للدكتور درويش الجندي ص ٣٩ .

(٣) سورة المائدة ، الآية " ٢ " .

(٤) انظر مواهب الفتاح ٣١٩/٢ والمطول ص ٢٤١ والأطول ٢٤٨/١ وحاشية الدسوقي . ٣١٩/٢

على ذلك الدكتور صباح دراز . (١)

ولقطة أساليب التسوية التي جاءت عن طريق الأمر في القرآن الكريم أثرت

عرضها على التوالي :-

من ذلك قوله تعالى أمراً نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبلغ المنافقين هذا

التهديد الشديد { قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا

فَاسِقِينَ } (٢) نص الطبري وتابعه كثير من المفسرين على أن الأمر خرج إلى معنى

الخبير (٣) ، وذكر البلاغيون وبعض المفسرين (٤) أن الأمر للتسوية وهي تنول إلى

الخبير فلا خلاف في ذلك .

والتسوية في هذه الآية الكريمة دالة على الوعيد الشديد فإنفاقهم سواء أكان

طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقُونَ .

والتعبير بقوله { إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ } تعليل لرد إنفاقهم (٥) ، ودليل على

عدم الرضا والسخط والضيق منهم ، وكشف عن حقيقة المنافقين فهم فاسقون

متمردون ، ومنه قوله تعالى في شأن المنافقين خطاباً لنبيه الكريم صلى الله عليه

وسلم وقد عزم - لقلبه الكبير - أن يستغفر لعبدالله بن أبي سلول رأس النفاق حين

مات فنزل الوحي معاتباً للرسول صلى الله عليه وسلم ومهدداً المنافقين { اسْتَغْفِرْ

لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ

بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } (٦)

(١) انظر الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ص ٥٥ .

(٢) سورة التوبة ، الآية " ٥٣ " .

(٣) انظر الطبري ١٠٧/١٠ والكشاف ١٩٥/٢ والتفسير الكبير ٩٠/١٦ وتفسير أبي

السعود ٥٦٤/٤ وحاشية الشهاب ٣٣٣/٤ وروح المعاني ١١٦/١٠ .

(٤) انظر الايضاح ٢٤٣/١ وشروح التلخيص ٣١٨/٢ وبغية الايضاح ٥٥/٢ والأساليب

الإنشائية ص ٥٥ .

(٥) تفسير أبي السعود ٥٦٤ / ٢ .

(٦) سورة التوبة ، الآية " ٨٠ " .

نص الطبري وتابعه الزمخشري على أنه كلام خرج مخرج الأمر وتأويله الخبر (١) ، كما ذكر أبو حيان وبعض المفسرين رأيين : الأول : أن المراد بهذا الكلام التخيير وهو الذي روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال له عمر رضي الله عنه كيف تستغفر لعدو الله وقد نهاك الله عن الاستغفار لهم فقال صلى الله عليه وسلم ما نهائي ولكنه خيرني ... ، والثاني بأنه أمر في معني الخبر وإن للشرط والجزاء أي إن استغفرت لهم أو لم تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم فيكون مثل قوله : { قل انفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم } (٢)

والواقع أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما أختار من الآية التخيير لأنه يلاءم طبيعه حيث جبل صلى الله عليه وسلم على الرحمة والشفقة وقد صدق الحق في قوله { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ وَرَّحِيمٌ } (٣)

أما عمر رضي الله عنه فقد فهم منها التسوية وهو ملائم لطبعه ، ففي عمر رضي الله عنه شدة في الحق وغيره عليه ، وقد وافق الوحي عمر رضي الله عنه .

وعلى كل الأمر في هذه الآية للتسوية كما ذكر كثير من العلماء (٤) ، وعلى نحو ما هو مستفاد من السياق بمعونة القرائن وأحوال التراكيب .

ومنه قوله تعالى خطاباً للمشركين { قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذَانِ سُجَّدًا } (٥) .

تفيض هذه الآية الكريمة بالتهديد والوعيد لهؤلاء المشركين ، وبالإعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشأنهم وقلة المبالاة بهم (٦)

(١) انظر الطبري ١٣٦/١٠ والكشاف ٢/٢٠٤ .

(٢) انظر البحر المحيط ٥/٧٦ وما بعدها وحاشية الشهاب ٤/٢٤٨ وروح المعاني ١٤٧/١٠ .

(٣) سورة التوبة ، الآية " ١٢٨ " .

(٤) انظر التحرير والتنوير (١/٢٧٧) والأساليب الإنشائية ص ٥٥ .

(٥) سورة الإسراء ، الآية " ١٠٧ " .

(٦) انظر الكشاف ٢/٤٦٩ والتفسير الكبير ٢١/٦٩ والبحر المحيط ٦/٨٨ .

فالأمر والنهي في قوله : { آمنوا به أو لا تؤمنوا } ((للتسوية وشديد الإهمال)) (١) ((أي فإن إيمانكم وعدم إيمانكم سواء لأن إيمانكم لا يزيده كملاً وعدم إيمانكم لا يورثه نقصاً)) (٢) كما أن قوله { إن الذين أتوا العلم من قبله .. } تعليل لمعنى التسوية بين إيمانكم به وعدمه (((٣)

وفي التعبير بقوله { إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً } بيان لأثر القرآن الكريم - وسطوته - في القلوب المؤمنة العارفة بطبيعته وبلاغته وقيمته بسبب ما أوتيت من العلم قبله ، حيث يكشف السياق عن هذا التأثير بأنهم يخرون للأذقان سجداً أي على الأذقان ، وفي ذكر الأذقان دلالة على تمكينهم الوجوه كلها من الأرض رغبة في السجود لما فيه من استحضار الخضوع والخشوع لله تعالى (٤)

ونظيره قوله تعالى خطاباً للكفار { وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } (٥) .

في هذه الآية الكريمة التسوية نابضة بالتهديد والوعيد لهؤلاء المشركين فصيغة الأمر في قوله " اسرروا " و " اجهروا " مستعملة في التسوية أي ليستو عندكم إسراركم وإجهاركم في علم الله بهما ، ثم إنه علله { إنه علیم بذات الصدور } (٦) فهذه الجملة تعليل للتسوية المستفادة من صيغة الأمر أي فسواء في علم الله الإسرار والإجهار لأن علمه محيط بما يختلج في صدور الناس به ما يسرون به من الكلام ولذلك جرى بوصف علیم بياناً لإحاطة علمه فسبحانه لاتخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء . (٧)

-
- (١) انظر التحرير والتنوير ٢٣٢/١٥ والاساليب الانشائية ص ٥٥ وبلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٨٨ .
 - (٢) تفسير أبي السعود ٤٨٨/٣ وانظر روح المعاني ١٨٩/١٥ .
 - (٣) التحرير والتنوير ٢٣٣ / ١٥ .
 - (٤) انظر في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٢٥٤ والتحرير والتنوير ٢٣٤/١٥ .
 - (٥) سورة الملك ، الآية " ١٣ " .
 - (٦) انظر الكشاف ١٣٧/٤ والتفسير الكبير ٦٦/٣. وغرائب القرآن ٢٩ / ٧ - ٨ وتفسير أبي السعود ٣٦٢/٥ وحاشية الشهاب ٢٢٢/٨ .
 - (٧) راجع التحرير والتنوير ٢٩ / ٣٠ .

ومنه قوله تعالى خطاباً للكفار في نار جهنم [أَصْلَوْهَا فَأَصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ] (١)

أشار كثير من المفسرين والبلاغيين إلى أن الأمر والنهي في هذه الآية للتسوية أي سواء عليكم الأمران الصبر وعدمه ، فكلاهما لا يخففان عنهم شيئاً من العذاب (٢)

((وليس أقسى على منكوب بمثل هذه النكبة من أن يعلم أن الصبر وعدمه سواء ، فالعذاب واقع ماله من دافع وآلمه واحد مع الصبر ومع الجزع ، والبقاء فيه مقرر سواء صبر عليه أم هلع ، والعلة أنه جزاء على ما كان من عمل " (٣) " إنما تجزون ما كنتم تعملون)) " توالى الأمران " اصلوها " و " اصبروا " في هذا السياق لإفادة معاني التهديد والتقريع والوعيد الشديد .

(١) سورة الطور ، الآية " ١٦ " .

(٢) انظر الطبري ١٤/٢٧ والكشاف ٢٣/٤ والبحر المحيط ١٤٧/٨ وتفسير أبي السعود ٢٠٩/٥ وحاشية الشهاب ١٠٣/٨ والتحرير والتنوير ٤٤/٢٧ والإيضاح ٢٤٣/١ وشروح التلخيص ٣١٨/٢ والأساليب الإنشائية ص ٥٥ وعلم المعاني للدكتور درويش الجندي ص ٣٩ ومعجم المصطلحات البلاغية ص ٣١٩ والمعاني الثانية في الأسلوب القرآني ص ١٠٦ .

(٣) في ظلال القرآن المجلد السادس ص ٢٣٩٦ .

التكوين والتسخير

تتداخل دلالة التكوين بالتسخير في كتب المفسرين والبلاغيين على حد سواء نظراً للتقارب الشديد بين الداليتين ، لذا كان لزاماً أن نحرر دلالة كل من التكوين والتسخير لغة واصطلاحاً .
الدلالة اللغوية للتكوين :

الكون : الحدث وقد كان كوناً وكيوناً ، وكون الله الشيء : أحدثه ، والله مكن الأشياء يخرجها من العدم إلى الوجود^(١) .
أما دلالة التسخير اللغوية : فالتسخير لغة التذليل والإهانة . (٢)
الدلالة الاصطلاحية :-

الرأى السائد لدى كثير من البلاغيين أن التسخير : التبديل من حالة إلى أخرى فيها مهانة ومذلة ، ويستشهدون بقوله تعالى { كُونُوا قَوَدَةً خَاسِئِينَ } (٣)
بيد أن العلامة عبدالحكيم والعلامة العصام يميلان إلى اعتماد الدلالة اللغوية للتسخير (٤) كما وضحاها الراغب في قوله " التسخير سياقة إلى الغرض المختص قهراً ، قال تعالى { وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض ، وسخر لكم الشمس والقمر دانبين } ، فالسُخْرُ هو المَقِيضُ للفعل ، والسُّخْرِيُّ هو الذي يقهر فيتسخر^{وَسَخَّرَ} بإرادته (٥)

وعلى هذا يكون التسخير عندهما أعم من التكوين (٦) ، والصواب أن التكوين

(١) اللسان ٣٩٥٩/٥ - ٣٩٦٠ .

(٢) السابق ١٩٦٣/٣ وشروح التلخيص - مواهب الفتاح وعروس الأفراح ٣١٧/٢ ومعجم المصطلحات البلاغية ص ٣١٨ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ٦٥ انظر الايضاح ٢٤٢/١ والطراز ٢٨٢/٣ وما بعدها وشروح التلخيص ٣١٧/٢ والاتقان ٢٤٢/٣ ومعترك الأقران ٤٤٢/١ .

(٤) انظر حاشية عبدالحكيم ص ٣٩٩ والأطول ٢٤٨/١ .

(٥) مفردات الراغب ص ٢٢٧ .

(٦) يقول عبدالحكيم " والتسخير" أي جعله مسخراً منقاداً لما أمر به فإن إيجاب شيء لا قدرة على المخاطب عليه بحيث يحصل عقيبه من غير توقف يستلزم تسخير لذللك " حاشية عبدالحكيم على المطول ص ٣٩٩ ويقول العصام " ويعرف التسخير من الإهانة بأنه في التسخير لا ينفك الأمر عن الانقياد ، وفي الإهانة لا يتحقق المأمور " الأطول ٢٤٨/١ .

أعم من التسخير كما نص على ذلك علماء البلاغة المتأخرون * (١)

والفرق بين التكوين والتسخير كما ذكر ابن يعقوب المغربي وتابعه بعض البلاغيين أن التسخير تبديل من حالة إلى أخرى أخس منها ، والتكوين إنشاء من عدم لوجود ، ويوجد استعمال الأمر فيه كقوله تعالى { كن فيكون } والتعبير عن الإيجاد بكن إيحاءً إلى أنه يكون في أسرع لحظة وأنه طائع لما يراد فكأنه إذا أمر انتمر ويحتمل أن يكون التكوين أعم بأن يراد به مطلق التبديل إلى حالة لم تكن ، ويراد بالتسخير ما تقدم ، أي التبديل من حالة إلى أخرى فيها مهانة ومذلة . (٢)

مع أساليب التكوين :

للتكوين شقان أو طرفان ، إما إنشاء من عدم ، أو التبديل من حالة إلى حالة أخرى لم تكن ، ويسمى التكوين أيضاً الفعل التكويني أو الإيجادي بمعنى إبداع الأشياء وتكوينها من العدم إلى الوجود .

وحين ننظر إلى المخاطب بالقول الإلهي في أساليب التكوين يتفاوت في الوجود والعدم ، فأحياناً يكون موجوداً كالقوم الذين قال لهم الله موتوا قال تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ } (٣) والنار في قوله تعالى { يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ } (٤) والأرض والسماء في قوله عز وجل { وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَّمَاءُ اقْبَلِي وَغِيصِ الْمَاءَ } (٥)

وتارة يكون معدوماً كما في قوله تعالى { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } (٦) وقوله تعالى { ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } (٧)

(١) انظر شروح التلخيص ٣١٧/٢ والاتقان ٤٤٢/٣ ومعترك الأقران ٤٤٢/٨ .

(٢) مواهب الفتاح ، وحاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ٣١٧/٢ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٤٣ .

(٤) سورة الأنبياء ، الآية ٦٩ .

(٥) سورة هود ، الآية ٤٤ .

(٦) سورة النحل ، الآية ٤٠ .

(٧) سورة فصلت ، الآية ١١١ وانظر الأساليب الإنشائية ص ٤٩ .

وفي مثل هذه الأساليب نقل الإمام الطبري آراء كثيرة دارت آراء العلماء وحتى اليوم بينها انحيازاً لرأي أو إبطالاً لآخر بشيء من السعة والتفصيل . (١)
وطبيعي أن تتعدد الأفهام وتتباين الآراء في قضية ثار حولها جدل كبير وهي كيف يخاطب الله المعدم أهو على سبيل الحقيقة أم المجاز أم الكناية .
ونحن في غنى عن الوقوف على آراء العلماء وعرضها في هذه القضية ، بل الذي يهمنا أن نشير إلى الرأي الذي أجمع عليه سلف هذه الأمة ، وهو أولى الأقوال بالصواب .

فرجع الإمام الطبري - والمهدوي ومكي فيما نقله أبو حيان وأيده ، وانتصر له ابن تيمية وابن القيم وكثير من المفسرين وبعض المعاصرين أن يكون الخطاب على الحقيقة وأن الله حين يخاطب المعدم ففي علمه موجود . (٢)
بدهي أن يكون الحديث عن أساليب التكوين في القرآن وفق الترتيب الزمني لهذه الأساليب على نحو مايتضح في هذا المبحث بعون الله وتوفيقه :-
قبل الخلق :-

من ذلك قوله تعالى (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا
وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) (٣)

نص كثير من المفسرين على أن الأمر في هذه الآية الكريمة للتكوين * (٤)
ومعنى الأمر بالإتيان الإذعان والامتثال في خضوع تام لإرادة الخالق سبحانه .
أما قوله " طوعاً أو كرهاً " فهو كناية عن استحالة امتناعهما على قدرته وأنهما منقادتان خاضعتان ، كما تقول : ستفعل هذا شئت أو أبيت ، وغرضك إخباره أنه لايملك المخالفة ، وهو تأكيد للمعنى السابق ، ويلاحظ ما فيه من طباق يلفت النظر ويشد الانتباه * (٥) .

(١) راجع الطبري ٤.٤/١ - ٤.٦ .

(٢) انظر الطبري ٤.٥/١ - ٤.٦ ، والبحر المحيط ٣٦٤/١ - ٣٦٥ ، ودقائق التفسير لابن تيمية ٣/٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٣) سورة فصلت ، الآية " ١١ " .

(٤) انظر الطبري ٦٤/٢٤ ، والكشاف ٤٤٥/٣ ، والتفسير الكبير ١.٧/٢٧ والبحر المحيط ٤٨٦/٧ .

(٥) انظر البحر المحيط ٤٨٧/٧ وأسلوب الدعوة القرآنية ص ١٢٢ ومابعدها .

والتعبير بقوله " أتينا طائعين " بالجمع كما يقول الدكتور صباح دراز " يبدو والله أعلم أنه إظهار تام للخضوع والعبودية ، وكأن كل جزء من أجزائها قال ذلك القول ، فلفظ " طائعين " يصور الإذعان المطلق جرساً ولفظاً ودلالة وجمعاً وظلالاً ، دلالة الاهتمام البالغ بالمبادرة إلى الانقياد " (١) .

تكوين الخلق :-

خاطب الله البشر بهذا الخطاب عند النشأة الأولى يوم أذن سبحانه وتعالى لجنس البشر أن يوجد فكان يكن .

والواقع أن الفعل " كن " ورد في القرآن في أحد عشر موضعاً ، في ثمانية مواضع منها جاء لمعنى التكوين ، وإن كان لكل موضع منها خصائص نظمه ودلالات تراكيبه جاءت في اتساق تام مع السياق والمقام . (٢)

ولخشية الإطالة أثرت أن أكتفي بتحليل شاهد منها ليقاس بعد ذلك النظر على نظيره قال تعالى { بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } (٣)

يقول الزمخشري " وهذا مجاز من الكلام تمثيل ولا قول ثم كما لا قول في قوله : إذا قالت الأنساع للبطن الحق ، وإنما المعنى أنك ما قضاه من الأمور وأراد كونه فإنما يتكون ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولاتوقف كما أن المأمور المطيع الذي يؤمر فيمتثل لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه الإباء ، أكد بهذا استبعاد الولادة لأن من كان بهذه الصفة من القدرة كانت حاله مباينة لأحوال الأجسام في توأدها " (٤)

وقد تبع الزمخشري حشد من العلماء - بالقول بالتمثيل - كأبي السعود والبيضاوي والشهاب . (٥)

وقد ضعف رأي الزمخشري عديد من العلماء القدامى والمعاصرين والفعل حقيقة في الآية وفي نظائرها ، يقول الرازي في سر التعبير بالفعل :

(١) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية ص ٥٤ .

(٢) انظر المعجم المفهرس ص ٦٤١ .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ١١٧ " .

(٤) الكشاف ١ / ٣٠٧ .

(٥) أنظر تفسير أبي السعود ١/٢٤٦ وحاشية الشهاب ٢/٢٢٩ .

((والأقوى أن المراد من هذه الكلمة سرعة نفاذ قدرة الله في تكوين الأشياء لا

بفكرة ومعاناه وتجربة ، . . . ومن غير معانعة أو مدافعة)) (١)

الهبوط من الجنة :

هذا ضرب آخر من أساليب التكوين في القرآن الكريم لإنشاء هبوط جديد لأن
المخاطبين عاجزون عن الهبوط من الجنة إلى الأرض إلا بتكوين من الله سبحانه في
معرض قصة آدم وحواء عليهما السلام وإبليس اللعين قال تعالى { فَأَزَلَّهُمَا
الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ
وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ } (٢)

أشار كل من الشهاب الخفاجي والألوسي إلى أن الأمر في قوله " اهبطوا "

أمر تكوين " (٣) ونظيره قوله تعالى { قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ
عَدُوٌّ فَايْمًا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } (٤)

يقول الطاهر بن عاشور " والأمر في " اهبطا " أمر تكوين ، لأنهما عاجزان عن

الهبوط إلى الأرض إلا بتكوين من الله إذ كان قرارهما في عالم الجنة بتكوينه

تعالى " (٥)

فه الدنيا :-

نجد الخطاب في هذا النوع موجهاً لمخاطبين معينين في الدنيا نحو قوله تعالى
{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ
مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَشْكُرُونَ } (٦) .

نص كثير من المفسرين على أن الأمر في هذه الآية للتكوين نحو قوله { كن

فيكون } ويرى الزمخشري أنه مجاز . (٧)

(١) التفسير الكبير ٤ / ٣٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية " ٣٦ " .

(٣) انظر حاشية الشهاب ١٢٨/٢ وروح المعاني ٢٣٦/١ .

(٤) سورة طه ، الآية " ١٢٣ " .

(٥) التحرير والتنوير ١٦ / ٣٢٨ .

(٦) سورة البقرة ، الآية " ٢٤٣ " .

(٧) أنظر الكشاف ١/٣٧٧ والتفسير الكبير ١/١٧٦ والبحر المحيط ٢/٢٥٠ وحاشية

الشهاب ٢/٢٢٧ وتفسير أبي السعود ١/٣٦٩ وروح المعاني ٢/١٦١ والتحرير

والتنوير ٢/٤٧٩ .

ونقل أبو حيان رأي الزمخشري بصيغة التمريض قائلاً " وقيل لا قول هناك ، وهو كناية عن قابليتهم الموت في ساعة واحدة ، وموتهم كموتة رجل واحد ، والمعنى فأماتهم الله لكن أخرج ذلك مخرج الشخص المأمور بشيء المسرع بالامتثال من غير توقف ولا امتناع " (١) ثم أشار إلى أن في الآية حذفاً تقديره فماتوا ، وأضاف قائلاً " وهذا الموت ليس بموت الأجال بل جعله الله في هؤلاء كمرض وحادث مما يحدث على البشر ... ، ثم إن العطف بثم يدل على تراخي الإحياء عن الإماتة " (١)

" وجملة " إن الله لذو فضل على الناس " واقعةٌ موقع التعليل لجملة " ثم أحياهم والمقصود منها بث خلق الاعتماد على الله في نفوس المسلمين في جميع أمورهم وأنهم إن شكروا الله على ما أتاهم من النعم زادهم من فضله ويسر لهم ما هو صعب " (٢)

مع مظاهر الكوؤ والطبيعة :-

هذا ضرب آخر من التكوين يختلف عما سبق حيث نجد المخاطب المأمور في هذه الأساليب يتفاعل وينقاد في طواعية لأمر الله ويتبدل من حالته السابقة قبل الخطاب إلى حالة أخرى كآية دالة على الإعجاز ومظهر تتجلى فيه قدرة الباري عز سلطانه .

من ذلك قوله تعالى { وَقِيلَ يَا أَرْضُ أَبْلِعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } (٣)

أفاض المفسرون والبلاغيون في تحليل هذه الآية الكريمة بما لا يدع لتأمل أو باحث يحاول إستجلاء لطائف هذه الآيات البيانية وأسرارها البلاغية أن يتفوه ببنت شفة ، حتى إن بعض البلاغيين كابن أبي الأصبع ذكر أن في هذه الآية واحداً وعشرين ضرباً من البديع مع أن عدد ألفاظها سبع عشرة لفظة ، ونكتفي بنقل ما ذكره الإمام عبدالقاهر الجرجاني والزمخشري باختصار : [نداء الأرض والسماء والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات فيه من الدلالة على الاقتدار العظيم مافيه ، وأن هذه السموات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة عليه

(١) انظر البحر المحيط ٢ / ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٢) التحرير والتنوير ٢ / ٤٨٠ .

(٣) سورة هود ، الآية " ٤٤ " .

منقاده لأمره سبحانه وتعالى]، [ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم أمرت ، ثم في أن كان النداء " بيا " دون " أي " نحو أيتها الأرض ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال " ابلعي الماء " ثم أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها ، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل و " غيظ الماء " فجاء على صيغة " فعل " الدالة على أنه لم يفيض إلا بأمر أمر وقدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى " وقضى " الأمر " ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو " استوت على الجودي " ثم إضمار " السفينة " قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ، ثم مقابلة " قيل " في الخاتمة " بقيل " في الفاتحة] (١)

ومنه قوله تعالى { قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ } (٢)

لم يبق أمام هؤلاء الكافرين بعد أن ألقمهم إبراهيم عليه السلام الحجر ، وأفحمهم بحججه المسكتة الدامغة إلا اللجوء إلى العدوان والبطش شأن كل ظالم غاشم وتلك ذروة الهزيمة في مقارعة الحجة بالحجة تركتهم ونفوسهم تتلظى بالمرارة والحدق الذي تجلى في إختيارهم أبشع ألوان العقاب وهو النار (٣) ، وإنما اختاروا المعاقبة بالنار لأنها أهول ما يعاقب به وأفظعه كما قال ذلك المفسرون (٤) ، لكن الله رد كيدهم إلى نحورهم حيث خاطب النار بقوله " يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم " فطاعت وأذعنات وانقادت لأمر الله فكانت برداً وسلاماً عليه ، وفي هذا التعبير

(١) انظر دلائل الإعجاز تحقيق محمود شاكر ص ٤٥ وما بعدها والكشاف ٢/٢٧١ وراجع في الآية البحر المحيط ٥/٢٨٨ وحاشية الشهاب ٥/١٠١ والتحرير والتنوير ١٢/٨٠-٨٢ ، ومفتاح العلوم ص ٤١٧ - ٤٢١ والطراز ٣/٢٢٧ - ٢٢٨ وتحرير التعبير ص ٦١١ - ٦١٤ ووجوه الخطاب ص ٤٠٧ - ٤١٥ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآيتين " ٦٨ - ٦٩ " .

(٣) أسلوب الدعوة القرآنية ص ١٥٦ وراجع أبا السعود ٣/٧١٤

(٤) انظر الكشاف ٢/٥٧٨ ، والتفسير الكبير ٢٢/١٨٨ ، والبحر المحيط ٦/٣٢٨ وروح المعاني ١٧ / ٦٧ .

تصوير لنفاذ قدرة الله في مخلوقاته ، ويلاحظ ما في التعبير الكريم من جمال آخذ ودقة في العبارة حيث جعل النار المسخرة لقدرته تعالى مأمورة مطيعة ، وفي إقامة " كوني ذات برد " مقام " ابردي " ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه كأنها هي البرد نفسه ، كما يلاحظ أنه لم يأمرها بأن تكون برداً فقط وإلا لهلك ابراهيم عليه السلام وإنما عطف عليه " سلاماً " أي برداً محبباً غير ضار " (١) .

ومنه قوله تعالى { إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ... } (٢)

فلام الأمر في قوله " فليلقه " دالة على التكوين أي سخرنا اليم لأن يلقيه بالساحل " ومنه قوله تعالى خطاباً للجبال والطير في سياق التفضل على داود عليه السلام وبيان فضله وعلو منزلته عند الله تعالى { وَلَقَدْ أَتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّارَ لَهُ الْحَدِيدَ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } (٣)

في هذا النظم القرآني الكريم خاطب الله سبحانه وتعالى الجبال والطير فأطاعت وانقادت لأمره ومشينته سبحانه وتعالى وفي هذا من الدلالة على عزة الربوبية وكبرياء الألوهية ونفاذ أمره في مخلوقاته بحيث لا يخفى ، وإشعار بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت إلا وهو منقاد لمشيئته غير ممتنع على إرادته سبحانه عز وجل .

ولعل في تصدير الآيات الكريمت بالقسم قصداً إلى توكيد الخبر لكونه أمراً عجيباً غير معتاد أو لأن هذا الخطاب جاء في سياق الرد على الكفار الذين أنكروا البعث لاستحالته عندهم فأخبروا بوقوع ما هو مستحيل في العادة مما لا يمكنهم إنكاره . (٤)

(١) انظر تفسير أبي السعود ٧١٤/٣ وما بعدها وروح المعاني ٦٨/١٧ وأسلوب الدعوة القرآنية ص ١٥٦ .

(٢) سورة طه ، الآيتين " ٢٨ - ٢٩ " .

(٣) سورة سبأ ، الآيتين " ١٠ - ١١ " .

(٤) انظر الكشاف ٢٨١/٣ ، والبحر المحيط ٣٦٢/٧ ووجوه الخطاب في القرآن ومواقعها البلاغية ص ٢٨٨ .

وتنكير " فضلاً " للتفخيم والتعظيم ، أما قوله " منا " فهو كما ذكر الرازي " إشارة إلى بيان فضيلة داود عليه السلام ، وتقديره هو أن قوله " ولقد أتينا داود منا فضلاً " مستقل بالمفهوم وتام كما يقول القائل : أتى الملك زيداً خلعة ، فإذا قال القائل أتاه منه خلعة يفيد أنه كان من خاص ما يكون له ، فكذلك إيتاء الله الفضل عام ، لكن النبوة من عنده خاص بالبعض " (١) ، أما أبو السعود فذهب إلى أن قوله " منا " لتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الإضافية كما في قوله [وَأَتَيْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عَلِمًا] (٢) وتقديمه على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر فإن ماحقه التقديم إذا أخرج تبقى النفس مترقبة له فإذا وردها يتمكن عندها فضل تمكن " (٣) أما الألووسي فقد لح في قوله " منا " معنى ذكياً أي بلا واسطة " (٤)

وعموماً فالأمر في هذه الآيات للتكوين (٥) ، وإن ذهب الطاهر بن عاشور إلى القول بأنه أمر تكوين وتسخير " (٦)

ويبدو أن الذي دفعه إلى هذا القول إختلاط دلالاتي التكوين والتسخير عنده ، والصواب أن الأمر للتكوين إذ لا معنى للتسخير في هذه الآية ويأباه السياق لأن التسخير في اصطلاح البلاغيين التبديل من حالة إلى أخرى فيها مهانة ومذلة " (٧)

التسخير :-

للتسخير في القرآن الكريم دالتان دلالة اصطلاحية وقد سبق تحريرها وتحديدها ، ودلالة أخرى بمعنى الإلهام على نحو مايتضح بعد قليل في السطور التالية والواقع أن التسخير والنكال لم يرد في القرآن الكريم إلا في موضعين في

-
- (١) التفسير الكبير ٢٥ / ٢٤٦ .
 - (٢) سورة الكهف ، الآية " ٦٥ " .
 - (٣) تفسير أبي السعود ١٢٤/٧ .
 - (٤) روح المعاني ١١٢/٢٢ .
 - (٥) انظر كتب التفسير السابقة وتنزيه القرآن عن المطاعن ص ٢٢٧ ووجوه الخطاب في القرآن ص ٢٨٩ .
 - (٦) التحرير والتنوير ٢٢ / ١٥٦ .
 - (٧) انظر شروح التلخيص ٢ / ٣١٧ .

سياق مسخ بعض بني إسرائيل قردة خاسئين قال تعالى { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ } (١)

عبر بهذا عن نقلهم من حالة إلى أخرى إذلالاً لهم ، أما قوله " خاسئين " أي صاغرين مطرودين عن ساحة القرب والعز ، ووصف القردة به لتأكيد ما تضمنه معناه ويصح أن يكون خاسئين خيراً لكان أي كونوا جامعين بين القردية والخسوء وهو الصغار والطرود " (٢)

وجمهور المفسرين على أن المسخ حقيقي ، وإن أشار بعضهم إلى أنهم لم يمسخوا قردة وإنما هو مثل ضربه الله كما قال تعالى {كمثل الحمار يحمل أسفاراً } وهذا الرأي منسوب لمجاهد ، (٣) والأولى هو الأول .

ويضاف إلى التسخير سرعة التكوين أو كما قالوا سرعة الكون على هذا الوصف نكالا لهم وموعظة للمتقين " (٤)

ونظيره قوله تعالى : { فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَانِهِمَا عَلَيْهِمْ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ } (٥) فالأمر كسابقه للتسخير والنكال .
التسخير بمعنى الإلهام :-

للتسخير دلالة لغوية أخرى بمعنى الإلهام في القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى : { وَأَوْهَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } (٦)

(١) سورة البقرة ، الآية " ٦٥ " .

(٢) انظر شروح التلخيص - مواهب الفتاح وعروس الأفراج وحاشية الدسوقي ٢١٧/٢ والكشاف ٢٨٦/١ .

(٣) البحر المحيط ٢٤٦/١ .

(٤) راجع الطبري ٢٦٤/١ وما بعدها والبحر المحيط ٢٤٦/١ وأبا السعود ١٨٧/١ والطرز ٢٨٣/٢ والبيضاوي والشهاب حاشية الشهاب ١٧٥/٢ وروح المعاني ٢٨٣/١ والتحرير والتنوير ٥٤٤/١ والأساليب الإنشائية ص ٤٨ .

(٥) سورة الأعراف ، الآية " ١١٦ " .

(٦) سورة النحل ، الآيتين " ٦٨ - ٦٩ " .

افتتح النظم الكريم بالفعل " أوحى " لما فيه من الإيماء إلى إلهام الحشرة الضعيفة تدبيراً عجيباً وعملاً متقناً ، فكان الإلهام في ذاته دليلاً على عظيم حكمة الله تعالى فضلاً على ما بعده من دلالة على قدرة الله تعالى ومنة منه " (١)

ويقول الزمخشري " الإيحاء إلى النحل : إلهامها والقذف في قلوبها وتعليمها على وجه هو أعلم به لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه " (٢)

فالأمر في قوله " اتخذني - كلي - اسلكي " للإلهام ، وليس كما نقل عن بعضهم الحمل على الظاهر حيث زعموا أنه " لا يبعد أن يكون لهذه الحيوانات عقول ولا يبعد أن يتوجه عليها من الله تعالى أمر ونهي " (٣)

ولاريب أن في هذا القول مخالفة لما عليه المفسرون حيث فسروا الوحي في هذه الآية بالإلهام ، بل إن أبا حيان نقل إجماع العلماء على الإلهام " (٤) ومنه قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام إلهاماً لأمه [إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ...] (٥)

فالأمر في هذه الآية الكريمة للإلهام . والله أعلم .

(١) التحرير والتنوير ١٤ / ٢٠٤ .

(٢) الكشاف ٢ / ٤١٧ .

(٣) التفسير الكبير ٢٠ / ٧٣ .

(٤) البحر المحيط ٥ / ٥١١ وراجع الكشاف ٢ / ٤١٧ والتفسير الكبير ٢٠ / ٧٣ وتفسير

أبي السعود ٣ / ٣٧٨ وحاشية الشهاب ٥ / ٣٤٨ وروح المعاني ١٤ / ١٨١ والتحرير

والتنوير ١٤ / ٢٠٤ ووجوه الخطاب في القرآن ومواقعها البلاغية ص ٣٩٤ .

(٥) سورة طه ، الآيتين " ٢٨ - ٢٩ " .

التكريم

جاء التكريم فى أساليب الامر موزعاً بين الدنيا والآخرة ، وإن كثر فى الآخرة كلون من ألوان الجزاء ، بل إن التكريم جزء أساسى فى مشاهد يوم القيامة نحو قوله تعالى { يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } (١)

وفى التكريم ترغيب إلى الجنة وما فيها من نعيم دائم أعده الله لعباده المخلصين ، وإثارة الأشواق فى نفوس المؤمنين المخلصين إلى العالم الآخر المليء بالبهجة والحبور والنعيم المقيم .

ويعد التكريم لوناً من ألوان الترغيب فى الصفات العالية والأعمال النقية التى بها - وفضل الله سابق - نال المتقون ما نالوا ...

ونلاحظ فى عرض القرآن الكريم لأحوال المنعمين فى الجنة وأحوال المعذبين فى نار جهنم ، وفى مقابلة جزاءات المؤمنين بجزاءات الكافرين تسليطاً للضوء على التكريم وعلى الإهانة حين يتقابل الضدان .

وفى هذا المبحث نتناول أساليب الامر التى أفادت معنى التكريم فى القرآن نكتفى بذكر بعض النماذج وتحليلها :

١ - فى الدنيا :-

ورد التكريم فى القرآن من ذلك قوله تعالى خطاباً لنوح عليه السلام { قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمٌّ سَنَّمتَهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ } (٢) .

فالامر فى قوله { اهبط } على ما يبدو أمر حقيقي ، لكن الرضا والتكريم فى هذه الآية مستفاد من المتعلق { بسلام منا وبركات عليك } لأن الحال هيئة من هيئات الفعل أى اهبط يحفك السلام .

((أما التعبير بقوله " منا " فهو تأكيد لتوجيه السلام إليه لأن " من " ابتدائية

(١) سورة الحديد ، الآية " ١٢ " .

(٢) سورة هود ، الآية " ٤٨ " .

فالمعنى بسلام ناشيء من عندنا ، وهذا التأكيد يراد به زيادة الصلة والإكرام * (١)
ومن ذلك قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام قال تعالى { فَلَمَّا دَخَلُوا
عَلَى يُوسُفَ أَوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ إِنِّ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ } (٢)
فالأمر بالدخول للتكريم والطمأننة بدليل قوله { إن شاء الله آمين } فهذا
التعبير يوحي بالأمن والسلامة والطمأننة .

٢ - في الآخرة :-

وحيث ورد الأمر بالدخول للمنعمين في الآخرة فهو للتكريم والرضا (٣) ، من
ذلك قوله تعالى { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ } (٤)
فالتكريم في هذه الآية جاء على أتم وجه وأكد حال حيث قرن الله تعالى دخولهم الجنة
بالسلام والأمن في هذه الآية فالمراد كما ذكر الرازي { ادخلوا الجنة مع السلامة من كل
الآفات في الحال ومع القطع ببقاء هذه السلامة والأمن من زوالها } (٥)
ومنه قوله تعالى { وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ
قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُسْتَكْبِرُونَ أَهْلَ الْأَيْمَانِ الَّذِينَ اقْسَمْتُمْ
لَأَيْنَالَهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ } (٦)
ففي قوله { ادخلوا الجنة... الخ } تلوين للخطاب وتوجيه له إلى أولئك
المذكورين ، أي ادخلوا الجنة رغم أنوفهم * (٧) ، فإن لكم النعيم الدائم والسعادة الغامرة
التي لا يشوبها حزن ولا يكدرها هم .

ويلاحظ التنكير في " خوف " ووقوعه في سياق النفي يفيد العموم ، إشارةً
إلى نفي أي خوف عنهم زيادةً في الترغيب ونهايةً للرضا والتكريم (٨)

-
- (١) التحرير والتنوير ١٢ / ٨٩ .
 - (٢) سورة يوسف ، الآية " ٩٩ " .
 - (٣) راجع المعجم المفهرس ص ٢٥٤ .
 - (٤) سورة الحجر ، الآية " ٤٦ " .
 - (٥) التفسير الكبير ١٩ / ١٩٧ .
 - (٦) سورة الأعراف ، الآيتين " ٤٨ - ٤٩ " .
 - (٧) تفسير أبي السعود ٢ / ٣٤٧ .
 - (٨) راجع أسلوب الدعوة القرآنية ص ١٤٥ .

ومنه قوله عز وجل { وَأَزْلَفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، هَذَا مَا تَوَعَّدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مِّنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ، ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ، لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ } (١)

تصور هذه الآيات الكريمات مشهداً من مشاهد الآخرة يلقي في النفس ظلال الرضا والتكريم والحفاوة التي ينالها عباد الله المتقون حيث يقال لهم في ذلك اليوم "ادخلوها بسلام" والباء للمصاحبة في معنى الحال أي سالمين مقرونين بالسلامة ، أو معناه ادخلوها مسلماً عليكم ويسلم الله عليكم وملائكته (٢) ، وللرازي تفسير غريب ضعيف في قوله { ادخلوها بسلام } حيث يقول ((يحتمل عندي وجهاً آخر وهو أن يكون ذلك إرشاداً للمؤمنين إلى مكارم الأخلاق في ذلك اليوم كما أرشدوا إليها في الدنيا)) (٣)

ثم يختتم السياق بتعبير دال على حفاوة التكريم وزيادته ونهاية التنويه بالرضا عن هؤلاء المحظوظين { لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد } فهم أهل لهذا التكريم بفضل الله ومنته (٤) .

ونلاحظ في أساليب التكريم في الآخرة كثرة إقتران السلام بالدخول سواء جاء السلام بعد الدخول - كما في الآيات السابقة - أو قبله نحو قوله تعالى { وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ } (٥) ، أما قوله تعالى { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنِّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي } (٦)

فقد أغنى عن ذكر السلام ثلاث كلمات تدل على كمال الرضا والتكريم هي ((المطمئنة ، راضية ، مرضية)) .

(١) سورة ق ، الآيتين ٣١ - ٣٥ .

(٢) انظر الكشاف ٤ / ١١ .

(٣) التفسير الكبير ٢٨ / ١٧٩ .

(٤) راجع مشاهد القيامة في الآخرة ص ٩١ .

(٥) سورة الزمر ، الآية ٧٣ .

(٦) سورة الفجر ، الآيتين ٢٧ - ٣٠ .

وفي إضافة العباد والجنة إلى ضميره سبحانه دلالة على نهاية الرضا والقبول والتكريم .

ولنعد إلى الآية نستجلي دقائقها ولطائفها :-

نجد المولى عز وجل ينادى هذه النفس في حفاوة وتكريم وفي ثناء وتطمين إرجعي إلى ربك بما بينك وبينه من صلة ومعرفة ، { راضية مرضية } بهذه الندوة التي تفيض بالرضا والقبول ، { فادخلي في عبادي } المقربين المختارين ، { وادخلي جنتي } في كنفى ورحمتي إنها رآفة تنسم فيها أرواح الجنة إلى هذه النفس المطمئنة إلى ربها ، المطمئنة إلى طريقها ، المطمئنة إلى قدر الله بها ، المطمئنة فلا ترتاب ولا تنحرف ولا تتلجلج في الطريق ، المطمئنة فلا ترتاع في يوم الهول الرهيب (١)

بل إننا نلاحظ كثرة السلام في البيان القرآني سواء أكان في أساليب الأمر أم في الأساليب الخبرية نحو قوله تعالى " سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار " (٢) إذ ان لفظ السلام في هذه الأساليب يوحي بالأمن والطمأنينة والرضا والتكريم .

ومن أساليب الأمر التي أفادت معنى التكريم والرضا في القرآن الفعلان { كلوا واشربوا } وكننت قد أشرت من قبل إلى أن لهذين الفعلين في القرآن أكثر من معنى بلاغي ويهمنا هنا أن نتناول ما أفاد منه معنى التكريم .

فحيث جاء الخطاب موجهاً للمؤمنين المنعمين في الجنة فهو للتكريم والرضا والإحسان ، وهو تكريم قولي ومجازاة رحيمة من الله لعباده المؤمنين (٣) ، نحو قوله تعالى { إن المتقين في جنات ونعيم فأكهين بما أتاهم ربهم ووقاهم عذاب الجحيم } { كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } (٤) وقوله عز وجل { فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ } (٥) وليس الأمر في قوله { كلوا واشربوا } أمر إباحة ، وليس بأمر إيجاب ولا نذب ، لأن الآخرة ليست دار تكليف وإنما دار تكريم (٦) .

(١) انظر اليوم الآخر في ظلال القرآن إعداد أحمد فائز ص ٢٠٧ والتصوير الفني ص ٩٧ .

(٢) الأساليب الإنشائية ص ٣٦ .

(٣) سورة الطور ، الآية ١٩١ .

(٤) سورة الحاقة ، الآيتين ٢٢ - ٢٤ .

(٥) راجع التفسير الكبير ٢٠ / ١١٢ .

ولذا لم يذكر الإسراف في الدنيا ، وذكر [هنيئاً] وهو تعبير يسري فيه كمال

الرضا والتكريم والود الحبيب (١)

ونظيره قوله تعالى [إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعِيُونَ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ

كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ] (٢)

فالأمر في هذه الآية للتكريم كسابقه ، ومعنى [هنيئاً] أي خالص اللذة

لا يشوبه سقم ولا تنغيص (٣)

والبإاء في [بما كنتم تعملون] للسببية أي كلوا واشربوا بسبب ما كنتم

تعملون في الدنيا من الأعمال الصالحة وذلك من إكرامهم بأن جعل ذلك الإنعام حقاً

لهم ، وجملة [إنا كذلك نجزي المحسنين] مسوقة لزيادة التكريم والثناء

عليهم " (٤) .

(١) انظر الاساليب الإنشائية ص ٣٧ .

(٢) سورة المرسلات ، الآيتين " ٤١ - ٤٤ " .

(٣) راجع التفسير الكبير ٢٨٢/٣ والتحرير والتنوير ٢٩ / ٤٤٣ .

(٤) انظر التحرير والتنوير ٢٩ / ٤٤٤ .

الإهانة

دلالة الإهانة في اللغة والإصطلاح -

أولاً في اللغة :-

الإهانة في اللغة مصدر أَهَانَهُ أَي اسْتَخَفَّ بِهِ وَاسْتَحْقَرَهُ .

ويقال : رجل فيه مهانة أي ذلٌّ وَضَعْفٌ . (١)

وفي إصطلاح البلاغيين :-

وهي إظهار مافيه تصغير المهان وقلة المبالاة به وذلك إذا استعملت صيغة

الأمر في مقام عدم الاعتداد بشأن المأمور (٢) .

والإهانة لون من الألوان البلاغية التي تفيدها صيغة الأمر في القرآن

الكريم حيث جاءت في أساليب متنوعة ، ويلزمها غالباً التهكم والسخرية ، وقد

تكون لوناً من ألوان التعذيب يوم القيامة ، على نحو مايتضح في الصفحات

التالية :

إهانة إبليس -

في القرآن الكريم أساليب كثيرة جاءت تنبض بالإهانة والازدراء لإبليس

اللعين بسبب عصيانه لأمر الله بالسجود لأدم عليه السلام حسداً وحقداً وتعالياً

عليه (٣) ، فزين للناس - من ذرية أدم عليه السلام - طريق الغواية والضلال .

من ذلك قوله تعالى : { قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ

جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً وَاسْتَفْزَزَ مِنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ

(١) انظر مقاييس اللغة ٢١/٦ وأساس البلاغة ص ٤٨٩ والصحاح ٢٢١٨/٦ واللسان

٤٧٢٤/٦ .

(٢) انظر حاشية الدسوقي ٣١٧/٢ وبغية الايضاح ٥٤/٢ حاشية رقم "٧" .

(٣) تفاصيل هذه القصة مذكورة في القرآن وانظر خصائص التعبير في القرآن

الكريم وسماته البلاغية ص ٢٧٦ - ٢٠٣ وهو بحث قدم لنيل درجة الدكتوراه

من كلية اللغة العربية جامعة الأزهر .

بَخِيلِكَ وَرَجَلِكَ وَشَارِكِهِمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدِهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ
إِلَّا غُرُورًا { (١)

تفيض هذه الآيات الكريمات بإهانة إبليس وطرده ، إذ ليس المراد بقوله :
" اذهب " حقيقة الأمر بالذهاب ضد المجيء بل المراد كما قال الألوسي نقلاً عن
الزمخشري وأبي السعود " تَخَلَّيْتَهُ وَمَا سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ إِهَانَةً لَهُ كَمَا تَقُولُ لِمَنْ
يُخَالِفُكَ : أَفْعَلْ مَا تُرِيدُ ، وَقِيلَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الذَّهَابِ ضِدُّ الْمَجِيءِ فَمَعْنَاهُ حِينَئِذٍ
كَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : [أَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ] (٢) وَقِيلَ هُوَ طَرْدٌ وَتَخْلِيَةٌ .
والذي يدل على أنه ليس المراد منه ضد المجيء تعقيبه بالوعيد في قوله
سبحانه [فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ] (٣)

ويقول الزمخشري ((فَإِنْ قُلْتَ : أَمَا كَانَ مِنْ حَقِّ الضَّمِيرِ فِي الْجَزَاءِ أَنْ
يَكُونَ عَلَى لَفْظِ الْغَيْبَةِ لِيَرْجَعَ إِلَى مَنْ تَبِعَكَ ، قُلْتَ : بَلَى وَلَكِنَّ التَّقْدِيرَ : فَإِنْ جِئْتُمْ
جَزَائِهِمْ وَجَزَائِكُمْ ، ثُمَّ غَلَبَ الْمُخَاطَبُ عَلَى الْغَائِبِ فَقِيلَ جَزَائِكُمْ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ
لِلتَّابِعِينَ عَلَى طَرِيقِ الْاِلْتِفَاتِ)) (٤)

فالأوامر في هذا السياق تفيد معاني الإهانة والتحقير والازدراء .
ونظيره قوله تعالى خطاباً لإبليس إثر إبطائه أمر السجود لآدم عليه السلام
[قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ
الصَّاغِرِينَ] (٥) .

لاشك أن التعبير بالهبوط مشعر بمعاني الإهانة والتحقير ، أما قوله :
[فاخرج] فهو توكيد للأمر السابق ، وأعيدت الفاء مع الجملة الثانية لزيادة
تسبب الكبر في الإخراج من الجنة (٦) ، كما أن جملة " إنك من الصاغرين "

(١) سورة الإسراء ، الآية " ٦٣ - ٦٤ " .

(٢) سورة الحجر ، الآية " ٣٤ " .

(٣) زوح المعاني ١١٠/١٥ وانظر الكشاف ٤٥٦/٢ وتفسير أبي السعود ٤٦٥/٣ .

(٤) الكشاف ٤٥٦/٢ .

(٥) سورة الأعراف ، الآية " ١٣ " .

(٦) انظر التحرير والتنوير ٤٢/٨ - ٤٥ ووجوه الخطاب في القرآن الكريم ص ٣٢٧

تعلييل للأمر بالخروج مشعر بأنه - لتكبره - من الأذلاء وأهل الهوان على

الله تعالى وعلى أولياءه { (١)

ومن أساليب الأمر التي تفيد معنى الإهانة والتحقير لإبليس اللعين (أخرج)

حيث جاء في أربعة مواضع منها قوله تعالى : [قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ] (٢) وقوله تعالى : [قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ] (٣) وقوله تعالى : [قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُوماً مَذْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ، وَيَأْتِمُّ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ...] (٤)

((ففي توجيه الخطاب لآدم بهذه الفضيلة بحضور إبليس بعد طرده زيادة

إهانة لإن إعطاء النعم لمرضى عليه في حال من أستاهل العقاب زياده حسرة على

المعاقب وإظهاراً للتفاوت بين مستحق الإنعام ومستحق العقوبة)) (٥)

إهانة المشركين :-

حين ننعم النظر في أساليب الإهانة في القرآن نجدها تختلف باختلاف

زمن القول ، فهناك إهانة في الدنيا ، وإهانة في الآخرة .

أولاً - في الدنيا :-

في القرآن صور عديدة تحمل معاني الإهانة والتحقير للمشركين في الدنيا

والإهانة ، وهذه الأساليب تتنوع بتنوع القائلين حيث جاءت من قبل الحق سبحانه

وتعالى ، أو على ألسنة الملائكة ، أو الأنبياء والمرسلين عليهم السلام .

(١) تفسير أبي السعود ٢/٣٢٩ .

(٢) سورة الحجر ، الآية " ٣٤ ، ٣٥ "

(٣) سورة ص ، الآية " ٧٧ ، ٧٨ "

(٤) سورة الأعراف ، الآيتان " ١٨ - ١٩ "

(٥) التحرير والتنوير ، الجزء الثاني ص ٥٣ وراجع وجوه الخطاب في القرآن

الكريم ص ٣٢٨ .

من ذلك قوله تعالى إهانة للمشركين المكذابين بالبعث : { وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ... } (١)

فقوله : { كونوا حجارة } إهانة لهم إذ يسلبهم كل ما للإنسان من خصائص ، فالأمر في هذه للإهانة كما ذكر الإمام القزويني وتابعة العلوي والشهاب الخفاجي وبعض المحدثين . (١)

وقد خالف القزويني بهذا الفهم جمعاً من المفسرين الذين ساروا على نهج الإمام الطبري في أن الأمر في هذه الآية للتوهم والتقدير ، أي قدروا أن تكونوا ماشئتم حجارة أو حديداً أو ما يكبر في صدوركم وهو الموت ذاته فالله قادر على بعثكم وإعادةكم .

وتأويل ما يكبر بالموت مروى عن ابن عباس رضي الله عنهما وابن عمر رضي الله عنهما والحسن وابن جبير والضحاك ... (٣)

وذكر ((الطيبي أن الأمر في هذه الآية للتسخير كقوله : { كونوا قروداً خاسئين } ، لكونه على الفرض ، والألزم أن يكونوا حجارة ، قال في الكشف : وهو غير ظاهر لأنه لا معنى للتسخير الفرضي ولو جعل من قبيل " كن فلاناً " على معنى أنت فلان باستعمال الطلب في معنى الخبر أي أنتم حجارة ولنستم عظاماً ومع ذلك تبعثون لامحالة لكان وجهاً قوياً)) (٤) .

(١) سورة الإسراء الآيتان " ٤٩ - ٥١ " .

(٢) الإيضاح ١ / ٢٤٢ ، والطراز ٣ / ٢٨٣ ، وحاشية الشهاب ٦ / ٣٩ ، وبغية الإيضاح

٢ / ٥٤ ، والأساليب الإنشائية ص ٤٧ .

(٣) أنظر الطبري ١٥ / ٦٨ وما بعدها ، والبحر المحيط ٦ / ٤٦ .

(٤) حاشية الشهاب ٦ / ٣٩ .

غير أن الشهاب الخفاجي اعترض عليه بقوله : ((كيف يقال أنتم حجارة على أنه خبر وهو غير مطابق للواقع ، فلا بد من قصد الإهانة وعدم المبالاة وجعل الأمر مجازاً عن الخبر والخبر خبر فرضي وليس فيه ما يدل على الفرض كان ولو الشرطية وهو مما لا يخفى بعده وليس بأقرب مما استبعده والصواب أنه للإهانة كما جنح إليه في الإيضاح)) (١)

فالأمر في هذه الآية للإهانة عند كثير من البلاغيين والمفسرين (٢)
ومن هذا الضرب قوله تعالى للمنافقين في الدنيا : { هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ
تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا
خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
بِذَاتِ الصُّدُورِ } (٣)

ذكر الطبري وتابعه بعض المفسرين بأن قوله : { قل موتوا بغيظكم } دعاء عليهم بأن يزداد ما يوجب غيظهم من قوة الإسلام وعز أهله ، فإن ذلك يتضمن ذلهم وخزيهم (٤) .

((وعلى ذلك فالدعاء عليهم بهذا صريحه طلب موتهم بسبب غيظهم وهو كناية عن ملازمة الغيظ لهم وذلك كناية أيضاً عن دوام سبب غيظهم وهو حسن حال

(١) حاشية الشهاب ٢٩/٦

(٢) راجع في الآية الطبري ٦٨/١٥ ؛ والكشاف ٤٥٢/٢ ؛ والبحر ٤٦/٦ ؛
والرازي ٢٢٦/٢٠ ؛ وغرائب القرآن للنيسابوري ٤٨/١٥ ؛ والإيضاح ٢٤٢/١ ؛
والطراز ٢٨٣/٣ ؛ وبغية الإيضاح ٥٤/٢ ؛ والأساليب الإنشائية ص ٤٧ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية (١١٩)

(٤) انظر الطبري ٤٤/٤ ؛ والرازي ٢٢٠/٨ ؛ وأبا السعود ٥٤٣/١ ؛ والنيسابوري
٥٥/٤ ؛ وحاشية الشهاب ٥٩/٣ ؛ وروح المعاني ٤٠/٤ ؛ والتحرير والتوير
٦٧/٤ .

الإسلام وانتظام أمره ، فالكلام جارٍ على ما يعرف بالكناية على الكناية كما ذكر
الشهاب الخفاجي (((١)

غير أن أبا حيان ردّ القول السابق قائلاً : ((والأمر ليس بدعاء لأنه لو
أمره بالدعاء لما اتوا جميعهم على هذه الصفة فإن دعوته لا ترد وقد آمن منهم بعد هذه
الآية كثير ...)) (٢)

والذي أرتضيه أن الأمر في هذه الآية للإهانة والتهليل والتحسير كما ذكر
الزركشي وبعض المحدثين (٣)

ومن أساليب الأمر التي أفادت معنى الإهانة والتحقير في القرآن الكريم
الفعل [ألقوا] حيث ورد في أربعة مواضع على لسان موسى عليه السلام في سياق
محاورته مع السحرة . (٤)

ويبدو أن السحرة كانوا واثقين من نصرهم على موسى عيه السلام بدليل
أنهم تمنوا على فرعون الأمانى بلهجة الواثق المنتصر ، وأنهم خيروا موسى بين
أن يبدأ هو أو أن يبدأوا وأن يفعلوا ما يشاءون من سحر ، فألقوا حبالهم وعصيهم
تشبهاً بعضاً موسى فإذا هي حية تسعى (٥)

قال تعالى : { وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ، فَلَمَّا جَاءَ
السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ } (٦)

(١) انظر حاشية الشهاب ٥٩/٣ : وجوه الخطاب ص ٢٥٨

(٢) البحر المحيط ٤٢/٣

(٣) انظر البرهان ٢٥١/٢ : وأساليب بلاغية ص ١١٥

(٤) راجع المعجم المفهرس ص ٦٥٢

(٥) أسلوب المحاورة د. عبد الحلیم حفني ص ١٧٥ وما بعدها

(٦) سورة يونس ، الآيتان (٧٩ - ٨٠)

نص كثير من البلاغيين على أن الأمر في قوله : [اَلْقَوَا مَا اَنْتُمْ مُلْقُونَ]

للتحقير (١) وهو قريب من الإهانة .

ثانياً : الإهانة في الآخرة :

لاشك أن الإهانة في الآخرة تكون لونا من ألوان التعذيب النفسي بجانب

العذاب الذي أعده الله سبحانه في الآخرة للكافرين .

وحيث ننظر الى أساليب الإهانة في الآخرة نظرة متأمله نجدها تتنوع

بتنوع مراحل الآخرة كالعرض للحساب والجزاء ، أو دخول المعذبين النار ،

أو العذاب نفسه الذي يعذب به هؤلاء المشركون .

وليس بلازم أن تكون الإهانة في القرآن الكريم مرتبطة بالمأمور دائماً بل

قد تكون واقعة على من وقع عليه الفعل فهو مفعول مهان على نحو مانجده في

قوله تعالى : [مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ خُذُوهُ فَغُلُوهُ ثُمَّ

الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ

بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِينِ فليس له اليوم ههنا حميمٌ

وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِن قِسْمِنَا لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ] (٢)

فالخطاب في قوله تعالى : [خذوه - غلوه - صلوه] ، موجه للملائكة فهو

تكليف من الله للملائكة لكن فيه اهانة لهذا المعذب حيث أن متعلق الأخذ واقعٌ

عليه.

(١) الإيضاح ٢٤٣ / ١ ؛ وعرس الأفراح ٣٢١ / ٢ ؛ والإتقان ٢٤٣ / ٣ ؛ ومعتك

الأقران ٤٤٢ / ١ ؛ وأساليب بلاغية ص ١١٤ ؛ ومعجم المصطلحات البلاغية ص

(٢) سورة الحاقة ، الآيات (٢٨ - ٢٧)

وأود أن أشير هنا إلى أن للفعل " خذ " دلالتين في لغة القرآن الكريم

هما:-

١- القوة والاهتمام البالغ والإقبال الكلي نحو قوله تعالى : { يَايَحْيَى خُذِ

الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ } (١)

وقوله تعالى : { قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى . } (٢)

٢- في أساليب الانتقام نجد القوة والإهانة والهول الشديد على نحو ما توضحه

الآية السابقة فهي مهولة بتراكيبها وإيقاعها السريع الدال على الغضب

والعنف .

وإن النفس تضطرب هلعا وخوفا لما توحى به هذه الآية من العذاب عن

طريق الإيقاع الصوتي وظلال الألفاظ ، فالفعل " خذ " بجرسه السريع مناسب

لمقامات الغضب والانتقام والعذاب الشديد .

ولعل من الأنسب والأجدر أن نتناول أساليب الإهانة في الآخرة في القرآن

الكريم حسب التدرج الذي اتبعه القرآن الكريم كي نسلم من العشوائية في المناولة

والدراسة توخياً للمنهج العلمي الدقيق .

فمن أساليب الأمر التي جاءت إهانة للمشركين في الآخرة الفعل " أدخل "

في القرآن الكريم ، وحيثما جاء الفعل للمعذبين فهو للإهانة والذم والتحقير نحو

قوله تعالى : { قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى

الْمُتَكَبِّرِينَ } (٣)

(١) سورة مريم ، الآية (١٢)

(٢) سورة طه ، الآية (٢١)

(٣) سورة الزمر ، الآية (٧٢) .

وحيث جاء الخطاب بهذا الفعل للمنعمن فهو للتكريم والرضا والبشرى (١)
نحو قوله تعالى : { وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا
خَالِدِينَ } (٢) .

فالامر في قوله : { ادخلوا ابواب جهنم } للإهانة والتحقير .
ونظيره ايضا قوله تعالى : { الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ
فَالْقَوْمَ السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ،
فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ } (٣)

فالامر في قوله : { ادخلوا ابواب جهنم } للإهانة والازدراء والشماتة ،
والمخصوص بالذم محذوف ، اي فلبئس مَثْوًى المتكبرين ، هي أى جهنم ، ووصف
التكبر دليل على استحقاق صاحبه النار (٤)

والمثوى : محل الثواء ، والثواء الإقامة الدائمة ، وأوثر لفظ مَثْوًى دون
مدخل المتكبرين المناسب لـ { ادخلوا } لأن المَثْوًى أدل على الخلود ، فهو أولى زيادةً
في الإهانة والتحقير ، ولأنَّ الدخول لا يدل على الدوام فلم يبالغ في ذمه بخلاف
الثواء الدائم (٥)

ومن صور الإهانة في الآخرة للمشركين ، وهي صورة توضيح السبب الذي
دفع المشركين إلى الجحيم وهو منع الخير في إهانة محقرة ونبذ وإلقاء في النار
في قوله تعالى : { وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لِّقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ
مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا

(١) راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٢٥٤

(٢) سورة الزمر ، الآية ٧٣

(٣) سورة النحل ، الآيتان (٢٨ - ٢٩)

(٤) البحر المحيط ٤٨٧/٥

(٥) انظر الكشاف ٤٣٧/٣ ؛ والبحر المحيط ٤٧٦/٧ ؛ والتحرير والتنوير ٢٠٧/٢٤

مَالِدِيَّ هَتِيدٌ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ
الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ [(١)]

هذه الآيات الكريمة توضح صورة من صور القيامة ، صورة النفس المعذبة

اللاهية عن ذكر الله وهي تساق ذليلة مهانة .

فالأمر في قوله : [ألقياه] تكليف من الله للملائكة وإهانة قاسية مؤلمة

للمعذب حيث يلقي به في النار كشيء تافه حقير يلقي به ، ثم يأتي قوله [ألقياه]

تكرير للتوكيد كما يقول الزمخشري (٢)

فالفعل " ألق " يصور مدلوله بجرسه وظله حيث نجده في هذا السياق

يجسد صورة الإلقاء بقوة وعنفة في النار ، لأن حروفه مجهورة وفيها قوة .

لذا نجد سياقاته في القرآن عنيفة فاعلة ، ومقاماته بين القهر الإلهي على

نحو ما توضحه الآيات السابقة ، أو الغضب البشري نحو قوله تعالى : [أَذْهَبَ

بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ] (٣) ، أو الاهتمام الشديد بما يقوم به الفعل

في نسق متناسب مع سياقه ومقامه (٤)

ومن صور الإهانة في القرآن الكريم قوله تعالى : [انطلقوا إلى ما كنتم به

تَكذِّبُونَ انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب] (٥)

الأمر في قوله [انطلقوا] للإهانة والتوبيخ ، وأعيد فعل [انطلقوا]

ترقيا وتصعيدا لمعاني الإهانة والتوبيخ . كما أن التعبير بقوله : [لا ظليل] تهكم

(١) سورة ق ، الآيات (٢١ - ٢٦)

(٢) انظر الكشاف ٨/٤

(٣) سورة النمل ، الآية (٢٨)

(٤) راجع المعجم المفهرس ص ٦٥٢

(٥) سورة المرسلات ، الآيتان (٢٩ - ٣٠)

بهم وتعريض بأن ظلهم غير ظل المؤمنين ، وتسميته بالظل ليست إلا امتداداً
للتهمم والتوبيخ .

فالسباق بجرسه وألفاظه وتوالي اللامات يصور هذا العذاب الشديد ،
ويوضح سطوة القدر وجلال الانتقام (١)

ومن صيغ الأمر التي أفادت معنى الإهانة في الذكر الحكيم الفعل [ذق]
مفرداً وجمعاً حيث ورد في خمسة وعشرين (٢) موضعاً في أساليب متوهجة تنبض
بلمضى النار المحرقة تفيد معاني الإهانة والتنكيل من ذلك قوله تعالى : { خَذُوهُ
فَاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ
أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } (٣)

لا شك أن الأمر في [ذق] للإهانة والتهمم والاستهزاء بهذا المشرك
الضال (٤)

وتأمل إحياءات الألفاظ الرهيبة : خذوه - اعتلوه - والعتل : الأخذ
بمجامع الثوب سحباً مهيناً وإيقافه وسط الجحيم أو بؤرتها وصب العذاب على
رأسه تعميماً لجسده وتعذيبه بالتهمم [ذق] والذوق لا يكون إلا لمطعم يساغ ، ثم
إنك أنت العزيز بأسلوب القصر وضمير الفصل ، وهذا التعبير يقال له وهو في
درجات العذاب لتكامل السخرية والتحقير وتصل قممتها (٥)

(١) انظر الكشاف ٢٠٤/٤ : والتحرير والتنوير ٤٣٥/٢٩ : وفي ظلال القرآن -
المجلد السادس ص ٣٧٩٢ : ومشاهد القيامة ص ٨٥ : والأساليب الإنشائية ص
٤٦ وما بعدها .

(٢) انظر المعجم المفهرس ص ٢٧٩

(٣) سورة الدخان ، الآيات (٤٧ - ٤٩)

(٤) انظر الطبري ٨٠/٢٥ : وا لكشاف ٥٠٧/٣ : والتفسير الكبير ٤٥٣/٢٧ :
والبحر المحيط ٤٠/٨

(٥) الأساليب الإنشائية ص ٤٦

وتبدو روعة هذه الصورة في الموازنة بين مجد هذا الضال وجبروته
وما كان عليه من عزة وكرامة في الدنيا وبين حال الذليلة المهينة هذه عند الله .
وحين نجد الآيات تتحدث عن عذابه البدني فإنها لاتعنى كثيراً بشدة العذاب
بالنسبة له وإنما تكتفي بتصويره واقفاً خائفاً ذليلاً ، والجمع القوي يصبون فوق
رأسه من عذاب الحميم ، ولو قُصِدَ إلى توضيح شدة تعذيبه لَصَوِّرَ في طعام شجرة
الزقوم الذي يشبه المهل يغلي في البطون .

فهذه الفئة من المشركين الذين كانت لهم مكانة مرموقة في قريش يؤلمهم
ويسيء إلى كرامتهم وعزتهم الهوان والمذلة أكثر من التعذيب البدني (١)
وهنا ملاحظة جديرة بالاهتمام ، فبعد أن كان الخطاب في هذه الآيات في
قوله : " خذوه - اعتلوه - صبوا " موجهاً للملائكة توجه الخطاب للمعذب بقوله :
" ذق " ترقياً وتصعيداً لمعاني الإهانة والتحقير والسخرية .

ومنه قوله تعالى : (أَلَمْ نَ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سَوَاءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ) (٢)

الامر في قوله : " ذوقوا " إهانة مبكئة وسخرية بالغة (٣)

على أن اساليب الإهانة للمشركين داخل جهنم في كثير من صورها جاءت
من قبل الحق سبحانه وتعالى أو على لسان زبانية العذاب ، وفي بعضها
الأخرجات على ألسنة المعذبين أنفسهم للإهانة والتنكيل والتشفي من بعضهم
بعضاً نحو قوله تعالى : (وَقَالَتْ أُولَاهُمُ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ
فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ) (٤)

(١) راجع أسلوب السخرية ص ١٠٩ و ص ٢٢٦

(٢) سورة الزمر ، الآية (٢٤)

(٣) أسلوب السخرية ص ١٠٨ ؛ وراجع مشاهد القيامة ص ١٦٩

(٤) سورة الأعراف ، الآية ٢٩ ،

يقول الطاهر بن عاشور : ((صيغة الأمر في قولهم " فذوقوا " مستعملة في

الإهانة والتشفي)) (١)

ومن أساليب الإهانة في النظم القرآني قوله تعالى : [رَبَّنَا أَخْرِجْنَا

مِنْهَا فَإِنِ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ] (٢)

تصور هاتان الآيتان مشهدا من مشاهد الآخرة ، يتجلى فيه الضيق والنفار

بهؤلاء المشركين حيث يقال لهم : " اخسأوا " وهي زجر وشم بأنهم خاسئون ،

ومعناه عدم استجابة طلبهم وفعل خسا من باب منع ، ومعناه : ذل .

ونها عن خطاب الله والمقصود تأييسهم من النجاة مما هم فيه (٣) حيث

تجاوزوا حدهم وأساءوا أديهم فلم يك مأذونا لهم إلا بالإجابة على قدر السؤال ، بل

لعله سؤال لا يطلب عليه جواب فهم يزجرون زجرا قاسيا عنيفا (٤)

فالأمر في هذه الآية الكريمة يفيد الإهانة (٥)

وهنا يتضح لنا سمو البيان القرآني في هذا السياق حيث تعانق الأمر

والنهي { اخسأوا ولا تكلمون } في إبراز هذا المعنى وتأكيد في قوة وعنف شديدين .

ومن أساليب الأمر التي تنبض بمعاني الإهانة والتحقير والتنكيل في

القرآن الكريم " امتازوا " في قوله تعالى إهانة للمشركين في نار جهنم [سَلَامٌ

قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ، وَ اِمْتَاَزُوا الْيَوْمَ اَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ] (٦)

فالمشركون يتلقون التحقير والترذيل والإهانة " امتازوا اليوم " انعزلوا

هكذا بعيدا عن المؤمنين وكونوا على حدة (٧) ، وتميزوا بعلامة تعرفون بها كما

(١) التحرير والتنوير ، الجزء الثامن ، القسم الثاني ، ص ١٢٤ .

(٢) المؤمنون ، الآيتان ، « ١٠٧ - ١٠٨ » .

(٣) التحرير والتنوير ١٢٩/١٨ .

(٤) مشاهد القيامة ، ص ٢٠١ .

(٥) انظر دلالات التراكيب . الدكتور / محمد ابو موسى ص ٢٥٧ .

(٦) يس الآيتان « ٥٨ - ٥٩ » .

(٧) انظر الكشاف ٢٢٧/٣ وظلال القرآن ، المجلد الخامس ص ٢٩٧٢ .

يعرف المجرمون بسيماهم ، زيادة في الإهانة والتحقير .

وقد وجه الرازي الأمر في الآية السابقة بأنه للتكوين نحو قوله تعالى :
[كن فيكون] ، وتابعه بعض المفسرين (١) ، ولا معنى للتكوين في هذه الآية
والصواب أنه للإهانة والتحقير كلون من ألوان العذاب النفسي بجانب العذاب
البدني الذي يعذب به المجرمون يومئذ .

ومن صور الإهانة في القرآن الكريم أيضاً قوله تعالى : [هَذِهِ جَهَنَّمُ
الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ] (٢)

فهذه صورة تعنى بتصوير الهول وفضاعة النار وبشاعتها ، فالنار حاضرة
ماثلة بحيث يشار إليها [هذه جهنم التي كنتم توعدون] فانظر إلى جمال
التعبير باسم الإشارة " هذه " كيف جعل النار قريبة شاخصة أمام أعين الناظرين
[اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون] أي : قاسوا حرها ولهبها بسبب كفركم
وإعراضكم عن دعوة الحق وتماديكم في الضلال .

ونص كثير من المفسرين على أن الأمر " اصلوها " أمر إهانة وتنكيل
وتحقير (٣) .

(١) انظر التفسير الكبير ٩٥/٢٦ ؛ وروح المعاني ٢٩/٢٣ ؛ والتحرير والتنوير
٤٥/٢٣

(٢) سورة يس ، الآيتان (٦٣ - ٦٤)

(٣) راجع التفسير الكبير ١٠١/٢٦ ؛ وأبا السعود ٥١٥/٤ ؛ وحاشية الشهاب

٢٤٩/٧ ؛ وروح المعاني ٤١/٢٣ ؛ والتحرير والتنوير ٤٩/٢٣

السخرية

كثرت في معالجات المفسرين والبلاغيين كلمات السخرية والتهكم والاستهزاء ، وهي على نحو متقارب في الدلالة وإن بقي بينها فرق دقيق في دلالاتها المعجمية . وقد أحس بعض الباحثين بالارتباط الوثيق بين هذه الكلمات دون أن ينبه إلى ما بينها من فروق دقيقة حيث يقول " السخرية في مدلولها العرفي واضحة محددة لا تلتبس بمعنى آخر ، ويدور في فلكها بل يؤدي معناها ألفاظ عدة أبرزها التهكم والاستهزاء " (١)

فالدلالات متقاربة بين هذه الألفاظ لكن المفسرين والبلاغيين واللغويين اعتادوا تفسير الكلمة بمرادفتها .

لكننا نلاحظ فروقاً دقيقة بين هذه الألفاظ وهي فروق مأخوذة من دلالة اللفظة في موضعها اللغوي فالاستهزاء : السخرية والاستخفاف ، وأصل الباب الخفة من الهزاء (٢) والسخرية كما يقول ابن فارس : السين والحاء والراء أصل مطرد مستقيم يدل على احتقار واستذلال (٣)

والتهكم : السخرية القوية العنيفة فاشتقاقها يدل على القوة إذ هي مأخوذة من " تهكمت البئر إذا تهدمت " (٤) وهذه الكلمة لم ترد في القرآن الكريم . وترتبط بهذه الكلمات كلمة أخرى هي " الضحك " .

وقد ورد الضحك بمعنى السخرية في القرآن قال تعالى [فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَحَّكُونَ] (٥) بيد أن الأمر لم يرد

(١) أسلوب السخرية ص ١٣

(٢) الكشاف ١ / ١٨٦ .

(٣) مقاييس اللغة ٢ / ١٤٤ .

(٤) انظر مقاييس اللغة ٦ / ٥٩ والصحاح ٥ / ٢٠٦ وأساس البلاغة ص ٤٨٣ واللسان ٦ / ٤٦٨١ .

(٥) سورة المؤمنون ، الآية " ١١٠ " .

من هذه المادة . فالضحك يمثل قمة اتحاد المعنى النفسي للسخرية مع الحركي ، أو هو بمعنى أدق ثمرة السخرية .

وللسخرية درجات متفاوتة وهذه الألفاظ تمثل درجات مختلفة من السخرية بالمخاطب والذليل منه والاستهزاء به ، كل لفظه منها تمثل درجة معينة من السخرية . وإذا أردنا ترتيب درجات السخرية فهي على النحو التالي :

الاستهزاء ، فالسخرية ، ثم التهكم ، وأخيراً الضحك .

وحين ننظر إلى سخرية القرآن نظرة فاحصة متأملة نجدها تهدف إلى أكثر من غاية وتحقق أكثر من نتيجة . (١)

والسخرية بطبيعتها مرة لاذعة ، وقد استهدفت سخرية القرآن أعداء الإسلام والمسلمين أيضاً على نحو ما نبينه في هذا المبحث .

والواقع أن سخرية القرآن حينما تتجه إلى أعداء الله تراعى طبائعهم ونفسياتهم حتى يكون وقعها عليهم أشد وألم ، فهي تحدد نقطة الضعف التي تهز مشاعرهم وتضعف كياناتهم ، وأهم من ذلك شعور العدو أن هذه السخرية صادرة من عليم بطبعه ودخيلة نفسه مما يجعل للسخرية حينئذ وقعاً بليغاً . (٢)

أسباب السخرية وطوائفها :-

بدهي أن سخرية القرآن تغاير السخرية البشرية من حيث الهدف والمضمون والأسلوب ، بل تغايرها في جميع أحوالها وصورها المتعددة المتنوعة . لذا أثرت الحديث عن أسباب السخرية تاركاً الخوض في قضية اتصاف الحق سبحانه وتعالى بالسخرية . (٣)

(١) راجع أسلوب السخرية ص ٢٧ .

(٢) راجع أسلوب السخرية ص ٧ .

(٣) ونحن على مذهب سلف هذه الأمة : نثبت ما أثبتته الله لنفسه من الصفات من غير تكليف ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل . انظر الرسالة التدمرية لابن تيمية ص ٧ أما المعتزلة فلهم رأي آخر حيث يقول الزمخشري " فإن قلت =

أما أسباب سخرية القرآن فمعلومة من أغراض السخرية وأنها لون من تعرية النفوس في الدنيا ، والتعذيب النفسي في الآخرة .

وذكر الباحثون أسباباً عديدة للسخرية البشرية يمكننا أن نجعل بعضها أسباباً للسخرية القرآنية منها النقد والإصلاح الاجتماعي ، فاستغلال السخرية في تحقيق نوع من العادات أو السلوك يعد من أقوى الأسلحة في زلزلة كيائها وإثارة النفوس منها . (١)

أهداف السخرية القرآنية :

ليست السخرية مجرد هجاء أو تهوين شأن ، أو بالأحرى ليست مجرد أسلوب فكه يثير النفوس أو يبعث على الضحك ، وإنما ترتبط بها نواح وأهداف على جانب كبير من الأهمية سواء من الناحية المعنوية أو من الناحية الاجتماعية . وهذه الأهداف تنحصر في الدعوة إلى الوحدةانية ونبذ الإشراك بالله ، والإصلاح الاجتماعي ومحاربة الرذيلة والتفاهة ، والدعوة إلى المثل العليا والمبادئ القويمة والسلوك السوي . (٢)

السخرية من قبل الحق وأوليائه :-

لم تستهدف سخرية القرآن أعداء الإسلام وحدهم وإنما استهدفت كل مصدر يمكن أن يسئ إلى مبادئ الإسلام ولو كان المصدر نابعاً من صفوف المسلمين أنفسهم في صورة عادات أو تقاليد أو خلق لا تقره مبادئ القرآن . (٣)

== لايجوز الاستهزاء على الله تعالى لأنه متعال عن القبيح والسخرية من باب العيب والجهل .. فمامعنى استهزائه بهم ؟ قلت : معناه إنزال الهوان والحقارة بهم لأن المستهزى غرضه الذي يرميه هو طلب الخفة والزراية بمن يهزأ به وإدخال الهوان والحقارة عليه * الكشاف ١/١٨٦ .

(١) أنظر أسلوب السخرية ص ١٧ .

(٢) راجع أسلوب السخرية ص ٢٥ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق ص ٢٧ .

ويهدف القرآن من وراء سخريته بالمؤمنين إلى تقويم سلوكهم وإلى دعوتهم
بنبذ الرذيلة والتمسك بكارم الأخلاق الفاضلة .
السخرية والمشركون :-

المقصود بها كل سخرية وردت في القرآن الكريم تسخر من المشركين سواء
كانت هذه السخرية من قبل الحق سبحانه أو جاءت على ألسنة أوليائه من الملائكة
أو المرسلين أو المؤمنين .

ولاشك أن الشرك ملة واحدة مهما اختلفت مظاهره وتنوعت مسمياته من
نفاق أو إشراك أو تثنية أو تثليث .

وقد تنوعت سخرية القرآن بالمشركين من حيث زمن القول فجاءت على
ضربين : سخرية في الدنيا ، وسخرية في الآخرة على لسان زبانية العذاب .

* والعلاقة بين السخرية والأعداء وثيقة ، وقد جند القرآن كل طاقاته
ليواجه بها الأعداء ومن أبرزها السخرية * (١)
أولاً : في الدنيا :-

من أساليب الأمر التي أفادت معنى السخرية في القرآن الفعل " بشر " .
حيث ورد في ستة عشر موضعاً في سبعة منها للسخرية والتهكم (٢) ، وحيث ذكر
العذاب مع البشارة في القرآن الكريم فهو للسخرية والتهكم والاستهزاء .

من شواهد قوله تعالى سخرية بالمنافقين [بِشْرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ
عَذَاباً أَلِيماً الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَتَفُونَ
عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً] (٣)

تبدأ الآيات بهذه السخرية اللاذعة وهذا التهكم الواضح في استعمال كلمة

(١) انظر أسلوب السخرية ص ٢٩ .

(٢) راجع المعجم المفهرس ص ١١٩ .

(٣) سورة النساء ، الآية ١٣٨-١٤٩

"بشر" مكان "أنذر" وفي جعل العذاب الاليم الذي ينتظر المنافقين بشارة بسبب اتخاذهم المشركين أولياء من دون المؤمنين وسوء ظنهم بالله وسوء تصورهم لمصدر العزة والقوة" (١)

ومن الاستعارة التهكمية (٢) عند علماء البلاغة هذا الأسلوب ونحوه وهو " أن تستعمل الألفاظ الدالة على المدح في نقائضها من الذم والإهانة تهكماً بالمخاطب وإنزالاً لقدرة وحقاً منه نحو قوله تعالى ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٣) بدل قوله " أنذرهم " لأن البشارة إنما تستعمل في الأمور المحمودة والمراد هاهنا العذاب والويل ، وإنما وردت هنا في عكسها تهكماً بهم وغضباً عليهم " (٤) وقد أفاد البلاغيون من الزمخشري ولم يكن لهم فضل إبتداع الإستعارة التهكمية ، وإن لم يذكرها صراحة في تفسيره ، من ذلك قوله " أما قوله " فبشرهم بعذاب أليم فمن العكس في الكلام الذي يقصد به الاستهزاء الزائد في غيظ المستهزأ به وتأله واغتمامه كما يقول الرجل لعدوه : أبشر بقتل ذريتك ونهب مالك " (٥)

وإن كنت أجد لما ذكره الدكتور محمد أبو موسى هوى في نفسي ، حيث يقول " وهذه صورة الاستعارة العنادية " التهكمية " كما ذهب إلى ذلك السكاكي وغيره ، ولست أجد لهذا النوع مذاق الاستعارة ، ولست أستسيغ أيضاً تكلف إجرائها في هذه الأساليب ، وأن طريقة الزمخشري هذه التي تكتفي ببيان أصل هذه

(١) في ظلال القرآن المجلد الثاني ص ٧٧٩ وراجع الكشاف ٥٧٢/١ والتفسير الكبير ٨١/١١ والبحر المحيط ٣٧٢/٣ وتفسير أبي السعود ٧٩٨/١ .

(٢) انظر مفتاح العلوم تحقيق نعيم زرزور ص ٣٧٥ والايضاح ١٢٢/٢ ومابعدها ، ويقول القزويني في تعريفها " ومنها مااستعمل في ضد معناه بتنزيل التضاد منزلة التناسب بوساطة تهكم أو تلميح " .

(٣) هذه جزء من آية في سورة آل عمران "٢١" والتوبة "٣٤" والانشقاق "٢٤" .

(٤) انظر الطراز ٢٤٦/١ ومابعدها و ٣٦/٣ .

(٥) الكشاف ٢٥٤/١ ومابعدها وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٢٦٠ .

الطريقة وأنها من العكس في الكلام ، وأن القوم كثيراً ما يذهبون إليها وهم ليسوا بدعاً في هذا ، من الأعاجم قد يعكس في كلامه ، لاشك أن هذه الطريقة خير من تكلف الاستعارة التي ينزل فيها التضاد منزلة التناسب (١) وهذا قريب جداً .

كما أن في القرآن شواهد أخرى تنمي على الأفراد في إلغائهم لعقولهم ، من ذلك هذا النعي الشديد الذي تصبه هذه الآية الكريمة على أحد المشركين موضحة أنه تاجر ، وأن تجارته شراء الضلال أو وسيلة الضلال ليضل بها الناس ويصرفهم عن الحق والهدى ، وقد حكم الله عليه بالعذاب المهين ، مبيناً موقفه من دين الله بأنه لا يحاول أن يتأمل ولا أن يتدبر ولا أن يفكر ، وإنما يسمع وكأنه أصم لكونه لا يستخدم تفكيره لما يسمع من كلام الله بل يتمادى في غيه وضلاله فيولي مستكبراً كأن لم يسمعها .

ولئن كان المفسرون يقولون إن المعنى هو النضر بن الحارث - على ما روي في أسباب النزول (٢) بأنه كان يشتري كتب الأعاجم وأحاديثهم ليشغل بها الناس عن الاتجاه إلى الإسلام والدخول فيه - فإن القرآن حين يقرر معنى أو يصدر حكماً فإنه وإن عنى به حادثه معينة إقترن بها نزول هذا المعنى أو الحكم إلا أن هذا المعنى أو الحكم يكون عاماً ينطبق على كل حالة مشابهة (٣) ، - فالعبارة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب - نحو قوله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ، وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قُورًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } (٤)

(١) البلاغية القرآنية في تفسير الزمخشري د. محمد أبو موسى ص ٤٢٦ .

(٢) راجع أسباب النزول للواحي ص ٢٥٩ ولباب النقول في أسباب النزول

للسيوطي ص ١٦٩ .

(٣) أنظر أسلوب السخرية ص ١٢٨ .

(٤) سورة لقمان ، الآية ٦ - ٧ .

بين الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات أحوال هذا الضال وصفاته ، بأنه كان يشتري لهو الحديث ليضل به الناس ويصدهم عن الدخول في الإسلام ، واستماع القرآن ويضلهم عنه ، ثم انظر إلى ما يدل عليه القيد بقوله " بغير علم " فقيه بيان لجهله وضلاله وتصوير لسفاهته وتقبيح لأمره .

كما أن التعبير بقوله " ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين " يدل على التهديد والوعيد بسبب استهزائه بآيات الله ، وما أعدده الله له في الآخرة من العذاب المهين ثم تمضي الآيات في وصف حركات هذا الضال عند سماعه لكلام الله " وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً " ثم أخيراً هذا التهكم الواضح والسخرية المرة التي يفيض بها التعبير بقوله " فبشره بعذاب أليم " . والبشارة هنا فيها ما فيها من التهكم والسخرية اللاذعة (١)

ومن أساليب الأمر التي أفادت معنى السخرية والتهكم في القرآن الفعل " ادعوا " في قوله تعالى { قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } (٢) ونظيره قوله تعالى { قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ } (٣) فسر الزمخشري الضر في الآية الأولى بأنه إما أن يكون مرضاً أو فقراً أو عذاباً . (٤)

لما بين الله تعالى حال الشاكرين وحال الكافرين وذكرهم بمن مضى عاد إلى خطابهم وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم من دون الله ليكشفوا عنكم الضر على سبيل التهكم (٥) ، ثم بين أنهم لا يملكون شيئاً

(١) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٧٨١ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية " ٥٦ " .

(٣) سورة سبأ ، الآية " ٢٢ " .

(٤) الكشاف ٢ / ٤٥٤ .

(٥) انظر التفسير الكبير ٢٥ / ٢٥٥ .

بقوله " لا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً " وفي الآية شية من التحدي كما هو واضح بجوار التهكم والتوبيخ " (١) .

ومن أساليب الأمر التي وردت في القرآن سخرية بالمشركين وقت نزول العذاب بهم في الدنيا الفعل " ارجعوا " في قوله تعالى { وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ، لَاتْرَكُوا لَاتْرَكُوا وَأَرْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ } (٢)

هذه الآيات تصور مشهداً للقسم والاستئصال ، وهي كما يقول الزمخشري " واردة عن غضب شديد ومنادية على سخط عظيم ، (٣) لأن القسم أشد حركات القطع وجرسها يصور معناها ، ويلقي ظل الشدة والعنف والتحطيم والقضاء الحاسم على القرى التي كانت ظالمة " (٤) وأراد بالقرية أهلها ولذلك وصفها بالظلم . (٥) ولعل في التعبير بالمضارع " يركضون " الدال على التجدد والحدوث لإستحضار حالة هلعهم وركضهم ماثلة أمام أعيننا ، ظانين أن الركض ينجيهم من بأس الله وعذابه .

عندئذ يتلقون التهكم المرير " لاتركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون " لاتركضوا من قريبتكم ، وعودوا إلى متاعكم الهشء وعيشكم الرغيد وسكنكم المريح ، عودوا لعلكم تسألون عن ذلك كله فيما أنفقتموه ؟ وما عاد هنالك مجال لسؤال ولا لجواب ، إنما هو التهكم والإستهزاء " (٦)

(١) راجع التحرير والتنوير ١٨٦/٢٢ وفي ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٩٠٣ .

(٢) سورة الأنبياء ، الأيتين " ١١ - ١٢ " .

(٣) الكشاف ٥٦٤ / ٢ .

(٤) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٣٧٠ .

(٥) المصدر السابق نفس الموضوع .

(٦) راجع الكشاف ٥٦٥/٢ وفي ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٣٧١ .

ومن أساليب الأمر التي وردت في القرآن الفعل " اعدوا " حيث ورد في موضعين في سورة التوبة (١) سخرية بالمنافقين قال تعالى { إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ، وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ } (٢)

وموقف تثبيط المنافقين للمسلمين في الحرب وإثارة الفتن والوقيعه أو محاولتهما معروفة في التاريخ الإسلامي ، وقد سجلها عليهم القرآن وكشف خباياها في كثير من الآيات ، على نحو ما تفيض به الآيات السابقة من تهكم شديد وسخرية لاذعة وهتك لأستارهم وكشف لأسرارهم حيث شهد عليهم سبحانه وتعالى بالنفاق وأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ثم تتجلى السخرية في هذه الآيات في قوله " وقيل اعدوا مع القاعدين " ويقول الزمخشري " فإن قلت مامعنى قوله " مع القاعدين ؟ قلت هو ذم لهم وتعجيز وإلحاق بالنساء والصبيان ، الذين لا يستطيعون الغزو ولا ينبعثون للجهاد ، فهذا مكانكم اللائق بالهمم الساقطة والقلوب المرتابة والنفوس الخاوية من اليقين . (٣)

وقد كشف القرآن في كثير من سوره عن حقيقة المنافقين ، حيث نجد في القرآن الكريم صورة كاملة عن المنافقين في سلوكهم وعقيدتهم وعن خبايا نفوسهم وطرفاً من سخريتهم المختلفة .

والقرآن في كثير من مواضعه يكشف عن صفاتهم وأحوالهم ، ويبادلهم سخرية بسخرية وإن كانت سخرية القرآن أشد وقعاً وأوقع أصابة (٤) ، ويؤكد

(١) سورة التوبة ، الأيتين " ٤٦ ، ٨٣ " .

(٢) سورة التوبة ، الايتين " ٤٥ ، ٤٦ " .

(٣) انظر الكشاف ١٩٢/٢ وفي ظلال القرآن المجلد الثالث ص ١٦٦٣ .

(٤) من ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر قوله تعالى رداً على سخرية المنافقين واستهزائهم " وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء إلا أنهم السفهاء ولكن لا يشعرون " البقرة "١٣" فقد روي أن هذه الآية نزلت =

القرآن أن سخرية المنافقين مهما صيغت في كلام أو صورت في شيء محسوس فإنها متعمقة في قلوبهم نابعة من أعماق نفوسهم ، لذلك كانوا يتوجسون دائماً ويخافون من نزول القرآن ، لأن الله سبحانه يكشف فيه عن أسرارهم ويفضح مكنوناتهم لأنهم يفعلون كل ما يفعلون ويكبدون أنفسهم كل جهد في سبيل أن تظل أسرارهم ونفوسهم مغلقة معماة على المسلمين ولكن القرآن يذهب كل جهودهم هباء حين يكشف للمسلمين ما جاهدوا في إخفائه على نحو ما يتضح في قوله تعالى :

[يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزَأُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ] (١)

ومن أساليب الأمر التي أفادت معنى السخرية في القرآن الفعل " اسألوا " حيث ورد على لسان إبراهيم عليه السلام سخرية بالمشركين قال تعالى [قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمَ ، قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ] (٢) .

لقد واجه إبراهيم هؤلاء الكفرة وواجههم وجابههم بالحجة فأفحمهم وأخرس ألسنتهم ، والتعبير القرآني يكشف عن جهلهم و حماقتهم حيث أطلقوا على هذه التماثيل التي صارت جذاداً أنها آلهتهم ، ولكنه التحجر الفكري الذي أصابهم به تقليدهم الأعمى " قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون " إنها ذروة المواجهة واللحظة الحاسمة التي يسد فيها إبراهيم ضربته القاتلة إليهم " (٣)

= في عبدالله بن أبي وأصحابه وذلك أنهم خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبدالله : انظروا كيف أرد عنكم السفهاء .. انظر أسباب النزول للواحي ص ١٣ وما بعدها ولباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص ١٧ .

(١) سورة التوبة ، الآية "٦٤" وانظر أسلوب الدعوة القرآنية ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآيتين " ٦٢ - ٦٣ " .

(٣) أسلوب الدعوة القرآنية ص ١٥٣ .

فهم مايزالون يصرون على أنها آلهة وهي جذاذ مهشمة ، أما ابراهيم فهو يتهكم بهم ويسخر منهم وهو فرد وحده وهم كثير ، ويجيبهم إجابة تتناسب مع هذا المستوى العقلي الدون " (١) فالتهم واضح في هذا الجواب الساخر .

وللزمخشري تحليل طريف جدير أن يذكر هنا ، يقول " هذا من معاريض الكلام ولطائف هذا النوع لايتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني ، والقول فيه أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم ، وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتاباً بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط أنت كتبت هذا ؟ وصاحبك أمي لا يحسن الخط ولايقدر إلا على خرمشة فاسدة ، فقلت له : بل كتبت أنت ، كأن قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لانفيه عنك وإثباته للامي أو المخرمش لأن إثباته والأمر دائر بينكما للعاجز منكما استهزاء به وإثبات للقادر " (٢)

ثانياً : في الآخرة :-

حين ننظر إلى سخرية القرآن بالمشركين نظرة التأمل والبحث الدقيق من الناحية الزمنية نجدها تختلف باختلاف زمن القول في الدنيا وفي الآخرة من حيث خصائصها وسماتها وتباين في الهدف أيضاً .

حيث يهدف القرآن من وراء سخريته بالمشركين في الدنيا إلى التوجيه والدعوة إلى الحقيقة الكبرى حقيقة الوجدانية ، وأن هذا الكون ليس له إله سواه .

أما سخريته بالمشركين في الآخرة فهي لون من ألوان التعذيب النفسي الأليم - لأن الآخرة لا تكليف فيها - إضافة إلى العذاب المادي الذي يلقونه جزاء وفاقاً والقرآن حين يعرض لنا صورة من صور العذاب في الآخرة يتضمن دعوة

(١) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٢٨٦ وما بعدها .

(٢) الكشف ٢ / ٥٧٧ .

بتفرد الخالق ووحدانيته ، ودرساً بليغاً للمسلمين بأخذ العظة والاعتبار من حال هؤلاء المشركين فإن سرنا سيرتهم نعذب مثلهم .

" فالقرآن يصور عذاب المشركين في الآخرة بصور مختلفة وألوان متعددة وأساليب متنوعة ، حتى يشعر المشركون بأنها حياة كاملة حقيقة بأن تَشغَلَ نفوسهم وتُثِيرَ مشاعرهم وألا يقتصر تصورهم على صورة واحدة قد تذهب حدة تأثيرها الأيام وإنما هي صور كثيرة إن خف تأثير إحداها في النفس أذكته صورة أخرى ، وهكذا ، فحتى السخرية جعلها القرآن نوعاً من الأنواع التي يعذب بها المشركون عذاباً نفسياً في الآخرة " (١) ، من ذلك قوله تعالى خطاباً للمكذابين بيوم البعث يوضح فيه سخريتهم من البعث ويركز في الرد عليهم بسخرية عجيبة - وتهكم بالغ وتوبيخ شديد - نصيها في الرد عليهم قال تعالى : [أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ مَا لَكُمْ لَاتَنَاصَرُونَ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ] (٢)

هذه الآيات تصور فزعهم الشديد من العذاب يوم القيامة وما يسيطر عليهم من ذل العذاب والخزي والشعور بالضعف هم وأزواجهم وألهتهم التي يعبدونها ويرجونها للنصر في الدنيا والنجاة في الآخرة (٣) ، زيادة في تحسيرهم وتخجيلهم " (٤) فاهدوهم إلى صراط الجحيم " أي فعرفوهم طريق النار حتى يسلكوها ، وهذا تهكم بهم وتوبيخ لهم بالعجز عن التناصر بعدما كانوا على خلاف ذلك في الدنيا متعاضدين متناصرين " (٥) والتعبير بالصراط والهداية للتهكم بهم " (٦)

(١) أسلوب السخرية ص ٣٦٢ .

(٢) سورة الصافات ، الآيتين " ٢٢ - ٢٦ " .

(٣) راجع أسلوب السخرية ص ٧٠ ، ١١٤ .

(٤) تفسير أبي السعود ٥٣١/٤ وراجع الفتوحات الإلهية ٥٣٣/٣ .

(٥) الكشاف ٣٢٨/٣ .

(٦) حاشية الشهاب ٢٦٦/٧ .

فالأوامر في هذه الآية الكريمة للسخرية والتهكم والتوبيخ .

ومن أساليب الأمر التي تفيض بمعاني السخرية والتهكم والتينيس في القرآن الكريم الفعل " ادعوا " في قوله تعالى خطاباً للمشركين في الآخرة [وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُم فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ] (١)

ينبض السياق كما ترى بمعاني التهكم والسخرية والتوبيخ ، والسخرية تبدأ تسلسلها في هذه الآيات باتخاذ الشركاء آلهة من دون الله ، حيث نجد الزمخشري يقول " حكى أولاً ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء ثم ما يقوله الشياطين أو أئمتهم عند توبيخهم ، لأنهم إذا وبخوا بعبادة الآلهة اعتذروا بأن الشياطين هم الذين استغفروهم وزينوا لهم عبادتها ثم الشماتة بهم من استغاثتهم آلهتهم وخذلانهم لهم وعجزهم عن نصرتهم ، ثم ما يبكتون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وإزاحة العلل " (٢)

" فدعوهم فلم يستجيبوا لهم " ولم يكن منتظراً غير ذلك ، ولكنه الإذلال والاعنات ، " ورأوا العذاب " رأوه في هذا الحوار ، ورأوه ماثلاً وراءه ، فليس وراء هذا الموقف إلا العذاب "

وهنا في اللحظة التي يصل فيها المشهد إلى ذروته يعرض عليهم الهدى الذي يرفضونه وهو أمنية المتمني في ذلك الموقف المكروب ، وهو بين أيديهم في الدنيا لو أنهم إليه يسارعون ، " لو أنهم كانوا يهتدون " (٣)

في المشهد تتجسد المشاعر الانسانية والخلجات النفسانية في صورة محسوسة تشاهدها العين وتحس بها الأذن من خلال التعبير القرآني .

ونظيره أيضاً قوله تعالى سخرية بالمشركين يوم القيامة : [بَلْ كَذَّبُوا

(١) سورة القصص ، الآية " ٦٤ " .

(٢) الكشاف ٢ / ١٨٨ .

(٣) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٧٠٦ .

بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ، إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ
سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا . وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا دَعَوْا هُنَالِكَ
ثُبُورًا . لَاتَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَاذْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١) .

* هذه الصورة تحتوي على منظرين متصلين المعنى أو يكمل أحدهما الآخر
كمرحلتين لموضوع واحد ، أحدهما حالة جهنم ومدى بشاعة عذابها ، والآخر حالة
المشركين وهم يعذبون فيها ، فأما حالة جهنم في هذه الصورة فهي من شدة ما فيها
من نار ومن قوة اتقاد هذه النار تجدها تغلي غلياناً شديداً مسموعاً ، ولكن صوت
غليانها فيه إيماء واضح نحو المشركين كأنه دعاء أو استقبال لهم ، فهذا الصوت
حينما يدنو المشركون من جهنم لا يعود مجرد صوت غليان وإنما هو حرارة استقبال
لهم ، ولكنه ليس استقبال الترحيب والتكريم وإنما استقبال الحقد الشديد والغل
العميق ، أما حالة المشركين في جهنم فإننا نراهم في هذه الصورة وقد حشروا في
مكان ضيق منها وقد قرن بعضهم ببعض في السلاسل وهذا الوضع في تصويرهم
إنما يقصد به بطبيعة الحال زيادة السخرية بهم فليست جهنم ضيقة حتى يحشروا
متزاحمين متلاصقين ، ولا يخشى منهم الهروب حتى يربطوا بالسلاسل ليطمأن إلى
بقائهم في أماكنهم " (٢) ، ثم هاهم أولاء يأنسون من الخلاص ، مكروبون في السعير
، فراحوا يدعون الهلاك أن ينقذهم من هذا البلاء " وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً
مقرنين دعوا هنالك ثبوراً " فالهلاك أمنية المتمني والمنقذ الوحيد للخلاص من هذا
الكراب الذي لا يطاق ، ثم هاهم أولاء يسمعون جواب الدعاء ، يسمعون تهكماً ساخراً
مريراً " لاتدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً " فهلاك واحد لا يجدي شيئاً
ولا يكفي شيئاً " (٣) .

(١) سورة الفرقان ، الآيتين " ١١ - ١٤ " .

(٢) أسلوب السخرية ص ١١٠ وفي ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٥٥٤ .

(٣) راجع في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٥٥٤ والتصوير الفني ص ٧٤ .

ووصف الثبور بالكثير إما لكثرة ندائه بالتكرير وهو كناية عن عدم حصول الثبور لأن إنتهاء النداء يكون بحضور المنادى ، أو يأس يقتضي تكرير التمني أو التحسر (١) .

ومن أساليب الأمر التي أفادت معنى السخرية والتهمك والتينيس في القرآن الفعل " ارجعوا " في قوله تعالى خطاباً للمنافقين يوم القيامة [يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابِ] (٢) .

هذه الآيات تصور مشهداً من مشاهد الآخرة ، تبرز المنافقين والمنافقات في صورة متردية فهم في حيرة وضلال ومهانة وإهمال يتخبطون في الظلمات وتلفهم حجبه الكثيفة يتطلعون إلى بصيص من نور أو بارقة من ضياء يتبينون بها معالم الطريق وَيُسَكِّنُونَ بها بعض مافي نفوسهم من هلع ، إنهم يتعلقون بأذيال المؤمنين والمؤمنات " انظرونا نقتبس من نوركم " إنهم يضرعون إليهم أن ينتظروهم ويتمهلوا في إسراعهم إلى الجنة ليهتدوا بنورهم ، أو يطلبون منهم أن ينظروا إليهم فإنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بالنور الذي بين أيديهم " (٣) .

وياله من تعبير دقيق يجسد خبيثة نفوسهم وخبثهم ونفاقهم ، فهم لا يتركون النفاق والخداع والمدارة البتة بل يلجأون إليه إن سنحت لهم فرصة حتى لو كانت في الآخرة على نحو ما نلمسه بوضوح في هذه الآية الكريمة .

وقوله " قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً " رد عليهم بما يستحقون من طرد وتهكم وتوبيخ وتينيس " ارجعوا وراءكم " عودوا إلى الموقف فالتمسوا هناك ماتريدون من نور ، أو عودوا إلى الدنيا فاعملوا ما يمنحكم النور ، وقد علموا أن

(١) التحرير والتنوير ١٨ / ٢٢٤ . (٢) الحديد ١٣ .

(٣) انظر في ظلال القرآن المجلد السادس ص ٢٤٨٦ واسلوب الدعوة القرآنية ص ٢٢٢

لا نور وراءهم ولا رجعة إلى الدنيا وإنما هو تخييب وإقناط وتهكم وتينيس ، يملأ قلوب المنافقين حسرة ويزيد المؤمنين غبطة وفرحاً * (١)

السخرية بالمؤمنين :-

أشرت من قبل إلى أن سخرية القرآن لم تستهدف أعداء الإسلام وحدهم وإنما استهدفت المسلمين أيضاً تقويماً لسلوكهم وتعديلاً لأخلاقهم وحصاً لهم على التحلي بالأخلاق الفاضلة ، وحين ننظر إلى هذه السخرية لانجدها تسخر من أشخاص المسلمين وإنما تسخر من السلوك والعادات والتقاليد ، عادات لاتقرها مبادئ القرآن على نحو مانجده في هذه السخرية التي تنعي على المسلمين اكتناز المال قال تعالى : { وَالَّذِينَ يُكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ } (٢) .

فهذه صورة من سخرية القرآن باكتناز المال ، لاتنهي عن الاكتناز بصريح اللفظ المألوف ، وإنما تستثني أولاً من الكانزين من ينفق من هذا المال في سبيل الله وأما الباقيون فتأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يذف لهم بشرى ، ولما كان المال حبيباً إلى النفس ويقترن جمعه واكتنازه بالسرور في نفوس المولعين به ، فإنهم حين يسمعون أنه ستذف إليهم بشرى تنبسط نفوسهم ويتوقعون بشرى حقيقية تدخل سعادة جديدة إلى غرسهم مع سعادتها بالمال ، ولكنهم يفاجأون بما لم يخطر لهم على بال ، يفاجأون بأن هذه البشرى هي عذاب أليم (٣) فبشرهم بعذاب أليم * على سبيل التهكم * (٤) وتنكير العذاب ومايوحي به من تعظيم لشدته وهوله

(١) انظر الكشاف ٦٣/٤ وأسلوب الدعوة القرآنية ص ٢٢٢ .

(٢) سورة التوبة ، الأيتين * ٢٤ - ٢٥ .

(٣) أسلوب السخرية ص ١٨٥ ومابعدها .

(٤) البحر المحيط ٣٦ / ٥ .

ووصفه بـ " أليم " زيادةً في الترهيب والتحذير ، كما أن إيثار التعبير بصيغة " المضارع " تكوي " وما يوحى به من ألم وكون الكي بعين الكنز ، لاستحضار الصورة كأنها ماثلةٌ زيادةً في الترهيب بما تثيره من فزع وهلع في القلوب .

" هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون " الإشارة هنا إلى ماتقدم من تفصيل العذاب وعلى إرادة القول أي يقال لهم هذا .. وفي هذا التعقيب على مشهد العذاب توبيخٌ وتحسيرٌ لهم ليضيفَ إلى الألم المادي الألم المعنوي الذي يذيب القلوب حسراتٍ .

ويلاحظ ما في التعبير بـ " هذا " للإشارة الدالة على القرب ، لتتخيل أن العذاب كأنه قريب حاضر يشار إليه ، وما في قوله " لأنفسكم " من توبيخ واستهزاء فما كنزوه لمنفعة أنفسهم ينقلب أنى لها وعذاباً " (١)

وعموماً ففي هذا التعبير سخريتان لفظيتان ، إحداهما " هذا ما كنزتم لأنفسكم " والأخرى يقال لهم فيها " ذوقوا ما كنتم تكنزون " (٢)
سخرية المشركين بالفئة المؤمنة :-

من أخطر الوسائل التي لجأ إليها المشركون السخرية ، وكانت سخريتهم تنصب على شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلى المسلمين ، وعلى الدين نفسه وقد ساق لنا القرآن طرفاً غير يسير من سخريتهم واستهزائهم .

والقرآن نفسه يؤكد أثر سخرية المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى قلبه الرقيق حيث يقول سبحانه [إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ] (٣)

(١) راجع أسلوب الدعوة القرآنية ص ٢٢٦-٢٢٩ والتصوير الفني ص ١٣٦ وما بعدها .

(٢) أسلوب السخرية ص ١٨٦ .

(٣) سورة الحجر ، الآيات ٩٥ - ٩٩ .

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يتأثر بالسخرية ويضيق بها فكيف بغيره من المسلمين وكيف يكون وقع السخرية وتأثيرها في نفوس عامة المسلمين ؟ هذا أمر لاحتاج إلى إثباته والوقوف عنده ، لأنه من المتعالم ، فقد ذكرت ذلك المصادر التاريخية.

لكن القرآن كان لهم بالمرصاد يرد كل سهم يطلقونهم إلى نحورهم ويرد على كل سخرية لهم بسخرية أشد وأنكى لاتقف أمامها السخرية المضادة ولا أصحابها لأن سخرية القرآن من الأعداء فضلاً عن إبطالها مفعول سخريتهم تحقق في الأعداء الآثار التي كانوا ينتظرونها في المسلمين ومن أهم الآثار التي يعرفها علماء النفس حينئذ أنها تززع كيان من توجه ضده وتهز معنوياته وتفقدته أو تشككه في الثقة بالنفس والموقف الذي يدافع عنه ، ولئن كان أعداء الإسلام بسخريتهم من المسلمين في ضعفهم وفقرهم قد أوشكوا أن يحققوا شيئاً من أهدافهم في زعزعة الثقة بالنفس وإضعاف المعنويات فإن القرآن بسخريته المضادة قد أبطل ذلك وحقق جميع أهدافه * (١)

وبتأمل ما ورد في القرآن من سخرية المشركين بالفئة المؤمنة لانجد إلا القليل منها وردت عن طريق الأمر أما أكثرها فقد جاءت عن طريق الاستفهام أو الخبر ، وهذا أمر يخرج عن نطاق دراستنا هذه ، وإنما يمكن أن نذكر أمثلة لها ، قال تعالى { وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ لَيَقْتُلُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا كَفَرُوا وَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَغَافِلُونَ } (٢) .

وقوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مَزَّيْتُمْ كُلٌّ مِّمَّنَّ لَئِي لِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ } (٣)

(١) انظر أسلوب السخرية ص ٨٢ ، ص ٢٠٥ وما بعدها .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٣٦ .

(٣) سورة سبأ ، الايتين ٧ - ٨ .

وقوله تعالى { وَقَالُوا مَا لَنَا لَانرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ
أَتَّخَذْنَاكُمْ سِخْرِيًا أَمْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ } (١) وغير ذلك كثير جداً لا يحصى ، وإنما
نتناول ماورد منها عن طريق الأمر من ذلك قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } (٢)

فقولهم " لاتسمعوا لهذا القرآن " تحذير واستهزاء بالقرآن ، واسم الإشارة
مستعمل في التحقير ، وتسميتهم إياه بالقرآن حكاية لما يجري على السنة المسلمين
من تسميته بذلك " (٢) فهذه كلمة يوصى بها الكبراء من قريش أنفسهم ويفرون بها
الجماهير وقد عجزوا عن مغالبة أثر القرآن في أنفسهم وفي نفوس الجماهير .

" والغوا فيه لعلكم تغلبون " وهي مهاترة لاتليق ولكنه العجز عن المواجهة
بالحجة والمقارعة بالبرهان ينتهي إلى المهاترة عند من يستكبرون على الإيمان .
ولقد كانوا يلغون بقصص اسفنديار ورستم كما فعل النضر ليصرف الناس
عن القرآن ويلغون بالصياح والهرج ويلغون بالسجع والرجز ، ولكن هذا كله ذهب
أدراج الرياح وغلب القرآن لأنه يحمل سر الغلب ، إنه الحق ، والحق غالب مهما جهد
المبطلون " (٤) .

ومن ذلك أيضاً استعجالهم العذاب سخرية واستهزاء قال تعالى { وَمَا
يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّأَلَهَا مِنْ فَوَاقٍ ، وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا
قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ } (٥) حكاية حالة استخفافهم بالبعث والجزاء وتكذيبهم
ذلك ، وتكذيبهم بوعيد القرآن إياهم ، فلما هددهم القرآن بعذاب الله قالوا ربنا
عجل لنا قطننا قبل يوم الحساب .

(١) سورة ص ، الأيتين " ٦٢ - ٦٣ " .

(٢) سورة فصلت ، الآية " ٢٦ " .

(٣) التحرير والتنوير ٢٤/٢٧٧ .

(٤) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٣١٢ .

(٥) سورة ص ، الأيتين " ١٥ - ١٦ " .

* سخرية واستهزاء وإظهاراً لعدم اكتراثهم بالوعيد والعذاب * (١)
وتصدير دعائهم بالنداء المذكور للإمعان في الاستهزاء كأنهم يدعون ذلك بكمال
الرغبة والابتهاج* (٢) وفي القرآن صور عديدة من سخرية الأمم السابقة بالفئة
المؤمنة من ذلك سخرية فرعون اللعين بموسى عليه السلام قال تعالى {وَقَالَ
فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ
يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ } (٣)

تكشف هذه الآية عن ضيق فرعون بموسى عليه السلام وإستهتاره وتطاوله
عليه بالاستهزاء والسخرية بقوله * وليدع ربه * سخرية واستهزاء ، أي فإني أقتله
قليقل لربه حتى يخلصه مني * (٤)

وقال بعض المعاصرين * ويبدو من قوله * ذروني أقتل موسى * أن رأيه هذا
يجد ممانعة ومعارضة - من ناحية الرأي - كأن يقال مثلاً إن قتل موسى لا ينهي
الإشكال ، فقد يوحي هذا للجماهير بتقديسه واعتباره شهيداً وقد يكون بعض
مستشاري الملك أحس في نفسه رهبة أن ينتقم إله موسى له ويبطش بهم وليس
هذا ببعيد * (٥)

فهذا - كما ترى - توجيه بعيد لا دليل عليه ، وعندني أن جملة * ذروني
أقتل موسى ... * تدل على قمة الغضب والانفعال الذي سيطر على فرعون فجعله
يتخذ هذا القرار ويقول ما ذكره القرآن عنه ، أما قوله * وليدع ربه * فهو دليل على
تبجح واستهتاره وتطاوله على موسى وخالقه عز وجل .

كما أن التعبير بقوله * إنني أخاف أن يبدل عليكم دينكم .. * إلخ يكشف عن
خداع فرعون وشدة مكره .

(١) التحرير والتنوير ٢٣ / ٢٢٤ وما بعدها .

(٢) تفسير أبي السعود ٤ / ٥٦٦ .

(٣) سورة غافر ، الآية * ٢٦ * .

(٤) التفسير الكبير ٢٧ / ٥٥ .

(٥) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٣٠٧٨ .

وكشف القرآن في سور كثيرة عن حقيقة اليهود وعداوتهم للإسلام والمسلمين ، فلم يعرف الاسلام أعداءً أشدّ حقداً عليه ونقمة على أبنائه ومحاولة القضاء عليه من اليهود قال تعالى { لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا } (١)

وفي القرآن أساليب قليلة تكشف عن سخريتهم بالمؤمنين منها قوله تعالى { مِنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالسِّنْتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمُ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا } (٢)

وللمفسرين في هذه الايات كلام طويل نحن في غنى عنه وإنما نشير إلى أن الامر في " اسمع ، وراعنا " سخرية بالدين وتهكماً وهزواً برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث خاطبوه بكلام محتمل الوجهين ينوون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإحترام " (٣)

ومن شواهد أيضاً ماورد على لسان بنى إسرائيل سخرية بموسى وربه قال تعالى { قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَانْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلْ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } (٤)

تكشف هذه الآية الكريمة عن وقاحة اليهود وجبنهم وغدرهم حيث أكدوا لموسى عليه السلام أنه لا ينبغي أن يتعب هو أو غيره في إقناعهم أو تشجيعهم " انا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها " فأكدوا كلامهم بثلاث مؤكدات " إن ، ولن ، وأبداً " ولكنهم زادوا طلباً أكثر غرابة وعجباً حيث صوروا الله سبحانه في صورة شخص مقاتل وطلبوا من موسى أن يذهب هو وربه لقتال هؤلاء القوم ، وإلا فلا ينبغي أن يطلب منهم قتالاً " أذهب أنت وربيك فقاتلوا " ويرى الزمخشري أنهم لم يقصدوا بكلامهم هذا " حقيقة الذهاب ولكن كما تقول كلمته فذهب يجيبي ، تريد معنى

(١) سورة المائدة ، الآية " ٨٢ " وانظر اسلوب السخرية ص ٢٢٨ ، ٢٧٩ .

(٢) سورة النساء ، الآية " ٤٦ " .

(٣) الكشاف ٥٣٠/١ وما بعدها .

(٤) سورة المائدة ، الآية " ٢٤ " .

الإرادة والقصد للجواب ، كأنهم قالوا أريد قتالهم والظاهر أنهم قالوا ذلك إستهانةً بالله ورسوله وقلّة مبالاة بهما استهزاءً قصدوا إذهابهما حقيقةً بجهلهم وجفاهم وقسوة قلوبهم * (١)

ويجوز أن يقصدوا بهذا الأسلوب الاستهزاء والسخرية * (٢)

ثم يختتمون حديثهم إلى موسى بأقصى ما يصور التعبير من عجز في قولهم [إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ] (٣)

هذه صور من سخرية المشركين على تنوعهم بالفئة المؤمنة في القرآن عرضنا لجوانب منها فيما مضى ، توضح شدة العداة الذي منى به الاسلام منذ أن أشرق نوره .

* على أن مجرد رواية القرآن لسخريتهم وكونه يسوق وينقل سخرياتهم هو نوع من التحقير لهم ولسخريتهم ، فلو كان القرآن يعنى بسخرياتهم أو يخشى تأثيرها لما كان يرويها وينقلها من مجتمع صغير ، هو المجتمع الذي قيلت فيه ، إلى مجتمع واسع إتساع الإسلام وانبساطه لكنها ثقة القرآن في تفاهة أثر سخريتهم وهوان شأنها * (٤) .

(١) الكشاف ١ / ٦٠٤ وما بعدها .

(٢) أسلوب السخرية ص ٢٧٦ .

(٣) سورة المائدة ، الآية ٣٤ .

(٤) أسلوب السخرية ص ٢٠٩ .

التعجيز والتحدي

دلالة التعجيز اللغوية والإصطلاحية :

دلالته في اللغة :

التعجيز : التثبيط ، وذلك إذا نسبته إلى العجز ، وأعجزت فلاناً وعاجزته

جعلته عاجزاً . (١)

دلالته الإصطلاحية :

وفي اصطلاح البلاغيين : هو الطلب بما لا يقدر عليه المخاطب ليظهر

عجزه . (٢)

((والعلاقة بين الأمر والتعجيز مابينهما من شبه التضاد في متعلقهما ،

فإن التعجيز في المستحيلات ، والطلب في الممكنات كما يقول ابن يعقوب

المغربي)) (٣)

وفي القرآن الكريم أفاد الأمر معنى التعجيز وقد تنوعت أساليبه وتباينت

وتداخلت صورته على نحو مايتضح لك في الصفحات التالية بإذن الله :-

١ - من قبل الحق سبحانه :

١ - حول القرآن الكريم :

سلك القرآن منهجاً فريداً في تحدي العرب - وغيرهم - وتعجيزهم حيث

سلك منهج التدرج في التحدي والتعجيز بالقرآن ارخاء للعنان وزيادة في

التسجيل عليهم إظهاراً لعجزهم . حيث أمرهم أولاً أن يأتوا بمثل القرآن في بيانه

ونظمه ، ثم بمثل عشر سور ، ثم بسوره واحدة ، وأباح لهم في كل مرة أن

(١) انظر المفردات ص ٢٢٢ ومقاييس اللغة ٨٨٤/٣ واللسان ٢٨١٧/٤ والكلبيات

٢٢٧/١ وفكرة إعجاز القرآن . نعيم الحمصي ص ٧ .

(٢) انظر شروح التلخيص ٢١٤/٢ وأساليب بلاغية ص ١١٣ والأساليب الأنشائية

ص ٢٨ ومن بلاغة النظم العربي ٧٦/٢ .

(٣) مواهب الفتاح ٣١٥/٢ .

يستعينوا بمن شاءوا ومن استطاعوا ، ثم رماهم والعالم كله بالعجز في غير
مواربه فقال [قُلْ لَنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا
الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً] (١) ففضى عليهم
بالعجز مطلقاً .

وطبعي أن هذا التدرج زاد هذا التعجيز والتحدي تصعيداً وتسجيلاً على
المخاطبين في إظهار عجزهم (٢) ، على نحو ما يفهم من كلام الرازي ((ونظير هذا
كمن يتحدى صاحبه بتصنيفه فيقول : انتني بمثله ، انتني بنصفه ، انتني بربعه ،
انتني بمسألة منه ، فإن هذا هو النهاية في التحدي وإزالة العذر)) (٣)

ومعلوم أن التحدي والتعجيز بالقرآن الكريم للعرب وغيرهم مستمر إلى
أن يرث الأرض ومن عليها (٤) .

ومن أشهر أساليب التعجيز في الذكر الحكيم آيات التعجيز أو المعاجزة
بالقرآن الكريم ويهدف القرآن من تحدي المشركين وتعجيزهم بالقرآن إلى تقرير
الوحدانية لله تعالى وإلى إثبات رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم وصدقه فيما
يبلغ به عن ربه عز وجل .

وأساليب التعجيز في القرآن كثيرة نكتفي بإجزاء بعضها من ذلك قوله
تعالى : [قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] (٥) ((وهي الآية الوحيدة التي ذكر فيها الوصف
" مفتريات " لأنهم تعللوا بأنهم كيف يأتون بمعان مثل القرآن ، فأعفاهم من ذلك

(١) سورة الإسراء ، الآية " ٨٨ " .

(٢) انظر النبا العظيم ص ٨٤ ومقدمة الظاهرة القرآنية بقلم محمود شاكر ووجوه
الخطاب ص ٣٣١ .

(٣) التفسير الكبير ١٢٨/٢ .

(٤) انظر النبا العظيم ص ٨٥ ومقدمة الظاهرة القرآنية ص ٢٥ .

(٥) سورة هود ، الآية " ١٣ " .

وقرب لهم الغاية بأن يأتوا بمثل نظمه وسبكه وألفاظه (((١) ، فالأمر في قوله :
[فأتوا بعشر سورٍ] للتعجيز (٢) ، ومنه قوله تعالى { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ
فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَدْعَيْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ } (٣) .

يقول أبو السعود " قل " تبكيتاً لهم وإظهاراً لبطلان مقاتلهم الفاسدة إن
كان الأمر كما يقولون " فأتوا بسورة مثله " أي في البلاغة وحسن الصياغة وقوة
المعنى على وجه الافتراء ، فإنكم مثلي في العربية والفصاحة وأشد تمسراً مني في
النظم والعبارة " (٤) فالأمر في قوله " فأتوا " للتعجيز (٥) .

ومنه قوله تعالى : { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا
بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ
تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ
لِلْكَافِرِينَ } (٦) .

هذه الآية هي آخر آية من آيات التحدي بالقرآن تحدياً وتعجيزاً لكفار
المدينة ومن سواهم وفيها إشارة إلى قيام التحدي والإعجاز ما كان إنسان (٧) .
ولنتوقف عند هذه الآية نستجلي لطائفها :-

-
- (١) الأساليب الإنشائية ص ٢٩ .
 - (٢) انظر الطبري ٧/١٢ والكشاف ٢٦١/٢ والتفسير الكبير ٢٠٢/١٧ والبحر
المحيط ٢٠٨/٥ وتفسير أبي السعود ١٨/٣ وحاشية الشهاب ٧٩/٥ وما بعدها
والتحرير والتنوير ١٩/١٢ .
 - (٣) سورة يونس ، الآية " ٢٨ " .
 - (٤) تفسير أبي السعود ٦٦٥/٢ .
 - (٥) انظر الطبري ٨٢/١١ وما بعدها وروح المعاني ١١٨/١١ والتحرير والتنوير
١٧٠/١١ .
 - (٦) سورة البقرة ، الآيتان " ٢٣ - ٢٤ " .

يبدأ التحدي بلفظة لها قيمتها في هذا السياق تنبض بمعاني التعجيز والتحدي والتبكيث { فأتوا بسورة من مثله } بمعنى جيئوا ، وهو إشارة إلى تنزيل القرآن من عند الله تعالى .

((وإيثار التنزيل المنبهي عن التدريج على مطلق الإنزال لتذكير منشأ إرتيابهم وبناء التحدي عليه إرخاء للعنان وتوسيعاً للميدان ، فإنهم كانوا اتخذوا نزوله منجماً وسيلة إلى إنكاره ، فجعل ذلك من مبادئ الاعتراف به ، كأنه قيل : إن ارتبتم في شأن ما نزلناه على مهل وتدرج فها تواتوا أنتم مثل نوبة فذة من نوبه ، ونجم فرد من نجومه ، فإنه أيسر عليكم من أن ينزل جملة واحدة ، ويتحدى بالكل ، وهذا كما ترى غاية ما يكون في التبكيث وإزاحة العلل)) (١) .

والتعبير بقوله " على عبدنا " بهذا الوصف له ((دلالات متنوعة متكاملة ، فهو أولاً تشریف للنبي صلى الله عليه وسلم وتقريب بإضافة عبوديته لله تعالى ، دلالة على أن مقام العبودية لله أسمى مقام يدعى إليه بشر ويدعى به كذلك ، وهو ثانياً : تقرير لمعنى العبودية في مقام دعوة الناس كافة إلى عبادة ربهم وحده وإطراح الأنداد كلها من دونه ، فما هو ذا النبي في مقام الوحي ، وهو أعلى مقام - يدعى بالعبودية لله ويشرف بهذه النسبة في هذا المقام)) (٢)

فالامر في قوله : " فأتوا " للتعجيز كما أشار كثير من المفسرين والبلاغيين (٣) .

والواقع أن لهذا الفعل - " أتوا " - دلالات بلاغية متنوعة في القرآن تستفاد من السياق بمعونة القرائن ومقتضيات الأحوال .

(١) الكشاف ٢٣٨/١ وما بعدها وتفسير أبي السعود ١١١/١ .

(٢) في ظلال القرآن المجلد الأول ص ٤٢ .

(٣) انظر الطبري ١٢٨/١ وتفسير أبي السعود ١١١/١ وروح المعاني ١٩٣/١

والإيضاح ٢٤٢/١ وشروح التلخيص ٣١٤/٢ والمطول ص ٢٤ . وأساليب بلاغية

فقد جاء في عشرين موضعاً مفيداً لمعني التعجيز والتحدي (١) ، كما جاء للإباحة كما في قوله تعالى : { نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ } (٢) .
والتكذيب نحو قوله تعالى : { قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (٣) إلى غير ذلك من المعاني الثوان التي يفيض بها هذا الفعل في البيان القرآني .

وهنا يثار سؤال على جانب كبير من الأهمية لماذا آثر القرآن فعل الأمر من " أتى " ومشتقاته على الفعل " أعطى " ونحوه في مقامات التعجيز والتحدي وما إليها ؟ لأن الفعل " أتى " بجرسه وحركاته المتوالية دال على السرعة المناسبة لمقامات التحدي والتعجيز .

وكما جاء التعجيز بالقرآن من قبل الحق سبحانه جاء على السنة مشركي قريش تعجيزاً للرسول صلى الله عليه وسلم وتكذيباً له ، وافترأ منهم يحاولون الوصول عن طريقه إلى إشاعة أن القرآن مصدره بشري كما في قوله تعالى :
{ وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمُ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدَّلَهُ مِنْ تِلْقَائِ نَفْسِي إِن آتَبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ } (٤) .

لاريب أن الأمر في هذه الآية " أتت بقرآن غير هذا أو بدله " للتحدي والتعجيز ، وإنما قالوا ذلك كيداً وطمعاً في المساعدة ليتوسلوا به إلى الإلزام والاستهزاء به " (٥) .

(١) راجع المعجم المفهرس ص ٦ ، ٧ .

(٢) سورة البقرة ، الآية " ٢٢٣ " .

(٣) سورة آل عمران ، الآية " ٩٣ " .

(٤) سورة يونس ، الآية " ١٥ " .

فهو قول هاذر يوهمون به أن مصدر القرآن بشري كيداً ومخرقة ويريدون قرأناً آخر له مقاييس ملائمة لعقولهم (١) .

ثم يعرض السياق يبين رد الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله " قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي " .
ب - التعجيز والملائكة :

جاءت بعض أساليب الأمر في القرآن تفيد معنى التحدي والتعجيز خطاباً من الله عز وجل للملائكة تعجيزاً لهم قال تعالى : [وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ] (٢)

((المقصود من الأمر في قوله تعالى : " أنبئوني بأسماء هؤلاء " هو التعجيز ليدركوا من عجزهم ثم من قدرة عدم ما عجزوا عنه جانب الفضل والزيادة عليهم ، وهو أمر يتصل بالعلم الذي ألهمه الله إياه ويسر له سبله)) (٣) .

وذهب الزمخشري والرازي والنيسابوري إلى أن الأمر في هذه الآية مستعمل في التبكيت (٤) ، وهو مبني على رأيهم في أن الاستفهام " أتجعل " للإنكار والتعجب وليس للإرشاد كما يرى غيرهم ، وهذا بعيد جداً ياباه السياق ، والأقرب للصواب أنه للتعجيز كما أشار كثير من المفسرين (٥) ، لأن المراد إظهار عجزهم وقصور استعدادهم عن رتبة الخلافة التي استخلف لها آدم وذريته .

(١) انظر الأساليب الإنشائية ص ٤٤ .

(٢) سورة البقرة ، الآيتان " ٣١ - ٣٢ " .

(٣) من بدائع النظم القرآني . الدكتور السيد عبدالفتاح حجاب ١٥٩/١ .

(٤) انظر الكشاف ٢٧٢/١ والتفسير الكبير ١٩٢/٢ وما بعدها وغرائب القرآن ٢٢٢/١ .

(٥) انظر البحر المحيط ١٤٦/١ وحاشية الشهاب ١٢٦/٢ وروح المعاني ٢٢٥/١

والتحرير والتنوير ٤١٢/١ .

ج - تحطى المشركين :

تنبض بعض أساليب الأمر التي جاءت خطاباً للمشركين بالتحدي والتعجيز ، وقد تفاوتت من حيث زمن القول في الدنيا أو في الآخرة .

وكما نعلم الشرك ملة واحدة مهما تعددت مسيماته من شرك أو نفاق أو

تثنية أو تثليث .

١ - في الجنيا :-

قال تعالى خطاباً لكفار قريش تحدياً وتعجيزاً لهم في الدنيا { أَمْطَفَى
الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ
مُبِينٌ فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (١) .

ينبىء السياق في هذه الايات عن سخط عظيم وإنكار فظيع وإستبعاد شديد وتسفيه لأحلام قريش حيث ادعوا زوراً وبهتاناً أن الملائكة بنات الله ، وجاء قوله " أم لكم سلطان مبين " انتقالاً من توبيخهم وتبكييتهم بما ذكر إلى تبكييتهم بتكليفهم ما لا يدخل تحت الوجود أصلاً ، أي بل ألكم حجة واضحة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بناته تعالى ضرورة أن الحكم بذلك لا بد له من سند حسي أو عقلي وحيث انتفى كلاهما فلا بد من سند نقلي ، ((فاتوا " بكتابكم " وليس لهم كتاب يأتون به ، فهو تجهيل وتسفيه لأرائهم وتعجيب من جهلهم استهزاء بهم مع تعجيز أن يأتوا بسند لا يملكونه)) (٢) .

ومنه قوله تعالى خطاباً للمشركين { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (٣) .

(١) سورة الصافات ، الآيتان " ١٥٣ - ١٥٧ " .

(٢) انظر الكشاف ٣ / ٢٥٥ وتفسير أبي السعود ٥٥٢/٤ والأساليب الإنشائية

ص ٤٤ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية " ١٩٤ " .

لاريب أن الأمر في قوله " ادعوه " مستعمل في التعجيز بإعتبار ماتفرع عليه من قوله " فليستجيبوا " وهو للتعجيز أيضاً (١) .

والواقع أن لهذا الفعل " ادع " في الذكر الحكيم أكثر من معنى بلاغي (٢) ، كالتعجيز والرجاء والتخيير والتبكيث والتحسير ، كما جاء في بعض مواضعه حقيقياً مقيداً تخليصاً للمعنى وتوجيهاً إلى الأمثل نحو قوله تعالى : { ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } (٣) وقوله تعالى : { قَادِعُوا اللَّهَ مَخْلَصِينَ لَهُ الَّذِينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } (٤) .

أما دلالته على التحدي والتعجيز فقد ورد في سبعة مواضع منها قوله تعالى : { فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (٥) .

سبقت الإشارة إلى أن الأمر في قوله " فاتوا " للتعجيز والتحدي ، أما قوله " وادعوا شهداءكم من دون الله " فهو معطوف على الأمر السابق المتحدى به جيء به ((للتحقيق معنى المبالغة في أمر التحدي إذ المراد : ادعوا نصراءكم من أهل البلاغة فيكون تعجيزاً للعامة والخاصة ، ويكون قوله " من دون الله " على معنى اجعلوا جانب الله الذي أنزل الكتاب كالجانب المشهود عليه فقد أذناكم بذلك تيسيراً عليكم لأن شدة تسجيل العجز تكون بمقدار تيسير أسباب العمل)) (٦) .
بل المراد من جملة " ادعوا شهداءكم من دون الله " ارخاء العنان والانصاف

(١) انظر البحر المحيط ٤/٤٤٥ والتحرير والتنوير ٩/٢٢١ .

(٢) راجع المعجم المفهرس ص ٢٥٩ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية " ٥٥ " .

(٤) سورة غافر ، الآية " ١٤ " .

(٥) سورة البقرة ، الآية " ٢٣ " .

(٦) انظر التحرير والتنوير ١/٢٤٠ .

حتى يكون العجز داعياً إلى الحق . واللازمة " إن كنتم مؤمنين " تهييج وإلهاب
ودفع إلى المعارضة لو أمكن .

ومنه قوله تعالى : { فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (١) .

ومن أساليب الأمر التي أفادت معنى التعجيز والتحدي في القرآن الكريم
الفعل " أروني " حيث ورد في أربعة مواضع في جميعها (٢) للتعجيز من ذلك قوله
تعالى خطاباً لكفار قريش : { هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ
بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } (٣) .

فالامر في قوله " أروني " للتعجيز والتهمم والتبكيث ، وفي التعبير
بقوله ((بل الظالمون في ضلال مبين ، إضراب عن تبكيثهم إلى التسجيل عليهم
بالتورط في ضلال ليس بعده ضلال)) (٤) .

ومنه قوله تعالى : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا
خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا
أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (٥) .

تحمل هذه الآية في طياتها معنى التحدي والتعجيز والتبكيث والتوبيخ
الشديد لهؤلاء المشركين فالامر في " أروني " جاء توكيداً لقوله " أرايتم " كما جاء

(١) سورة يونس ، الآية " ٢٨ " .

(٢) انظر المعجم المفهرس ص ٢٨٥ .

(٣) سورة لقمان ، الآية " ١١ " .

(٤) انظر الكشاف ٢٣٠/٣ وما بعدها والبحر المحيط ١٨٥/٧ وتفسير أبي السعود

٣٧٥/٤ والتحرير والتنوير ١٤٧/٢١ ومن بلاغة النظم العربي ٧٧/٢ .

(٥) سورة الأحقاف ، الآية " ٤ " .

قوله * اثتوني * تصعيداً للتبكيك بتعجيزهم عن الإتيان بسند نقلي بعد تبكيتهم
بالتعجيز عن الإتيان بسند عقلي * (١) .

وقال صاحب التحرير والتنوير * الأمر في قوله * أروني ماذا خلقوا *
مستعمل في التسخير والتعجيز * (٢) ولامعنى للتسخير في هذه الآية لأن
التسخير في إصطلاح البلاغيين * التبديل من حالة إلى أخرى فيها مهانة
ومذلة * (٣) .

ومنه قوله تعالى خطاباً للمنافقين : (مَنْ كَانَ يَخُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصَرَهُ اللَّهُ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ
يُدْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ) [(٤) .

هذه الآية تصور مشهداً متحركاً لغيظ النفس ، وللحركات المصاحبة لذلك
الغيظ التي يبلغ فيها الضيق بالنفس أقصاه عندما ينزل بها الضر وهي على غير
اتصال بالله * (٥) .

حيث ((شبهت حالة استبطان هذا الفريق الكفر وإظهارهم الاسلام على
حذق أو حالة ترددهم بين البقاء في المسلمين وبين الرجوع إلى الكفار بحالة
المغتاظ مما صنع فليل لهم : عليكم أن تفعلوا مايفعله أمثالكم ممن ملاحم الغيظ
وضاقت بهم سبل الانفراج فامددوا حبلاً بأقصى مايمد إليه حبل ، وتعلقوا به في
أعلى مكان ثم اقطعوه تخروا إلى الأرض ، وذلك تهكم بهم في أنهم لايجدون غنى في
شيء من أفعالهم ، وإنذار باستمرار فتنهم في الدنيا مع الخسران في الآخرة .

(١) انظر تفسير أبي السعود ١٢١/٥ ووجه الخطاب ص ٢٢٧ ومابعدها .

(٢) التحرير والتنوير ٢٦ / ٩ .

(٣) انظر شروح التلخيص ٢ / ٢١٧ .

(٤) سورة الحج ، الآية * ١٥ * .

(٥) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٤١٢ .

ومفعول " يقطع " محذوف لدلالة المقام عليه والتقدير ثم ليقطعه أي يقطع

السبب ، والأمر في قوله " فليمدد بسبب إلى السماء " للتعجيز (((١) .

ومنه قوله تعالى خطاباً للمشركين : { أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ
الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ أَمْ لَهُمْ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي
الْأَسْبَابِ } (٢) .

هذه الآيات مهولة عنيفة محقرة لهؤلاء المشركين من صنديد قريش
لإنكارهم نزول القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم وإختصاصه بالرسالة
حسداً وبغضاً ، فجاء السياق ينبض مع التعجيز بمعانى السخرية اللاذعة والتهكم
من هؤلاء المشركين ، وينددهم بسوء أدبهم مع الله وتدخلهم فيما ليس من شأنهم .
وتأمل جمال التعبير بقوله ((رحمة ربك حيث أضاف اسم الرب المنبئ عن
التربية والتبليغ إلى الكمال إلى ضميره عليه الصلاة والسلام ففيه من التشريف
واللطف به ما لا يخفى)) (٣) .

فالأمر في قوله " فليرتقوا في الأسباب " للتعجيز على ما هو مستفاد من

السياق والمقام (٤) .

٢ - في الآخرة :

تفيد بعض صيغ الأمر التي جاءت خطاباً للمشركين في الآخرة بالتحدي

والتعجيز من ذلك قوله تعالى : { وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ
فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَوْبِقاً } (٥) .

(١) التحرير والتنوير ٢١٩/١٧ وما بعدها .

(٢) سورة ص ، الأيتان " ٩ - ١٠ " .

(٣) انظر تفسير أبي السعود ٥٦٣/٤ .

(٤) انظر التحرير والتنوير ٢١٧/٢٣ .

(٥) سورة الكهف ، الآية " ٥٢ " .

تصور هذه الآية مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، يكشف فيه سبحانه عن مصير الشركاء ومصير المجرمين حيث يقول لهم في ذلك اليوم استهزاء بهم وتوبيخاً وتعجيزاً لهم (١) " نادوا شركائي " فالأمر " بمناداة الشركاء مستعمل في معناه مع إرادة لازمه وهو إظهار باطلهم بقريظة فعل الزعم " زعمتم " ولذلك لم يسعهم أن ينادوهم حيث قال " فدعوهم " لطمعهم ، فإذا نادوهم تبين لهم خيبة طمعهم ولذلك عطف فعل الدعاء بالفاء الدالة على التعقيب ، وأتى به في صيغة الماضي للدلالة على تعجيل وقوعه حينئذ حتى كأنه قد انقضى " (٢) " وإضافة الشركاء إليه على زعمهم توبيخاً لهم والمراد بالشركاء الجن " (٣) ، وهم بعض خلق الله الذين لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئاً في الموقف المرهوب " (٤) .

ومن ذلك هذا التعجيز الذي يشي به الأسلوب مع التهكم والتوبيخ والتهديد في قوله تعالى خطاباً للمشركين في الآخرة : { هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولَىٰ إِن كَان لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ } (٥) .

يصور التعبير في هاتين الآيتين مشهداً من مشاهد الآخرة ، مشهد الحساب والجزاء ، تتجلى فيه هذه الصورة حية شاخصة للأبصار من خلال التعبير باسم الإشارة " هذا يوم الفصل " فهو يوم الفصل لا يوم الاعتذار ، وقد جمعناكم والأولين وقد فرع على ذلك قوله ((فإن كان لكم كيدون فكيديون ، ولاتدبير ولا قدرة ، إنما هو الصمت الكظيم على التائب الأليم)) (٦) .

(١) انظر تفسير أبي السعود ٥٣١/٣ وروح المعاني ٢٩٨/١٥ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٤٥/١٥ .

(٣) انظر الكشاف ٤٨٨/٢ .

(٤) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٢٧٥ .

(٥) سورة المرسلات ، الآيتان " ٣٨ - ٣٩ " .

(٦) انظر الكشاف ٢٠٥/٤ والتفسير الكبير ٢٨١/٣ والبحر المحيط ٤٠٨/٨ =

هـ - الجن والإنس :-

قال تعالى خطاباً للجن والإنس : { إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ } (١) .

لعلك تلاحظ أن السياق يمضي في إيقاع مربع مزلزل يتحدى فيه سبحانه
وتعالى الثقلين أن ينفذوا من أقطار السموات والأرض ، وفي ذكرهما ((إحاطة
بالجهات كلها تحقيقاً للتعجيز ، أي فهذه السموات والأرض أمامكم فإن استطعتم
فاخرجوا منها فراراً من موقفكم هذا ، وذلك لأن تعدد الأمكنة يسهل الهروب من
إحدى جهاتها)) (٢) .

فالامر في قوله " انفذوا " للتعجيز والتحدى ، وجملة " لاتنفذون إلا
بسُلطان " بيان للتعجيز الذي في الجملة قبله " (٣) .

التعجيز بين الأنبياء والمكذابين :-

١ - الأنبياء عليهم السلام :

ورد التحدي والتعجيز في القرآن الكريم على ألسنة الأنبياء عليهم من ذلك
قوله تعالى على لسان إبراهيم الخليل في سياق محاوره بينه وبين الذي حابه في

= وحاشية الشهاب ٢٩٩/٨ والتحرير والتنوير ٤٤٢/٢٩ وفي ظلال القرآن المجلد
السادس ص ٢٧٩٤ .

(١) سورة الرحمن ، الآية " ٢٣ " .

(٢) التحرير والتنوير ٢٧ / ٢٥٩ .

(٣) انظر البحر المحيط ١٩٤/٨ وروح المعاني ١١٢/٧٢ والتحرير والتنوير ٢٥٩/٢٧
وفي ظلال القرآن المجلد السادس ص ٢٤٥٦ .

ربه [أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ
إِبْرَاهِيمُ رَبِّي بِئْسَ بَعِيثٌ قَالَ أَنَا أَحْيٍ وَأُميْتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ
يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ] (١) .

تكشف هذه الآية الكريمة عن نكاه ابراهيم وفطنته وقدرته على إفحام
خصومه ، فحين سمع هذا الجواب الأحق فيما يتصل بأمر الإحياء والإماتة لم
يجادل فيه ، ولكنه انتقل إلى ما لا يقدر عليه مخاطبه فأتى بمثال لا يجد اللعين فيه
مجالاً للتمويه والتلبيس فبهت الذي كفر (٢) ، على نحو ما ينبغي عنه التعبير
بقوله " فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب " فالأمر في قوله
" فأت " أمر تعجيز والفاء الأولى الفصيحة للإيذان بتعلق ما بعدها بما قبلها
والمعنى : إذا ادعيت الإحياء والإماتة فأثر في هذه المخلوقات الكونية بتغيير سننها
تلك التي لاتطيقها قدرة بشر (٣) .

ومنه هذا التعجيز الذي ينبض به الأسلوب مع التكذيب والتعجيب
والتبكيك في قوله تعالى على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم خطاباً للمنافقين
[الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلَّ قَادَرُوا عَنْ
أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] (٤) .

" فالمنافقون يتخلفون عن الجهاد ويبثون الوهن في الصفوف بأن الخروج
إلى الجهاد باب من أبواب القتل وقصف الأعمار ، دون أن يدركوا الحقيقة الكبرى

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢٥٨ " .

(٢) انظر تفسير أبي السعود ٢٩٠/٨ ووجه الخطاب ص ٢٢٨ وما بعدها .

(٣) راجع روح المعاني ١٩/٣ ووجه الخطاب في القرآن الكريم ص ٢٣٩ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية " ١٦٨ " .

وهي أن للأعمار أجالاً مكتوبة " (١) ، قال تعالى : { فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ } (٢) .

يقول الزمخشري " قل إن كنتم صادقين في إنكم وجدتم إلى دفع القتل سبيلاً وهو القعود عن القتال فجدوا إلى دفع الموت سبيلاً : يعنى أن ذلك الدفع غير مفن عنكم ، لأنكم إن دفعتم القتل الذى هو أحد أسباب الموت لم تقدرُوا على دفع سائر أسبابه ولا بد لكم من أن يتعلق بكم بعضها " (٣) .

وننبه إلى أن للفعل " درأ " دلالة خاصة مقصودة لا يغني عنها الفعل " دفع " ذلك لأن الدرء فيه تطلب حيلة ودهاء لدفع الحدث ، ثم استعمال القوة حين وقوعه يقال : فلان ذو تدريء أي قوي على دفع أعدائه ، والمهم أن اصطناع الحياة أو عدمها في دفع أسباب الموت سواء " (٤) .

٢ - المكذِبُونَ :

ورد التحدي والتعجيز على السنة المكذبين تحدياً أخرق لرسلم عليهم السلام وتعجيزاً واهماً - على حسب اعتقادهم - نسجته خيالاتهم الأفنة وسواسهم الهاجسة (٥) كقولهم للمصطفى صلى الله عليه وسلم { وَإِذَا تَكَلَّمَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّتُوا بِآبَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (٦)

(١) الأساليب الإنشائية ص ٤٢ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية " ٢٤ " .

(٣) الكشاف ١ / ٤٧٨ .

(٤) انظر الأساليب الإنشائية ص ٤٢ وما بعدها ومفردات الراغب ص ١٦٩ وتفسير

أبي السعود ١ / ٥٩٧ وما بعدها .

(٥) الأساليب الإنشائية ص ٤٤ .

(٦) سورة الجاثية ، " ٢٥ " ؛ وراجع الكشاف ٣ / ٥١٣ والتفسير الكبير ٢٧ / ٢٧١

والبحر المحيط ٨ / ٤٩ وتفسير أبي السعود ٥ / ١١٧ وحاشية الشهاب ٨ / ٢١

والتحريير والتنوير ٢٥ / ٣٦٤ .

فالأمر في " انتوا " للتحدي والتعجيز ومنه قوله تعالى على لسان كفار قريش
 [بَلْ أَضْغَاتٌ أَلْهَمَ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ
 الْأَوْلُونَ] (١) ومنه قوله تعالى [إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَى
 وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ . فَاتُوا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] (٢) . ومنه قوله تعالى
 على لسان فرعون اللعين تحدياً وتكذيباً لموسى عليه السلام [قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ
 بِآيَةٍ فَآتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ] (٣) .

فالأمر في قوله " فات بها " للتحدي والتعجيز أي فأحضرها عندي لتصح
 دعواك ويثبت صدقك " (٤) . كما جاء على لسان قوم نوح عليه السلام [مَا أَنْتَ إِلَّا
 بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ] (٥) . كما تكرر التعبير « اثنتا
 بما تعدنا » على السنة المكذبين لرسول الله عليهم السلام استعجالاً للعذاب ، فقال
 المكذبون لنوح [قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ
 الصَّادِقِينَ] (٦) . وعلى لسان قوم صالح [وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ
 الْمُرْسَلِينَ] (٧) ، وعلى لسان قوم هود [قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّكَ عَنِ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا
 تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ] (٨) . وورد على لسان قوم لوط « اثنتا بعذاب الله »

(١) سورة الأنبياء ، الآية " ٥ " .

(٢) سورة الدخان ، الآيتان " ٢٤ - ٢٦ " .

(٣) سورة الأعراف ، الآية " ١٠٦ " .

(٤) انظر البحر المحيط ٢٥٧/٤ وراجع الطبري ٩/٨ وما بعدها والكشاف ١٠٠/٢

وما بعدها وتفسير أبي السعود ٢٨٦/٢ .

(٥) الشعراء ، الآية ١٥٤ .

(٦) هود ، الآية ٢٢ .

(٧) الأعراف ، الآية ٧٧ .

(٨) الأحقاف ، الآية ٢٢ .

قال تعالى : { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } (١) .

والواقع أن أساليب استعجال العذاب « ائتنا بما تعدنا » التي وردت على السنة المكذبين لها نظائر من الأساليب الاستفهامية نحو قوله تعالى : { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (٢) فقد نصت بعض المراجع على أن فيها شية من السخرية والاستهزاء (٣) ، ولا مانع أن يكون في أساليب الأمر هذا المعنى أيضاً .

بين التحدي والتعجيز :-

كثيراً ما ارتبط التحدي بالتعجيز في سياقات أساليب التعجيز التي سبق ذكرها ، بيد أن في القرآن الكريم أساليب تحد جاءت خالية من التعجيز تفيض بمعان ثانوية كالتهديد والتهمك تأتلف مع التحدي في السياق القرآني الواحد ، ولاعجب في هذا لأن السياق القرآني ينبض بعباءات متنوعة وهذا سر

من أسرار إعجازه وخلوده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

من ذلك قوله تعالى : { وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونِ } (٤) .

(١) العنكبوت ، الآية ٢٩ .

(٢) سورة يونس ، الآية * ٤٨ * وتكررت كثيراً في القرآن .

(٣) أساليب الإستفهام في القرآن الكريم ص ١٤٣ .

(٤) سورة يونس ، الآية * ٧١ * .

فالأمر في قوله " اجمعوا " واقضوا " للتحدي والتهكم (١) ، وإن ذهب بعض المفسرين إلى أن صيغة الأمر مستعملة في التسوية أي أن عزمهم لا يضره بحيث هو يغريهم بأخذ الأهبة التامة لمقاومته " (٢) .
وهذا التوجيه كما ترى بعيد جداً لا يعين عليه السياق ، والصواب أنه للتحدي والتهكم كما أشار كثير من المفسرين .

ومن أساليب التحدي في القرآن ماورد في قوله تعالى : { يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ .. } (٣) .

هذه الآيات تكشف عن لون آخر من افتراء اليهود وتبجحهم ، إنهم يتعنتون فيطلبون من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بكتاب من السماء ، كتاب مخطوط ينزله عليهم من السماء، فلا عليك من هذا التعنت ولاغرابة فيه ولاعجب منه ((فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة)) (٤) .

فالأمر في قوله " أرنا " للتحدي والتعنت ، طابعه التبجح الذي لا يصدر عن طبع خالطة بشاشة الإيمان أو فيه استعداد للإيمان .
بين التعجيز والتكذيب :-

يرتبط التكذيب بالتعجيز في كثير من أساليب التعجيز التي سبق ذكرها لأن القرآن يهدف من وراء هذه الأساليب تكذيب المشركين وإبطال مفترياتهم وإفحامهم حتى لكان أسلوب التعجيز طريق سلك لبلوغ هذه المعاني (٥) ، بيد أن في القرآن أساليب عديدة جاءت تفيد معنى التكذيب انفراداً بها التكذيب عن التعجيز فنصل القول فيها بإذن الله في الصفحات الآتية :-

(١) انظر الكشاف ٢/٢٤٥ والبحر المحيط ٥/١٧٩ وتفسير أبي السعود ٢/٦٩٢ وروح

المعاني ١١/١٥٨ .

(٢) التحرير والتنوير ١١/٢٣٩ .

(٣) سورة النساء ، الآية " ١٥٣ " .

(٤) في ظلال القرآن المجلد الثاني ص ٧٩٩ وما بعدها .

(٥) راجع وجوه الخطاب ص ٢٤١ وما بعدها .

أساليب التكذيب في القرآن الكريم

١ - تكذيب المشركين :

تنبض بعض أساليب الأمر التي جاءت خطاباً للمشركين في الذكر الحكيم بالتكذيب من ذلك قوله تعالى : (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَاتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (١)

فقوله تعالى (قل فاتوا بالتوراة فاتلوها) أمر له صلى الله عليه وسلم بأن يحاج اليهود ويبكتهم بكتابهم المكذب لهم فيما يدعون بما هو ناطق به من أن تحريم ما حرم عليهم تحريم حادث بسبب ظلمهم وبغيهم لاتحريم قديم كما يدعونه * (٢)

ونلاحظ في هذا السياق اجتماع صيغتي أمر " أتوا - اتلوها " تصعيداً لمعاني التحدي والتكذيب حيث تحداهم الله سبحانه بالتوراة التي بين أيديهم تكذيباً لهم وتهكما بهم .

ومع وضوح معنى التكذيب في هذه الآية الكريمة بل هي من متعالم شواهده لكنني رأيت صاحب التحرير والتنوير يقول بأن الأمر للتعجيز (٣) ، ولا أكاد أفهم لذلك وجهاً لبعده عن دلالة التعجيز ، بل الأمر فيها للتحدي والتكذيب .

ومنه قوله تعالى خطاباً للمشركين في أسلوب ينبض مع التكذيب بالتبكيك والتهكم والإفحام (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمَ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ

(١) سورة آل عمران ، الآية " ٩٣ " .

(٢) انظر الكشاف ٤٤٦/١ وتفسير أبي السعود ٥١٤/١ وعروس الأفراح ٣٢١/٢

ووجوه الخطاب ص ٢٤٢ وأساليب بلاغية ص ١١٦ والأساليب الإنشائية ص ٤٣

(٣) التحرير والتنوير ٩/٤ وراجع وجوه الخطاب في القرآن الكريم ص ٣٤٣ .

نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنِ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (١) .

يقول الطبري " هذا إعلام من الله جل ثناؤه لنبيه أن كل ما قاله المشركون في ذلك وأضافوه إلى الله فهو كذب وأنه لم يحرم شيئاً من ذلك وأنهم إنما اتبعوا خطوات الشيطان وخالفوا أمره " (٢) .

أما قوله " نبئوني بعلم إن كنتم صادقين " فهو تكرير للإلزام وتثنية للتبكيك والإفحام أي أخبروني بأمر معلوم من جهة الله تعالى من الكتاب أو أخبار الأنبياء يدل على أنه تعالى حرم شيئاً مما ذكر أو نبئوني تنبيئة ملتبسة بعلم صادرة عنه ، إن كنتم صادقين في دعوى التحريم عليه سبحانه وتعالى " (٣) فالأمر في قوله " نبئوني " للتكذيب والإفحام والتبكيك على نحو ما هو مستفاد من السياق والمقام .

ومنه قوله تعالى تكذيباً لليهود في إدعائهم بأن الجنة خالصة لهم من دون الناس { قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ } (٤) .

يبدو أن الأمر بالتمني كما يتضح من هذا السياق قصد به تكذيب تلك الدعوى وإبطالها وفضح زيفهم وافترائهم (٥) ، كما أن التعبير بقوله " ولن يتمنوه أبداً " على هذا النحو من التوكيد لبيان ما يكون منهم من الاحجام الدائم الدال على

(١) سورة الأنعام ، الآية " ١٤٣ " .

(٢) تفسير الطبري ٤٨ / ٨ .

(٣) تفسير أبي السعود ٢ / ٢٩٥ .

(٤) سورة البقرة ، الآيتان " ٩٤ - ٩٥ " .

(٥) راجع الطبري ١ / ٣٣٧ والتفسير الكبير ٢ / ٢٠٧ والبحر المحيط ١ / ٣١١ وتفسير

أبي السعود ١ / ٢١٧ والتحرير والتنوير ١ / ٦١٤ .

كذبهم في دعواهم تلك على أبلغ وجه وأكده (١) ، وهذا كما يقول الزمخشري * من المعجزات لأنه إخبار بالغيب وكان كما أخبر به ، حيث لم يؤثر أن أحداً منهم قد كان منه مطلوب هذا الخطاب * (٢) .

ونظيره قوله تعالى : [قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ] (٣) .

فالأمر في قوله * فتمنوا * للتكذيب كسابقه * .

ومنه قوله تعالى : [وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ] (٤) .

فالتعبير بقوله * هاتوا * على خلاف بين النحاة فهو فعل أمر أم اسم فعل أمر (٥) ، للتكذيب بمعونة السياق وخصائص التراكيب .

فالسباق دال على التكذيب لليهود في دعواهم هذه ، * وأتى بإن المفيدة للشك في صدقهم مع القطع بعدم صدقهم لاستدراجهم حتى يعلموا أنهم غير صادقين حين يعجزون عن البرهان ، لأن كل اعتقاد لا يقيم معتقده دليل اعتقاده فهو اعتقاد كاذب ، فإن صدق كل معتقد رهين برهانه * (٦) .

(١) انظر تفسير أبي السعود ٢١٨/١ ووجه الخطاب ص ٢٤٣ .

(٢) انظر الكشاف ٣٩٧/١ ووجه الخطاب الموضع السابق .

(٣) سورة الجمعة ، الآيتان * ٦ - ٧ * وراجع التحرير والتنوير ٦٧٤/١ ووجه الخطاب ص ٢٤٣ .

(٤) سورة البقرة ، الآية * ١١١ * .

(٥) انظر شرح المفصل لابن يعيش ٤٣/٤ وشرح الكافية ٧٠/٢ .

(٦) انظر الطبري ٣٩٣/١ والتحرير والتنوير ٦٧٤/١ ووجه الخطاب ص ٢٤٤ .

ومنه قوله تعالى : { قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ
هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ } (١)

جاء التعبير بقوله " هلم " - على الرغم من اختلاف النحويين حوله - (٢)
دالاً على التكذيب والتحدي (٣) للمشركين في تحريمهم على أنفسهم أنواعاً من
الذبائح مدعين أن الله حرمها عليهم ، فقوله " هلم شهداءكم " إبطال لاحتجاجهم كأنه
قال : احضروا كبراءكم ومن يشهد لكم توبيخاً وتفضيحاً " (٤)

" وإنما لم يقل شهداء يشهدون لأنه ليس الغرض إحضار أناس يشهدون
بالتحريم وإنما المراد إحضار شهدائهم الموسومين بالشهادة المعروفين بنصرة مذهبهم
ولهذا قال " فإن شهدوا " أي فإن وقعت شهادتهم " فلا تشهد معهم " أي لا تسلم لهم
ماشهدوا به ولا تصدقهم لأن شهادتهم محض الهوى والتعصب ، ولأجل ذلك قال أيضاً
" ولا تتبع أهواء الذين كفروا " فوضع الظاهر موضع المضمرة تسجيلاً عليهم
بالتكذيب وليرتب عليه باقى الآية فيعلم أن المتصف بهذه الصفات لا تكون شهادتهم
مقبولة عند العقلاء " (٥) .

وعلى هذا فإن قوله " هلم " للتكذيب وفيه إيماضة بالتعجيز كما ذكر غير
واحد " (٦) .

(١) سورة الأنعام ، الآية " ١٥٠ " .

(٢) انظر الكتاب ٢٤١/١ ، ٢٤٦/١ ، ٢٤٩/٢ . والمقتضب ٢٥/٣ وشرح المفصل ٤١/٤
وشرح الكافية ٧٢/٢ .

(٣) انظر عروس الأفراح ٣٢١/٢ وأساليب بلاغية ص ١١٦ .

(٤) الأساليب الإنشائية ص ٤٥ .

(٥) غرائب القرآن للنيسابوري ٤٢/٨ وما بعدها .

(٦) انظر البحر المحيط ٢٤٨/٤ والتحرير والتنوير الجزء الثامن القسم الثاني ص

على السنة المكذبة :-

ورد التكذيب على السنة المكذبة خطاباً لأنبيائهم عليهم السلام من ذلك هذا التكذيب الذي يشي به الأسلوب مع التحدي والتهكم في قوله تعالى على لسان قوم شعيب عليه السلام : { قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطْنُكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ } (١) .

فالامر في قوله " اسقط " للتكذيب والتحدي (٢) ، حيث تحدوه بأن يأتيهم بما يخوفهم به من العذاب إن كان صادقاً فيما يدعيه ، وأن يسقط عليهم رجوماً من السماء أو يحطمها عليهم ويسقطها قطعاً " (٣) ويقول الزمخشري " وما كان طلبهم ذلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكذيب ولو كان فيهم أدنى ميل إلى التصديق لما أخطروه ببالهم فضلاً أن يطلبوه " (٤) .

غير أن صاحب التحرير والتنوير يقول إن الأمر في " اسقط " أمر تعجيز (٥) .

ولامانع من هذا الوجه مادام السياق يبرره حسب اعتقادهم ، والأولى منه أن يكون للتكذيب والتحدي .

(١) سورة الشعراء ، الآيتان ١٨٥ - ١٨٨ .

(٢) انظر الكشاف ١٢٧/٣ والتفسير الكبير ١٦٤/٢٤ والبحر المحيط ٢٨/٧ وقرائيب

القرآن ٧٦/١٩ وتفسير أبي السعود ٢٣١/٤ .

(٣) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٦٦٥ .

(٤) الكشاف ١٢٧ / ٣ .

(٥) التحرير والتنوير ١٩ / ١٨٧ .

ومنه قوله تعالى : { وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ
عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ .. } (١) .

يقول الزمخشري : ((وهذا أسلوب من الجحود بليغ : يعنى إن كان القرآن
هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الفيل أو بعذاب آخر ،
ومرداه نفي كونه حقاً ، وإذا انتفى كونه حقاً لم يستوجب منكرة عذاباً ، فكان تعليق
العذاب بكونه حقاً مع اعتقاد أنه ليس بحق كتعليقه بالمحال في قولك " إن كان
الباطل حقاً فأمطر علينا حجارة " وقوله - هو الحق - تهكم بمن يقول على سبيل
التخصيص هذا هو الحق " (٢) .

ولعلك لاحظت أن ما جاء من الأساليب تعجيزاً أو تحدياً وتكذيباً على السنة
الرسلى كانت أقوى تركيباً وأشد وقعاً وأكثر تركيزاً وتلهياً وغضباً ، كما تلاحظ أن
نهاياتها جاءت " بفاء الفصيحة { فَاتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (٣) {
فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (٤) وهذا من أساليب الاحتباك التي
توالى فيها أسلوبا شرط مكررين وحذف فعل الشرط من الأول وجوابه من الثاني
شدة سبك وتركيز وإشعاع بالمعاني ، وزادت أساليب التعجيز بمعارضة القرآن ذكر
الشرط وأداته في الجملة الأولى وحذف الشرط الثاني { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا
نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ
اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (٥) إظهاراً واثقاً وبسطاً مقتدراً لإعجاز القرآن الكريم
وعجزهم (٦) .

(١) سورة الأنفال ، الآية " ٢٢ " .

(٢) الكشاف ٢ / ١٥٥ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية " ٩٣ " .

(٤) سورة آل عمران ، الآية " ١٦٨ " .

(٥) سورة البقرة ، الآية " ٢٣ " .

(٦) الأساليب الإنشائية ص ٤٥ .

التهديد

الدلالة اللغوية :

التهديد في اللغة التخويف والوعيد . (١)

وفي اصطلاح البلاغيين :

وذلك إذا استعملت صيغة الأمر في مقام عدم الرضا بالمأمور به . (٢)

وقد اتخذ القرآن طرقاً عديدة للتأثير في النفس الإنسانية ، فتارة يعمد إلى

الترغيب ، وتارة أخرى إلى الترهيب والتهديد .

والتهديد في القرآن جاء عن طريق أساليب عديدة كالأمر والنهي والخبر ، وفي

هذا الموضوع نتناول أساليب الأمر التي تفيد التهديد والوعيد في القرآن الكريم .

التهديد والمشروع :

جاءت بعض أساليب الأمر في القرآن دالة على التهديد والوعيد للمشركين من

قبل الحق سبحانه أو على السنة أنبيائه عليهم السلام من ذلك قوله تعالى خطاباً لكفار

قريش : { كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مَجْرُمُونَ } (٣) .

السياق في هذه الآية الكريمة دال على التهديد والوعيد والتهكم والتوبيخ

فالأمر في قوله " كلوا وتمتعوا " للتهديد والوعيد كما ذكر كثير من المفسرين (٤) .

وتأمل جمال التعبير بالقيد في قوله " قليلاً " ومايدل عليه ، أي كلوا وتمتعوا

زماناً قليلاً إذ قصارى أكلكم وتمتعكم هو الموت (٥) ، أما جملة " إنكم مجرمون " فهي

(١) انظر أساس البلاغة ص ٤٨١ والصحاح ٥٥٦/٦ واللسان ٤٦٣١/٦ .

(٢) انظر حاشية الدسوقي ٣١٤/٢ وبغية الايضاح ٥٤/٢ وعلم المعاني الدكتور / درويش

الجندي ص ٣٩ ومن بلاغة النظم العربي ٧٥ / ٢ .

(٣) سورة المرسلات ، الآية " ٤٦ " .

(٤) انظر الطبري ١٤٩/٢٩ والبحر المحيط ٤.٨/٨ وروح المعاني ١٧٨/٢٩ والتحرير

والتنوير ٤٤٥/٢٩ ومابعدها .

(٥) انظر البحر المحيط ٤.٨ / ٨ .

تقبيح وتبشيع وذم وتعليل ، وتأكيدها بإن لتحقيق الاجرام وتأكيده فهم مجرمون ((لادين لهم ولا آخرة ، ولا عقيدة ، يقبلون على الطعام متعة وتلذذاً وانطلاقاً لمتعة طريفة ولذة جديدة فهم في دائرة دائمة من الأكل والمتعة والتوله البهيمي)) (١) وصدق الحق فيما وصفهم به في قوله { وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارَ مَثْوًى لَهُمْ } (٢) .

ومنه قوله تعالى خطاباً لأبي جهل : { قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا } (٣)

فالامر في قوله " تمتع " للتهديد والوعيد " (٤) ، والتعبير بقوله " قليلاً " يدل على إقنائه وتينيسه أي تمتعاً قليلاً أو زماناً قليلاً " فإنك من أصحاب النار " وهذه الجملة تعليل لقلة التمتع وفيها من الإقنات من النجاة مالا يخفى كأنه قيل إذ قد أبيت قبول ما أمرت به من الإيمان والطاعة فمن حقا أن تومر بتركه لتذوق عقوبته زيادة في التهديد والتنكيل " (٥) .

والواقع أن الأمر بالتمتع ورد في القرآن في سبعة مواضع (٦) في جميعها للتهديد والوعيد في خطابات شديدة فيها إهانة وتبكييت من ذلك قوله تعالى على لسان صالح عليه السلام { فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ } (٧) وقوله تعالى : { وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ } (٨) وعن مشركي العرب

(١) انظر الأساليب الإنشائية ص ٣٧ .

(٢) سورة محمد ، الآية " ٣٣ " .

(٣) سورة الزمر ، الآية " ٨ " .

(٤) انظر الطبري ١٢٨/٢٣ والكشاف ٣/٢٩٠ والتفسير الكبير ٢٦/٢٤٩ والبيضاوي والشهاب حاشية الشهاب ٧/٢٣٠ وغرائب القرآن ٢٣/١٢٨ وتفسير أبي السعود ٤/٦٠١ وروح المعاني ٢٣/٢٤٥ والتحرير والتنوير ٢٣/٣٤٤ .

(٥) انظر الكشاف ٣/٢٩٠ وتفسير أبي السعود ٤/٦٠١ .

(٦) راجع المعجم المفهرس ص ٦٥٨ .

(٧) سورة هود ، الآية " ٦٥ " .

(٨) سورة الذاريات ، الآية " ٤٣ " .

[كَلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ] (١) وقوله [قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَّصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ] (٢) وفي هذه الآية أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يهدد المشركين بقوله " تمتعوا " أي تمتعوا بشهواتكم قليلاً فإن نهايتكم النار خالدین فيها فليس المراد أمرهم بالتمتع بل تهديدهم ووعيدهم (٣) ، وفي التعبير عن ذلك كما يقول الزمخشري ((إيدان بأنهم لا نغماسهم في التمتع بالحاضر وأنهم لا يعرفون غيره ولا يريدونه مأمورون قد أمرهم أمر مطاع لا يسعهم أن يخالفوه ولا يملكون لأنفسهم أمراً دونه وهو أمر الشهوة)) (٤) .

وكل موضع في القرآن ذكر فيه - فعل الأمر - " تمتعوا " في الدنيا فإنما هو على التهديد وذلك لما فيه من معنى التوسع " (٥) .
((أما الفعل " تمتع " في صيغة الماضي الخبري أو المضارع فهو وسيع الدلالة تشريعاً وترغيباً وترهيباً)) (٦) .

ومن أساليب التهديد التي يتنامى فيها الأسلوب فيصل إلى الذروة في الشدة والغضب قوله تعالى : [فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَدِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ هَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمَلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ] (٧) .

-
- (١) سورة المرسلات ، الآية " ٤٦ " .
 - (٢) سورة ابراهيم ، الآية " ٣٠ " .
 - (٣) انظر شروح التلخيص ٢/٣١٤ وأساليب بلاغية ص ١١٣ وعلم المعاني ص ٢٩ ومن بلاغة النظم العربي ٢ / ٧٥ .
 - (٤) الكشاف ٢ / ٣٧٨ .
 - (٥) انظر مفردات الراغب ص ٤٦١ وبصائر ذوي التمييز ٤/٤٧٩ ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ٢ / ٦٠٧ .
 - (٦) انظر الأساليب الإنشائية ص ٤٨ والمعجم المفهرس ص ٦٥٨ .
 - (٧) سورة القلم ، الايات ٤٤ - ٤٥ .

السياق دال على الشدة والغضب والنفار بهؤلاء المشركين ، فالأمر في قوله "ذرنى" للتهديد والوعيد ، أي "حسبى مجازياً لمن يكذب بالقرآن فلا تشغل قلبك بشأنه وتوكل على في الانتقام منه تسلياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديداً للمشركين" (١) .

ومنه قوله تعالى خطاباً لرسوله الكريم أن يهدد المشركين [ثُمَّ ذَرَّهُمْ فِي خَوَافِهِمْ يَلْعَبُونَ] (٢) فالأمر في "ذرهم" للتهديد والوعيد (٣) .

والواقع أن فعل الأمر "ذر" بمعنى دع واترك أكثر استعماله في القرآن في معنى التهديد والوعيد (٤) ، لما فيه من الخفة في نطقه وانزلاق اللسان بحروفه المناسبة للانتقام الهائل والتهديد المرعد والحسم السريع ، من ذلك قوله تعالى : [وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ] (٥) وقوله تعالى : [فَذَرَّهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ] (٦) وقوله تعالى على لسان صالح عليه السلام [وَيَأْتُوا هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ] (٧) .

وجاء أيضاً في مقامات أخرى يدل فيها على التحذير الشديد أو الإرشاد كما في قوله تعالى : [وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ] (٨) وقوله تعالى : [وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ

(١) الكشاف ١٤٧/٤ وانظر الطبري ٢٨/٢٩ والبحر المحيط ٣١٧/٨ والتحرير والتنوير

. ١٠٠ / ٢٩

(٢) سورة الأنعام ، الآية " ٩١ " .

(٣) انظر الطبري ١٧٩/٧ والتفسير الكبير ٨٤/١٣ والبحر المحيط ١٧٨/٤ .

(٤) انظر المعجم المفهرس ص ٤٧٨ .

(٥) سورة الأنعام ، الآية " ١٣٧ " .

(٦) سورة المؤمنون ، الآية " ٥٤ " .

(٧) سورة هود ، الآية " ٦٤ " .

(٨) سورة الأنعام ، الآية " ١٣٧ " .

الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ { (١) وقوله تعالى :
{ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ } (٢) أو تحقيق رغبة ملتوية عند المنافقين
كما في قوله تعالى : { سَيَقُولُ الْمَخْلُفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمٍ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا
نَتَّبِعْكُمْ } (٣) أو رغبة في الهروب من المجاعة كما في نصيحة يوسف عليه السلام :
{ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ } (٤) .

في هذه المقامات تتجلى القوة والعنف والحسم ، وإن دلت على معنى التهديد
لكن لاتصل إلى درجة التهديد المستفاد من صيغة الأمر ، وهذا نمط عجيب من بلاغة
القرآن وأسراره التي لا تتناهى .

وخلاصة القول إن فعل الأمر " ذر " كثر استعماله في القرآن في معنى التهديد
والوعيد أعان عليها الفعل نفسه لما فيه من الخفة والسرعة والحسم التي تناسب المقام ،
وقد جاء قليلاً في مقامات أخرى تقتضي هذه السرعة في أمور منهي عنها أو محظورة

موازنة :

في القرآن أفعال متقاربة الدلالة وذلك نحو ((اترك ، اجتنب ، دع ، ذر)) وإن
اختلفت دلالتها لأن كل فعل له من حيث بنيته وهيئته وصوته دلالة ومقامه لا يغني عنه
سواه يتضح ذلك من خلال هذه الموازنات :-

قال تعالى : { ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمِ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلْتَ
لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ
الزُّورِ } (٥) .

(١) سورة الأعراف ، الآية " ١٨٠ " .

(٢) سورة الجمعة ، الآية " ٩ " .

(٣) سورة الفتح ، الآية " ١٥ " .

(٤) سورة يوسف ، الآية " ٤٧ " .

(٥) سورة الحج ، الآية " ٣٠ " .

وقوله تعالى : { وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } (١)

وقوله تعالى : { فَاسْرِبْ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ وَاتْرِكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُفْرَقُونَ } (٢) .

وقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا وَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا } (٣) .

فالفعل " اجتنبوا " جاء في مقامات قوية عنيفه وذلك لاتصالها بأمور خطيرة ، دعا القرآن إلى تحريمها واجتنابها نحو قوله تعالى : { أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } (٤) .

وقوله تعالى : { فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ } (٥) وقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِمَّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ } (٦) ، وقوله { إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِمَّنْ عَمِلَ الشَّيْطَانُ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (٧) .

(١) سورة الأنعام ، الآية " ١٢٠ " .

(٢) سورة الدخان ، الآيتان " ٢٣ - ٢٤ " .

(٣) سورة الأحزاب ، الآيات " ٤٥ - ٤٨ " .

(٤) سورة النحل ، الآية " ٣٦ " .

(٥) سورة الحج ، الآية " ٣٠ " .

(٦) سورة الحجرات ، الآية " ١٢ " .

(٧) سورة المائدة ، الآية " ٩٠ " .

فقد جاءت هذه الآيات لتدل على معاني التحذير والتهديد والوعيد في أساليب مرعدة عنيفة تتناسب مع صيغة الفعل " اجتنبوا " الذي نحس فيه الجلبة والقصف المرعد الناجم من حرف الجيم .

وفي آية الحج يقول الزمخشري ((لما حث الله على تعظيم حرماته واحمد من يعظمها اتبعه بالأمر باجتنب الأوثان وقول الزور ، لأن توحيد الله ونفي الشركاء عنه ، وصدق القول أعظم الحرمات وأسبقها خطوا ، وجمع الشرك وقول الزور في قران واحد وذلك لأن الشرك من باب الزور لأن المشرك زاعم أن الوثن تحق له العبادة فكأنه قال : فاجتنبوا عبادة الأوثان التي هي رأس الزور ، واجتنبوا قول الزور كله لا تقربوا شيئاً منه لتماديه في القبح والسماجه ، وسمى الأوثان رجساً وكذلك الخمر والميسر والازلام على طريق التشبيهه : يعنى أنكم كما تنفرون بطباعكم عن الرجس وتجتنبوه فعليكم أن تنفروا عن هذه الأشياء مثل تلك النفرة)) (١) .

فهذه الآية مهولة بتراكيبها العنيفة وألفاظها الغاضبة ، فتكرار الفعل ، ودلالة الرجس - كما ذكر الراغب يقال للصوص الشديد وبعير رجاس شديد الهدير ، وغمام راجس ورجاس شديد الرعد - (٢) وظلال الأوثان والزور توحى بالشدة والعنف ، وتكرار الجيم في هذا السياق نحس فيه معنى الجلبة والضوضاء التي تتناسب مع هذا التهديد الشديد .

اما الفعل " ذر " فقد أشرنا قبل قليل إلى مقاماته ، والآية لم نخترها جزافاً ، بل تعمدنا اختيارها لأن فيها دعوة إلى ترك الآثام والمحرمات .
ففيها دعوة إلى التقرب إلى الله بترك الإثم واجتنب المعاصي ((والتعريف في الإثم يفيد الاستفراق ، والمقصود منه تعميم أفراد الإثم وانحصاره في هذين القسمين

(١) الكشاف ٢ / ١٢ .

(٢) انظر المفردات ص ١٨٨ .

ظاهره وباطنه ، وجملة " إن الذين يكسبون " تعليل للأمر بترك الإثم وإنذار وإعذار للمأمورين ولذلك أكد الخبر " بأن " وإظهار لفظ الإثم في مقام اضماره إذ لم يقل " إن الذين يكسبون " لزيادة التنديد بالإثم وليستقر في ذهن السامع أكمل إستقرار ، ولتكون الجملة مستقلة فتسير مسير الأمثال والحكم)) (١) .

أما الفعل " اترك " فلم يرد في القرآن إلا في هذا الموضع ، وهو خطاب لموسى عليه السلام فيه تهديد لفرعون وقومه ، أي يتبعكم فرعون وقومه فيكون ذلك سبباً لهلاككم " واترك البحر رهواً " وفي الرهو قولان :

" أحدهما " انه الساكن يقال عيش راه إذا كان خافضاً وادعياً ، وأفعل ذلك سهواً رهواً أي ساكناً بغير التشدد ، أراد موسى عليه السلام لما جاوز البحر أن يضربه بعصاه فينطبق كما كان فأمره الله تعالى بتركه ساكناً على هيئته قاراً على حاله في إنفلاق الماء وبقاء الطريق يبساً حتى تدخله القبط فإذا حصلوا فيه أطبقه الله عليهم .

و " الثاني " أن الرهو هو الفرجة فيما بين البحر ، " إنهم جند مغرقون " يعني اترك الطريق كما كان حتى يدخلوا فيفرقهم الله ، وإنما أخبره الله تعالى بذلك حتى يبقى فارغ القلب عن شغلهم وإيذائهم . (٢)

أما الفعل " دع " فلم يرد في القرآن إلا في هذا الموضع ، في خطاب موجه لرسول الله صلى الله عليه وسلم يذكره برسالته في الأرض ويحدد له مهماته وأنه شاهد ومبشر يبشر المؤمنين ونذيرٌ ينذر بالهلاك والدمار حزب الباطل ، وأنه داع يدعو إلى الله وسراج منير يهدي إلى الطريق المستقيم ، فهو متصل بالرحمة والبشرى والدعوة إلى الله والصبر والجلد في مصارعة أهل الباطل والضلال . (٣)

(١) التحرير والتنوير الجزء الثامن ، القسم الأول ص ٢٧ وما بعدها .

(٢) انظر الكشاف ٥٠٣/٣ ؛ والتفسير الكبير ٢٧ / ٢٤٧ .

(٣) انظر من أسرار التعبير القرآني ص

فهذه الأفعال كلها دالة على الترك والاجتناب نرى كل لفظ منها جاء في اتساق مع سياقه ومقامه لا يفتني عنه سواء .

ومن أساليب الأمر التي أفادت التهديد والوعيد الفعل " تربصوا " حيث ورد في القرآن في خمسة مواضع في جميعها للتهديد والوعيد . (١) ، من ذلك قوله تعالى
أمرأ نبيه أن يهدد المشركين ويتوعدهم : [أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ التَّرَبَّصِينَ] (٢) .

فالأمر في قوله : " تربصوا " للتهديد والوعيد (٢) ، وفيه عدة كريمة بإهلاكهم ، فتكرار مادة التربص في هذا السياق للسخرية والتهديد .

ويبدو أن ما ذكره صاحب التحرير والتنوير من أن الأمر في قوله " تربصوا " مستعمل في التسوية (٤) ، بعيد عن الصواب لا يتفق مع سياق الآية الكريمة .

ومنه قوله تعالى : [قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ] (٥) .

(١) انظر المعجم المفهرس ص ٢٩٩ .

(٢) سورة الطور ، الآية " ٣١ " .

(٣) انظر التفسير الكبير ٢٨ / ٢٥٥ ؛ والبحر المحيط ، ١٥١/٨ ؛ وتفسير أبي السعود

٢١٣/٥ ؛ وروح المعاني ٤١/٢٧ .

(٤) التحرير والتنوير ٢٧ / ٦٢ .

(٥) سورة التوبة ، الآية " ٢٤ " .

السياق دال في هذه الآية على التهديد والوعيد لهؤلاء المشركين ، فالأمر في قوله " تربصوا " للتهديد والوعيد (١) ، وجملة " والله لا يهدي القوم الفاسقين " تذييل وتعريض بتهديدهم ، لأنهم " فضلوا قرابتهم واموالهم على محبة الله ورسوله وعلى الجهاد فقد تحقق أنهم فاسقون ، والله لا يهدي القوم الفاسقين ، فحصل بموقع التذييل تعريض لأنهم من الفاسقين " (٢) .

ومنه قوله تعالى : { قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَهْبَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى } (٣) .

ومنه قوله تعالى خطاباً للمشركين : { قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي ، فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } (٤)

لاريب ان الأمر في قوله " اعبدوا ماشئتم " للتهديد والوعيد (٥) .

وفي هذه الآية الكريمة : ((أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أولاً ببيان كونه مأموراً بعبادة الله مخلصاً له الدين ، وهذا أمر بالإخبار بامثاله الأمر على أبلغ وجه وأكده إظهاراً لتصلبه في الدين وحسماً لقطع أطماعهم الفارغة وتمهيداً لتهديدهم

(١) انظر الكشاف ١٨١/٢ ؛ والتفسير الكبير ٢٠/١٦ ؛ والبحر المحيط ٢٢/٥ ؛ وتفسير

أبي السعود ٥٣٦/٢ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٥٤/١٠ .

(٣) سورة طه ، الآية " ١٣٥ " .

(٤) سورة الزمر ، الآيات " ١٤-١٥ "

(٥) انظر الطبري ١٣٠/٢٣ وما بعدها ؛ والتفسير الكبير ٢٥٥/٢٦ ؛ والبحر المحيط

٤٢٠/٧ ؛ وتفسير أبي السعود ٦٠٤/٤ ؛ وغرائب القرآن ١٣١/٢٣ .

بقوله تعالى : " فاعبدوا ما شئتم " (١) وجعلت الصلة هنا فعل المشيئة إيماءً إلى أن رائدهم في تعيين معبوداتهم هو مجرد المشيئة والهوى بلا دليل . (٢)
وقد ورد الأمر بالعبادة في القرآن في نيف وعشرين موضعاً ، فإن كان خاصاً بعبادة الله تعالى فهو حقيقي للتكليف ، وإن وقع على غيره سبحانه فهو للتهديد والوعيد (٣) .

ولم يرد للتهديد إلا في الموضع السابق " والله أعلم " .

ومنه قوله تعالى خطاباً للمشركين : [قُلْ يَا قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ] (٤)

فالأمر في قوله " اعملوا " للتهديد والوعيد كما نص على ذلك بعض المفسرين (٥) ، غير أن الطاهر بن عاشور أشار إلى أن الأمر مستعمل في التسوية (٦) وهذا كما نرى توجيه بعيد لا يعتد به لأن السياق ينبو عنه .

وقد ورد هذا الفعل في القرآن في أحد عشر موضعاً في ستة منها أفاد معنى التهديد ، وفي المواضع الأخرى حقيقي فيه حث وترغيب للمؤمنين ووعيد وتهديد لغيرهم (٧) .

(١) انظر تفسير أبي السعود ٦٠٤/٤ ؛ وروح المعاني ٢٣/٢٥٠ وما بعدها .

(٢) التحرير والتنوير ٢٣/٢٥٩ .

(٣) انظر المعجم المفهرس ص ٤٤٢ .

(٤) سورة الأنعام ، الآية " ١٣٥ " .

(٥) انظر تفسير الطبري ٢٩/٨ وما بعدها ؛ والكشاف ٥٢/٢ ؛ والتفسير الكبير

٢١٣/١٣ ؛ وتفسير أبي السعود ٢٨٨/٢ ؛ وغرائب القرآن ٢٩/٨ ؛ وحاشية الشهاب

١٢٧/٤ ؛ وروح المعاني ٢١/٨ .

(٦) التحرير والتنوير الجزء الثامن القسم الأول ص ٩٠ .

(٧) راجع المعجم المفهرس ص ٤٨٧ .

ومما أفاد منه معنى التهديد والوعيد قوله تعالى : [إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ أَقْمَنَ بِإِلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا هُنْتُمْ بِهِ بِمَعَالِمِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ] (١) .

السياق في هذه الآية ينبض بمعاني التهديد والوعيد الشديد ، حيث ذكر بعض

البلاغيين أن الأمر في قوله " اعملوا ما هنتم " للتهديد والوعيد (٢) .

والأسلوب يشارك في إبراز هذا المعنى وترقيه بجمله وتراكيبه ، حيث ان المراد

بلحد كما ذكر الزمخشري ((يقال الحد الحافر ولحد : إذا مال عن الاستقامة فحفر في شق

فاستعير للانحراف في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة)) (٣) ثم إن

الصلة في قوله " يلحدون في آياتنا " منبئة عن وجه بناء الخبر كما يقول البلاغيون (٤)

وأنه لا محالة واقع بهم وأنه صادر عن نفثة غضب ، وفي إضافة الآيات إلى الله عز وجل

ما يؤكد ذلك ، وفي قوله " لا يخفون علينا " قرع أعنف وإنذار أشد ، ويزداد فعله بمقدار

هيمنة قائله ، وقولك لمن يناوتك : إن ما تفعله لا يخفى علي ، فيه تهديد صريح ، وقيمة

هذا التهديد مستمدة من قيمة من يهدد فإذا كان فارغاً كان التهديد كذلك ، وقوله " أفمن

يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة " تلويح واضح بسوط العذاب الموجه ،

وهذا الاستفهام فيه إنكار واستجهاًل وتقدير وتهديد وتهكم واستخفاف ، والبناء

(١) سورة فصلت ، الآية " ٤٠ " .

(٢) انظر الإيضاح ٢٤٢/١ ؛ وشروح التلخيص ٣١٤/٢ ؛ والمطول ص ٢٤٠ ؛ والأطول

٢٤٨/١ ؛ وأساليب بلاغية ص ١١٢ ؛ وعلم المعاني ص ٣٩ ؛ ومن بلاغة النظم العربي

٧٥/٢ ؛ ودلالات التراكيب ص ٢٤٨ .

(٣) الكشاف ٤٥٥ / ٣ .

(٤) انظر الإيضاح ١١٧ / ١ .

للمجهول فيه إشارة إلى أنه يخطف من حيث لا يدري ، وفي التعبير بالالقاء إحياء بالنبذ والطرح ، وتأتي في مقابلة هذه الصورة المفزعة صورة من يأتي أمنأً تتلقاه الملائكة بالتكريم والحفاوة (١) .

((وهي موازنة غير متكافئة تعقدها سطوة القدر ولذا فقد حذفت النتيجة لوضوحها بل إن ذكر الخيرية هنا فيها مسحة من السخرية بالمكذابين فأبي خير في جزائهم الرهيب ، وفي لحة بمثل الحاضر يملؤها الوعيد المرعد ينصب تلقائياً على النوع الخاسر من البشر بدون ذكر صفاتهم ، أو سبق نداء لهم ، فهم هم الملحدون ، وهم هم الملقون في النار ، انه إلتفات في ثلاث كلمات ملتهبة الحروف " اعملوا ما شئتم " بالإطلاق في الفعل والمفعول فليس فيه إباحة للبشر بل إنه الوعيد الشديد ، وماذا يصنع الكافر أمام خالقه الجبار وهو مقيد الخطو بسنن راغمة وان ربك ليالمرصاد)) (٢)
ومنه قوله تعالى : { لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } (٣) .

رجح العلماء على أن اللام في قوله ليكفروا " وليتمتعوا " في هذه الآية لام الامر وليست للتعليل لوجود قراءة تؤيدهم حيث قرأ بها ابن كثير وقالون وحمزه والكسائي بجزم اللام في الموضعين (٤) ويكون الامر للتهديد والوعيد .
((والله سبحانه لا يأمرهم بالكفر ولكن لما علم أنه لا يكون منهم إلا ذلك وأنهم أصحاب لجاجة واجههم بهذا التهديد الموحى بأنه لشدة غضبه عليهم كأنه يأمرهم بما

(١) دلالات التراكيب للدكتور محمد أبو موسى ص ٢٤٨ وما بعدها ؛ وراجع وجوه

الخطاب في القرآن الكريم ص ٢٦٦ .

(٢) الأساليب الإنشائية ص ٥٥ وما بعدها .

(٣) سورة العنكبوت ، الآية " ٦٦ " .

(٤) انظر كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد ص ٥٠٢ ؛ والإقناع في القراءات

السبعة لابن البازش ٧٢٧/٢ .

يوجب عقابهم ، وقد ذكر البلاغيون في ذلك مثلاً ترى فيه دقة هذه الفكرة ووضوحها مع أنه مؤلف مبذول قالوا يقول السيد لخدمه اعصني وهو لا يريد منه المعصية وإنما يهدده وكأن رغبته الشديدة في الإيقاع به تجعله يطلب منه ما يثير غضبه عليه أكثر فيكون عقابه الذع وأوجع (((١) .

ومنه قوله تعالى : { فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنََّّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ... } (٢) .

السياق في هذه الآية دال على التهديد والوعيد فالأمر في قوله " ليؤمن ، ليكفر " للتهديد ، ويومض السياق بالتحخير مع التهديد فهو مستفاد من الجملة الشرطية (٣) .

ومنه قوله تعالى خطاباً للمشركين : { قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ } (٤) .

فالأمر في قوله " انتظر " تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتهديد ووعيد للمشركين كما ذكر المفسرون (٥) .

(١) دلالات التراكيب ص ٢٥٠ .

(٢) سورة الكهف ، الآية " ٢٩ " .

(٣) انظر تفسير أبي السعود ٥١٧/٣ وما بعدها ؛ وروح المعاني ٢٦٨/١٥ ؛ والتحرير والتنوير ٣٠٧/١٥ وما بعدها ؛ ووجوه الخطاب ص ٢٧١ - ٢٧٤ .

(٤) سورة السجده ، الآية ٢٠ .

(٥) انظر الكشاف ٢٤٧/٣ ؛ والتفسير الكبير ١٨٩/٢٥ ؛ والبحر المحيط ٢٠٦/٧ ؛ وتفسير أبي السعود ٣٩٧/٤ ؛ وروح المعاني ١٤١/٢١ ؛ والتحرير والتنوير ٢٢٤/٢١ ؛ وظلال القرآن المجلد الثالث ص ١٧٧٢ .

ومنه قوله تعالى : [يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلْ أَنْتَظِرُونَ] (١) .

وتشي كثير من أساليب التسلية التي جاءت خطاباً للرسول صلى الله عليه وسلم أو للأنبياء عليهم السلام بالتهديد والوعيد للمشركين من ذلك قوله تعالى : [فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين] (٢) ، وقوله تعالى : [وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ] (٣) ، وقوله تعالى : [إِنَّا مُرْسِلُونَ النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ] (٤) .

فالخطاب في هذه الآية لنبي الله صالح عليه السلام فهو تأييد له وتثبيت له عليه السلام وتهديد لهم .

ومنه قوله تعالى : [فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهَلْهُمْ رُوَيْدًا] (٥) .
وقوله تعالى : [وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا] (٦) .
((فهذه كلمة يقولها الجبار القهار ، والمكذبون بشر من البشر والذي يتهددهم هو الذي خلقهم ابتداءً وخلق هذا الكون " بكن " ولا تزيد ، ذرني والمكذبين ... فهي

(١) سورة الأنعام ، الآية " ١٥٨ " ؛ وراجع الكشاف ٦٤/٢ ؛ والتفسير الكبير ٨/١٤ ؛

والبحر المحيط ٢٦٠/٧ ؛ وتفسير أبي السعود ٣١٣/٢ .

(٢) سورة الدخان ، الآية " ١٠ " .

(٣) سورة هود ، الآية " ٩٣ " .

(٤) سورة القمر ، الآية " ٢٧ " .

(٥) سورة الطارق ، الآية " ١٧ " .

(٦) سورة المزمل ، الآيتان " ١٠ - ١١ " .

دعوتي وما عليك إلا البلاغ ، ودعمهم يكذبون ، واهجرهم هجراً جميلاً وساتولى أنا حربهم فاسترح أنت من التفكير في شأن الكاذبين (١) ، " ومهلهم قليلاً " فهذا وعيد لهم بسرعة الانتقام (٢) ، ولو مهلهم الحياة الدنيا كلها ما كانت إلا قليلاً وإن هي يوم أو بعض يوم في حساب الله سبحانه وتعالى (٣) .

ولا ريب في أن ماتضمنته أساليب الأمر في هذه الآية الكريمة من تهديد وتوبيخ وتهكم بهؤلاء المشركين من صناديد قريش كان لها أثرها الفعال في خدمة أغراض الدعوة القرآنية .

فهذا التهديد المستفاد من أساليب الأمر في هذه الآية ونظائرها جاء به من أجل تقرير حقيقة الوحدانية وإثبات صدق رسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم .
على السنة المشركين :

تفيد بعض أساليب الأمر التي جاءت على السنة الكافرين التهديد والوعيد والتهكم من ذلك قوله تعالى : { فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ } (٤) .

لاشك أن الأمر في هذه الآية يفيد التهديد والوعيد بدلالة السياق ومقتضيات الأحوال .

ومنه قوله تعالى على السنة المشركين : { وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ كِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيْ آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاَعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ } (٥)

(١) في ظلال القرآن المجلد السادس ص ٢٧٤٧ .

(٢) انظر البحر المحيط ٨ / ٢٦٤ .

(٣) في ظلال القرآن المجلد السادس ص ٢٧٤٧ .

(٤) سورة المؤمنون ، ٢٤ - ٢٥ .

(٥) سورجة فصلت ، الآية ٥ .

السياق في هذه الآية يصور تماديهم في الكفر والضلال ويوضح شناعتهم حيث تجرأوا على الاستهزاء بالرسول صلى الله عليه وسلم وتهديده بقولهم " اعمل " سخرية واستهزاءً وتهديداً " إننا عاملون " فهذا خبر مستعمل أيضاً في التهديد (١) .
التهديد والمنافقون ،

تفيد بعض أساليب الأمر معنى التهديد والوعيد من ذلك قوله تعالى خطاباً للمنافقين : { يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزَأُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ } (٢)

يكشف الحق سبحانه في هذه الآية عن حقيقة المنافقين وماتنطوي عليه نفوسهم المريضة من كرهه وحقد على الإسلام وأهله ، وعن استهزائهم بالله وآياته ورسوله ومايتآمرون به ويدبرونه في الخفاء ، حيث يوضح السياق شدة خوفهم من أن يكشف الله لرسوله حقيقتهم .

وفي هذه الآية يأمر الله رسوله الكريم أن يهددهم ويأمرهم بقوله : " قل استهزأوا " على سبيل التهديد والوعيد الشديد لهم (٣) ، وأتى بالجملة التعليلية للأمر " إن الله مخرج " زيادة في تهديدهم وكشفاً لما تنطوي عليه نفوسهم من خبث وكيد .

وإيثار " التعبير بالموصول في قوله " ماتحذرون " دون أن يقال " ان الله مخرج سورة تنبئكم بما في قلوبكم " لأن الأهم من تهديدهم هو إظهار سرائرهم لا إنزال سورة ، فذكر الصلة واف بالأميرين : إظهار سرائرهم ، وكونه في سورة تنزل ، وهو انكى لهم ففيه إيجاز بديع " (٤)

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٤ / ٢٣٦ .

(٢) سورة التوبة ، الآية " ٦٤ " .

(٣) انظر الطبري ١١٨/١٠ ؛ والتفسير الكبير ١٢٤/١٦ ؛ والبحر المحيط ٦٦/٥ ؛

وتفسير ابي السعود ٥٧٢/٢ ؛ وغرائب القرآن ١١٨/١٠ ؛ وروح المعاني ١٣٠/١٠ .

(٤) التحرير والتنوير ١٠ / ٢٤٩ .

إضافة الى ما سبق بيانه وتفصيله من أساليب الأمر التي افادت معنى التهديد في القرآن ، فهناك أوامر حقيقية إنتلّف بها معنى التهديد والوعيد وهي كثيرة تند عن الحصر نكتفي بإيراد بعضها على سبيل الإستشهاد من ذلك قوله تعالى : { خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ... } (١) ولا ريب في أن توالي الأوامر في هذه الآيات الكريمة دالة على أنها أوامر حقيقية تصور التهديد الغاضب والوعيد والغضب الأخاذ والإهانة المبكّنة.

ومنه قوله تعالى : { قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِنَّ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا } (٢)

واضح أن الأمر في هذه الآية حقيقي فيه تهديد شديد ، فقد هدده بعقوبة آجلة إن لم يقلع عن كفره بالهتيم ، وبالعقوبة عاجلة وهي طرده من معاشرته وقطع مكالمته .

ومنه قوله تعالى : { قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأِإِنِّي أُكْفِي إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ } (٣)

(١) سورة الحاقة ، الآية " ٢٠ " وما بعدها

(٢) سورة مريم ، الآية " ٤٦ "

(٣) سورة النمل ، الآيات " ٢٩ - ٣١ "

متفرقات

هناك طائفة من المعاني البلاغية التي أفادها الأمر في القرآن الكريم وقد وردت في أساليب محدودة من أهمها :

التشريف : وهو كل ما في القرآن الكريم من الفعل " قل " كالمعوذتين والإخلاص والكافرون ، ومن الآيات قوله تعالى { قُلْ أَمَّا بِاللَّهِ } (١)
فالأمر في قوله " قل " تشريف منه تعالى لهذه الأمة بأن يخاطبها الله بغير واسطة لتفوز بشرف المخاطبة " (٢)

ومن معاني الأمر البلاغية : التفويض كما في قوله تعالى على السنة السحرة بعد ما تبين لهم الحق فأمّنوا برب موسى وهارون { قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ } (٣)

يوضح هذا السياق موقف السحرة أمام فرعون بعد ظهور الحق ، ويصور حالهم بعدما رأوا الآيات البينات فمس الإيمان شغاف قلوبهم ، حيث أعلن السحرة وقفة التحدي لفرعون ، والقوه وعدم المبالاة بما يفعله بهم ، وتجاهلوا كل ما يصبه من وعيد ، فلم يخافوا من تعذيب وتعزير فقالوا " أقض ما أنت قاض " وهذا الموقف يمثل الإيمان وحلاوته وصلابة التحدي وعمق التضحية ، وليس من المتصور أنهم يريدون الموت من فرعون ولكنه أسلوب السخرية والتحدي " (٤)

فالأمر في قوله " أقض ما أنت قاض " للتفويض كما ذكر بعض البلاغيين والأصوليين (٥) ، وذكر ابن فارس رحمه الله أنه للتسليم (٦) ، والدالتان متقاربتان كما هو واضح .

(١) سورة آل عمران ، الآية " ٨٤ " .

(٢) انظر البرهان ٢٥١/٢ وما بعدها والاتقان ١٠٤/٣ . ومعتك الأقران ٢٣٧/٨ والأساليب الانشائية ص ٦٢ .

(٣) سورة طه ، الآية " ٧٢ " .

(٤) انظر أسلوب المحاورة ص ١٩٠ ومن بلاغة النظم العربي ٨٧/٢ .

(٥) انظر مروس الأفراح ٣٢١/٢ والإبهاج في شرح المنهاج ٢ / ٢١ .

(٦) الصحابي ص ٣٠٠ وراجع معجم المصطلحات البلاغية ص ٢١٩ وأساليب بلاغية ص ١١٤ .

ومن معاني الأمر البلاغية الطمأنة والتثبيت نحو قوله تعالى خطاباً لموسى عليه السلام [وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ] (١)

تكشف هذه الآية عن الحالة التي كان عليها موسى عليه السلام حين رأى عصاه تهتز كأنها جان حيث سيطر عليه الخوف وتملك جميع أعضائه ففر هارباً ، ولم يعقب وهذا ما يتضح من خلال التعبير بقوله " ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف " فهو يصور حالة الخوف التي سيطرت على موسى وجعلته يتصرف هذا التصرف لكن الحق سبحانه وتعالى سرعان ما يطمأنه ويزيل عنه الخوف والهم بقوله " يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين " فالأمر في قوله " أقبل " للطمأنة والتثبيت وكذلك النهي في قوله " لا تخف " بدليل قوله " إنك من الأمنين " فهذا التعبير يدل على زيادة تحقيق الأمن والطمأنينة حيث جاء مؤكداً " بان " وجعله من جملة الأمنين وهو أشد في تحقيق الأمن من أن يقال " إنك آمن " (٢) ودليل على كمال العناية الإلهية به وزيادة تشريف له عليه السلام .

ومن أغراض الأمر البلاغية في القرآن : التحريض والحث نحو قوله تعالى : [يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ] (٣)

فلام الأمر في قوله " فليتنافس المتنافسون " للتحريض والحث والترغيب ، أي فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله ، كما أن التعبير باسم الإشارة " ذلك " دلالة على علو شأن هذا النعيم ، وإشارة إلى أن التنافس يجب أن يكون في مثل ذلك النعيم الدائم لا في النعيم الذي هو مكرر سريع الفناء ، فهذا النعيم مطلب يستحق المنافسة وأفق يستحق السباق وغاية تستحق الغلاب . (٤)

ونظيره قوله تعالى [فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا] (٥)

(١) سورة القصص ، الآية " ٣١ " .

(٢) التحرير والتنوير ٢١ / ١١٣ .

(٣) سورة المطففين ، الآيتان " ٢٥ - ٢٦ " .

(٤) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٠٧ .

(٥) سورة الكهف ، الآية " ١١٠ " .

ومن معاني الأمر البلاغية : إظهار السعادة والرضا والتباهي بما أعطي نحو قوله تعالى على لسان الذي أوتي كتابه بيمينه في الآخرة { فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُمٌ أَقْرَأُوا كِتَابِيَةَ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهُ } (١)
فقوله " هؤم اقرأوا كتابيه " لإظهار السعادة والفرح والرضا والتباهي بما أعطي جزاءً ورحمة من الله لعبادة المؤمنين .

وهذه الآية تصور مشهداً من مشاهد الآخرة ، مشهد التكريم لهذا الناجي في ذلك اليوم العصيب وهو أخذ كتابه بيمينه والدنيا لاتسعه من الفرح والسرور وهو يدعو الخلائق كلها لتقرأ كتابه في رنة الفرح والغبطة ، والسعادة تملأ جوانحه وتغلبه على لسانه فيهتف " هؤم اقرءوا كتابيه " وفي هذا التعبير كناية عن كونه في حبور ونعيم وتكريم عظيم أنعم الله به عليه . (٢)

ومن أغراض الأمر البلاغية في القرآن التبشير والتعجيل بالمسرة نحو قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ اسْتَقَامُوا تَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ } (٣)

تبرز هذه الآية الكريمة التكريم البالغ الذي حظي به المؤمنون في الدنيا حيث تنزل عليهم الملائكة بالطمأنة والتثبيت ونفي الخوف عن أنفسهم ، وليس هذا فحسب بل بالبشارة بدخول الجنة ، وفي وصف الجنة بقوله " التي كنتم توعدون " تذكير لهم بأعمالهم التي وعدوا عليها بالجنة وتعجيل لهم بمسرة الفوز برضا الله وتحقيق وعده أي التي كنتم توعدونها في الدنيا " (٤) .

(١) سورة الحاقة ، الآيتان ١٩ - ٢٠ .

(٢) انظر في ظلال القرآن المجلد السادس ص ٣٦٧٦ ، ص ٣٦٨١ والتحرير والتنوير . ١٣٠/٢٩

(٣) سورة فصلت ، الآية " ٣٠ " .

(٤) التحرير والتنوير ٢٤ / ٢٨٥ .

الباب الثاني

أساليب النهي في القرآن الكريم

و

أسرارها البلاغية

المدخل

أسلوب النهي

الدلالة اللغوية للنهي :

النهي في اللغة مصدر نهي : إذا زجره وكفه . (١)

وفي إصطلاح البلاغيين :-

طلب الكف عن الفعل إستعلاءً ، وصيغته لاتفعل وهي حقيقة في

التحريم . (٢)

مجانى النهي البلاغية :-

تخرج صيغة " لاتفعل " عن دلالتها الأصلية فتفيد معاني بلاغية متنوعة

تستفاد من السياق بمعونة القرائن وأحوال التراكيب .

(١) راجع في تحرير الدلالة مقاييس ٣٥٩/٥ ومابعدها وأساس البلاغة ص ٤٧٥

والصاحح ٢٥١٧/٦ ومابعدها واللسان ٤٥٦٤/٦ والمفردات ص ٥٠٧ ومعجم
الفاظ القرآن الكريم ٧٦٧/٢ ومابعدها .

(٢) انظر شروح التلخيص ٣٢٤/٢ والمطول ص ٢٤١ ؛ والأطول ٢٤٩/١ والانتقان

٢٤٣/٣ ومابعدها ومعتك الأقران ٤٤٣/١ وبغية الإيضاح ٥٦/٢ والأساليب

الانشائية ص ٦٨ وأساليب بلاغية ص ١١٦ .

الفصل الأول

مناهج العلماء في معالجة أساليب النهي

مناهج العلماء في معالجة أساليب النهي

النهي كصنوه الأمر من أوائل الأساليب التي تنبه العلماء إلى خروجه عن دلالة الأصلية إلى معان بلاغية متنوعة إهداءً بالمقام وقرائن الأحوال .
ولعل من أبرز هؤلاء العلماء الذين كان لهم أثر واضح في ميدان البحث البلاغي بصفة عامة ، وفي الإشارة إلى بعض المعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب النهي بصفة خاصة علماء اللغة والنحو وعلماء التفسير وعلماء أصول الفقه والبلاغة .

وإذا كنا في دراستنا لأسلوب الأمر قد عثرنا على نصوص كثيرة تدل على خروج الأمر عن معناه الأصلي إلى معان بلاغية كثيرة فإننا لانكاد نعثر إلا على نزر يسير من النصوص التي تشير إلى خروج النهي عن دلالة الأصلية إلى معان بلاغية وهذا ما أمكن الجهد الوصول إليه ، فليس الهدف من الدراسة التاريخية السعي إلى الإكثار من الشواهد والنصوص وإنما التأميل لبلاغة هذه الأساليب والتأكيد على إفرادتها للأغراض البلاغية بمعونة السياق والمقام .

أولاً منهج اللخويين والنجاة :-

١ - سيبويه :-

سبق سيبويه علماء البلاغة في الحديث عن أغراض النهي البلاغية حيث تنبه إلى خروج النهي إلى معنى الدعاء قائلاً " هذا باب ما يعمل في الأفعال فيجزمها . وذلك : لم ، ولا ، واللام التي في الأمر ، وذلك قولك ليفعل ، ولا في النهي وذلك قولك لاتفعل ، وإنما هما بمنزلة لم .
وأعلم أن هذه اللام ولا في الدعاء بمنزلة في الأمر والنهي وذلك قولك لايقطع الله يمينك ، وليجزيك الله خيراً " (١)

من خلال هذا النص يتضح لنا أن سيبويه قد فطن إلى خروج النهي عن معناه الأصلي إلى معنى الدعاء .

(١) الكتاب تحقيق عبدالسلام هارون ٨/٣ وانظر ١٤٢/١ .

٢ - الفراء :-

أشار الفراء في كتابه معاني القرآن إلى بعض المعاني البلاغية التي يخرج إليها النهي عند تفسيره لآيات القرآن الكريم منها خروج النهي إلى معنى التأديب يقول في تفسير قوله تعالى {وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ} (١) " وليس هذا بنهي محرم ، إنما هو من الله أدب " (٢)

وأشار إلى خروجه إلى معنى الدعاء في قوله تعالى { رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِيهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } (٣) يقول : الفراء وقوله [فلا يؤمنوا] كل ذلك دعاء ، كأنه قال اللهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم " (٤)

بهذا يتضح لنا أن الفراء قد أدرك بحسه البلاغي بعض سمات التعبير القرآني وما يحويه من لطائف وأسرار بلاغية ، منها إشارته إلى خروج النهي عن دلالة الأصلية إلى معان بلاغية ينبض بها بيان القرآن المشرق .

٣ - أبو عبيدة :-

عرض أبو عبيدة لبعض الصور البلاغية التي يخرج إليها النهي كالدعاء يقول في تفسير قوله { وَأَشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } (٥) يقول أبو عبيدة " فلا يؤمنوا " جزم لأنه دعاء عليهم أي فلا يؤمنن " (٦) ٤ - أبو العباس المبرد :-

تأثر أبو العباس المبرد في كتابه المقتضب بسيبويه إلى حد كبير ، فقد تابع سيبويه في الإشارة إلى خروج النهي عن دلالة الأصلية إلى معنى الدعاء حيث

- (١) سورة النساء ، الآية " ٢٢ " .
- (٢) معاني القرآن ١/٢٦٤ .
- (٣) سورة يونس ، الآية " ٨٨ " .
- (٤) معاني القرآن ١/٤٧٧ .
- (٥) سورة يونس ، الآية " ٨٨ " .
- (٦) مجاز القرآن ١/٢٨١ .

يقول " والدعاء يجري مجرى الأمر والنهي ، وإنما سمي هذا أمراً ونهياً ، وقيل
للآخر طلب للمعنى ، فأما اللفظ فواحد ، وذلك قولك في الطلب : اللهم اغفر لي ،
ولا يقطع الله يد زيد ، وليغفر لخالد " (١)

فالمبرد لم يقدم أي جديد يسجل له وإنما كان في هذا النص متأثراً بسيبويه
وناقلاً عنه وإن لم يصرح بذلك . (٢)

هـ - ابن الشجري :-

درس ابن الشجري في أماليه أسلوب النهي دراسة جيدة لانكاد نظفر على
مثلا لدى سابقيه ، حيث عرف النهي وذكر بعض المعاني البلاغية التي تفيدها
صيغة النهي .

يقول في تعريف النهي " النهي هو المنع من الفعل بقول مخصوص مع علو
الرتبة وصيغته لاتفعل ، ولايفعل فلان " ثم أشار إلى أن هذه الصيغة ترد للمخاطب
والغائب بقوله " فمن النهي للمواجه (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا
بِالْحَقِّ) (٣) - [وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ] - (٤) ومنه قوله عليه السلام [لا تباغضوا
ولا تحاسدوا] (٥) " ومن النهي للغائب [لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ
دُونِ الْمُؤْمِنِينَ] (٦) - [وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا] - (٧) فهذا كله يراد به التحريم .
بعد هذا يعقب بذكر بعض المعاني البلاغية التي تفيدها صيغة النهي حيث

(١) المقتضب ٢ / ٤٤ .

(٢) راجع الكتاب لسيبويه ٨/٣ وأثر النحاة في البحث البلاغي ص ٢٠٧ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية " ١٥١ " .

(٤) سورة القصص ، الآية " ٨٨ " .

(٥) الحديث في صحيح مسلم ٤/١٩٨٦ كتاب البر والصلة والآداب ؛ وانظر فتح

الباري ٤٨١/١٠ .

(٦) سورة آل عمران ، الآية " ٢٨ " .

(٧) سورة الحجرات ، الآية " ١٢ " .

يقول : وقد ترد هذه الصيغة والمراد بها التنزيه كقوله تعالى : { وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ } (١) " أي لا تتركوه " (٢) .

كما أشار إلى خروج الخبر إلى معنى النهي بقوله " ومن النهي بلفظ الخبر أيضاً : { الْهَآكُمُ التَّكَآثُرُ } (٣) معناه لا يلهكم التكاثر كما قال { لَا تَلْهَكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ } (٤) ومنه { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي طَائِفَةٍ مِّنَ الَّذِينَ أَكْرَمْنَا } (٥) يقول " لا تطيعوهم " ومنه { قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى } (٦) يقول " لا ترغبوا في متاع الدنيا وارغبوا في الآخرة " ومنه { إِنَّمَا تَكُونُونَ يَدْرِكُكُمْ الْمَوْتُ } (٧) معناه لا تجزعوا من الموت وقاتلوا فإن الموت ملائكم " (٨) وما ذكره ليس موضع إتفاق بين العلماء .

كما أشار إلى أن النهي يرد بغير صيغة النهي ، حيث يقول " وقد ورد النهي بغير هذه الصيغة وذلك نحو قوله تعالى { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَمْهَاتُكُمْ } (٩) - { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ } (١٠) وقد جاء النهي بلفظ الوعيد كقوله جل اسمه { إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا } (١١) .

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢٣٧ " .

(٢) الأماالى الشجرية ٢٧١/٨ .

(٣) سورة التكاثر ، الآية " ١ " .

(٤) سورة المنافقون ، الآية " ٩ " .

(٥) سورة آل عمران ، الآية " ١٤٩ " .

(٦) سورة النساء ، الآية " ٧٧ " .

(٧) سورة النساء ، الآية " ٧٨ " .

(٨) الأماالى الشجرية ٢٧٢ / ١ .

(٩) سورة النساء ، الآية " ٢٣ " .

(١٠) سورة المائدة ، الآية " ٣ " .

(١١) سورة النساء ، الآية " ١٠ " .

ومما جاء من النهي بلفظ النفي قوله جل وعز { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ
آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ } (١) أراد لاتستغفروا لهم ومنه { ذَلِكَ الْكِتَابُ
لَا رَيْبَ فِيهِ } (٢) أي لاترتابوا فيه أي لاتشكوا فيه ، ومثله { لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ
اللَّهِ } (٣) أي لاتبدل أيها الانسان كلمات الله ... (٤)

وبهذا الجهد خطا ابن الشجري بأسلوب النهي خطوات واسعة أفاد منها
البلاغيون فيما بعد .
٦ - المرادى :- (٥)

تناول المرادي في كتابه الجني الداني في حروف المعاني " لا " الناهية وأشار
إلى إفادتها الدعاء حيث يقول " وأما " لا " الناهية فحرف يحزم الفعل المضارع
ويخلصه للاستقبال نحو { وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي } (٦) وترد للدعاء نحو { لَا تَوَاخِذْنَا
إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } (٧)
٧ - ابن هشام :-

أشار ابن هشام في كتابه مغني اللبيب إلى بعض المعاني البلاغية التي

(١) سورة التوبة ، الآية " ١١٣ " .

(٢) سورة البقرة ، الآية " ٢ " وانظر الأمالى الشجرية ٢٧١/١ وما بعدها .

(٣) سورة يونس ، الآية " ٦٤ " .

(٤) المصدر السابق ٢٧١/١ - ٢٧٢ .

(٥) هو محمد بن الحسن بن قاسم بن عبدالله المرادي المصري بدر الدين المعروف
بابن أم قاسم المتوفي سنة ٧٤٩ هـ عالم مشارك في النحو والتفسير والفقہ
والقراءات من مصنفاته : شرح المفصل للزمخشري ، شرح الشاطبية في
القراءات والجني الداني في حروف المعاني انظر ترجمته الأعلام ٢١١/٢ ومعجم
المؤلفين ٢٧١/٣ .

(٦) سورة القصص ، الآية " ٧ " .

(٧) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٦ " وانظر الجني الداني ص ٣٠٠ .

تستفاد من صيغة النهي فى ضوء السياق والمقام كالتنزيه والدعاء والالتماس والتهديد حيث يقول " ولا فرق فى اقتضاء "لا" الطلبية للجزم بين كونها مفيدة للنهي سواء كان للتحريم ، أو التنزيه نحو { وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ } (١) وكونها للدعاء كقوله تعالى { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا } (٢) ... وكونها للالتماس كقولك لنظيرك غير مستعمل عليه " لاتفعل كذا " وكذا الحكم إذا خرجت عن الطلب إلى غيره كالتهديد فى قولك لولدك أو عبدك " لاتطعني " (٣)

بعد هذا العرض الموجز وهذه السياحة المباركة مع اللغويين والنحاة نستطيع القول بأن للغويين والنحاة أثراً كبيراً فى تطور المباحث البلاغية .

ثانياً ، منهج المفسرين :-

لاشك أن للمفسرين جهداً بارزاً نحو البلاغة وتطورها ، إذ عالجوا كثيراً من الأساليب البلاغية التي يزخر بها النظم القرآني ومن بينها أسلوب النهي فى القرآن الكريم .

١ - الطبري :-

ضم تفسير الطبري كثيراً من الفنون البلاغية التي تؤكد على جدارته ورسوخ قدمه فى علوم البلاغة وقد عول كثير من المفسرين على ماثره الطبري فى تفسيره من تحليلات بلاغية ولطائف بيانية فاحتذوا حذوه وتأثروا به وخاصة الزمخشري ومن سار على هديه .

ومن بين الفنون البلاغية التي تناولها خروج النهي عن دلالة الأصلية إلى

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢٢٧ " .

(٢) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٦ " .

(٣) مغني اللبيب ص ٢٢٦ تحقيق الدكتور مازن المبارك وآخرين .

معان بلاغية أخرى تفهم من السياق بمعونة القرائن وخصائص التراكيب كالدعاء نحو قوله تعالى : { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } (١) يقول الطبري " وهذا تعليم من الله عز وجل عباده المؤمنين دعاءه كيف يدعوونه وما يقولون في دعائهم إياه. (٢) " ومنه قوله تعالى { فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } (٣) يقول " وقوله ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، يقول جل ثناؤه مخبراً عن قوم موسى أنهم دعوا ربهم فقالوا ياربنا لاتختبر هؤلاء الكافرين ولا تمتحنهم بنا يعنون قوم فرعون " (٤)

والتعزية نحو قوله تعالى { وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ } (٥) يقول الطبري : " وهذا من الله تعزية لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما أصابهم من الجراح والقتل بأحد قال ولا تهنوا ولا تحزنوا يا أصحاب محمد يعني ولا تضعفوا بالذي نالكم من القتل والقروح عن جهاد عدوكم وحربهم ... " (٦) وقد ذهب بعض الأصوليين (٧) إلى أن صيغة النهي في هذه الآية ونظائرها مستعملة للطمأننة والتسكين ، وهذا الرأي قريب من رأي الطبري .

وأشار الطبري إلى خروج الخبر والاستفهام إلى معنى النهي كما في قوله تعالى : { .. لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا } (٨) يقول الطبري " فإن قال قائل كيف قيل

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٦ " .

(٢) الطبري ٣ / ١٠٣ .

(٣) سورة يونس ، الآية " ٨٥ " .

(٤) الطبري ١١ / ١٠٥ وانظر ١١ / ١٠٨ .

(٥) سورة آل عمران ، الآية " ١٣٩ " .

(٦) تفسير الطبري ٤ / ٦٦ .

(٧) انظر التمهيد في أصول الفقه ١ / ٣٦١ .

(٨) سورة البقرة ، الآية " ٨٣ " .

وقولوا للناس حسناً فأخرج الكلام أمراً ولما يتقدمه أمر بل الكلام جار من أول الآية مجرى الخبر ، قيل إن الكلام وإن كان قد جرى في أول الآية مجرى الخبر فإنه مما يحسن في موضعه الخطاب بالأمر والنهي فلو كان مكان " لاتعبدون إلا الله " " لاتعبدوا إلا الله " على وجه النهي من الله لهم عن عبادة غيره كان حسناً صواباً * (١) فالطبري يرى أن قوله " لاتعبدون " خبر مراد به النهي .

وقد نبه الزمخشري إلى أسرار التعبير بالخبر عن النهي وبلاغته بقوله " وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاه فهو يخبر عنه " (٢) .

ومنه قوله تعالى ﴿ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ﴾ (٣) يقول الطبري في توجيه هذه القراءة بالرفع " لأنه خبر مراد به النهي . (٤) هذه بعض الشواهد والأمثلة التي صرح فيها الطبري بخروج النهي عن دلالة الأصلية إلى معان بلاغية أخرى تستفاد من السياق والمقام .

٢ - الزمخشري :

نص الزمخشري على أن النهي يخرج عن وضعه الأصلي فيفيد معاني أخرى تفهم من السياق وهو يعرض لتفسير القرآن الكريم منها خروج النهي إلى معنى الدوام والاستمرار نحو قوله تعالى : ﴿ لَا يَغْفِرَنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ (٥) يقول الزمخشري فيه وجهان والذي يهمنا الوجه الثاني " الثاني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان غير مغرور بحالهم فأكد عليه ما كان عليه وثبت على التزامه كقوله " ولاتكونن من المشركين - ولاتطع المكذبين ، وهذا في

(١) الطبري ١ / ٣٦١ .

(٢) الكشاف ١ / ٢٩٢ .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٢٣ " .

(٤) الطبري ٢ / ٣٠٦ .

(٥) سورة آل عمران ، الآية " ١٩٦ " .

النهي نظير قولك في الأمر - اهدنا الصراط المستقيم - يا أيها الذين آمنوا آمنوا * (١) .

وهذا الأسلوب نفسه الذي نهى به رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفعال لا يجوز عليه التلبس بها يلحظ الزمخشري فيه معنى الإلهاب والتهيج والاثارة لشدة التمسك بما هو عليه (٢) .

من ذلك قوله في تفسير قوله تبارك وتعالى [لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَاتَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ] (٣) .

يقول * أي اثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك والتكذيب بآيات الله ، ويجوز أن يكون على طريق التهيج والإلهاب كقوله - فلا تكونن ظهيراً للكافرين ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك - ولزيادة التثبيت والعصمة * (٤)

ومنه قوله تعالى: [إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ] (٥) * يقول الزمخشري * ونهيه عن الامتراء وجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون ممترياً من باب التهيج لزيادة الثبات والطمأنة (٦) .

ومن معاني النهي البلاغية التي أشار إليها الزمخشري الحث والرغبة في الاتصاف بصفة معينة قال تعالى : [وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَاتُمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ] (٧) .

(١) الكشاف ١ / ٤٩٠ .

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٣١٢ .

(٣) سورة يونس ، الآيتين * ٩٤ - ٩٥ .

(٤) الكشاف ٢ / ٢٥٣ .

(٥) سورة آل عمران ، الآيتين * ٥٩ - ٦٠ .

(٦) الكشاف ١ / ٤٣٣ .

(٧) سورة البقرة ، الآية * ١٣٢ .

يقول الزمخشري " معناه لا يـكـن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام ، فالنهي في الحقيقة عن كونهم خلاف الإسلام إذا ماتوا كقولك : لاتصل إلا وأنت خاشع فلاتنهاه عن الصلاة ولكن عن ترك الخشوع في حال صلاته . فإن قلت : فأي نكتة في إدخال حرف النهي على الصلاة وليس بمنهي عنها ؟ قلت : النكتة فيه إظهار أن الصلاة التي لاخشوع فيها كلا صلاة ، فكأنه قال : أنهاك عنها إذا لم تصلها على هذه الحالة ، ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام " لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد " فإنه كالتصريح بقولك لجار المسجد ، لاتصل إلا في المسجد ، وكذلك المعنى في الآية إظهار أن موتهم لا على حال الثبات على الإسلام موت لاخير فيه وأنه ليس بموت السعداء وأن من حق هذا الموت أن لا يحل فيهم ، وتقول في الأمر أيضاً : مت وأنت شهيد ، وليس مرادك الأمر بالموت ولكن بالكون على صفة الشهداء إذا مات ، وإنما أمرته بالموت اعتداداً منك بميتته وإظهاراً لفضلها على غيرها وأنها حقيقة بأن يحث عليها " (١) .

وأشار إلى خروج النهي إلى معنى التهويل والتعظيم نحو قوله تعالى : { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ انْحِبَابِ الْجَحِيمِ } (٢) . يقول الزمخشري " قرئء ولاتسأل على النهي .. فنهي عن السؤال عن أحوال الكفرة والاهتمام بأعداء الله ، وقيل معناه تعظيم ماوقع فيه الكفار من العذاب كما تقول كيف فلان سائلاً عن الواقع في بلية ؟ فيقال لك لاتسأل عنه ، ووجه التعظيم أن المستخبر يجزع أن يجري على لسانه ما هو فيه لفظاً عنه فلا تسأله ولا تكلفه ما يضجره ، وأنت يامستخبر لا تقدر على استماع خبره لإيحاشه السامع واضجاره فلا تسأل " (٣) .

ومن أغراض النهي البلاغية التينيس والاستهزاء نحو قوله تعالى :

(١) الكشاف ٣١٣/١ وانظر البلاغة القرآنية ص ٣١١ .

(٢) سورة البقرة ، الآية " ١١٩ " .

(٣) الكشاف ٢٠٨ / ١ .

{ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ } (١) " يقول الزمخشري " لم يعبأ باعتذارهم لأنهم كانوا كاذبين فيه فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم وبأنه موجود منهم حتى وبخوا بأخطائهم موقع الاستهزاء ، حيث جعل المستهزأ به يلي حرف التقرير ، وذلك إنما يستقيم بعد وقوع الاستهزاء وثبوته " ولا تعتذروا " لاتشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة فإنها لاتنفعكم بعد ظهور سرکم (٢) .

والإهانة نحو قوله تعالى خطاباً للمعذبين في النار { قَالَ أَخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونِ } (٣) .

يقول الزمخشري " أخسأوا فيها " ذلوا وانزجروا كما تنزجر الكلاب إذا زجرت ، يقال خسأ الكلب وخسأ بنفسه " ولا تكلمون " في رفع العذاب فإنه لا يرفع ولا يخفف (٤) فالأمر والنهي للإهانة والتحقير كما هو واضح من سياق الآية الكريمة .

هذه بعض معاني النهي التي أشار إليها الزمخشري ، وهناك أغراض أخرى ومن أراد الاستزادة فعليه بمراجعة الكشاف (٥) والبحوث التي قامت حوله .
٣ - فخر الرازي :-

من المفسرين الذين عنوا بالبلاغة عناية خاصة الرازي فقد نثر في تفسيره المسمى بالتفسير الكبير أو مفاتيح الغيب كثيراً من الفنون البلاغية منها خروج النهي عن معناه الأصلي إلى معان بلاغية كالإباحة كما في قوله تعالى : { وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ } (٦) يقول الرازي " ولاتنس نصيبك من الدنيا " فيه وجوه ، ... وثانيها " لما أمره الواعظ بصرف المال إلى

(١) سورة التوبة ، الآية " ٦٦ " .

(٢) الكشاف ٢ / ٢٠٠ .

(٣) سورة المؤمنون ، الآية " ١٠٨ " .

(٤) الكشاف ٣ / ٤٤ .

(٥) لأستاذنا الدكتور محمد أبو موسى دراسة جيدة عن بلاغة الزمخشري .

(٦) سورة القصص ، الآية " ٧٧ " .

الأخرة بين له بهذا الكلام أنه لابس بالتمتع بالوجوه المباحة * (١)

ومنها الدوام والاستمرار نحو قوله تعالى إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين * (٢) يقول الرازي وهذا * خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام والمعنى : قدم على يقينك وعلى ما أنت عليه من ترك الامتراء * (٣)

والتبكي كما في قوله تعالى { حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَارُونَ . لَاتَجَارُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَاتَنْصُرُونَ } (٤) يقول الفخر * بين سبحانه أن المنعمين منهم إذا نزل بهم العذاب يجارون أي يرتفع صوتهم بالاستغاثة والضجيج لشدة ما هم عليه ويقال لهم على وجه التبكي * لاتجاروا اليوم إنكم منا لاتنصرون * (٥)

والارشاد يقول في تفسير قوله تعالى : { وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ } (٦) * ظاهر هذا الكلام نهي لكل من كان كاتباً وإيجاب الكتابة على كل من كان كاتباً ، وفي وجوه * الأول * أن هذا على سبيل الارشاد إلى الأولى لا على سبيل الإيجاب * (٧) والالتماس والاعتذار كما في قوله تعالى : { قَالَ لَاتُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا } (٨) يقول الرازي * فعند هذا اعتذر موسى عليه

(١) التفسير الكبير ١٦/٢٥ .

(٢) سورة آل عمران ، الآيتين * ٥٩ - ٦٠ .

(٣) التفسير الكبير ٨٦/٨ .

(٤) سورة المؤمنون ، الآيتين * ٦٤ - ٦٥ .

(٥) التفسير الكبير ١١١/٢٣ .

(٦) سورة البقرة ، الآية * ٢٨٢ .

(٧) المصدر السابق ٧ / ١٢٠ .

(٨) سورة الكهف ، الآية * ٧٣ .

السلام بقوله " لاتؤاخذني بما نسيت " أراد أنه نسي وصيته ولا مؤاخذة على الناس بشيء... (١)

٤ - أبو حيان :-

عرض أبو حيان في تفسيره البحر المحيط لكثير من الفنون البلاغية واللطائف البيانية التي يمتاز بها النظم القرآني .

ويهمنا منها أنه تناول النهي وأشار إلى بعض أغراضه وأسواره البلاغية التي تستفاد من السياق بمعونة القرائن والأحوال كالتحقير ، يقول أبو حيان معلقاً على قوله تعالى : { فَلَاتُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ } (٢) يقول : لما قطع رجاء المنافقين عن جميع منافع الآخرة بين الأشياء التي يظنونها من باب منافع الدنيا جعلها الله تعالى أسباباً ليعذبهم بها في الدنيا أي لا يعجبك أيها السامع بمعنى لا يستحسن ولا يفتن بما أوتوا من زينة الدنيا كقوله " ولاتمدن عينيك " وفي هذا تحقير لشأن المنافقين (٣) .

والإهانة والتوبيخ كما في قوله تعالى : { قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ } (٤) يقول أبو حيان " ومعنى اخسأوا أي ذلوا فيها وانزجروا كما تنزجر الكلاب إذا زجرت يقال خسأ الكلب وخسأ هو بنفسه يكون متعدياً ولازماً ، ولاتكلمون " أي في رفع العذاب أو تخفيفه هذا هو كلام الزمخشري الذي سبق أن نقلناه لكن أبا حيان يعقب عليه بقوله " وهذه الآية مما يقال للكفار على جهة التوبيخ " (٥) وعموماً فالأمر والنهي في هذه الآية للإهانة كما صرح بذلك علماء البلاغة . (٦)

(١) المصدر السابق ٢٦ / ١٥٥

(٢) سورة التوبة ، الآية " ٥٥ " .

(٣) البحر المحيط ٥ / ٥٣ وما بعدها .

(٤) سورة المؤمنون ، الآية " ١٠٨ " .

(٥) البحر المحيط ٦ / ٤٢٢ .

(٦) انظر عروس الأفراح ٢ / ٢٢٧ والاتقان ٣ / ٢٤٤ .

والتهديد والوعيد نحو قوله تعالى : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ
الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا تُؤَلُّوهُمْ الْآدْبَارَ . وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا
لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيَبْسُ
الْمَصِيرُ] (١) يقول أبو حيان " لما نهى تعالى عن تولي الأدبار توعد من ولي دبره
وقت لقاء العدو وناسب قوله " ومن يؤلهم " فقد باء بغضب " كأن المعنى فقد ولي
مصحوباً بغضب الله ، وعدل أيضاً عن ذكر الظهر إلى الدبر مبالغة في التوبيخ
والذم إذ تلك الحالة من الصفات القبيحة المذمومة جداً" (٢) .

والإلهاب والتهبيج كما في قوله تعالى : [إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ
آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ
الْمُتَّعِبِينَ] (٣) تابع أبو حيان الزمخشري ونقل كلامه في أن النهي للإلهاب
والتهبيج لزيادة الثبات والطمأنينة له عليه الصلاة والسلام ولطفاً لغيره " (٤)
هـ - أبو السحوط :-

ضم تفسير أبي السعود كثيراً من الفنون البلاغية ، ومن خلال قراءة يسيرة
في هذا التفسير القيم يبدو واضحاً تأثر أبي السعود في تحليلاته البلاغية
بالزمخشري والبيضاوي بصفة خاصة ، وقد كفانا أبو السعود مؤونة الاجتهاد فقد
نص في مقدمة الكتاب على تأثره بالكشاف ، وأنوار التنزيل ، ونبهتهما بقوله "
المتفردان بالشأن الجليل والنعته الجميل ، فإن كلا منهما قد أحرز قصب السبق أي
إحراز كأنه مرآة لاجتلاء وجوه الإعجاز ، صحائفها مرايا المزايا الحسان وسطورها
عقود الجمان وقلائد العقيان " (٥) .

(١) سورة الأنفال ، الآيتين " ١٥ - ١٦ " .

(٢) البحر المحيط ٤/٤٧٤ .

(٣) سورة آل عمران ، الآيتين " ٥٩ - ٦٠ " .

(٤) انظر البحر المحيط ٢/٢٧٩ ، ٣/١٤٦ وما بعدها .

(٥) انظر تفسير أبي السعود ١/٣ وما بعدها .

ومن بين الفنون البلاغية التي تناولها أبوالسعود - والتي هي موضع
عناية هذه الدراسة - خروج النهي عن دلالة الأصلية إلى بعض المعاني البلاغية ،
سنوضح فيمايلي أهم الأغراض التي أشار إليها :-

منها الإلهاب والتهبيج نحو قوله تعالى : { وَلَا تَطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ
وَدَعِ آذَانَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا } (١) يقول " نهى عن مداراتهم
في أمر الدعوة واستعمال لين الجانب في التبليغ والمسامحة في الإنذار كنى عن ذلك
بالنهي عن طاعتهم مبالغة في الزجر والتنفير عن المنهي عنه بنظمه في سلكها
وتصويره بصورتها ومن حمل النهي عن التهبيج والإلهاب فقد أبعده عن التحقيق
بمراحل " (٢)

ومنها الدوام كما في قوله تعالى : { كَلَّا لَا تَطِيعُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ } (٣)
يقول أبوالسعود " لاتطعه " أي دم على ما أنت عليه من معاصاته ، " واسجد " وواظب
على سجودك وصلاتك غير مكترث به " (٤) .

ومنها الحث والرغبة في الاتصاف بصفة معينة ففي قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ
اصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلاَتَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } (٥) يقول " ظاهره النهي عن الموت
على خلاف حال الاسلام والمقصود الأمر بالثبات على الاسلام إلى حين الموت أي
فأثبتوا عليه ولا تفارقوه أبداً كقولك لاتصل إلا وأنت خاشع ، وتغيير العبارة للدلالة
على أن موتهم لا على سبيل الاسلام موت لاخير فيه وأن حقه أن لا يحل بهم وأنه
يجب أن يحذروه غاية الحذر ونظيره مت وأنت شهيد " (٦)

(١) سورة الأحزاب ، الآية "٤٨" .

(٢) تفسير أبي السعود ٤/٤٢٤ وانظر ١/٤٩٦ ، ١/٦٣٣ والبلاغة في تفسير أبي
السعود ص ٢٠٧ .

(٣) سورة العلق ، الآية " ١٩ " .

(٤) تفسير أبي السعود ٥ / ٥٥٦ .

(٥) سورة البقرة ، الآية " ١٣٢ " .

(٦) المصدر السابق ١ / ٢٦٤ .

والتهويل والتحذير كما في قوله تعالى: { وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ } (١)
يقول أبو السعود بعد أن أفاض في تحليل هذه الآية " وفيه تهويل لأمر العضل وتحذير منه وإيذان بأن وقوع ذلك بين ظهرانيمهم وهم ساكتون بمنزلة صدوره عن الكل في استتباع اللائمة وسراية الفائلة " (٢) .

ومنها الكراهة كما في قوله تعالى: { وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طَوْلاً كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً } (٣) يقول أبو السعود " إنك لن تخرق الأرض " تعليل للنهي وفيه تهكم بالمختال وإيذان بأن ذلك مفاخرة مع الأرض وتكبر عليها أي لن تخرق الأرض بدوسك وشدة وطأتك " ويضيف قائلاً - وهو ما يهمننا هنا - " عند ربك مكروهاً " .. وهو تنمة لتعليل الأمور المنهي عنها جميعاً ووصف ذلك بمطلق الكراهة مع أن البعض من الكبائر للإيذان بأن مجرد الكراهة عنده تعالى كافية في وجوب الانتهاء عن ذلك " (٤) والتينيس والتبكيك كما في قوله تعالى { لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنْهُ لَاتُنْصَرُونَ } (٥) يقول " لا تجاروا اليوم " على إضمار القول مسوقاً لردهم وتبكييتهم وإقناطهم مما علقوا بها أطماعهم الفارغة من الإغاثة والإعانة من جهته تعالى ، وتخصيص اليوم بالذكر لتهويله والإيذان بتفويتهم وقت الجوار " (٦) .

٦ - الشهاب الخفاجي :-

كشف الشهاب كغيره من المفسرين عن الأسرار واللطائف البيانية في نظم

القرآن الكريم وعني ببيان الأغراض البلاغية التي يخرج إليها النهي في البيان

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢٣٢ " .

(٢) السابق ١ / ٣٥٦ .

(٣) سورة الإسراء ، الآيتين " ٣٧ - ٣٨ " .

(٤) السابق ٣ / ٤٤٩ .

(٥) سورة المؤمنون ، الآية " ٦٥ " .

(٦) المصدر السابق ٤ / ٧٤ .

القرآني إهداءً بالسياق وقرائن الأحوال منها التهكم والاستهزاء كما في قوله تعالى : { فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } (١) يقول الشهاب " وقوله فتهم الخ " أي شنع عليهم بجمعهم بأن يجعلوا أنداداً لمن لاندله ولا ضد كما في الكشاف " (٢)

والاستهزاء أيضاً نحو قوله تعالى { فَلَمَّا أَحْسَبُوا بِأَسْنَانِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ، لَاتَرْكُضُوا وَأَرْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ } (٣) يقول الشهاب " قيل ولا يظهر للاستهزاء وجه إذا كان بلسان الحال ولا مانع من فرض القول على طريق الاستهزاء بهم فتأمل " (٤).

والإلهاب والتهبيج كما في قوله تعالى { إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُعْتَرِينَ } (٥) يقول الشهاب " التهبيج : الاثارة يقال هيجه وهاجه وهو كقوله " ولا تكونن من المشركين " وفائدته أنه إذا سمع صلى الله عليه وسلم مثل هذا الخطاب حرك أريحيته فكان يقينه نوراً على نور وغيره إذا سمعه ينزجر لأنه صلى الله عليه وسلم مع جلالته إذا خوطب به فماظنك بغيره .. " (٦)

ونظيره قوله تعالى { وَلَا تَطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً } (٧) يقول الشهاب " وقوله تهبيج الخ لأنه لم يطعمهم حتى ينتهي أو هو لامته " (٨)

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢٢ " .

(٢) حاشية الشهاب ٢٥/٢ وما بعدها .

(٣) سورة الأنبياء ، الآيتين " ١٢ - ١٣ " .

(٤) حاشية الشهاب ٢٤٤/٦ وانظر ٣٩٦/٦ .

(٥) سورة آل عمران ، الآيتين " ٥٩ - ٦٠ " .

(٦) المصدر السابق ٣ / ٢٢ .

(٧) سورة الأحزاب ، الآية " ٤٨ " .

(٨) المصدر السابق ٧ / ١٧٧ .

٧ - شهاب الجدير الألويسي :-

على الرغم من اعتماد الألويسي في تفسيره روح المعاني على المفسرين ضم تفسيره كثيراً من الأسرار البلاغية والصور البيانية لعل من أهمها - من وجهة نظر هذه الدراسة - اشارته إلى بعض المعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب النهي في القرآن الكريم .

منها النصح نحو قوله تعالى { .. وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ } (١) .

يقول الألويسي " .. وما ذكرنا أن القول على سبيل النصح في هذا الوجه هو الظاهر ، وحكي المهدوي أنه على سبيل الاستهزاء لا النصيحة وهو الأنسب بحال الشياطين " (٢) .

والتيئيس والإقنات نحو قوله عز وجل { حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَارُونَ . لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنْ أُمَّةٍ لَا تَنْصُرُونَ } (٣) يقول الألويسي " لا تجاروا اليوم " على تقدير القول أي قلنا لهم ذلك ، والكلام استئناف مسوق لبيان إقناتهم وعدم انتفاعهم بجوارهم ، والمراد باليوم الوقت الحاضر الذي اعتراهم فيه ما اعتراهم ، والتقيد بذلك لزيادة إقناتهم والمبالغة في إفادة عدم نفع جوارهم " (٤) .

والإرشاد نحو قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام { يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَبْتَأْسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } (٥) يقول الألويسي " والأمر والنهي على ما قيل

(١) سورة البقرة ، الآية " ١٠٣ " .

(٢) روح المعاني ١ / ٣٤٤ .

(٣) سور { المؤمنون ، الآيتين " ٦٤ - ٦٥ " .

(٤) روح المعاني ١٨ / ٤٨ وينظر ١٨ / ٢٤٤ .

(٥) سورة يوسف ، الآية " ٨٧ " .

إرشاد لهم إلى بعض ما أبهم في قوله { وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } (١) .
والإلهاب والتهيج كما في قوله تعالى { وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ
وَدَعِ آذَانَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } (٢) يقول الألوسي " نهى عن مداراتهم في أمر
الدعوة ولين الجانب في التبليغ والمسامحة في الإنذار كنى عن ذلك بالنهى عن
طاعتهم مبالغة في النهي والتنفير عن النهي عنه بنظمها في سلكها وتصويره
بصورتها ، وحمل غير واحد النهي على التهيج والإلهاب من حيث أنه صلى الله
عليه وسلم لم يطعمهم حتى ينهي ... " (٣)

ولعلك تلحظ معي أن هذا الكلام هو كلام أبي السعود الذي نقلناه فيما سبق
نقله الألوسي بالحرف الواحد دون أن يعزوه إليه ، واكتفى بالقول " وحمل غير واحد
النهي على التهيج والإلهاب " .
٨ - صمد الطاهر بن عاشور :-

ضم تفسير الطاهر بن عاشور المسمى بالتحوير والتنوير بين دفتيه كثيراً
من الفنون البلاغية . بيد أن الذي يهمننا حديثه عن الأغراض البلاغية التي يخرج
إليها النهي في البيان القرآني إهداءً بالسياق وخصائص التراكيب وقرائن
الأحوال .

فقد أشار في أكثر من موضع إلى بعض معاني النهي البلاغية منها التعجيز
كما في قوله تعالى : { قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ } (٤) يقول
الطاهر " الأمر والنهي في قوله " كيدون فلا تنظرون " للتعجيز (٥) وهذا التوجيه

(١) سورة يوسف ، الآية " ٨ " وانظر السابق ٤٤/١٣ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية " ٤٨ " .

(٣) روح المعاني ٢٢ / ٤٦ .

(٤) سورة الأعراف ، الآية " ١٩٥ " .

(٥) التحوير والتنوير ٩ / ٢٢٣ .

البلاغي بعيد يأباه السياق ، لأن التعجيز هو الطلب بما لا يقدر عليه المخاطب ليظهر عجزه " (١) فالمطلوب في هذه الآية مما يقدر عليه المخاطب يمكن وقوعه منه ، فالأمر والنهي للتحدي والتبكيث وإلقام الحجر كما نص عليه المفسرون " (٢) .
والتهديد نحو قوله تعالى [قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ، إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ] (٣) يقول : "والا تعلوا على " نهي مستعمل في التهديد ولذلك أتبعته ملكة سباً بقولها [يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي] (٤) .

والتسوية كما في قوله تعالى [اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ] (٥) يقول الطاهر ((وإما أن تكون صيغة النهي استعملت لمعنى التسوية لأنها قارنت الأمر الدال على إرادة التسوية ويكون المعنى : أمرك بالاستغفار لهم ونهيك عنه سواء ...)) (٦) .

والإباحة نحو قوله تعالى [وَلَا تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُنْفِسِينَ] (٧) يقول الطاهر بن عاشور معلقاً على هذه الآية " والنهي في " ولا تنس نصيبك " مستعمل في الإباحة " (٨) .

(١) انظر شروح التلخيص ٣١٥/٢ والأساليب الانشائية ص ٢٨ وأساليب بلاغية ص ١١٣ .

(٢) راجع الكشاف ١٣٨/٢ والبحر المحيط ٤٤٥/٤ وتفسير أبي السعود ٤٥٥/٢ وروح المعاني ١٤٥/٩ وفي ظلال القرآن المجلد الثالث ص ١٤١٥ .

(٣) سورة النمل، الآيتين " ٢٩ - ٣١ " .

(٤) التحرير والتنوير ١٩ / ٢٦٢ .

(٥) سورة التوبة ، الآية " ٨ " .

(٦) التحرير والتنوير ١٠ / ٢٧٨ .

(٧) سورة القصص ، الآية " ٧٧ " .

(٨) التحرير والتنوير ٢٠ / ١٧٩ .

والدوام نحو قوله تعالى { وَلَا تَطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ آذَانَهُمْ
وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا } (١) يقول " والنهي مستعمل في معنى
الدوام على الانتهاء" (٢) .

والإرشاد كما في قوله تعالى { يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ
وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } (٣) يقول الطاهر " فالنهي
عن السرف نهي إرشاد لا نهي تحريم بقريئة الإباحة اللاحقة في قوله " قل من حرم
زينة الله - إلى قوله - والطيبات من الرزق .. ولأن مقدار الاسراف لا ينضبط
فلا يتعلق به التكليف ولكن يوكل إلى تدبير مصالحهم ، وهذا راجع إلى معنى القسط
الواقع في قوله سابقاً " قل أمر ربي بالقسط" فإن ترك السرف من معنى العدل " (٤)
بهذا يتضح لنا أن للمفسرين أثراً كبيراً في تطور المباحث البلاغية وتأصيل
قواعدها وإرساء دعائمها بصفة عامة ، وجهداً بارزاً في تطور البحث البلاغي
لأسلوب النهي بصفة خاصة .

كما يتضح أن للزمخشري جهداً كبيراً وسبقاً جليلاً وأثراً خطيراً فيمن جاء
بعده من المفسرين .

ثالثاً : منهج الأصوليين :-

للأصوليين أثر بارز لا يقل شأناً عن أثر المفسرين والبلاغيين على حد سواء ،
فهناك قضايا كثيرة تناولها البلاغيون والأصوليون أهمها الدلالة وأقسامها .
والخبر والانشاء والحقيقة والمجاز والعموم والخصوص والإطلاق والتقييد وغير ذلك
، فالصلة بين علمي الأصول والبلاغة قوية وقد وضع السبكي هذه الصلة وهذا
التقارب بين العلمين بقوله " وأعلم أنني مزجت قواعد هذا العلم بقواعد الأصول

(١) سورة الأحزاب ، الآية " ٤٨ " .

(٢) المصدر السابق ٢٢ / ٥٨ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية " ٣١ " .

(٤) التحرير والتنوير القسم الثاني من الجزء الثامن ص ٩٥ .

والعربية " (١) ويقول في موضع آخر " وأعلم أن علمي أصول الفقه والمعاني في غاية التداخل فإن الخبر والإنشاء اللذين يتكلم فيهما المعاني هما موضوع غالب الأصول " (٢) .

وهناك عدد كبير من أعلام البلاغة كانت لهم قدم راسخة في علم أصول الفقه كالسبكي والرازي والسعد والسيد الشريف الجرجاني وغيرهم ، مما يؤكد لنا أن من أقرب العلوم رحماً بعلم أصول الفقه علوم البلاغة " (٣) .

ومن المباحث البلاغية التي أفاض الأصوليون في الحديث عنها الأغراض البلاغية لأسلوب النهي ، وهو موضوع حديثنا في الصفحات القادمة بإذن الله .

١ - محفوظ بن أحمد الكلوذاني الحنبلي المتوفي سنة ٥١٠ هـ

أشار الكلوذاني في كتابه التمهيد إلى بعض المعاني البلاغية التي تفيدها صيغة النهي حيث يقول " احتجوا بأن هذه الصيغة ترد والمراد بها الكف عن الفعل ، وترد والمراد بها الدعاء كقوله [رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا] (٤) وترد والمراد بها التسكين كقوله تعالى [أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا] (٥) وكقوله تعالى : [لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ] (٦) وترد والمراد بها التفويض كقوله تعالى : [إِنْ سَأَلْتكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي] (٧) وترد والمراد بها التهديد كقوله لعبدته : لا تفعل اليوم شيئاً " (٨)

(١) عروس الأفراح ١ / ٢٧ .

(٢) المصدر السابق ١ / ٥٢ .

(٣) راجع دلالة الألفاظ عند الأصوليين دراسة بيانية ناقدة ص ٦ .

(٤) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٦ " .

(٥) سورة فصلت ، الآية " ٣٠ " .

(٦) سورة طه ، الآية " ٤٦ " .

(٧) سورة الكهف ، الآية " ٧٦ " .

(٨) التمهيد في أصول الفقه ١ / ٣٦١ .

٢ - فخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ :-

في دراستنا لأسلوب الأمر قلنا إن الرازي أفاض في الحديث عن المعاني البلاغية التي تفيدها صيغة الأمر بشكل لانكاد نظفر به عند سابقه ، أما النهي فلم نجده يشير إلى معانيه البلاغية سوى إشارة يسيره إلى خروج النهي إلى معنى الخبر والعكس .

ولعل السبب في ذلك كما نرى هو أن النهي يقابل الأمر ويشترك معه في كثير من المسائل لذلك قصر المؤلف البحث فيما يستقل به النهي عن الأمر تفادياً للتكرار ، وهذا مانلمسه بوضوح في كتب أصول الفقه .

يقول الرازي " تجوز إقامة النهي مقام الخبر وبالعكس :

أما الأول فكقوله عليه الصلاة والسلام " لا تُنكح اليتيمة حتى تستأمر " (١) معناه لاتنكحوها إلى غاية استئمارها .

وأما الثاني فكقوله صلى الله عليه وسلم " لاتنكح المرأة المرأة ، ولا تنكح المرأة نفسها " (٢) وكما في قوله تعالى { لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ } (٣) ووجه المجاز : أن النهي يدل على عدم الفعل ، كما أن هذا الخبر يدل على عدمه فبينهما مشابهة من هذا الوجه والله أعلم " (٤)

٢ - سيف الدين علي بن محمد الأمدي المتوفى سنة ٦٣١ هـ :-

تناول الأمدي في كتابه الإحكام في أصول الأحكام النهي وأشار إلى بعض أغراضه البلاغية قائلاً : والكلام في أن النهي على أصول أصحابنا " هل له صيغة تخصه وتدل عليه ، فعلى ما سبق في الأمر أيضاً ، وأن صيغة " لاتفعل : وإن تردت بين سبعة محامل وهي التحريم ، والكراهية ، والتحقيق كقوله تعالى :

-
- (١) الحديث في صحيح مسلم برواية أخرى " لاتنكح الأيم حتى تستأمر " صحيح مسلم كتاب النكاح ١٠٣٦/٢ ، انظر مسند أحمد بن حنبل ١٣٠/٢ .
(٢) لا وجود لهذا الحديث في كتب الحديث .
(٣) سورة الواقعة ، الآية " ٧٩ " .
(٤) المحصول ج ١ ق ٢ ص ٥٢ - ٥٤ .

{ لَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ } (١) - فالتحقير في المتعلق وليس في النهي لأن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم كما سنوضحه في موضعه إن شاء الله .

وبيان العاقبة { وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا } (٢) والدعاء كقوله " لا تكلنا إلى أنفسنا " واليأس كقوله { لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ } (٣) والإرشاد كقوله { لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ } (٤) فهي حقيقة في طلب الترك واقتضائه ومجاز فيما عداه . (٥)

٤ - علي بن عبد الكافي السبكي - المتوفى سنة ٧٥٦هـ - وولده تاج الدين المتوفى سنة ٧٧١هـ :-

في كتاب الإبهاج في شرح المنهاج عرض لبعض الصور البلاغية التي يفيدها أسلوب النهي بقوله " وصيغة النهي عند القائلين بالصيغة ترد لسبعة محامل التحريم مثل { وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ } (٦) والدعاء { رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا } (٧) والإرشاد { لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدِّلَكُمْ تَسْؤُكُمْ } (٨) وبيان العاقبة { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ } (٩) والتحقير { لَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ } (١٠) واليأس (١١) { لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ } (١٢) .

- (١) سورة الحجر ، الآية " ٨٨ " .
- (٢) سورة ابراهيم ، الآية " ٤٢ " .
- (٣) سورة التحريم ، الآية " ٧ " .
- (٤) سورة المائدة ، الآية " ١١٠ " .
- (٥) الإحكام في أصول الأحكام ٢ / ٤٨ .
- (٦) سورة الأنعام ، الآية " ١٥١ " .
- (٧) سورة آل عمران ، الآية " ٨ " .
- (٨) سورة المائدة ، الآية " ١٠١ " .
- (٩) سورة آل عمران ، الآية " ١٦٩ " .
- (١٠) سورة الحجر ، الآية " ٨٨ " .
- (١١) سورة التحريم ، الآية " ٧ " .
- (١٢) الإبهاج في شرح المنهاج ٢ / ٦٦ وما بعدها .

٥ - علماء الدين أبو الحسن المحروفي بابن اللحام المتوفى سنة ٨٠٣ هـ :

عرض ابن اللحام في كتابه المختصر في أصول الفقه لبعض المعاني البلاغية التي تستفاد من صيغة النهي بمعونة القرائن ودلالة السياق ، ونص على أن صيغة النهي وإن احتملت هذه المعاني فهي حقيقة في طلب الامتناع حيث يقول " وصيغة " لاتفعل " وإن احتملت تحقيراً كقوله { لَا تَعْدَنَّ عَيْنَيْكَ } (١) وبيان العاقبة { وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا } (٢) والدعاء { لَا تَوَاضِعْنَا } (٣) واليأس { لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ } (٤) والإرشاد { لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ } (٥) فهي حقيقة في طلب الامتناع " (٦)

٦ - ابن بدران الدمشقي المتوفى سنة ١٣٤٦ هـ :-

اهتم ابن بدران الدمشقي في كتابه المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ببيان المعاني البلاغية التي تستفاد من صيغة النهي بدلالة السياق ومقتضيات التراكيب حيث يقول (ترد صيغة [النهي] (٧) للتحريم نحو { لا تقتلوا } والكراهة ، والتحقير نحو { لَا تَعْدَنَّ عَيْنَيْكَ } (١) وبيان العاقبة { وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا } (٢) .

والدعاء { لَا تَوَاضِعْنَا } (٨) وللأدب { وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ } (٩)

وللتهديد " لا تمتثل أمري وإباحة الترك كالنهي بعد الإيجاب على رأي، وللالتماس

(١) سورة الحجر ، الآية " ٢٨ " .

(٢) سورة ابراهيم ، الآية " ٤٢ " .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٦ " .

(٤) سورة التحريم ، الآية " ٧ " .

(٥) سورة المائدة ، الآية " ١٠١ " .

(٦) المختصر في أصول الفقه " ١٠٣ " .

(٧) ما بين المعقوفتين زيادة مني ففي المطبوعة قوله " الأمر " ويبدو أن هذا سهو

بدليل أن المؤلف يتحدث عن المعاني التي تفيدها صيغة النهي .

(٨) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٦ " .

(٩) سورة البقرة ، الآية " ٢٣٧ " .

كقولك لنظيرك " لاتفعل " وللتصير " لاتحزن " وإيقاع الأمن " لاتخف " وللتسوية [نَاصِبِرُوا أَوْ لَاتَصْبِرُوا] (١) فإن تجردت صيغة [النهي] عن ذلك فالمختار أنها للتحريم " (٢) وبهذا يتضح لنا أن للأصوليين إسهاماً كبيراً في نمو المباحث البلاغية وجهداً موفوراً مباركاً أسهم في دفع عجلة البلاغة إلى الإمام ، وإرساء قواعدها وتطورها ، وإن أخذ بعضهم عن بعض .
رابعاً ، منهج علماء البلاغة والإعجاز :-

كانت مباحث البلاغة مفرقة في كتب السابقين ثم أخذت تستقل شيئاً فشيئاً حتى كتب لها الازدهار والنضج على أيدي طائفتين من العلماء - هما طائفة البلاغيين وطائفة علماء الإعجاز فأصبحت علماً مستقلاً بذاته يختص به أربابه ويهتم به رجاله .

وقد عني البلاغيون بدراسة النهي وبيان أغراضه البلاغية إهداءً بالسياق

والمقام

١ - السكاكي :-

عني السكاكي بدراسة الأساليب الطلبية وما يتولد عنها من معان ثانوية بمعونة القرائن والسياق ومايعنيها هنا إشارته إلى بعض المعاني البلاغية التي تفيدها صيغة النهي كالدعاء والالتماس والإباحة والتهديد ، يقول السكاكي « للنهي حرف واحد وهو لا الجازم في قولك « لاتفعل » والنهي محذو به حذو الأمر في أن أصل استعمال " لاتفعل " أن يكون على سبيل الاستعلاء بالشروط المذكور فإن صادف ذلك أفاد الوجوب وإلا أفاد طلب الترك فحسب ، ثم إن استعمل على سبيل التضرع كقول المبتهل إلى الله " لا تكلني إلى نفسي " سمي دعاء ، وإن استعمل في حق المساوي الرتبة لا على سبيل الاستعلاء سمي إلتماساً ، وإن استعمل في حق المستأذن سمي إباحة ، وإن استعمل في مقام تسخط الترك سمي تهديداً " (٣) .

(١) سورة الطور ، الآية " ١٦ " .

(٢) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ١٠٦ وما بعدها .

(٣) مفتاح العلوم ص ١٥٢ - ١٥٣ .

لم يحظ النهي بما حظي به الامر لدى الخطيب القزويني ، فلم يتوسع فيه
توسعه في الامر واكتفى بالاشارة إلى أنه قد يخرج ويستعمل في غير الكف
كالتهديد وساق عليه مثلاً مصنوعاً ((وقد يستعمل في غير طلب الكف أو الترك
كالتهديد كقولك لعبد لايمتثل أمرك)) (لا تمتثل أمري)) (١)

أما أصحاب الشروح والحواشي فقد أضافوا في دراستهم للنهي بعض المعاني
البلاغية التي أغفلها القزويني . (٢)

حيث ذكر بهاء الدين السبكي صاحب عروس الأفراح على تلخيص المفتاح
عدداً من المعاني البلاغية يقول " وقد تخرج صيغة ((لا تفعل)) عن حقيقتها
فتستعمل مجازاً في أحد أمور منها : الكراهة وهو كثير ، ومنها التهديد كقولك لمن
لا يمتثل أمرك ((لا تمتثل أمري)) ومنها الاباحة وذلك في النهي بعد الإيجاب ،
..ومنها بيان العاقبة [ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون] (٣) أي عاقبة
الظلم العذاب لا الغفلة ...ومنها الدعاء نحو [رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا] (٤) ومنها
الالتماس كقولك لنظيرك ((لا تفعل هذا ، ... ومنها اليأس كقوله تعالى [لَا
تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ] (٥) ومنها الإرشاد كقوله تعالى [لَا تَسْأَلُوا
عَنْ أَشْيَاءَ إِنَّ تَبَدَّلَكُمْ تَسْوِكُمْ] (٦) ... والتسوية مثل [اصْبِرُوا أَوْ
لَا تَصْبِرُوا] (٧) ومنها الإهانة مثل [إِخْسَاؤُا فِيهَا وَلَا تَكْلَمُونَ] (٨) ومنها
التمني نحو قولك لا ترحل أيها الشباب ، ومنها الامتنان نحو (ولا تأكلوا) .

(١) الايضاح ٢٤٤/١ وراجع المجاز في اللغة والقرآن ٤١٢/١ .

(٢) انظر شروح التلخيص ٢٢٤/٢ - ٢٢٧ والمطول وحاشية السيد على المطول
ص ٢٤٢ والأطول ٢٤٩/١ وتجريد البناني ٢٢-٢٣ وتقرير الشمس ١٧٩/٣ .

(٣) سورة ابراهيم ، الآية " ٤٢ " .

(٤) سورة آل عمران ، الآية " ٨ " .

(٥) سورة التوبة ، الآية " ٦٦ " .

(٦) سورة المائدة ، الآية " ١.١ " .

(٧) سورة الطور ، الآية " ١٦ " .

(٨) سورة المؤمنون ، الآية " ١.٨ " .

ومنها الاحتقار والتقليل كقوله تعالى [لَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ] (١) فهو احتقار

للدنيا (٢).

هذا ما يتصل بجهد البلاغيين وهو جهد مشكور ، أما علماء الإعجاز فقد أسهموا بنصيب وافر في دراسة النهي والإشارة إلى أغراضه ومراميه البلاغية وبخاصة المتأخرين منهم ، أما المتقدمون من أمثال الخطابي والرماني والجرجاني فلا يكاد الباحث يعثر على إشارة - لا من قريب أو بعيد - تدل على أنهم تنبهوا إلى خروج النهي عن دلالة الأصلية إلى معان ثانوية تفهم من السياق بمعونة القرائن وأحوال التراكيب .

أما المتأخرون منهم مثل الزملكاني والزرکشي والسيوطي فقد أشاروا إلى المعاني البلاغية لأسلوب النهي ، وهذا ما ستفصح عنه السطور القادمة بإذن الله .

١ - الزملكاني :-

لم يشر الزملكاني إلى معاني النهي البلاغية في كتابه البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن لكنه أشار إلى خروج الخبر إلى معنى النهي حيث يقول ((ومما جاء نهياً وهو في صورة الخبر قوله تعالى [لَا تَظْلَمُونَ وَلَا تُظَلَمُونَ] (٣) إذ قد ظلموا وظلموا ، وكذا قوله تعالى [وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ] (٤) أي لاتنفقوا إلا ابتغاء وجه الله . (٥)

٢ - الزركشي :-

ضم كتاب البرهان في علوم القرآن للزرکشي كثيراً من الفنون البلاغية واللطائف البيانية في البيان القرآني .

(١) سورة الحجر ، الآية " ٨٨ " .

(٢) عروس الأفراح ٢/٣٢٥ - ٣٢٧ .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٧٩ " .

(٤) سورة البقرة ، الآية " ٢٧٢ " .

(٥) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ص ٣٠٤ .

وفي وجوه المخاطبات ذكر الزركشي بعض المعاني البلاغية التي يخرج إليها النهي في القرآن الكريم منها خطاب الذم نحو قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ } (١)

وقد جعل كثير من البلاغيين والأصوليين النهي في هذه الآية لليأس (٢) ، وهو أولى بالصواب .

ومنها خطاب الإهانة نحو قوله تعالى : { قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ } (٣)

ومثل لخطاب التنفير بقوله { وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ } (٤)

وفي خطاب التحنن والاستعطاف بقوله تعالى { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ } (٥)

وفي أقسام معنى الكلام أشار الزركشي إلى خروج الخبر والاستفهام إلى معنى النهي . (٦)

٢ - السيوطي :-

أشار جلال الدين السيوطي في كثير من مؤلفاته البلاغية إلى خروج النهي عن دلالاته الأصلية إلى معان ثانوية تفهم من السياق بمعونة القرائن والمقام .

فذكر وجوه الخطاب في القرآن الكريم في كل من الاتقان ومعتك الأقران

-
- (١) التحريم " ٧ " والبرهان في علوم القرآن ٢/ ٢٣٠ .
 - (٢) انظر شروح التلخيص ٢/ ٢٢٧ ومعتك الأقران ١/ ٤٤٤ والاتقان ٣/ ٢٤٤ .
 - (٣) سورة المؤمنون ، الآية " ١٠٨ " وانظر البرهان في علوم القرآن ٢/ ٢٣١ .
 - (٤) سورة الحجرات ، الآية " ١٢ " وانظر البرهان في علوم القرآن ٢ / ٢٤٩ وما بعدها .
 - (٥) سورة الزمر ، الآية " ٥٣ " وانظر المصدر السابق ٢ / ٢٥٠ .
 - (٦) انظر المصدر السابق ٢/ ٢٢١ ، ٢/ ٢٣٩ .

نعرض لما جاء منها عن طريق النهي منها خطاب الذم نحو قوله تعالى { يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم } (١) وخطاب الإهانة نحو قوله تعالى { إخسأوا فيها ولا تكلمون } (٢) ولعلك تلاحظ أن السيوطي في وجوه المخاطبات لم يقدم جديداً وإنما كان ناقلاً عن العلماء وبخاصة الزركشي . كما تناول الأساليب الإنشائية وأشار إلى معانيها البلاغية ، منها النهي حيث عرفه بقوله * هو طلب الكف عن فعل ، وصيغته ((لا تفعل ، وهي حقيقة في التحريم)) (٣) وأشار إلى بعض المعاني البلاغية التي تخرج إليها هذه الصيغة قائلاً ((وترد مجازاً لمعان منها :

الكرهة نحو { وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا } (٤)

والدعاء نحو { رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا } (٥)

والإرشاد نحو { لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدِّلَكُمْ تَسْؤُكُمْ } (٦)

والتسوية نحو { فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا } (٧)

والاحتقار والتقليل نحو { وَلَا تَعْدَنَّ عَيْنَيْكَ ... } (٨) الآية أي فهو قليل

حقير - ويبدو أن التحقير والتقليل مستفاد من المتعلق لا من النهي ، والخطاب موجه للرسول صلى الله عليه وسلم .

وبيان العاقبة نحو { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً

بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ } (٩) أي عاقبة الجهاد الحياة لا الموت .

(١) التحريم " ٧ " وانظر الاتقان ١٠٠/٣ ، ومعتك الأقران ٢٣٢/١ .

(٢) المؤمنون " ١٠٨ " وانظر الاتقان ١٠٠/٣ ، ومعتك الأقران ٢٣٢/١ .

(٣) انظر الاتقان ٢٤٣/٣ ومعتك الأقران ٤٤٣/١ .

(٤) سورة الإسراء ، الآية " ٣٧ " .

(٥) سورة آل عمران ، الآية " ٨ " .

(٦) سورة المائدة ، الآية " ١٠١ " .

(٧) سورة الطور ، الآية " ١٦ " .

(٨) سورة الحجر ، الآية " ٨٨ " .

(٩) سورة آل عمران ، الآية " ١٦٩ " .

والياس نحو [لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ] (١)

والإهانة نحو (٢) [اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا] (٣)

فما قدمه السيوطي في النهي لا يخرج عما ذكره البلاغيون المتأخرون ،
واستقر عليه البحث في مؤلفاتهم ، فهو امتداد للمدرسة البلاغية التي نسجت على
منوال السكاكي والقزويني .

(١) سورة التحريم ، الآية " ٧ " .

(٢) انظر الاتقان ٢٤٣/٣ وما بعدها ومعتك الأقران ٤٤٣/١ وما بعدها .

(٣) سورة المؤمنون ، الآية " ١٠٨ " .

الفصل الثاني

أساليب النهج في القرآن الكريم

و

أسرارها البلاغية

النصح والإرشاد

شاع الإرشاد كمعنى بلاغي عند الأصوليين والبلاغيين على السواء (١) ، أما النصح فلم يظهر إلا لدى المعاصرين مقترناً بالإرشاد (٢) وقد عرفه بعضهم بقوله ((النصح والإرشاد هو الطلب الذي لا إلزام فيه وإنما النصيحة الخالصة)) (٣) وليس هذا التعريف جامعاً مانعاً .

وأسلوب النصح والإرشاد في القرآن الكريم جاء بأساليب متنوعة منها النهي نتناول الآن بعض شواهده :-
إبراهيم عليه السلام مع أبيه :-

أفاد النهي معنى النصح والإرشاد في القرآن الكريم على لسان إبراهيم الخليل يعظ أباه وينصحه بالابتعاد عن الشرك قال تعالى [... يَا أَبَتِ إِنَّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا] (٤) .

أشار كثير من المفسرين إلى أن النهي في قوله ((لاتعبد)) للنصح والإرشاد (٥) ، والسياق يوضح أدب إبراهيم عليه السلام وتواضعه وإخلاص النصيحة لأبيه خوفاً وإشفاقاً عليه من العذاب حيث صدر هذه النصيحة بقوله [ياأبت] توسلاً إليه وإستعطافاً له ليصل به إلى طريق الهداية والإيمان ، ففي إعادة ندائه بوصف الأبوه تأكيد لإحضار الذهن وإمحاض النصيحة ، والمراد بعبادة

-
- (١) انظر عروس الأفراح ٢٢٧/٢ والإتقان ٢٤٣/٣ ومعتك الأقران ٤٤٢/١ والأحكام في أصول الأحكام ٤٨/٢ والإبهاج في شرح المنهاج ٦٦/٢ .
 - (٢) انظر اساليب بلاغية ص ١١٧ وعلم المعاني درويش الجندي ص ٤١ ومن بلاغة النظم العربي ٩١/٢ .
 - (٣) أساليب بلاغية ص ١١٢ .
 - (٤) سورة مريم ، الآيتين " ٤٣ - ٤٤ " .
 - (٥) انظر تفسير الطبري ٦٨/٨٦ والكشاف ٥١١/٢ والتفسير الكبير ٢٢٦/٢١ .

الشیطان عبادة الأصنام ، عبر عنها بعبادة الشيطان إفصاحاً عن فسادها وضلالها لأن

الشیطان عبادة الأصنام ، عبر عنها بعبادة الشیطان إفصاحاً عن فسادها وضلالها لأن نسبة الضلال والفساد إلى الشیطان مقررة في نفوس البشر ولكن الذين يتبعونه لا يفتنون إلى حالهم ويتبعون وساوسه تحت ستار التمويه ، ففي الكلام إيجاز بليغ لأن معناه لا تعبد الأصنام لأن إتخاذها من تسويل الشیطان وكفى بذلك ضلالاً .

وجملة { إن الشیطان كان للرحمن عصياً } لتعليل النهي السابق ، كما أن في إظهار اسم الشیطان في مقام الإضمار إذ لم يقل إنه كان للرحمن عصياً لزيادة التنفير من الشیطان وتقبيحاً له ، وفي التعبير بوصفه عصياً الذي هو من صيغ المبالغة مع زيادة فعل الكون ((كان)) للدلالة على أنه لا يفارق عصيان ربه وأنه متمكن منه ، فمن كانت هذه حاله فهو جدير بأن لا يتبع وفي هذا مزيد من التنفير والتقبيح والذم للشیطان الرجيم . (١)

لقمان وابنه :-

ورد النصح والإرشاد في القرآن على لسان لقمان ينصح ابنه ويعظه بنصيحة جامعة تشتمل على أصول الدين وعلى الآداب الرفيعة التي دعا القرآن إلى اتباعها والتمسك بها قال تعالى { وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } (٢)

يفصح السياق عن حرص لقمان على هداية ابنه وإصلاح أمره حيث استمر في وعظه وإرشاده إلى الخير بالاقلاع عن الشرك والالتزام بمكارم الأخلاق وقد جمع له في هذه النصيحة الإرشاد إلى فعل الخير وبثه في الناس والنهي عن المنكر بجميع صورته وأشكاله (٢) ، حيث صدر هذه النصيحة بما ينبىء عن شديد الإشفاق

(١) انظر التحرير والتنوير ١١٦/١٦ .

(٢) سورة لقمان، الآية ١٣ .

(٣) انظر التحرير والتنوير ٢١ / ١٦٥ .

والترفق والاستعطاف بقوله ((يا بني)) بالتصغير فهو تصغير إشفاق ومحبة لا تصغير تحقير ، لأن التحقير ينافي مقام الوعظ الذي يستلزم التذكير بكل ما يرق له القلب من خير . (١)

وبعد هذا النداء ابتداء لقمان موعظة إبنه بالاقلاع عن الشرك بقوله : { لا تشرك بالله } ثم عله بقوله : { إن الشرك لظلم عظيم } تهويلاً لأمر الشرك وتفضيلاً له لكونه ظلماً لما فيه من وضع الشيء في غير موضعه ، وفي وصف الظلم بقوله ((عظيم)) لزيادة التنفير لما فيه من التسوية بين من لا نعمة إلا منه سبحانه ومن لانعمة له البتة . (٢)
يعقوب عليه السلام وأولاده :-

ورد النصح والإرشاد على لسان يعقوب عليه السلام يرشد أبناءه وينصحهم ويعظهم بعدم اليأس من روح الله رغبة منه في مواصلة بحثهم عن إبنه يوسف وأخيه اللذين فقدهما ، قال تعالى { يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } (٣) .

فألهمي في قوله { لا تئسوا } مستعمل في النصح والإرشاد ، أي لاتقنطوا من فرجه وتنفيسه ، وقد أشار إلى هذا أبو السعود وتابعه الألوسي قائلاً ((وهذا إرشاد إلى بعض ما أبهم في قوله : { وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } (٤) ثم حذرهم عن ترك العمل بموجب نهيهِ { إنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون } لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته فإن العارف لا يقنط في حال من الأحوال أو تأكيداً لما يعلمونه من ذلك (٥) ، وذمماً وتجهيلاً للكافرين لكون اليأس والقنوط من

(١) انظر تفسير أبي السعود ٢٧٦/٤ وروح المعاني ٨٤/٢١ ووجوه المخاطبات في القرآن ص ٢٠١ .

(٢) انظر الكشاف ٢٣١/٣ وروح المعاني ٨٥/٢١ والتحرير والتنوير ١٥٥/٢١ .

(٣) سورة يوسف ، الآية ٨٧ .

(٤) سورة يوسف ، الآية ٨٦ .

(٥) انظر تفسير أبي السعود ١٨٢/٣ وروح المعاني ٤٤/١٣ .

رحمة الله لا يصدر إلا منهم ، وهذه الجملة واقعة موقع التعليل للنهي السابق { لا تينسوا من روح الله } .

قارون وقومه :-

ورد النصح والإرشاد في قوله تعالى خطاباً لقارون [٠٠ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ] (١)

توضح هذه الآيات قصة أحد المفسدين في الأرض بتطاوله على الناس وإعراضه عن الحق وعن كل صوت يحاول أن يرده عن الفساد ويلزمه الصراط المستقيم فكانت عاقبته كما ذكر القرآن أن خسف الله به وبداره الأرض .

وهذه الآيات تسوق طرفاً من النصائح والمواعظ التي خوطب بها قارون حيث وجد على الرغم من بغيه من يقدم له النصيحة والموعظة والإرشاد ، وهذه النصيحة التي يحكيها القرآن على لسان ناصحيه تتضمن منهج القرآن السوي الذي يجب أن يلتزم به ذوو اليسار من المؤمنين .

{ لا تفرح } لا تبطر ، فالفرح بالمال إذا استولى على القلب أنساه شكر المنعم به ودفعه إلى البغي على الناس والتطاول عليهم ، فالفرح بالمال في الدنيا مذموم لأنه نتيجة حبها والرضا بها والذهول والغفلة عن ذهابها ، فهو عارية مستردة لا يبقى منه إلا ما أدخره الانسان عند ربه ، ولو تذكر الغني ذلك لشعر بتبعة النعمة وعمل على أداء حقها لينجو من تبعاتها ، وينبغي أن يكون شعور المؤمن هكذا .

وجملة " إن الله لا يحب الفرحين " بيان لعلة نهيه عن الفرح لأنه يحول بينه وبين محبة الله له ، ويلاحظ ما في التعبير من تأكيد اقتضاه حرص الناصحين على هدايته . { وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا } وهذه

(١) سورة القصص ، الآية " ٧٦ - ٧٧ " .

النصيحة هي جماع المنهج الإسلامي في إنفاق المال وسياسة النفوس ،
ونلاحظ ما في التعبير من خصائص بيانية ، حيث صاغوا في نصيحتهم له ثلاثة
معان أساسية أحدها تذكير قارون بأن كل ما يملكه إنما هو من عند الله { أتاك الله }
وثانيها أن يراقب الله في ماله ، وذكره بأن ما ينفقه مدخر له سيجده في الدار
الآخرة ، وثالثها ألا يظن ، أنهم يريدون له الانصراف عن الدنيا بل يطلبون منه في
صورة الأمر ألا ينسى نصيبه من الدنيا ، ولما كانت الدار الآخرة هي المستقر
والحيوان عبر في جانبها بقوله : { وابتغ } أي ليكن هدفك وبغيتك الآخرة ، وعبر في
جانب الدنيا بقوله : { ولاتنس } أي لاترك ترك المنسي فمن حقه أن تستمتع بما
فيها ولأن ترك الدنيا كلية ليس من متطلبات الإيمان .

ثم أنظر إلى جمال هذه المقابلة اللطيفة بين الآخرة والدنيا وما فيها من
إبراز لهذه المعاني المتقابلة تمكينا لها من النفس .
{ ولا تبغ الفساد في الأرض } نهى له عما كان عليه من الظلم والبغي
والفساد ، ويقول الرازي ((قيل إن هذا القائل هو موسى عليه السلام وقال آخرون
: بل مؤمنو قومه ، وكيف كان ذلك فقد جمع في هذا الوعظ ما لو قبل به ما لم يكن
عليه مزيد ، لكنه أبى أن يقبل هذه النصيحة وزاد عليه بكفر النعمة فقال { إنما
أوتيته على علم عندي } (١) .

فالنهي في قوله { لاتفرح } و { لاتنس } و { لا تبغ } للنصح والإرشاد
والموعظة بدلالة السياق والمقام وخصائص التراكيب .

(١) سورة القصص ، الآية " ٧٨ " وانظر التفسير الكبير ١٦/٢٥ وما بعدها وتفسير
أبي السعود ٢١٩/٤ وفي ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٧١١ ، وأسلوب الدعوة
القرآنية ص ٢٢٧ - ٢٢٩ وأسلوب المحاوره ص ٢٠٠ . ٢٠١ .

ورد النصح والإرشاد في كثير من النواهي القرآنية المتعلقة بالآداب والأخلاق والوصايا من ذلك قوله [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ] (١) .

أشار كثير من البلاغيين والأصوليين إلى أن النهي في قوله [لاتسألوا] للإرشاد(٢) فهذا نهى للمسلمين عن سؤال الرسول صلى الله عليه وسلم عن أمور ليست من الدين وجملة [إن تبدلكم تسؤكم] صفة لأشياء أي لاتكثروا مسألة الرسول عن تكاليف شاقة عليكم إن أفتاكم بها وكلفكم إياها تفمكم وتشق عليكم وتندموا على السؤال عنها . (٣)

ومنه قوله تعالى خطاباً للمؤمنين : [كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ] (٤)

يبدو أن النهي في قوله : [لاتسرفوا] للنصح والإرشاد والتحذير من الإسراف والتبذير حيث علله بقوله [إنه لا يحب المسرفين] وفي هذا يقول بعض المفسرين ((وهذا إدماج للنهي عن الإسراف وهو نهى إرشاد وإصلاح أي لا تسرفوا في الأكل)) (٥)

(١) سورة المائدة ، الآية " ١٠١ " .

(٢) انظر عروس الأفراح ٢/٣٢٧ و الاتقان ٣/٢٤٤ ومعتك الأقران ٨/٤٤٣ والأساليب الانشائية ص ٦٨ وبلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٩١ والمعاني الثانية في الأسلوب القرآني ص ١٠٧ والابهاج في شرح المنهاج ٢/٦٦ والاحكام في أصول الأحكام ٢/٤٨ والمختصر في أصول الفقه ص ١٠٣ .

(٣) انظر الكشاف ٨/٦٤٨ وتفسير أبي السعود ٢/١٢٩ والتحرير والتنوير ٧/٦٥ .

(٤) سورة الأنعام ، الآية " ١٤١ " .

(٥) التحرير والتنوير ٨ / ١٢٣ .

ونظيره قوله تعالى { يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } (١) يقول الطاهر بن عاشور :
النهي عن الاسراف نهى إرشاد لا نهى تحريم بقريظة الإباحة اللاحقة في قوله - قل
من حرم زينة الله إلى قوله - والطيبات من الرزق . (٢)

وفي القرآن نواه حقيقية تكليفية تشي بالنصح والإرشاد أو التوجيه أو
التحذير منها قوله تعالى : { وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ
سَبِيلًا } (٣) وقوله تعالى : { وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ
تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ } (٤) وقوله : { لَا تَجْعَلُوا دَعَاءَ الرَّسُولِ
كَدَعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا } (٥) وقوله تعالى : { وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى
وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } (٦)
وغير ذلك كثير وواضح أن الإرشاد قد يكون معنى ثانوياً بجانب المعنى الحقيقي كما
مثل كثير من العلماء (٧) بقول الله تعالى : { وَلِيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا
يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ .. } (٨) فالنهي في هذه الآية الكريمة نهى
حقيقي تكليفي ، والإرشاد معنى ثانوي أفاده السياق كما هو واضح من نظم الآية
الكريمة . والله أعلم .

(١) سورة الأعراف ، الآية " ٣١ " .

(٢) التحرير والتنوير القسم الثاني من الجزء الثامن ص ٩٥ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية " ١١٠ " .

(٤) سورة الحجرات ، الآية " ٢ " .

(٥) سورة النور ، الآية " ٦٣ " .

(٦) سورة المائدة ، الآية " ١٢ " .

(٧) انظر عروس الأفراح ٢/٣٢٧ وأساليب بلاغية ص ١١٧ .

(٨) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٢ " .

الرجاء

الرجاء لون من الألوان البلاغية التي يفيدها أسلوب النهي في القرآن الكريم ، وقد جاء على ألسنة الشخصيات في سياق بعض المحاورات القرآنية التي حفل بها القرآن الكريم نعرض لبعضها في السطور التالية :

لوط عليه السلام وقومه .-

ورد الرجاء عن طريق النهي في القرآن على لسان نبي الله لوط عليه السلام خطاباً لقومه قال تعالى : [وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تَخْزُونِ] (١) وقوله تعالى : [وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي الْيَسَرَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ] (٢)

تبين هذه الآيات الكريمات حال الكرب والخوف الذي سيطر على لوط عليه السلام لخوفه من العار والفضيحة فراح يرجوا قومه أن لا يخزوه في ضيفه مستثيراً فيهم النخوة والحياء مذكراً إياهم بتقوى الله وهو يعلم أنهم لا يتقون ، ويعلم أن هذه النفوس المريضة لم تعد فيها نخوة ولا شعور إنساني يستجاش . وفي إثارة التعبير بالفعل [فلا تفضحون] تصوير لحاله عليه السلام ، ورجاء حار أي لا تتعرضوا لهم بسوء ولا تفضحون بفضيحة ضيفي لأن من أسىء إلى ضيفه فقد أسىء إليه .

وقوله [ولا تخزون] أي لا تذلونني وتهينونني بالتعرض لمن أجرتهم بمثل هذه

الفعلة الشنيعة . (٣)

(١) سورة الحجر ، الآيتين " ٦٧ - ٦٩ " .

(٢) سورة هود ، الآية " ٧٨ " .

(٣) راجع الكشاف ٢/٣٩٥ وتفسير أبي السعود ٣/٢٢٠ والتحرير والتنوير ١٤/٦٦

وفي ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢١٤٩ .

فالنهي في قوله [لا تفضحون ، ولا تخزون] للرجاء ويصور رغبة نفسية

في المحافظة على ضيفه وعدم التعرض لهم بسوء .
صح موسى عليه السلام :-

١ - موسى في طفولته :-

أفاد النهي معنى الرجاء في الذكر الحكيم على لسان امرأة فرعون في قوله تعالى : [وَقَالَتْ إِمْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ قُرَّةَ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ] (١) .

تشير هذه الآية إلى مشهد من مشاهد قصة موسى عليه السلام وهو في المهدي صغيراً بعد أن أُلقت به أمه في اليم ، مشهد نسجته يد القدرة الالهية حيث حمته من فرعون بالمحبة لا بالسلاح والجاه ، حمته بالحب الحاني في قلب امرأة فرعون وتحدثت به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره ، وهان فرعون على الله أن يحمي هذا الطفل الضعيف على يد امرأته . (٢)

وافتتحت امرأة فرعون خطابها بكلام جامع بليغ تسعى من خلاله إلى إثارة عاطفة الأبوة والرحمة والشفقة في قلب فرعون بقولها : [قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا] فالنهي في قوله : [لا تقتلوه] للرجاء والرغبة بدلالة السياق والمقام .

٢ - موسى وهارون عليهما السلام :-

ورد الرجاء في الذكر الحكيم على لسان موسى وأخيه هارون عليهما السلام دعوة لفرعون وملئه بتوجيه من الله تعالى : [قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ فَاتِيَاهُ فَنُقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبَهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ] (٣)

(١) سورة القصص ، الآية ٩٠ .

(٢) انظر في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٦٧٩ .

(٣) سورة طه ، ٤٦-٤٧ .

يكشف السياق في هذه الايات عن رغبة موسى وهارون عليهما السلام في إطلاق بني إسرائيل وحرصهما على تخليصهم من ظلم فرعون وجبروته حيث طلبا من فرعون ذلك برجاء بالغ على نحو ما ينبيء عنه قوله تعالى { فأرسل معنا بني إسرائيل } فالأمر مستعمل في الرجاء وكذلك النهي في قوله { لاتعذبهم } للرجاء بدلالة السياق وما يقتضيه المقام من قرائن وأحوال .

ونلاحظ في هذا السياق تأييد الله التام لهما بأنه معهما يسمع ويرى ، وتسلية وتشريفاً لهما عليهما السلام . (١)

داود عليه السلام والخصام :-

ورد الرجاء في قصة داود عليه السلام على لسان الملكين اللذين بعثهما الله إليه ليحكم بينهما بالعدل تعليماً وإرشاداً له عليه السلام قال تعالى : { وَهَلْ آتَاكَ نَبَأُ الْخُصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْحُرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ } (٢)

تعرض هذه الآيات قصة الابتلاء الذي ابتلى الله به داود عليه السلام حيث أرسل إليه ملكين على هيئة البشر ليحكم بينهم بالحق لكن النبي الكريم تعجل في الحكم وقضى لأحدهما دون أن يستمع لدعوى الآخر .

وهو دون ريب امتحان صعب لهذا النبي الكريم الذي ولاه الله أمور الناس ليقضى بينهم بموجب شرعه بالحق والعدل ويتبين الحق قبل إصدار الحكم فهو إرشاد وتعليم له عليه السلام . (٣)

وعلى هذا فالنهي في قوله { لا تشطط } للرجاء بمعونة القرائن وخصائص التراكيب .

(١) راجع الكشاف ٥٢٨/٢ وتفسير أبي السعود ٦٣٣/٣ .

(٢) سورة ص ، الآيتين ٢١ - ٢٢ .

(٣) انظر في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٣٠١٨ .

المنافقون والرجاء .-

أفاد النهي معنى الرجاء في القرآن على لسان المنافقين خطاباً للرسول صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : { وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ } (١) .

يقرر القرآن في هذه الآية حقيقة المنافقين وما تنطوي عليه نفوسهم المريضة من جبن وكذب عظيم باختلاق الاعتذارات الواهية .

فالتعبير بقوله ((ائذن لي ولا تفتني)) يرسم صورة واضحة عن كذب المنافقين وتهافت أذارهم وتخاذلهم عن الجهاد في سبيل الله خوفاً من الفتنة .

بمثل هذه المعاذير يعتذرون لكن القرآن رد عليهم مبيناً كذبهم موضحاً أنهم في الفتنة وقعوا ((ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين)) ففي تصدير هذه الجملة بحرف التنبيه مع تقديم الظرف إيذاناً بأنهم وقعوا فيها وهم يحسبون أنهم بمنجى من الفتنة زعماً منهم أن الفتنة إنما هي التخلف بغير إذن ، وفي التعبير عن الافتتان بالسقوط تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة المفصحة عن ترديهم في دركات الردى والهلاك .

وفي تنزيل الآية الكريمة بقوله { إن جهنم لمحيطة بالكافرين } وتأكيداً بأن واللام وعيد شديد لهم على ما فعلوا ، كما أن في التعبير بالاحاطة كناية عن عدم الإفلات فهي محيطة لهم من كل جانب ، والمراد بالكافرين إما المنافقون ، وإما جميع الكافرين فيشمل المتحدث عنهم شمولاً أولياً لثبوت نفاقهم وكفرهم . (٢)

فالنهي في قوله { لا تفتني } كما هو مستفاد من السياق للرجاء والرغبة بمعونة القرائن والمقام .

(١) سورة التوبة ، الآية " ٤٩ " .

(٢) راجع الكشاف ١٩٤/٢ وتفسير أبي السعود ٥٦١/٢ وفي ظلال القرآن المجلد

الثالث ص ١٦٦٥ وما بعدها والتحرير والتنوير ٢٢١/١ .

التسوية

التسوية في إصطلاح البلاغيين : تكون في مقام يتوهم فيه المخاطب رجحان أحد الطرفين . (١)

والتسوية ليست غرضاً مستقلاً بذاته وإنما هي متفرعة عن أغراض بلاغية أخرى كالأهانة والتهديد .

وأسلوب التسوية في القرآن تأدى بأساليب متنوعة كالخبر والاستفهام والأمر والنهي تعديلاً للفكر أو السلوك أو إظهاراً لحقيقة ينبغي أن تكون على ذكر من المخاطب لاتغيب عن باله ، وهي لاتبعد كثيراً عن فكرة الترغيب والترهيب بمعناها الواسع في أسلوب الدعوة القرآنية . (٢)

وفي القرآن الكريم لم أعثر إلا على ثلاثة مواضع أفاد فيها النهي معنى التسوية نلاحظ فيها تعانق الأمر مع النهي في إفادة هذا المعنى البلاغي على نحو مانوضحه في السطور القادمة بإذن الله .

من ذلك قوله تعالى في شأن المنافقين خطاباً لخاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم - تعليماً وإرشاداً له - وقد عزم - لقلبه الرحيم - أن يستغفر لرأس النفاق في المدينة حين وفاته ، فنزل الوحي معاتباً للرسول صلى الله عليه وسلم مهدياً المنافقين [اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ] (٣)

أشار الطبري وتابعه الزمخشري إلى أن هذا الكلام خرج مخرج الأمر وتأويله الخبر (٤) ، وذكر أبو حيان وبعض المفسرين رأيين الأول أن المراد بهذا

(١) انظر الإيضاح ٢٤٢/١ الطراز ٢٨٢/٣ وشروح التلخيص ٢/٣١٨ وما بعدها ؛
والمطول ص ٢٤١ والأساليب الإنشائية ص ٥٤ وعلم المعاني للدكتور درويش
الجندي ص ٣٩ .

(٢) انظر الأساليب الإنشائية ص ٥٥ .

(٣) سورة التوبة ، الآية " ٨٠ " .

(٤) تفسير الطبري ١٣٦/١٠ والكشاف ٢/٢٠٤ .

الكلام التخيير ، والثاني أنه في معنى الخبر وإن للشرط والجزاء أي إن استغفرت لهم أو لم تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم . (١)

فالآية تشير إلى كمال الغضب الإلهي على المنافقين ونهايته وإلى إغلاق منافذ الرحمة والتجاوز عنهم مهما جهد الرسول صلى الله عليه وسلم في الاستغفار لهم ، أي فسواء استغفرت لهم أو لم تستغفر لهم حيث أخبر عن ذلك في قوله [فلن يغفر الله لهم] حيث جاء بـ"لن" التي تدل على استغراق النفي . وعلى هذا فالنهي مع الأمر في قوله [استغفر لهم أو لا تستغفر لهم] للتسوية كما ذكر بعض العلماء .

ومنه قوله تعالى خطاباً للمشركين [قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُونَ لِلْآذَانِ سُجَّداً] (٢) تفيض هذه الآية الكريمة بالتهديد لهؤلاء المشركين وبالإعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشأنهم وقلة المبالاة بهم . (٣)

وقد أفاد الأمر والنهي معاً في هذا السياق معنى التسوية والتحقيق وشديد الإهمال . (٤) أي فإن إيمانكم وعدم إيمانكم سواء لأن إيمانكم لايزيده كمالاً وعدم إيمانكم لا يورثه نقصاً (٥) ، وجملة [إن الذين أوتوا العلم من قبله] تعليل لمعنى التسوية بين إيمانهم وعدمه ، (٦) كما أن في التعبير بقوله [إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً] بياناً لأثر القرآن وصنيعه في القلوب المؤمنة

(١) انظر البحر المحيط ٧٦/٥ وما بعدها وحاشية الشهاب ٣٤٨/٤ وروح المعاني ١٤٧/١ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ١٠٧ .

(٣) انظر الكشاف ٤٦٩/٢ والتفسير الكبير ٦٩/٢١ والبحر المحيط ٨٨/٦ .

(٤) انظر التحرير والتنوير ٢٣٢/١٥ وبلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٨٨ والأساليب الإنشائية ص ٥٥ .

(٥) ينظر تفسير أبي السعود ٤٨٨/٣ وروح المعاني ١٨٩/١٥ .

(٦) التحرير والتنوير ٢٣٢/١٥ .

العارفة بطبيعته ونمو بلاغته وقيمته بسبب ما أوتيت من العلم قبله ، حيث أفصح السياق عن هذا التأثير بأنهم يخرون للأذقان سجداً أي على الأذقان ، ((ففي ذكر الأذقان دلالة على تمكينهم الوجوه كلها من الأرض رغبة في السجود لما فيه من استحضار الخضوع والخشوع لله تعالى)) (١) .

ومنه قوله تعالى خطاباً للكفار في نار جهنم { اَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا إِنَّمَا تَجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } (٢) .

أشار كثير من المفسرين إلى أن الأمر والنهي في قوله [اصبروا أو لاتصبروا] للتسوية أي سواء عليكم الأمران الصبر وعدمه فكلاهما لا يخففان عنهم شيئاً من العذاب . (٣) ((وليس أقسى على منكوب بمثل هذه النكبة من أن يعلم أن الصبر وعدمه سواء فالعذاب واقع ماله من دافع وأله واحد مع الصبر ومع الجزع ، والبقاء فيه مقرر سواء صبر عليه أم هلع ، والعلة أنه جزاء على ما كان مسن عمل)) (٤) { إنما تجرون ما كنتم تعملون } .

فالسباق ينبض مع التسوية بالتهديد الشديد لهؤلاء المشركين ، حيث تعانق الأمران ((اصلوها ، اصبروا)) لإفادة التهديد والتقريع والوعيد الشديد .

(١) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٢٥٤ .

(٢) سورة الطور ، الآية " ١٦ " .

(٣) أنظر الطبري ١٤/٢٧ والكشاف ٢٣/٤ والبحر المحيط ١٤٧/٨ وتفسير أبي السعود ٢٠٩/٥ وحاشية الشهاب ١٠٣/٨ والتحرير والتنوير ٤٤/٢٧ والإيضاح ص ٢٤٣ وشروح التلخيص ٣١٨/٢ والإتقان ٢٤٤/٣ ومعتك الأقران ٢٤٣/١ والطراز ٢٨٣/٣ والأساليب الإنشائية ص ٥٥ وعلم المعاني للدكتور درويش الجندي ص ٣٩ ومعجم المصطلحات البلاغية ص ٣١٩ والمعاني الثانية في الأسلوب القرآني ص ١٠٦ .

(٤) في ظلال القرآن المجلد السادس ص ٣٣٩٦ .

الدعاء

من المعاني الثانية التي يفيدها النهي في القرآن الكريم الدعاء حيث جاء على السنة المخلوقين سواء أكانوا ملائكة أم أنبياء أم مؤمنين .

والدعاء في القرآن يكون بالخير وهذا هو الغالب في البيان القرآني ، ويكون بالشر ولم يرد إلا على السنة الأنبياء لينتقم الله من أقوامهم من ذلك قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام [وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذُرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذُرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِرًا كَفَّارًا رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا] (١) دعا نوح عليه السلام في هذه الآيات الكريمات على قومه بالهلاك والدمار والاستئصال ، وهو ينم عن كرهه لهؤلاء الضالين المضلين الماكرين ، فالنهي في قوله [رب لاتذر ، وقوله [لاتزد الظالمين إلا تباراً] للدعاء عليهم ، ونلمح في هذا الدعاء ايثار نوح عليه السلام التعبير بالفعل [تذر] لخفته وسرعته على الفعل ((تترك)) لأنه يصور ضيقه الشديد بهؤلاء الضالين حيث طلب من الله أن يستأصل شأفتهم ويجهز عليهم إجهازاً كاملاً لا يبقى منهم بقية لقلته الاعتداد ولذا أثر التعبير بقوله [دياراً] تأكيداً لهذا المعنى وإلحاحاً في تدميرهم وإهلاكهم جميعاً في سرعة خاطفة .

وتتنوع أساليب الدعاء بعد النهي وتفاوتت في المقامات تساوقاً مع مستوى الضر والحاجة حيث نجد المضطر يخلص في دعائه وهذا ما أكده الحق سبحانه وتعالى بقوله [آمَنَ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ] (٢) ففي موقف الضر والحاجة يكون الإخلاص في الدعاء وتكون العبارة معبرة عن صاحبها موحية بمشاعره وخلجاته النفسية .

(١) سورة نوح ، الآيتين " ٢٦ - ٢٨ " .

(٢) سورة النمل ، الآية " ٦٢ " .

من ذلك قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام [وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ] (١) ففي هذه الكلمات القلائل - التي دعا بها زكريا ربه - تعبير قوي عن شدة حاجته للولد والذرية لكبر سنه حيث يكون الإنسان في هذه السن أحوج مايكون إلى ولد يعوله ويرعاه ، وهذا مانلمحه من خلال ايثار التعبير بقوله [لاتذرنني فرداً] حيث سأل ربه أن يرزقه ولداً يرثه ولايدعه وحيداً بلا وارث ، ثم إنه عليه السلام رد أمره إلى الله مستسلاً فقال : [وأنت خير الوارثين] أي إن لم ترزقني من يرثني فلا أبالي فإنك خير وارث. (٢)

ومن دعاء الأنبياء أيضاً عن طريق النهي دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام في معرض دعائه لأبيه قال تعالى : [وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلَا تَخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ] (٣) .

وعلى لسان موسى وهارون عليهما السلام قال تعالى : [رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ] (٤) .
وعلى لسان الرسول صلى الله عليه وسلم [رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ] (٥) .

وكما ورد على السنة الأنبياء ورد على السنة المؤمنين من ذلك قوله تعالى : [رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ] (٦) وقوله تعالى : [رَبَّنَا أَغْفِرْ لَنَا وَإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ] (٧)

(١) سورة الأنبياء ، الآية " ٨٩ " .

(٢) انظر الكشاف ٢ / ٥٨٢ .

(٣) سورة الشعراء ، الآيتين " ٨٦ - ٨٧ " .

(٤) سورة يونس ، الآية " ٨٨ " .

(٥) سورة المؤمنون ، الآية " ٩٤ " .

(٦) سورة آل عمران ، الآية " ٨ " .

(٧) سورة الحشر ، الآية " ١٠ " .

وقوله تعالى : { رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ } (١) وقوله تعالى : { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَاطَأَقَةَ لَنَا بِهِ } (٢)

ولننظر إلى جمال التعبير بقوله : { لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت } وما يدل عليه من معان ثرة حيث عبر في جانب الخير بالكسب وفي جانب الشر بالاكْتَسَاب ، يقول الزمخشري ((فإن قلت : لم خص الخير بالكسب والشر بالاكْتَسَاب)) ؟ قلت في الاكْتَسَاب اعمّال فلما كان الشر مما تشتهي النفس وهي منجذبة إليه وأماره به كانت في تحصيله أعمل وأجد فجعلت لذلك مكتسبة فيه ، ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال : أي لا تؤاخذنا بالنسيان والخطأ إن فرط منا . فإن قلت : النسيان والخطأ متجاوز عنهما ، فما معني الدعاء بترك المؤاخذة بهما ؟ قلت ذكر النسيان والخطأ والمراد بهما ما هما مسببان عنه من التفريط والإفغال ، ألا ترى إلى قوله { وما أنسانيه إلا الشيطان } والشيطان لا يقدر على فعل النسيان وإنما يوسوس فتكون وسوسته سبباً للتفريط الذي منه النسيان ، ولأنهم كانوا متقين الله حق تقاته فما كانت تفرط منهم فرطة إلا على وجه النسيان والخطأ ، فكان وصفهم بالدعاء بذلك إيذاناً ببراءة ساحتهم عما يؤاخذون به ، كأنه قيل : إن كان النسيان والخطأ مما يؤاخذ به فما فيهم سبب مؤاخذة إلا الخطأ والنسيان ، ويجوز أن يدعو الإنسان عما علم أنه حاصل له قبل الدعاء من فضل الله لاستدامته والاعتداد بالنعمة فيه . (٣) ونقض ابن المنير رأي الزمخشري - الذي ذهب إليه بأن النسيان والخطأ متجاوز عنهما - قائلاً : ولا ورود لهذا السؤال على قواعد أهل السنة لأننا نقول : إنما ارتفعت المؤاخذة بهذين بالسمع كقوله عليه الصلاة والسلام { رفع عن أمتي الخطأ والنسيان } وإذا كان كذلك فلعل

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٩٤ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٨٦ .

(٣) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال بهامش الكشاف ٤٠٨/٨ .

رفع المؤاخذة بهما كان إجابة لهذه الدعوة (١)

والإصر : العبد الذي يأصر حامله أي يحبسه مكانه لا يستقل به لثقله والمراد به التكاليف الشاقة ، { ولاتحملنا مالا طاقة لنا به } من العقوبات النازلة بمن قبلنا ، طلبوا الإعفاء عن التكاليف الشاقة التي كلفها من قبلهم ، ثم عما نزل عليهم من العقوبات على تفريطهم في المحافظة عليها ، وقيل المراد به الشاق الذي لا يكاد يستطاع من التكاليف . (٢)

ويضيف بعض الباحثين قائلاً : ونزيد أن الإصر ثقل من الذنوب فوق كاهل المذنب ينوء بها ، وفي التعبير تصوير وتشخيص ، فإذا ما دعا ربه كان في الدعاء روح وريحان وتخلص من الإصر الثقيل الذي كان فيه هلاك السابقين من المشركين . . .

ومن ثم شرح ذلك بعد إبهامه بقوله { ولاتحملنا مالا طاقة لنا به } وتكرار لفظ { ربنا } مضافاً إلى الداعين لإبراز مزيد الضراعة إلى الله ، وفيه إلحاح في الرجاء لأن حمل الذنوب ثقل وعناء ، وفيه ذلك الرباط الروحي الذي يربط بين قدرتين قدرة عاجزة وأخرى قادرة هي قدرة العبد والسيد أو قل ، البشر والله ، فإذا أوشكت الأولى أن تفرق في الخضم هرعت إلى الثانية حيث القدرة القادرة والسيادة المطلقة والالوهية في الله . (٣)

فأساليب النهي في هذه الآية الكريمة بل السياق كله ينبض بالدعاء يجسد بجرسه الخفيف وألفاظه الموحية وتراكيبه المصورة الضعف الإنساني .

كما ورد الدعاء على السنة أهل الأعراف يوم القيامة قال تعالى
{ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ

(١) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال بهامش الكشاف ٤.٨/١ .

(٢) الكشاف ٤.٨/١ وما بعدها .

(٣) المعاني الثانية في الأسلوب القرآني ص ٢٨١ وما بعدها .

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لِاتَّجَعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ { (١) } .

تأتي هاتان الآيتان لترسم صورة واضحة المعالم لما أعده الله للمؤمنين من فضل وتكريم في يوم القيامة ، وهي صورة زاخرة بالحركة والمشاهد والحوار والإيحاء وتصوير المشاعر ، فهي تصور مشهد أصحاب الجنة وقد إطمأن بهم المقام فيها ثم تتبعه بمشهد آخر لأصحاب النار ، ثم ترسم بين المشهدين مشهداً ثالثاً لأصحاب الأعراف الذين قصرت بهم أعمالهم فلم يدخلوا الجنة وتقدمت بهم عن أن يكونوا من أهل النار ، ثم تحكي مابين الثلاثة من حوار موح ، وتصور خلجات نفوسهم ومشاعرهم ، وتعرض ذلك كله فيما يناسبه من صور البيان وفنون البلاغة (٢) ، ويكفينا في هذا الموضوع أن نتوقف عند أصحاب الأعراف وخاصة دعاءهم الذي يجسد خوفهم وهلعهم الشديد من النار التي يعذب فيها المجرمون .

{ وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين } فابصارهم معلقة بالجنة وأصحابها يتحامون الالتفات إلى النار وأهلها وهذا ما يوحي به التعبير بقوله { وهم يطمعون } وقوله { إذا صرفت أبصارهم } أي صرفاً دون إرادة منهم إلى أهل النار فزعوا إلى رحمة الله واستعاذوا بالله أن يكون مصيرهم مصير هؤلاء { ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين } أي في النار وفي وصفهم بالظلم دون ما هم عليه حينئذ من العذاب وسوء الحال الذي هو الموجب للدعاء إشعار بأن المحذور عندهم ليس نفي العذاب فقط بل مع ما يوجب ويؤدي إليه من الظلم . (٣)

(١) سورة الأعراف ، الآيتين ٤٦ - ٤٧ .

(٢) أنظر أسلوب الدعوة القرآنية ص ١٣٩ .

(٣) انظر الكشاف ٨١/٢ وتفسير أبي السعود ٢٤٦/٢ وفي ظلال القرآن المجلسد

الثالث ص ١٢٩٢ وأسلوب الدعوة القرآنية ص ١٤٤ .

الحث والرغبة في الإتصاف بصفة معينة .

أفاد النهي في القرآن الكريم الحث والرغبة في الاتصاف بصفة معينة في قوله تعالى : { وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَاتَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } (١) .

وضع السياق في هذه الآية حرص إبراهيم ويعقوب عليهما السلام ورغبتهما في إتباع ابنائهما للإسلام ، فالنهي في قوله { لاتموتن } للحث والرغبة في الثبات على الاسلام كما ذكر كثير من المفسرين .

يقول الطبري ((لاتفارقوا هذا الدين وهو الاسلام أيام حياتكم حتى لاتاتيكم مناياكم وأنتم على غير الاسلام لأن أحداً لايدري متى تأتيه المنية)) (٢) وقد أخذ الزمخشري هذا الكلام وأضاف إليه وصاغه بدقة فقال ((معناه : فلا يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الاسلام ، فالنهي في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا كقولك : لاتصل إلا وأنت خاشع . فلا تنهأ عن الصلاة ولكن عن ترك الخشوع في حالة صلته ، ... لإظهار أن موتهم لا على حال الثبات على الإسلام موت لاخير فيه وأنه ليس بموت السعداء ، وأن من حق هذا الموت أن لايحل فيهم ، وتقول في الأمر أيضاً : مت وأنت شهيد وليس مرادك الأمر بالموت ولكن بالكون على صفة الشهداء إذا مات ، وإنما أمرته بالموت اعتداداً منك بميئته وإظهاراً لفضلها على غيرها وأنها حقيقة بأن يحث عليها (٣) . وقد تابع الزمخشري كثير من المفسرين .

ونلمح في التعبير بقوله ((ووصى)) رغبة إبراهيم عليه السلام وحرمة الشديد على إسلام ابنائه حيث رغبتهم فيه كما ذكر الرازي بأمر منها : أنه لم يقل

(١) سورة البقرة، الآية " ١٣٢ " .

(٢) الطبري ١ / ٤٣٨ .

(٣) انظر الكشاف ١ / ٣١٣ والبحر المحيط ١ / ٣٩٩ وتفسير أبي السعود ١ / ٢٦٤ وحاشية الشهاب ٢ / ٢٤١ والتحرير والتنوير ١ / ٧٢٩ وراجع الأساليب الإنشائية ص ٧٣ وما بعدها .

سبحانه وأمر ابراهيم بل قال وصاهم ، فلفظ الوصية أكد من الأمر لأن الوصية عند الخوف من الموت وفي ذلك الوقت يكون إحتياط الانسان أشد وأتم ، فإذا عرف أنه عليه السلام في ذلك الوقت مهتماً بهذا الأمر متشدهداً فيه كان القول إلى قبوله أقرب ، ثم إنه خصص بنيه بالوصية لأن شفقة الرجل على أبنائه أكثر من شفقتة على غيرهم فلما خصهم بذلك علمنا أن اهتمامه بذلك كان أشد من اهتمامه بغيرهم ، ثم أنه عمم بهذه الوصية جميع بنيه ولم يخص أحداً منهم بها وذلك يدل على شدة الاهتمام ، كما أنه عليه السلام أطلق هذه الوصية غير مقيدة بزمان ومكان ، ثم زجرهم أبلغ الزجر عن أن يموتوا غير مسلمين شدة اهتمام بهذا الامر ولذا لم يعزج بهذه الوصية وصية أخرى . (١)

ونظير قوله تعالى خطاباً مباشراً لامة محمد صلى الله عليه وسلم [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ] (٢)

فلفظ النهي في قوله [لاتموتن] واقع على الموت والمقصود الامر بالاقامة على الإسلام والثبات عليه] (٣) .

وبالموازنة بين هذه الآية والآية السابقة نحس بالفارق بين الامم ، وأقداراً من الاختلاف بين المتكلم إبراهيم ويعقوب عليهما السلام ، ورب العزة والجلال فقد خاطب بهذه الآية الأمة الحمديدية وقد صدرت بالنداء والتنبيه والوصف لأي ، والوسم بالإيمان ، وهذا الاختصاص بالتكريم يناسب الامر بالتقوى الخاصة ، تكريم على قدر التكليف والوفاء به . (٤)

(١) التفسير الكبير ٤ / ٨٠ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٠٢ .

(٣) التفسير الكبير ٨ / ١٧٧ .

(٤) الأساليب الإنشائية ص ٧٣ .

الإلتماس :-

تنبض بعض أساليب الحوار القرآني الواردة على السنة الأنداد والنظراء بالإلتماس ومايأتلف به من معان أخر كالتحنن والاستعطاف والترقيق ، ولذا لم يأت هذا الغرض مستقلاً .

والإلتماس غرض من أغراض النهي البلاغية في البيان القرآني .

هارون عليه السلام ،

أفاد النهي في القرآن الكريم وبخاصة في قصة موسى عليه السلام معنى الإلتماس من ذلك قوله تعالى على لسان هارون خطاباً لأخيه موسى بعد رجوعه من الميقات (قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي) (١)

لما رأى هارون عليه السلام في وجه أخيه الغضب والحدة لعبادة اليهود - أخزاهم الله - عجل الذهب سلك في خطابه مسلك الاستعطاف والتحنن والترقيق لإزالة ثورة الغضب عن نفس موسى عليه السلام فابتدر أخاه بالنداء ((يا ابن أم)) وخص الأم بالإضافة إستعطافاً لحقها وترقيقاً لقلبه وليس لما قيل بأنه كان أخاه لأمه (٢) ، فإن الجمهور كما ذكر أبو السعود على أنهما كانا شقيقين . (٣)

وعلى هذا يكون ذكر الأم هنا أدق وأبلغ في تحصيل المراد وهو الحنو والعطف (٤) ، وأضاف الطاهر بن عاشور قائلاً " وعدل عن ((يا أخي)) إلى " ابن أم " لأن ذكر الأم تذكير بأقوى أواصر الأخوة وهي أصرة الولادة من بطن واحد والرضاع من لبان واحد " (٥)

(١) سورة طه ، الآية " ٩٤ " .

(٢) انظر التفسير الكبير ٢٢ / ١٠٩ .

(٣) انظر تفسير أبي السعود ٣ / ٦٦١ .

(٤) راجع وجوه الخطاب في القرآن الكريم ص ٢٠٧ .

(٥) التحرير والتنوير ١٦ / ٢٩٢ .

فالنهي في قوله : { لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي } للالتماس كما هو واضح

من السياق . (١)

ونظيره قوله تعالى على لسان هارون عليه السلام [.. وَالْقَى الْأَلْوَابَ
وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا
يَقْتُلُونَنِي فَلَا تَشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ] (٢)

في هذه الآية الكريمة تعانق نهيان لإفادة معنى الالتماس والترقيق هما

قوله ((لا تشمت ، وقوله لاتجعلني)) .

والسياق يشي بمعاني التحنن والاستعطاف والترقيق والاعتذار حيث بدأ

هارون عليه السلام خطابه بقوله ((ابن أم)) لإستمالة أخيه وإستعطافه وترقيق

قلبه عليه ، وفي حذف حرف النداء إظهار لما صاحب هارون من الرعب والخوف

والاضطراب لما رأى حال أخيه . (٣)

وفي التعبير بقوله ((إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني)) دليل على

أنه عارضهم معارضة شديدة على عبادتهم العجل ، وأنه لم يال جهداً في كفهم

بالوعظ والإنذار طاقته من بذل القوة في مضادتهم حتى قهره واستضعفوه ولم

يبق إلا أن يقتلوه)) (٤)

هوسه والخضر،

ورد النهي مراداً به الالتماس في خطاب موسى عليه السلام للخضر عليه

السلام في قوله تعالى : { قَالَ لَا تَأْخُذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تَرَهَقْنِي مِنْ أَمْرِي

مَسْرُوراً } (٥) اعتذر موسى عليه السلام بالنسيان بقوله { لاتؤخذني بما نسيت }

(١) انظر أساليب بلاغية ص ١١٧ وعلم المعاني للدكتور درويش الجندي ص ٤١

وبلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٩١ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية * ١٥٠ .

(٣) التحرير والتنوير ٩ / ١١٦ .

(٤) انظر الكشاف ٢ / ١١٩ .

(٥) سورة الكهف ، الآية * ٧٣ .

حيث أراد أنه نسي وصيته ولامؤاخذه على الناسي ، أو أنه أخرج الكلام في معرض النهي عن المؤاخذه بالنسيان ليتقبل عذره ، وهو من معاريض الكلام التي يتقي بها الكذب مع التوصل إلى الغرض كما ذكر الزمخشري ((١) .

فالنهي في قوله ((لا تؤاخذني ، ولا ترهقني)) مستعمل في الالتماس والاعتذار والاستعطاف كما هو واضح من نظم الآية الكريمة .

ومنه قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : [قَالَ إِنْ سَأَلْتِكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا] (٢)

النهي في قوله ((لا تصاحبني)) يفيد معنى الالتماس والاعتذار كما يبدو من السياق بمعونة القرائن وأحوال التراكيب .

ونلاحظ في الآية إنصاف موسى لصاحبه حيث جعل له العذر في ترك مصاحبته تجنباً لإحراجه وهذا ما ينبغيء عنه قوله تعالى : [فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً] أي لاتقاربني وإن طلبت صحبتك فلا تتابعني في ذلك أو لا تكن صاحبي أو لاتجعلني صاحبك . (٣)

أصحاب الكهف .

في سياق الحوار الذي دار بين أصحاب الكهف جاءت أساليب الطلب ومنها النهي - تفيد معنى الالتماس في قوله تعالى : [وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا] . (٤)

(١) انظر الكشاف ٤٩٢/٢ والتفسير الكبير ١٥٥/٢١ .

(٢) سورة الكهف ، الآية " ٧٦ " .

(٣) انظر الكشاف ٤٩٤/٢ والتحرير والتنوير ٦/١٦ .

(٤) سورة الكهف ، الآية " ١٩ " .

تفيد أساليب الأمر والنهي في هذا السياق القرآني معنى الالتماس والنصح والتشاور حيث أشار بعضهم بإرسال أحدهم إلى المدينة ليبتاع لهم طعاماً يقيمون به أودهم ، وأوصوه بتوخي الحرص وأخذ الحيطة والحذر حتى لا ينكشف أمرهم فتزهق أرواحهم . (١)

والمح في نصيحتهم له ((وليتلف ولايشعرن بكم أحداً)) الخوف والوجل

الشديد .

(١) راجع الكشاف ٤٧٦/٢ وما بعدها وتفسير أبي السعود ٥٠٩/٣ والتحرير والتنوير ٢٨٤/١٥ وما بعدها والتصوير الفني في القرآن ص ١٩٢ - ١٩٣ .

التسكين والطمأنينة والتسليّة :-

التسكين كفرض بلاغي وجد عند الأصوليين (١) ، لم أطلع عليه عند غيرهم فيما أعلم . وهو قريب مما ذكره كثير من علماء التفسير حيث ترددت في كتب المفسرين ألفاظ كثيرة تقترب في الدلالة من التسكين كالتسليّة والتسرية والتطمين والإيناس والتعزية من ذلك قولهم عند تفسير قوله تعالى [وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] (٢) يقول الطبري : ((وهذه تعزية لأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم على ما أصابهم من الجراح والقتل بأحد)) (٣) ويقول الزمخشري ((ولا تهنوا ولا تحزنوا)) تسليّة من الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين عما أصابهم يوم أحد وتقوية من قلوبهم (٤) .

ويقول الطاهر بن عاشور في تفسير قوله تعالى : [تَنْزِيلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ الْأَتْخَافُوفَ وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ] (٥) ((النهي كناية عن التأمين من جانب الله تعالى لأنهم إذا تحققوا الأمن زال خوفهم ، وهذا تطمين من الملائكة لأنفس المؤمنين)) .

وأطلق بعض المعاصرين على هذا المصطلح اسم الإيناس (٦) ، لكنني أثرت في هذا المبحث تطبيق مصطلح الأصوليين لدقته وعمقه .

وبإيناع النظر في أساليب النهي التي أفادت معنى التسكين والطمأنينة في

القرآن الكريم نجدها تتفاوت من حيث المتكلم والمخاطب حيث جاءت من قبل الحق

(١) انظر التمهيد في أصول الفقه ١ / ٣٦١ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية " ١٣٩ " .

(٣) تفسير الطبري ٤ / ٦٦ .

(٤) انظر الكشاف ٨ / ٤٦٥ وتفسير أبي السعود ٨ / ٥٦١ وما بعدها .

(٥) سورة فصلت ، الآية " ٣٠ " وانظر التحرير والتنوير ٢٤ / ٢٨٥ .

(٦) بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٩٢ والمعاني الثانية في الأسلوب

القرآن ، ص ١٠٨ .

سبحانه - إما وحيًا أو إلهامًا - خطاباً لرسله عليهم السلام أو من يتصل بهم بقراءة ونسب كأم موسى ومريم عليها السلام ، أو جاءت على السنة الملائكة أو الأنبياء عليهم السلام على نحو ما تفصح عنه الصفحات القادمة بعون الله وتوفيقه :-

١ - من قبل الحق سبحانه :-

نوح عليه السلام :

أفاد النهي معنى الطمأنة والتسكين في القرآن في قوله تعالى خطاباً لنوح عليه السلام : { وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } (١)

يخبر الحق سبحانه في هذه الآية نوحاً عليه السلام بأن قومه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن ، وفي هذا تينيس له عليه السلام من إيمانهم وإعلام لكونه مستحيلاً لا يصح توقعه ، فالقلوب المستعدة للإيمان قد آمنت أما البقية الباقية فليس لديها استعداد أو قبول ، فلم يعد للدعوة جدوى أو فائدة .

ثم فرع على هذا بقوله ((لا تبتئس بما كانوا يفعلون)) أي لا تحزن حزن يائس مستكن ولا تغتم بما كانوا يفعلونه من التكذيب والاستهزاء والإيذاء والمعاداة في هذه المدة الطويلة فقد حان وقت الانتقام لك منهم)) (٢)

فالنهي في قوله ((لا تبتئس)) للطمأنة والتسكين والتسلية كما هو واضح

من السياق .

مع موسى عليه السلام :-

موسى في طقوله ،

ورد النهي مراداً به الطمأنة والتسكين في قوله تعالى خطاباً لأم موسى عليه السلام { وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ

(١) سورة هود ، الآية " ٣٦ " .

(٢) انظر الكشاف ٢٦٨/٢ والتفسير الكبير ٢٣٠/١٧ وتفسير أبي السعود ٤٠/٣

والتحرير والتنوير ٦٥/١٢ وفي ظلال القرآن المجلد الرابع ص ١٨٧٦ .

فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ } . (١)

تصور هذه الآية الكريمة حيرة الأم وخوفها على ولدها من الخطر المحقق به وهي عاجزة عن حمايته ، وسرعان ما تتدخل يد القدرة فتزيل عنها الخوف وتلقي في روعها عن طريق الإلهام كيف تعمل وتتصرف ((فإذا خفت عليه فالقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني)) أي لا تخافي عليه من الهلاك غرقاً ولا تحزني على فراقه (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) فهذه الجملة تعليل للنهي عن الخوف والحزن زيادة في الطمأنة والتسكين والتثبيت ، وإيثار الجملة وتصديرها بحرف التحقيق للاعتناء بتحقيق مضمونها أي إنا فاعلون لرده وجعله من المرسلين فهذه بشارة ووعد من الله ومن أصدق من الله قيلاً . (٢)

فالنهي في قوله [لا تخافي ولا تحزني] للطمأنة والتسكين (٣) بدلالة السياق والمقام .

ونظيره قوله تعالى خطاباً لمريم عليها السلام { فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا } (٤)

موسى وهارون عليهما السلام .

أفاد النهي معنى التسكين والطمأنة في قوله تعالى خطاباً لموسى وأخيه هارون عليهما السلام { قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى } (٥)

(١) سورة القضص ، الآية " ٧ " .

(٢) راجع الكشاف ١٦٥/٣ وتفسير أبي السعود ٢٩٢/٤ والتحرير والتنوير ٧٤/٢ وما بعدها وفي ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٦٧٨ وما بعدها .

(٣) انظر الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٩٢ .

(٤) سورة مريم ، الآية " ٢٤ " .

(٥) سورة طه الآية " ٤٦ " .

في هذه الآية وعد من الله بالتأييد لهما وطمأنة وتسكين لهما ونفي لأدنى خوف فالنهي في قوله { لا تخافا } للطمأنة والتسكين (١) ، وجملة { إنني معكما } تعليل للنهي وتسلية لهما ، والمراد بالمعية كما ذكر المفسرون كمال الحفظ والعناية كما ينبيه عنه قوله تعالى { أسمع وأرى } أي ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل فافعل ما يوجب حفظي ونصرتي لكما (٢) ، وفي هذا مطلق التأييد التام لهما من الله تعالى كما هو واضح من نظم الآية الكريمة .

ومنه قوله تعالى خطاباً لموسى عليه السلام { يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ } (٣) لما رأى موسى عليه السلام عصاه تهتز كأنها جان ولي مدبراً من شدة الخوف الذي ملك عليه جميع أعضائه لكن الله سبحانه وتعالى يطمئنه ويزيل عنه الخوف والهـم بقوله { ياموسى أقبل ولا تخف } فالامر والنهي في هذه الآية للطمأنة والتسكين بدليل قوله { إنك من الأمنين } فهذا التعبير يدل على زيادة الأمن والطمأنينة حيث جاء مؤكداً بأن وجعله { من الأمنين } وهو أشد في تحقيق الأمن من أن يقال { إنك آمن } (٤) ودليل على كمال العناية الإلهية به وزيادة تشريف له عليه السلام .

٢- محل السنة الملائكية :

ورد النهي مراداً به الطمأنة والتسكين في القرآن الكريم على السنة الملائكة خطاباً للأنبياء عليهم السلام من ذلك قوله تعالى خطاباً لإبراهيم الخليل عليه السلام { وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ } (٥)

(١) أنظر التمهيد في أصول الفقه ١ / ٣٦١ .

(٢) أنظر الكشاف ٥٣٩/٢ وتفسير أبي السعود ٦٣٣/٣ .

(٣) سورة القصص ، الآية " ٣١ " .

(٤) انظر التحرير والتنوير ١١٣ / ٢٠ .

(٥) سورة الحجر ، الآيتين " ٥١ - ٥٣ " .

تحكي هذه الآيات الكريمات قصة إبراهيم مع الملائكة عليهم السلام وما دار بينه وبينهم من حوار عندما رأى أيديهم لاتصل إلى الطعام أوجس منهم خيفة حيث صرح لهم عن ذلك بقوله : { قال إنا منكم وعلون } فجاء نهيهم له عن الوجل والخوف تسكيناً لفؤاده وتطميناً له عليه السلام { قالوا لاتوجل } أما جملة { إنا نبشرك بغلام عليم } فهي استئناف لتعليل النهي عن الوجل فإن الم بشر به لا يكاد يحوم حول ساحته خوف ولا حزن كيف لا وهو بشارة ببقائه وبقاء أهله في عافية وسلامة زماناً طويلاً { (١) } .

ونظيره قوله تعالى خطاباً لإبراهيم عليه السلام { فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بَغُلَامٍ عَالِيمٍ } { (٢) } وقوله تعالى { قَالُوا لَا تَخَفْ إنا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ } { (٣) } فالنهي في الآيتين الكريمتين للطمأنة والتسكين .
ومنه قوله خطاباً للوط عليه السلام { وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إنا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ } { (٤) }

توضح هذه الآية حال الكرب والخوف الشديد الذي سيطر على لوط عليه السلام عندما جاءت الملائكة في صورة البشر فخاف عليهم وهذا ما يكشف عنه التعبير بقوله { سيء بهم وضاق بهم ذرعاً } ، وفي هذا التعبير كناية عن عجزه عليه السلام عن المحافظة عليهم وتدبير أمرهم .

ثم يمضي السياق يبين ما قالته الرسل لما رأته لوطاً وما عليه حاله من

(١) انظر الكشاف ٢/٢٩٢ وتفسير أبي السعود ٣/٣١٥ والتحرير والتنوير ١٤/٥٨

وما بعدها

(٢) سورة الذاريات ، الآية " ٢٨ " .

(٣) سورة هود ، الآية " ٧٠ " .

(٤) سورة العنكبوت ، الآية " ٢٣ " .

خوف وكرب شديد حيث بادروه بالتطمين والتسكين وكشفوا له عن حقيقتهم وأخبروه بمهمتهم بأنهم منزلون العذاب على قومه (١)

فالنهي في قوله [لاتخف ولا تحزن] للطمأنة والتسكين وحول هذا المعنى يقول الطاهر ابن عاشور [وقدموا تأمينه قبل إعلامه بأنهم منزلون العذاب على أهل القرية تعجيلاً بتطمينه] (٢)

ومنه قوله تعالى على لسان الخصمين خطاباً لداود عليه السلام { إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ مِنِّي بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ } (٣) فالنهي في قوله [لاتخف] للتسكين والطمأنة كما هو واضح من السياق .

٣ - على السنة الأنبياء ،

الرسول صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ،

أفاد النهي معنى الطمأنة والتسكين والانتناس في قوله تعالى على لسان المصطفى خطاباً للصديق وهما في الغار { ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } (٤)

((تبين هذه الآية الكريمة صورة نفسية ترسم خطوطها تلك الكلمات متناسقة متألفة صورة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو يرى قوة الكفر تحيط بهما في الغار وليس معهما جيش يذود عنهما هذا العدد المتحفز لقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطبيعي أن يتناوشه القلق والخوف على صاحبه لا على نفسه حيث يبلغ فيه السمو البشري أقصاه ، وبجواره رسول الله يحس بكل اهتزازة

(١) انظر الكشاف ٢/٥٠٣ والتفسير الكبير ٦٢/٢٥ وما بعدها وتفسير أبي السعود

٢٣٧/٤ وفي ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٧٣٤ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٠/٢٤٥ .

(٣) سورة ص ، الآية " ٢٢ " .

(٤) سورة التوبة ، الآية " ٤٠ " .

يهتز بها لمواقع أقدام الكفار وبكل نبضة من قلبه الكبير فيبدد ذلك كله بكلمتين اثنتين (١) يطمئن بهما فؤاده ويسكنه ويخبره بتأييد الله لهما ((لاتحزن إن الله معنا)) فالنهي في قوله { لا تحزن } للطمأنة والتسكين والتثبيت ، ونلاحظ مافي التعبير بقوله { إن الله معنا } من التأييد والعون والعصمة والعناية الدائمة التي لاتحوم حول صاحبها شائبة من الحزن أو المكروه . (٢)

يوسف عليه السلام وأخوه :-

ورد النهي مراداً به الطمأنة والتسكين في قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام خطاباً لأخيه { وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ وَأَوى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } (٣)

يبدو أن النهي في قوله { لاتبتئس } مستعمل في الطمأنة والتسكين وقلة المبالاة أي لاتبتئس بما كانوا يفعلونه بنا فيما مضى فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا بخير ، أو لاتحزن بما كنت تلقى منهم من الحسد والأذى . (٤)

٤ - المؤمنون والطمأنة والتسكين :

جاء التسكين والطمأنة في القرآن عن طريق النهي خطاباً للمؤمنين من ذلك قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ } (٥)

(١) المعاني الثانية في الأسلوب القرآني ص ٣٨٢ .

(٢) أنظر الكشاف ١٩٠/٢ وتفسير أبي السعود ٥٥٢/٢ والتحرير والتنوير

٢٠٢/١ . وبلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٩٢ .

(٣) سورة يوسف ، الآية " ٦٩ " .

(٤) أنظر الكشاف ٢٣٣/٢ وتفسير أبي السعود ١٧٠/٢ .

(٥) سورة فصلت ، الآية " ٢٠ " .

في هذه الآية الكريمة بيان للتكريم البالغ الذي حظي به المؤمنون في الدنيا حيث تنزل عليهم الملائكة بالطمأنة والتسكين ونفي الخوف والحزن عن أنفسهم ، وليس هذا فحسب بل بالبشارة بالجنة على نحو ما ينبيء عنه التعبير بقوله :
{ ابشروا بالجنة } .

وفي وصف الجنة بقوله { التي كنتم توعدون } تذكير لهم بأعمالهم التي وعدوا عليها بالجنة وتعجيل لهم بمسرة الفوز برضى الله وتحقيق وعده أي التي توعدونها في الدنيا . (١)

ونظيره قوله تعالى تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين عقب ما أصابهم يوم أحد من قتل وجرح { وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } (٢) .

ينبض النهي في قوله { ولا تهنوا ولا تحزنوا } بمعاني الطمأنة والتسكين والتشجيع للمؤمنين والتحريض على الجهاد يعني لاتضعفوا لما أصابكم ولا تبالوا به ولا تحزنوا على من قتل منكم وجرح فأنتم الأعلى . (٣) .

(١) التحرير والتنوير ٢٨٥/٢٤ وانظر التمهيد في أصول الفقه ٣٦١/١ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية * ١٣٩ * .

(٣) راجع الكشاف ٤٦٥/١ وتفسير أبي السعود ٥٦١/١ وما بعدها .

بيان العاقبة :

يبدو أن المراد ببيان العاقبة في الذكر الحكيم أن هناك أمراً ظاهراً يقابله أمر آخر هو المقصود والمطلوب كما في قول الحق تبارك وتعالى { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ } (١) فالمراد ببيان أن { عاقبة الجهاد الحياة لا الموت } (٢) ومثله قوله تعالى { وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ } (٣) يقول السبكي { أي عاقبة الظلم العذاب لا الغفلة } (٤) .

وظاهرة النهي عن الحسبان لها شأنها في القرآن الكريم تقويماً وتغييراً للمفاهيم أو تعديلاً لها بما يتفق والقرآن سواء أفاد الأسلوب مدحاً وتكريماً أم ذماً وتوبيخاً .

والنهي عن الحسبان ورد في القرآن في تسع آيات نلاحظ فيها نفي المفعول الثاني عن الأول وإثبات مقابله في مقام مسيطر يبدأ بالنفي وينتهي بالإثبات كما في الآيات السابقة . (٥)

ثم إن الأحداث المثبتة بعد النهي قد تكون موضع غفلة من البشر وبخاصة أن أكثرها غيبي يتعلق بالجزاء الخاصة تكريماً أو نكالاً ، أو يتعلق بالبعث وقوة الكفر في نظر المسلمين وقد اهتمت بها السياقات لتكون على ذكر من المؤمن أبداً ، وهذا من أسباب تكرار الفعل { ولا تحسبن } في سياق واحد مع ما نهبوا إلى ما يظن أنه طول في السياق بسبب فاصل بين المفعول الأول والمفعول الثاني موطن الفائدة ونظن كما يقول الدكتور صباح دراز - أنه أشمل من ذلك صياغة ومدلولاً وترسيخاً وإيقاعاً . (٦) .

(١) سورة آل عمران ، الآية " ١٦٩ " .

(٢) الاتقان ٢٤٤/٣ ومعتك الأقران ٤٤٤/٨ .

(٣) سورة إبراهيم ، الآية " ٤٢ " .

(٤) عروس الأفراح ٢ / ٢٢٦ .

(٥) الأساليب الإنشائية ص ٦٩ .

(٦) الأساليب الإنشائية ص ٧٠ وما بعدها .

والحسبان في بعض المعاجم بمعنى الظن (١) ، و فرق بينهما الراغب قائلاً بأن (الحسبان أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله فيحسبه ويعقد عليه الأصابع ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك ، أما الظن أن يخطر النقيضين بباله فيغلب أحدهما على الآخر . (٢) .

وقبل أن نخرج على أساليب النهي عن الحسبان في القرآن الكريم أود أن أشير إلى أن أكثرها جاءت في مواطن التهديد والوعيد والترهيب على سبيل التعريض ، وأقلها في مواطن التكريم والترغيب .

وقيل إن الخطاب في جميعها للنبي صلى الله عليه وسلم إرشاداً وتعليماً وأمرأً بالتبليغ (٣) ، والآن نكتفي بسوق بعض النماذج وتحليلها :-

قال تعالى : { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ } (٤) .

في هذه الآية الكريمة يخبر الحق سبحانه وتعالى عن الشهداء أنهم في الجنة يرزقون ، ففيها رد كما قال الرازي على المثبطين الذين قالوا إن الجهاد يفضي إلى القتل ، حيث أبطله الرازي وبين أنه باطل لأن القتل إنما يحصل بقضاء الله وقدره فالآجال بيد الله ، ثم إن القتل في سبيل الله أجل من الحياة لأنه مفض إلى نوع جليل من الحياة والقربة والكرامة وأفضل أنواع الرزق وأعلى مراتب الفرح والسرور . (٥)

والخطاب في قوله { ولا تحسبن } للرسول صلى الله عليه وسلم وقرىء

(١) انظر مقاييس اللغة ٥٩/٢ والصحاح ١١١/٨ واللسان ٨٦٦/٢ ومعجم ألفاظ

القرآن الكريم ٢٦٥/٨ .

(٢) المفردات ص ١١٧ وما بعدها .

(٣) الأساليب الإنشائية ص ٧٠ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية " ١٦٩ " .

(٥) التفسير الكبير ٩ / ٩٠ .

{ ولا يحسبن } أي لا يحسبن حاسب أو أحد على التعميم في الفاعل تأكيداً للحدث وإشهاراً له لأنه حقيقة أخروية . (١) .

فهذه الآية تكشف صورة الشهداء الذين ارتفعوا فوق شهواتهم وغالبوا هوى الشيطان وحققوا صورة النموذج الحي ، لا تحسبنهم أمواتاً بل أحياء ، فواء هذا النهي بيان العاقبة والفضل والتكريم لهؤلاء الشهداء ، وفيه أن القتل في سبيل الله شرف خالد لا يجيء إلا من فئة أخلصوا الإيمان لا يفرطون في كرامتهم ويأبون الذل والضيم ، وفيه أن الدين مثل عاليه بعيدة عن صفات الهوى والغرض ، قائمة على أسس سليمة قوية من الأخلاق نظيفة من دنس الشرك تعلق فوق الشبهات ، ومن ثم فهؤلاء الشهداء أحياء لم يموتوا وإن كانوا غير موجودين بأجسامهم فوق الأرض ، وفي تناول البصر ، هي حياة على كل حال لا ندرك كنهها ولا نحيط علماً بحقيقتها (٢) ، فهي حياة خاصة بهم تختلف عن الحياة المتعارف عليها في هذا العالم (٣) ، وفي هذا مزيد من التكريم والاحظوة لهؤلاء الشهداء .

ومنه قوله تعالى : [وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصَنَّ فِيهِ الْأَبْصَارُ] (٤) .

توضح هذه الآية الكريمة قدرة الله سبحانه وواسع علمه فهو عالم بما يفعل الظالمون لا يخفى عليه منه شيء .

والخطاب في هذه الآية موجه للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد تثبيته على ما كان عليه من عدم حسبانته عز وجل غافلاً ، أو أن المراد بالنهي عن حسبانته غافلاً الإيدان بأنه عالم بما يفعل الظالمون لا يخفى عليه منه شيء وأنه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد .

(١) الأساليب الإنشائية ص ٧٠ .

(٢) المعاني الثانية في الأسلوب القرآني ص ٢٨٤ .

(٣) التحرير والتنوير ٤ / ١٦٥ .

(٤) سورة إبراهيم ، الآية " ٤٢ " .

ففيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ووعد له أكيد ووعيد للكفرة
وسائر الظالمين شديد أو لكل أحد ممن يستعجل عذابهم أو يتوهم إهمالهم للجهل
بصفاته تعالى والافتتار بإمهاله ، وقيل معناه لاتحسبته تعالى يعاملهم معاملة
الغافل عما عملوا بل معاملة من يحافظ على أعمالهم ويجازيهم بذلك نقيراً
وقطميراً (١) .

فالنهي في قوله [ولاتحسبن الله غافلاً] لبيان العاقبة أي عاقبة الظلم
العذاب لا الغفلة . (٢)

وقد دار بين العلماء جدل كبير حول بعض أساليب النهي عن الحساب كما
في قوله تعالى : { وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا
نُطَلِّي لَهُمْ لِيُزِدُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } (٣)

اختلف العلماء في تعيين من نزلت فيه هذه الآية فقال ابن عباس : في
اليهود والنصارى والمنافقين ، وقال عطاء في قريظة والنضير ، وقال مقاتل : في
مشركي مكة ، وقال الزجاج في قوم أعلم الله نبيه أنهم لا يؤمنون أبداً وليست في
كل كافر إذ آمن بعضهم ، وقال مكي هذا هو الصحيح من المعاني . (٤)

ولاشك أن بقاء المتخلفين عن الجهاد كما يقول الرازي ((ليس خيراً من قتل
أولئك الذين قتلوا في أحد لأن هذا البقاء صار وسيلة الخزي في الدنيا والعقاب
الدائم في القيامة ، وقتل الشهداء صار وسيلة إلى الثناء في الدنيا والثواب
الجزيل في الآخرة)) (٥) .

وقد أول المعتزلة اللام في قوله ((ليزدادوا)) على أنها لام العاقبة إثباتاً

-
- (١) أنظر الكشاف ٢٨٢/٢ وتفسير أبي السعود ٢٧٤/٣ .
 - (٢) انظر عروس الأفراح ٢٢٦/٢ وأساليب بلاغية ص ١١٨ .
 - (٣) سورة آل عمران ، الآية " ١٧٨ " .
 - (٤) انظر البحر المحيط ١٢٤/٣ والأساليب الإنشائية ص ٧٢ .
 - (٥) التفسير الكبير ٩ / ١٠٩ .

للغرض والباعث والحكمة ، وقد رده الرازي وأبوحيان وغيرهما بأنه عدول عن الظاهر والصواب أن اللام للتعليل أو لام الإرادة كما يسميها أبو السعود (١) .
والغرض البلاغي المراد في هذه الآية نهي الكافرين عن السرور بإملاء الله لهم وبقائهم وتحسيرهم ببيان أن ذلك شر محض وإستدراج وكيد يحيق بهم ضرره ، استكثاراً من الإثم وإستحقاقاً لمهين العذاب والخزي في الآخرة .
وقرىء { ولاتحسبن } تسليية للنبي صلى الله عليه وسلم وإظهاراً لعاقبة الكفر وبياناً لعجزهم ، وقيل الخطاب للعموم قصداً إلى إشاعة فظاعة حالهم . (٢) .
موازنة بين سياقين :-

ولما نجنيه من وراء عقد الموازانات بين الآيات المتشابهات في القرآن من أسرار ولطائف بيانية تكشف عن جانب من جوانب إعجاز القرآن في إحكام نظمه وورصفه أثرت عقد موازنة بين سياقين مختلفين :-

قال تعالى : { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ } (٣)
وقوله تعالى : { وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ } (٤)

والنهي في هاتين الآيتين لبيان العاقبة . (٥) .

ونلاحظ كما لاحظ الدكتور صباح دراز من خلال هذه الموازنة مايلي :-

١ - جاء الفعل ((تقولوا)) هنا لأن المشركين كانوا يقولون إن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يقتلون أنفسهم ويخسرون حياتهم ، فقال الله : { وَلَا تَقُولُوا

(١) انظر التفسير الكبير ١١٢/٩ والبحرالحيط ١٢٤/٣ وتفسير أبي السعود ٦٠٧/٨ .

(٢) انظر تفسير أبي السعود ٦٠٥/٨ والأساليب الإنشائية ص ٧٣ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية " ٦٦٩ " .

(٤) سورة البقرة ، الآية " ١٥٤ " .

(٥) عروس الأفراح ٢٢٦/٢ والاتقان ٢٤٤/٣ ومعتك الأقران ٤٤٤/٨ وأساليب

بلاغية ص ١١٨ وبلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٩١ .

كما قال المشركون إنهم يذهبون إلى الفناء ولا ينشرون ، ولكن اعلّموا أنهم

أحياء ، وقال الاصم لاتسموهم بالموتى وقولوا لهم الشهداء الأحياء . (١)

٢ - لما كانت آية البقرة تنهاهم عن التشبه بالكفار في القول كان الأسلوب قوياً
تصحيحاً للعقيدة ، ووزناً للألفاظ بميزان دقيق قبل النطق بها ، ثم جاء
التذييل مقررأ عاتباً [ولكن لاتشعرون] .

دل على العتاب صياغة الفعل ((يقتل)) تصويرأ حالياً إستحضارأ للمشهد ،
فهذا الذي يسفك دمه وتزهق روحه في سبيل الله لا يكون إلا حياً ، أما آية آل
عمران فجاءت في شهداء أحد وإن كانت عامة ، ولذا رق الأسلوب وفاح رحمة
وحناناً ، فليس النهي عما يدور في الأفواه ويتلفظ به اللسان بل عن الحسبان
والخاطر يطوف بالقلب نهياً عن الظن ، والقول من باب أولى .

كما أن الفعل ((قتلوا)) حقق الاستشهاد وأكد النهي وهذا ناسب التكريم
الخاص لهؤلاء الشهداء وتعدد ألوان رائحة منه تثبت الحياة مضاعفة [عند ربهم
يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من
خلفهم إلا خوف عليهم ولا هم يحزنون] ترغيباً في الجهاد المخلص رفعا لكلمة الله في
الأرض رب الأولى والآخرة . (٢) .

(١) التفسير الكبير ١٦١/٤ .

(٢) الأساليب الإنشائية ص ٧١ وما بعدها .

الإلهاب والتهبيج

أسلوب الإلهاب والتهبيج ورد في القرآن بأساليب متنوعة اتخذت وسائل لإبرازه كالأمر والنهي والقسم والشرط .

والإلهاب والتهبيج في إصطلاح البلاغيين كما ذكر العلوي ((مقولان على كل كلام دال على الحث على الفعل لمن لا يتصور منه تركه وعلى ترك الفعل لمن لا يتصور منه فعله ، ولكن يكون صدور الأمر والنهي من هذه حالة على جهة الإلهاب والتهبيج له على الفعل أو الكف لاغير)) ويضيف قائلاً ((فهذان نوعان من الكلام يردان في الكلام الفصيح والخطب البالغة ولولا موقعهما في البلاغة أحسن موقع لما وردا في كتاب الله الذي أعجز الثقلين الإتيان بمثله أو بأقصر سورة من سورة)) (١) .

وحين ننعم النظر في أساليب النهي التي أفادت الإلهاب والتهبيج نجدها تختلف باختلاف المخاطب ، ونلاحظ أن أكثرها جاءت خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم والمرادة أمته في أكثرها ، لأن من وراء هذه الأساليب غاية عظيمة إذ هي مظهر من مظاهر الألوهية تتجلى في خطاب البشرية المربوبة في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم وغيره من الرسل السابقين عليهم السلام وهم صفوة الخلق وأقربهم إليه تعالى (٢) .

والواضح أن الألوهية تتجلى في هذه الأساليب وفي كثير من أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم .

ونعرج الآن على بعض أساليب النهي التي أفادت الإلهاب والتهبيج في الذكر الحكيم ليقاس بعد النظير على نظيره :

مع الرسول صلى الله عليه وسلم :

أكثر أساليب النهي التي أفادت الإلهاب والتهبيج جاءت خطاباً لخاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم وهي كثيرة تند عن الحصر نكتفي بإزجاء بعض

(١) الطراز ٣ / ١٦٥ - ١٦٧ .

(٢) انظر من أسرار التعبير القرآني ص ٨ وما بعدها ودلالات التراكيب ص ٢٥٣ .

النماذج وتحليلها ليقاس بعد ذلك المثيل على مثيله .

ولعل من أقوى أساليب النهي التي يظهر فيها بوضوح معنى الإلهاب والتهبيج أساليب النهي عن الكون التي سنفصل القول فيها في موضع لاحق بإذن الله ، يهمننا منها ماخوطب بها الرسول صلى الله عليه وسلم نحو قوله تعالى : [وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ] (١) وقوله تعالى : [إِنْ مَثَلَّ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُضْتَرِّينَ] (٢) فالخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم أي دم على يقينك وعلى ما أنت عليه من ترك الإمتراء ، فنهيه عن الإمتراء وجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون ممترياً من باب التهبيج لزيادة الثبات والطمأنينة وأن يكون لطفاً لغيره . (٣) .

ومنه قوله تعالى : [وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ] (٤) .

يقول الزمخشري في تفسير هذه الآية ((أي فأنبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك والتكذيب بآيات الله ، ويجوز أن يكون على طريق التهبيج والإلهاب كقوله : [فَلا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ وَلا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ] (٥) - ولزيادة التثبيت والعصمة له عليه السلام)) (٦)

(١) سورة يونس ، الآية " ١٠٥ " .

(٢) سورة آل عمران ، الآيتين " ٥٩ - ٦٠ " .

(٣) انظر الكشاف ٤٢٣/٨ والتفسير الكبير ٨٦/٨ والبحر المحيط ٤٧٩/٢ وتفسير

أبي السعود ٤٩٦/٨ .

(٤) سورة يونس ، الآية " ٩٥ " .

(٥) سورة القصص ، الآيتين " ٨٦ - ٨٧ " .

(٦) الكشاف ٢ / ٢٥٢ .

ومن أساليب النهي التي أفادت معنى الإلهاب والتهيج قوله تعالى خطاباً
للسول صلى الله عليه وسلم [وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ
وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ...] (١) .

ففي توجيه النهي في قوله [لا يصدك عن آيات الله] كناية عن نهيه أن
يتقبل منهم ما فيه صد عن آيات الإله وحاشاه صلى الله عليه وسلم عن ذلك ،
فالنهي كما ذكر بعض المفسرين للإلهاب والتهيج وإثارة غضبه صلى الله عليه
وسلم عليهم وتقوية شدته معهم ، والتقييد في قوله [بعد إذ أنزلت إليك] لتعليل
النهي أي لا يجوز أن يصدوك عن آيات الله بعد إذ أنزلها إليك فإنه ما أنزلها إلا
للأخذ بها ودوام تلاوتها والعمل بموجبها فلو فرض أن يصدوك عنها لأصبح إنزالها
إليك عبثاً ولذهب المقصود منها . (٢)

ومنه قوله تعالى : [لَا يَغْرُنْكَ تَلَقُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ
قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ] (٣) .

يقول الزمخشري ((فإن قلت كيف جاز أن يفتر رسول الله صلى الله عليه
وسلم بذلك حتى ينهى عن الاغترار به ؟ قلت فيه وجهان أحدهما أن مدره القوم
ومتقدمهم يخاطب بشيء فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعاً فكانه قيل لا يغرنك ،
الثاني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان غير مغرور بحالهم فأكد عليه وثبت
على إلتزامه كقوله : ولا تكن من الكافرين - ولا تكونن من المشركين - ولا تطع
المكذبين ... وقد جعل النهي في الظاهر للتقلب وهو في المعنى للمخاطب ، وهذا
من تنزيل السبب منزلة المسبب لأن التقلب لو غره لأغتر به فمنع السبب ليمتنع
المسبب)) (٤) فالنهي للإلهاب والتهيج كما هو واضح من السياق .

(١) سورة القصص ، الآية " ٨٧ " .

(٢) انظر الكشاف ٣/١٩٤ وتفسير أبي السعود ٤/٢٢٣ والتحرير والتنوير ٢٠/١٩٥
وما بعدها .

(٣) سورة آل عمران ، الآيتين " ١٩٦ - ١٩٧ " .

(٤) الكشاف ١/٤٩٠ .

ومنه قوله : { وَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا } (١) .

افتتحت هذه الآية الكريمة بهذا النهي الذي يفيد الدوام والإلهاب والتهبيج لأنه صلى الله عليه وسلم لا يتصور منه وقوع ذلك حتى ينهى عن طاعتهم ، فهو نهى عن مداراتهم في أمر الدعوة واستعمال لين الجانب في التبليغ والمسامحة في الإنذار كنى عن ذلك بالنهي عن طاعتهم مبالغة في الزجر والتنفير عنه بنظمه في سلكها وتصويره بصورتها ، ومن حمل النهي عن التهبيج والإلهاب كما يقول أبو السعود فقد أبعد عن التحقيق بمراحل . (٢)

ونظيره قوله تعالى { فَلَا تَطِعِ الْمُكَذِّبِينَ وَدُوَالُو تَدِهِنُ فَيُدْهِنُونَ } (٣) فنهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن طاعة المكذبين للإلهاب والتهبيج والثبات والتصميم على معاصاتهم أي دم على ما أنت عليه من عدم طاعتهم وتصلب في ذلك . (٤)

ومنه قوله تعالى { وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } . (٥)

لاشك أن الرسول صلى الله عليه وسلم بطبيعة الرسالة التي بعث من أجلها داع إلى الله ومبلغ عنه ، فالنهي في هذه الآية للإلهاب والتهبيج والثبات على تبليغ الرِّسالة ، وحول هذا المعنى يقول أبو السعود ((وهذا وما قبله للتهبيج والإلهاب وقطع أطماع المشركين عن مساعدته عليه السلام لهم وإظهار أن المنهى

(١) سورة الأحزاب ، الآية " ٤٨ " .

(٢) انظر الكشاف ٢٦٦/٣ وتفسير أبي السعود ٤٢٤/٤ ومن أسرار التعبير القرآني ص ٨ .

(٣) سورة القلم ، الآية " ٨ " .

(٤) انظر تفسير أبي السعود ٥ / ٢٧١ .

(٥) سورة القصص ، الآية " ٨٨ " .

عنه في القبح والشرية بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه أصلاً . (١)

وفي القرآن الكريم نواه حقيقية خوطب بها الرسول صلى الله عليه وسلم جاءت تفيض بالإلهاب والتهيج والتسلية والتأييد له نحو قوله تعالى [فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ اللَّهُ الَّذِينَ لَا يُوْقِنُونَ] (٢) . وقوله تعالى : [وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً ...] (٣) .

وأحب أن أنبه إلى أن قضية التسلية والتسرية للنبي صلى الله عليه وسلم في مواجهة أعتى المشركين عولجت في القرآن بأساليب متنوعة وبصيغ عديدة من صيغ النهي كما في الآيات السابقة ومنها قوله تعالى : [أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ] (٤) وقوله تعالى : [وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي خَبَقٍ مِمَّا يَنْفَكُونَ] (٥) .

مع الأنبياء عليهم السلام :-

أفاد النهي في القرآن الكريم مع الإلهاب والتهيج الدوام والاستمرار كما في بعض خطابات الأنبياء عليهم السلام من ذلك قوله تعالى خطاباً لموسى عليه السلام [وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَآيُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ] (٦)

(١) تفسير أبي السعود ٢٢٢/٤ وراجع الكشاف ١٩٤/٣ والبلاغة في تفسير أبي

السعود ص ٢٠٧ وما بعدها .

(٢) سورة الروم ، الآية ٦٠ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٧٦ .

(٤) سورة فاطر ، الآية ٨٠ .

(٥) سورة النحل ، الآية ١٢٧ .

(٦) سورة طه الآيتين ١٣ - ١٦ .

فالنهي في قوله : { لا يصدنك } بحسب الظاهر نهى للكافر عن صد موسى عليه السلام عن الساعة ، لكنه في الحقيقة نهى له عليه السلام عن الانصداد عنها على أبلغ وجه وأكده ، فإن النهي عن أسباب الشيء ومبادئه المؤدية إليه نهى عنه بالطريق البرهاني وإبطال للسببية من أصلها ، فالنهي في قوله { لا يصدنك } للإلهاب والتهييج . (١)

ولعل السر من تقديم الجار والمجرور ((عنها)) على قوله { من لا يؤمن بها } للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر فإن ماحقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مستشرفة له فيتمكن عند وروده فضل تمكن ، ولأن في المؤخر نوع طول ربما يخل تقديمه بجزالة النظم الكريم .

ومنه قوله تعالى خطاباً لموسى وأخيه هارون عليهما السلام { قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتِكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } (٢) .

بعد أن بشر الله سبحانه موسى وأخاه بإجابة الدعوة (أمرهما بالاستقامة على الدعوة والرسالة ونهاهما عن إتباع سبيل الجاهلين ، ونهايك باستقامة النبوة ، فالأمر بالاستقامة مستعمل في الدوام عليها لذلك أعقب حثهما على الاستقامة بالنهي عن اتباع طريق الذين لا يعلمون ، وإن كان ذلك مشمولاً للاستقامة تنبيهاً على توخي السلامة من العدول عن طريق الحق اهتماماً بالتحذير من الفساد) (٣) .

ومنه قوله تعالى خطاباً لداود عليه السلام { يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .. } (٤)

فالأمر في قوله { فاحكم بين الناس بالحق } أمر بالديمومة وتنبيه لغيره ممن ولى أمور الناس كما أن النهي في قوله { ولا تتبع الهوى } للإلهاب والتهييج

(١) انظر تفسير أبي السعود ٦٢٠/٣ وما بعدها .

(٢) سورة يونس ، الآية ٨٩ " .

(٣) انظر الكشاف ٢٥١/٢ والتفسير الكبير ١٥٩/١٧ والتحرير والتنوير ٢٧٣/١١ .

(٤) سورة ص ، الآية " ٢٦ " .

فحاشاه عليه السلام عن اتباع الهوى وبخاصة في أمور الدين والدنيا .

وقد عد بعض الباحثين النهي في قوله تعالى خطاباً لنوح عليه السلام :
{ قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ
بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } (١) بأنه للإلهاب والتهبيج . (٢) .

وهذا الرأي الذي أخذ به هذا الباحث يأباه نظم الآية الكريمة ، والصواب أن
النهي في قوله { فلا تسألن } نهي حقيقي فيه زجر وعتاب شديد لنوح عليه السلام
كما ذكر بعض المفسرين . (٣)

صح المؤمنيين :-

ورد النهي في القرآن الكريم مراداً منه الإلهاب والتهبيج خطاباً للمؤمنين
نحو قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَهْلِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ
اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } (٤) .

فالنهي في قوله { لاتهلكم } نهي حقيقي فيه إلهاب وتهبيج وحث وتنفير أي
لايشغلکم الاهتمام بتدبير أمورها والاعتناء بمصالحها والتمتع بها عن الاشتغال
بذكره عز وجل عن الصلاة وسائر العبادات ، فالمراد نهيمهم عن التلهي بها وتوجيه
النهي إليها للمبالغة والتنفير منها ، ((ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون))
حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني (٥) .

ويظهر معنى الإلهاب والتهبيج في كثير من أساليب النهي عن الكون (٦)

(١) سورة هود ، الآية ٤٦ .

(٢) انظر وجوه المخاطبات في القرآن الكريم ص ٢٨٨ .

(٣) راجع الكشاف ٢٧٣/٢ والتفسير الكبير ٤/١٨ وتفسير أبي السعود ٥١/٣

والتحريير والتنوير ٨٤/١٢ .

(٤) سورة المنافقون ، الآية ٩ .

(٥) انظر الكشاف ١١١/٤ وتفسير أبي السعود ٥ / ٣٣٥ .

(٦) ينظر المعجم المفهرس ص ٦٣٩ .

التي خوطب بها المؤمنون تحذيراً لهم من التشبه بالضالين من الأمم السابقة ومن المشركين والمنافقين كما في قوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا... } (١) وقوله تعالى : { مَنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ كَانُوا شِعْباً } (٢) .

فالنهي في قوله : { لا تكونوا من المشركين } نهي حقيقي فيه إلهاب وتهييج وتنفير من الشرك فهو توكيد للأمر بالتقوى وإقامة الصلاة وفيه إحياء بأن في التقوى والصلاة لله وحده الوسيلة والغاية دون هذا التفرق الغريب بين المشركين الذين تنوعت عقائدهم من شرك وكفر وإلحاد ، فهذا التعبير أقوى من قولنا { لا تشركوا } (٣) .

وقد أشرت فيما مضى إلى أن أسلوب الإلهاب والتهييج في القرآن جاء بأساليب متنوعة حيث جاء عن طريق الأمر كما في قوله تعالى : { فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً } (٤) وعن طريق النهي كما سبق تفصيله .

وقد يجتمع الأمر والنهي في السياق الواحد مع تقديم أحدهما على الآخر ولكل أسرارته وخصوص سياقه فمما تقدم فيه الأمر على النهي قوله تعالى : { ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } (٥) وتارة يتقدم النهي على الأمر كما في قوله تعالى : { فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً } (٦) وقوله تعالى { وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ } (٧) .

(١) سورة آل عمران ، الآية " ١٥٦ " .

(٢) سورة الروم ، الآية " ٣١ " .

(٣) الأساليب الإنشائية ص ٩٤ .

(٤) سورة الزمر ، الآية " ٢ " .

(٥) سورة الجاثية ، الآية " ١٨ " .

(٦) سورة الفرقان ، الآية " ٥٢ " .

(٧) سورة الأحزاب ، الآية " ٤٨ " .

وقد يجتمع في السياق الواحد طريق الأمر والنهي والشرط كما في قوله تعالى : [وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَاً مِنَ الظَّالِمِينَ] (١)

فهذه الآية الكريمة نظمت نظماً فريداً حيث أمره الله بإقامة وجهه للدين حنيفاً ، فاللام في قوله { للدين } للعلّة أي محض وجهك للدين لاتجعل لغير الدين شريكاً في توجهك . ففي هذا التعبير لطيفة عن توجيهه نفسه بأسرها لأجل ما أمره الله به من التبليغ وإرشاد الأمة وإصلاحها ، ثم عطف عليه النهي بقوله { ولا تكونن من المشركين } توكيداً لمعنى الأمر قبله حيث جاء مؤكداً بنون التوكيد للمبالغة في النهي عنه اعتناءً بالتبروء من الشرك ، وإيثار التعبير بقوله { من المشركين } مع أنه أبلغ من قولنا { لاتكن مشركاً } لما فيه من التبروء من طائفة الشرك ، ويلاحظ أن النهي الثاني المعطوف السابق جاء خالياً من التوكيد لأن النهي لما اقترن بما يوميء إلى التعليل كان فيه غنية عن توكيده لأن الموصول في قوله { مالاينفعك ولا يضرك } يوميء إلى وجه النهي بدعائك ، إذ دعاء أمثالها لا يقصده العاقل .

كما أن تفريع الشرط ((فإن فعلت)) على النهيين السابقين للإشارة إلى أنه لا معذرة لمن يأتي مانهني عنه بعد أن أكد نهيه وبينت علتة فمن فعله فقد ظلم نفسه واعتدى على حق ربه . (٢) .

ولهذه القضية أعني توالي الأساليب موطنها من البحث بإذن الله وتوفيقه.

(١) سورة يونس ، الآيتين ١٠٥ - ١٠٦ * وانظر وجوه المخاطبات في القرآن ص ٢٩٢ - ٢٩٤ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ٢٠٢/١١ ومابعدها ووجوه المخاطبات في القرآن ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

التهديد والوعيد :

تنوعت طرائق القرآن للتأثير في النفس الإنسانية فتارة يعمد إلى أسلوب الترغيب وتارة أخرى إلى أسلوب الترهيب والتهديد ، وطبعي أن أسلوب التهديد من أقوى هذه الأساليب التي سلكها القرآن للوصول إلى منافذ التأثير في النفس الإنسانية لما ركب فيها من غريزة الخوف التي تدفع الإنسان إلى توقي الخطر والبعد عما يعرضه له . (١)

وقد تأنى أسلوب التهديد في القرآن الكريم بأساليب عديدة كالأمر والنهي والخبر والاستفهام وغيرها .

وفي هذا الموضوع نتناول أساليب النهي التي أفادت التهديد والوعيد في القرآن على نحو نرجو فيه التوفيق والعون من الله تعالى :

التهديد من قبل الحق سبحانه وتعالى :

تفيد بعض أساليب النهي في الذكر الحكيم معنى التهديد والوعيد - وهو تهديد غير مباشر - من ذلك قوله تعالى خطاباً لنوح عليه السلام وتهديداً ووعيداً للضالين من قومه [**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا** وَوَحِينَا وَلَا تَخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ] (٢)

السياق يدل على نهاية الغضب وشدته ، وعلى التهديد المرعد الذي نلاحظه من خلال التعبير بالنهي ووصفهم بالظالمين والحكم عليهم بالموت غرقاً . (٣)

(١) راجع أسلوب الدعوة القرآنية ص ١١١ .

(٢) سورة هود ، الآية " ٣٧ " .

(٣) راجع الكشاف ٢٦٨/٢ ودلائل الإعجاز تحقيق محمود شاكر ص ٣١٧ وخصائص التراكيب للدكتور محمد أبو موسى ص ٥٣ وبلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٩٢ .

على السنة الأنبياء عليهم السلام :

خرجت بعض أساليب النهي في القرآن التي جاءت على السنة الأنبياء عليهم السلام إلى معنى التهديد والوعيد من ذلك قوله تعالى على لسان صالح عليه السلام مهدياً قومه بالهلاك إن أصابوا الناقة بسوء [وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] (١) .

في هذه الآية الكريمة أخبر صالح عليه السلام قومه بنزول آية بينة تؤكد لهم صدقه وتجلي ماران على قلوبهم من كفر وضلال لكنهم تمادوا في غيهم وضلالهم ، فأمرهم بترك الناقة تاكل من أرض الله وهددهم بعدم التعرض لها بسوء .
ونلاحظ من إضافة الناقة إلى لفظ الجلالة { ناقة الله } التشريف والتعظيم والتخصيص لها نحو بيت الله وروح الله ، لمجيئها من جهته تعالى بلا أسباب معهودة ووسائط معتادة لذلك كانت آية خارقة للعادة ، ثم أعقب ذلك بنهيهم عن مسها بسوء وهذا كما يقول أبو حيان ((تنبيه بالأدنى على الأعلى إذا كان قد نهاهم عن مسها بسوء إكراماً لآية الله فنهيه عن نحرها ومنعها عن الماء والكلا أولى .
ففي التعبير بالنهي في قوله [وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ] تهديد ووعيد شديد لمن مسها بسوء وبالعذاب الأليم الذي أعده الله لهم يوم القيامة ، كما أن في تنكير السوء مبالغة في النهي أي لاتتعرضوا لها بشيء مما يسؤوها أصلاً ولا تطردوها ولاتريبوها إكراماً لآية الله)) (٢)

ومنه قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام تهديداً لإخوته بأن يأتوه

(١) سورة الأعراف ، الآية * ٧٣ .

(٢) انظر الكشاف ٨٩/٢ وما بعدها والبحر المحيط والنهر الماد من البحر ٢٢٨/٤

وتفسير أبي السعود ٣٦٣/٢ والتحرير والتنوير ٢١٨/٨ .

بَاخَ لَهُمْ مِنْ أَبِيهِمْ [وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ . فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ] (١) .

يكشف السياق عن فطنة يوسف عليه السلام وذكائه فقد جمع في قوله لهم بين الترغيب والترهيب والتهديد ، فالترغيب في قوله ((ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين)) أما الترهيب والتهديد ففي قوله ((فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون)) حيث توعدهم عليه السلام وهددهم بهذا القول ، ففي التعبير بقوله ((فلا كيل لكم عندي ولا تقربون)) كناية عن حرمانهم من الميرة التي يمتارون بها عن المجاعة والقحط . (٢)

ومنه قوله تعالى على لسان موسى : [قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ] (٣)

خاطب موسى عليه السلام السحرة خطاب محذر وندبهم إلى قول الحق وترك الاستمسك بالكذب فيهلكهم الله بعذاب عظيم .

والسياق يوضح إخلاص موسى عليه السلام في النصيحة لهم حيث قدم قبل كل شيء الوعيد والتهديد عليهم يثوبون إلى الحق فقال [ويحكم لا تفتروا على الله كذباً] فالنهي عن الافتراء على الله بالكذب للتهديد والوعيد كما هو واضح من الآية الكريمة .

وذكر الرازي نقلاً عن الزجاج أنه يجوز نصب [ويحكم] على إضمار فعل التقدير إلزموا ويحكم ، أو على إضمار حرف النداء كقوله تعالى : [يَا وَيْلَتَىٰ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ] (٤) .

(١) سورة يوسف ، الآيتين ٥٩ - ٦٠ .

(٢) انظر التفسير الكبير ١٧١/١٨ والبحر المحيط ٣٢١/٥ .

(٣) سورة طه ، الآية ٦١ .

(٤) سورة هود ، الآية ٧٧ وراجع التفسير الكبير ٧٣/٢٢ والبحر المحيط ٢٥٤/٦

والتحريير والتنوير ٤٤٩/١٦ ووجوه الخطاب في القرآن الكريم ص ٤٦٩ .

ومنه قوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام في رسالة بعث بها إلى ملكة سبأ قال تعالى : [قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ] (١) .

حذر سليمان عليه السلام في رسالته التي بعثها إلى ملكة سبأ من التناول عليه وأمرها بالانقياد والطاعة له وبإخلاص العبادة لله وحده ، فالنهي في قوله [أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ] مستعمل في التهديد ولذلك أتبعته ملكة سبأ بقولها [يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي] (٢) .
المؤمنون والتهديد :-

ورد التهديد للمؤمنين في القرآن الكريم عن طريق النهي ، ونلاحظ فيها تقييد النهي بالشرط للتحذير من ارتكاب ما يخالف أصلاً من أصول الإيمان من ذلك قوله تعالى خطاباً للمؤمنين [وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجْلَهُنَّ فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَحوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِيَتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ...] (٣) .

بعد أن بين الله تعالى في هذه الآية بعض أحكام الطلاق والرجعة أردفه بالتحذير والتهديد الشديد من اتخاذ آيات الله هزوا وسخرية ، فهذا التعبير يستثير في نفس المؤمن شعور الحياء من الله إذ كيف يتفق الإيمان مع الاستهزاء بآيات الله وأحكامه ؟

فالنهي في قوله تعالى : [وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ] كما نص عليه الرازي للتهديد ، لأن التهديد إذا ذكر بعد التكاليف كان ذلك التهديد على تركها لاعلى شيء آخر غيرها . (٤)

(١) سورة النمل ، الآيتين " ٢٩ - ٣١ " .

(٢) سورة النمل ، الآية " ٣٢ " وانظر التحرير والتنوير ٢٦٢/١٩ .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٣١ " .

(٤) التفسير الكبير ١١٩/٦ وراجع أسلوب الدعوة القرآنية ص ٢٧٦ وما بعدها .

بين النهي عن القرب والاعتداء في القرآن الكريم :

للكشف عن أسرار النهي عن القرب والاعتداء في القرآن الكريم ولطائفه
البيانية يستلزم منا إحصاء الآيات التي ورد فيها النهي عن القرب وكذلك الحال
بالنسبة للنهي عن الاعتداء .

فقد جاء النهي عن القرب في القرآن الكريم في إحدى عشرة آية (١) ،
نلاحظ فيها اختلاف المخاطب كما يتضح من التقسيم الآتي :-

١ - آدم وزوجه :-

خاطب الله سبحانه في آيتين منها آدم وزوجه ونهاهما عن قرب الشجرة
قال تعالى : { وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ } (٢) وقد أشار
البيضاوي والشهاب إلى ما في الصياغة من خصائص تفيد المبالغة في النهي منها
تعليق النهي بالقرب الذي هو من مقدمات تناول مبالغة في تحريمه ووجوب
الاجتناب عنه وتنبيهاً على أن القرب من الشيء يورث داعية وميلاً يأخذ بمجامع
القلب ويليه عما هو مقتضى العقل والشرع ومنها أنه رتب العصيان على القرب
مع كونه مرتباً على الأكل ، ومنها أن الظاهر أن يقال ((فتأثما)) فعبر بالظلم الذي
يطلق على الكبائر ، ولم يكتف بأن يقول ((ظالمين)) بل قال { من الظالمين } لكونه
أبلغ حيث جعلهم منتسبين إلى قوم ظالمين . (٣) .

-
- (١) راجع المعجم المفهرس ص ٥٤٠ ودراسات لأسلوب القرآن للشيخ محمد عزيمة
القسم الأول ح ٢ ص ٥٢٢ .
(٢) الآية في البقرة * ٣٥ * والأعراف * ١٩ * .
(٣) انظر تفسير البيضاوي وحاشية الشهاب ١٣٦/٢ والأساليب الإنشائية ص ٨٨ .

٢ - مال اليتيم :-

ومنها آيتان نهى فيهما سبحانه وتعالى عن قرب مال اليتيم قال تعالى :
{ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ } (١)

٣ - الكبائر :-

ورد النهي عن القرب في القرآن تحذيراً من إرتكاب بعض الكبائر كالزنا
والفواحش مبالغة في التنفير منها قال تعالى : { وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَةَ إِنَّهُ كَانَ
فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا } (٢) وقوله تعالى : { وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ
مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ } (٣) .

٤ - يوسف وأخوته :-

ورد النهي عن القرب في القرآن الكريم على لسان يوسف عليه السلام
مهدياً لإخوته أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم قال تعالى : { فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا
كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ } (٤) .
٥ - المشركون والمسجد الحرام :-

نهى الله سبحانه وتعالى المشركين من الاقتراب من المسجد الحرام
لنجاستهم قال تعالى : { فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ... } (٥)
والنهي في هذه الآية بحسب الظاهر للمشركين وفي الباطن للمؤمنين فهو كناية
عن نهى المؤمنين عن تمكينهم من ذلك كما ذكر الشهاب . (٦)

(١) الآية في سورة الأنعام "١٥٢" والإسراء "٣٤" .

(٢) سورة الإسراء ، الآية "١٣٢" .

(٣) سورة الأنعام ، الآية "١٥١" .

(٤) سورة يوسف ، الآية "٦٠" .

(٥) سورة التوبة ، الآية "٢٨" .

(٦) حاشية الشهاب ٢١٦/٤ وانظر الأساليب الإنشائية ص ٨٦ - ٨٨ .

٦ - الحدود :-

كانت خاتمة المطاف مع آية هدد الله سبحانه وتعالى وتوعد فيها من تسول له نفسه الاقتراب من حدود الله قال تعالى : [وَلَا تَبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا] (١) .

أما النهي عن الاعتداء في القرآن فلم يرد إلا في ثلاثة مواضع وهي على النحو التالي : قال تعالى [وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ] (٢) حيث نهاهم سبحانه وتعالى عن الاعتداء بابتداء القتال أو عن قتال النساء والشيوخ والصبيان الذين لهم عهد وميثاق .

ومنها قوله تعالى : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ] (٣) أي لاتعتدوا حدود ما أحل الله لكم إلى ما حرم عليكم أو لاتسرفوا في تناول الطيبات أو جعل تحريم الطيبات اعتداء وظلماً ، فالنهي عن الاعتداء يدخل تحته النهي عن تحريمها دخولاً أولياً لوروده عقبه . (٤)

وثالثها قوله تعالى تهديداً ووعيداً للمعتدين على حدود الله { تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } (٥)

ولنعد الآن بعد هذا العرض الشامل لأساليب النهي عن القرب والاعتداء في الذكر الحكيم إلى كشف بعض الأسرار واللطائف البيانية من خلال الموازنة بين سياقين مختلفين :-

جاء من المتشابه فيما يتعلق بالحدود قوله تعالى : [وَلَا تَبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ

(١) سورة البقرة ، الآية " ١٨٧ " .

(٢) سورة البقرة ، الآية " ١٩٠ " .

(٣) سورة المائدة ، الآية " ٨٧ " .

(٤) راجع الكشاف ١ / ٦٤٠ .

(٥) سورة البقرة ، الآية " ٢٢٩ " .

عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ { (١) .

كما جاء بعد أحكام الطلاق والعدة والرجعة قوله تعالى : { تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ
فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } (٢)

ليس من شك في أن النهي عن القرب أبلغ من النهي عن الاعتداء ، فقد
أجمع العلماء كالرازي وأبي حيان وأبي السعود والإسكافي والكرماني على أن ما
كان من الحدود نهياً كان النهي عن قربانه أبلغ كآية الاعتكاف التي ختمت بقوله :
{ تلك حدود الله فلا تقربوها } وما كان منها أمراً نهى عن مجاوزته وهو معنى
الاعتداء في آية الطلاق حيث بينت الآية عدد الطلاق { الطلاق مرتان فإمساك
بمعروف أو تسريح بإحسان } (٣) بخلاف ما كان عليه العرب في الجاهلية من
المراجعة بعد الطلاق من غير عدد متناسب أن ينهى عن التعدي .

ونلاحظ في آية الطلاق أنها بالغت في التهديد بتكرار الاسم الجليل ووضعه
موضع الضمير لتربية المهابة وإثارة الروعة والتخويف من إنتهاك حدود الله ، كما
أن في تعقيب النهي بأسلوب الشرط { وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ } مع مافيه من ترتب وتسبب ولزوم بين الجزاء والشرط مبالغة في
التهديد ، وكذلك التعبير باسم الإشارة للبعيد { أولئك } إبعاداً وذماً وضمير الفعل
والظالمون بهذا الوصف الخاص على سبيل الحصر بتعريف الطرفين وتأكيد به بضمير
الفصل كل ذلك بلوغاً بالتهديد والتنفير إلى أقصى مدى ، ثم مافي التعبير من

(١) سورة البقرة ، الآية * ١٨٧ .

(٢) سورة البقرة ، الآية * ٢٢٩ .

(٣) سورة البقرة ، الآية * ٢٢٩ .

تصوير يجعل تلك الأحكام حدوداً قائمة محسه يجب الوقوف عندها وعدم تجاوزها لأن النفس أنس بما يأتيها عن طريق الحواس . (١)

وثمت أمر آخر هو " أن تشريعات الطلاق والعدة والرجعة كلها حدود لا يمكن النهي عنها لأنها حلول لمشكلات اجتماعية وإنما ينهي عن تجاوزها رفضاً ومخالفة وتجاوزاً ، تساهلاً في التكاليف وما يترتب عليه عند تجاوزها من تفكك للأسرة التي كثف القرآن عنايته باستقرارها على هدى من الله ، فهذا بعض من أسرار التعبير بالاعتداء دون القربان والله أعلم . (٢)

المشركون والتهديد :-

سلك القرآن في تهديد المشركين طرقاً شتى ومن بينها النهي للوصول إلى إقناعهم بأن الدين حق ، وإلى تقرير بعض الحقائق الكبرى كالوحدانية والبعث والنشور على نحو ما نوضحه في السطور القادمة بعون الله :

النهي عن اتخاذ الأنداد من دُونِ اللَّهِ :-

هدد الله سبحانه المشركين عن اتخاذ الأنداد من دونه لتأكيد هيمنته ووحدانيته وتفردته بالألوهية وتوعدهم بالهلاك والعذاب لعلمهم أن هذه الأنداد حجارة لا تضر ولا تنفع فلا يصح جعلها أنداداً له تعالى قال عز وجل (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (٣) .

(١) راجع في الآيتين التفسير الكبير ١٢٤/٥ ، ١١١/٦ والبحر المحيط ٥٤/٢ وتفسير أبي السعود ٣١٨/١ وحاشية الشهاب ٢٨٣/٢ ودرة التنزيل للإسكافي ص ٥٤ وما بعدها والبرهان في متشابه القرآن للكرماني ص ٣٩ وظلال القرآن المجلد الأول ص ٢٤٢ ودراسات لأسلوب القرآن القسم الأول ص ٢٥٢ .

(٢) الأساليب الإنشائية ص ٨٩ وما بعدها .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٢ "

السياق يلجج بمعاني التهديد والتهكم والتوبيخ حيث هددهم في هذه الآية وتهكم بهم وشنع عليهم بأن جعلوا أنداداً ، وجيء بالأنداد على صيغة الجمع موافقة للواقع لإنهم لم يتخذوا له تعالى نداً واحداً بل أنداداً كثيرة فجاء النهي على ما كانوا اتخذوه في الواقع ثم أعقب هذا النهي بالتقييد بقوله { وأنتم تعلمون } تهكماً بهم وتوبيخاً لهم وزجراً لهم عن عبادة الأوثان من دون الله ، ومفعول تعلمون متروك كأنه قيل وأنتم من أهل العلم والمعرفة بدقائق الأمور ، أو وأنتم تعلمون بطلان ذلك ، أو تعلمون أنه لا يماثله شيء أو تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت أو تعلمون أنها لاتفعل أفعاله سبحانه وتعالى . (١)

النهي عن ضرب الأمثال :-

جاء التهديد في سياق النهي الذي خاطب الله به المشركين في قوله تعالى :
{ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا
وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ، فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } (٢)

النهي في قوله : { فلا تضربوا لله الأمثال } خطاب تهديد ووعيد من الله للمشركين أي لاتشركوا بالله شيئاً ، والتعبير عن ذلك بضرب المثل للقصد إلى النهي عن الإشراف به تعالى في شأن من الشئون فإن ضرب المثل مبناه تشبيه حالة بحالة وقصة بقصة أي لاتشبهوا بشأنه تعالى شأناً من الشئون ولاتمثلوا له الأمثال وفي هذا تهديد عظيم وتحذير لهم شديد من مغبة ضرب المثل ، وتعقيب التهديد بقوله { إن الله يعلم } لتعليل النهي السابق زيادة في التهديد والوعيد

(١) راجع الكشاف ٢٣٦/١ - ٢٣٨ والتفسير الكبير ١٢٢/٢ والبحر المحيط ٩٩/١

وتفسير أبي السعود ١ / ١٠٩ والتحرير والتنوير ٢٣٤/١ وأسرار التنزيل

للشيخ محمد الخضر حسين ص ٤٠ .

(٢) سورة النحل ، الأيتين * ٧٣ ، ٧٤ .

وتنبيهاً على جهلهم وضلالهم أي أنه تعالى يعلم كنه ما تفعلون وعظمه فهو معاقبكم عليه بما يوازيه في العظم لأن العقاب على مقدار الإثم ، أو إن الله يعلم كيف يضرب الأمثال وأنتم تعلمون ذلك فتتعون في مهاوي الردى والهلاك . (١)

المشركون وإستعجال العذاب والقيامة :

عرض القرآن الكريم في بعض سوره لتناول المشركين وتبجحهم منها إستعجالهم العذاب والقيامة تحدياً منهم وتكذيباً للرسول صلى الله عليه وسلم من نحو قوله تعالى بطريق الأمر : { فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } (٢) وعن طريق الاستفهام كما في قوله تعالى : { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (٣) فتهدد الله المشركين وتوعدهم ونهاهم عن إستعجال القيامة في قوله تعالى : { أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ } (٤) .

صدرت هذه الآية الكريمة التي جاءت خطاباً للمشركين بالتهديد والوعيد حيث عبر بالماضي (أتى) عن المضارع (يأتي) لتحقيق وقوعه ونفي أدنى ريب فيه حتى لكأنه وقع بالفعل فأخبر عنه إخبار الواقع لا المتوقع كما نص عليه العلماء .
كما أن في التعبير عنه بأمر الله إبهاماً يفيد التهويل والتفخيم والتعظيم لهذا الأمر لإضافته لمن لا يعظم عليه شيء في السموات والأرض .

(١) انظر الكشاف ٤٢٠/٢ وبهامشه الانتصاف فيما تضمنه الكشاف ، والبحر المحيط ٥١٧/٥ وتفسير أبي السعود ٣٨٣/٣ وما بعدها والتحرير والتنوير ٢٢٢/١٤ وما بعدها .

(٢) سورة الأنفال ، الآية " ٢٢ " .

(٣) سورة يونس ، الآية " ٤٨ " وتكررت الآية في بعض السور .

(٤) سورة النحل ، الآية " ١ " .

ثم تبرأ الله عز وجل عن أن يكون له شريك بقوله [سُبْحَانَكَ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ] يقول الزمخشري ((فإن قلت كيف اتصل هذا بإستعجالهم ؟ قلت : لأن إستعجالهم إستهزاء وتكذيب وذلك من الشرك)) .

فالنهي في قوله [فلا تستعجلوه] للتهديد والوعيد ، وذهب الطاهر بن عاشور إلى أنه للتسوية قائلاً ((والمراد من النهي هنا دقيق لم يذكره في موارد صيغ الأمر ، ويجدر أن يكون للتسوية كما ترد صيغة الأمر للتسوية ، أي لا جدوى في استعجاله لأنه لا يعجل قبل وقته المؤجل له)) .

فما ذهب إليه الطاهر بن عاشور بعيد يأباه السياق ، والصواب أنه للتهديد والوعيد كما هو واضح من نظم الآية الكريمة . (١)

(١) راجع في الآية الكشاف ٤٠٠/٢ والتفسير الكبير ٢٢٣/١٩ والبحر المحيط ٤٧٢/٥ وتفسير أبي السعود ٣٣٢/٣ والتحرير والتنوير ٩٧/١٤ والإيضاح ١٦٤/١ وبغية الإيضاح ١٦٢/١ . ومن أسرار النظم في القرآن والحديث للدكتور عبدالعظيم المطعني ص ٢٢ .

التحدي :

تفيد بعض صيغ النهي في الذكر الحكيم معنى التحدي وماينضم معه من معان ثانوية كالتهمم والتوبيخ والاستخفاف وقلة المبالاة ، وقد جاء على السنة الانبياء عليهم السلام تحدياً لأقوامهم وتكذيباً لهم من ذلك قوله تعالى أمراً نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم أن يتحدى المشركين الذين اتخذوا من دونه آلهة وأرباباً { أَلَمْ يَأْمُرْ بِالْعَدْلِ وَالْإِيمَانِ أَتَمَسَّ بِأَيْدِيكُمْ أَنْ يَأْتِيَنَّكُمْ أَمْ لَمْ تَلَمَّسُوا آلِهَتَكُمْ مِنْ قَبْلُ فَتَبْتَئُوا بِهِنَّ إِنَّ أَلِهَتَكُمْ خَلْقٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَتَبْتَئُوا بِهِمْ وَمَنْ يَتَّبِعْ آلِهَتَهُمْ فَيَسْأَلْهُمْ عِلْمًا سَأَلْتَهُمْ لَئِن آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَذَرْنُوهُ سَاءَ الَّذِي يُضِلُّ الْوَجْهَ إِذْ يُبْصِرُ } [١]

يأمر الله نبيه الكريم في هذه الآية أن يتحدى المشركين ، وان يدعوا آلهتهم العاجزة التي لاتستطيع دفع ضرر أو جلب نفع ، على نحو ماينبىء عنه قوله تعالى : قل ادعوا شركاءكم ، فاستعينوا بهم في عداوتي فلا مبالاة بكم ولا بشركائكم فاصنعوا ماتشاؤون " ثم كيدون " جميعاً أنتم وآلهتكم وبالغوا في ترتيب ماتقدرون عليه من مبادئ الكيد والمكر { فلا تنظرون } أي فلا تؤخروني ولا تهملوني ساعة بعد ترتيب مقدمات الكيد فإنني لا أبالي بكم ، ولايقول هذا إلا واثق بعصمة الله له وقد قالها الرسول صلى الله عليه وسلم في لهجة الواثق المطمئن إلى السند الذي يرتكن إليه ويحتمي به من كيدهم جميعاً (٢)

فالنهي في قوله { لاتنظرون } للتحدي والتبكيك وإلقام الحجر كما ذكر

المفسرون .

ونظيره قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام { وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ

(١) سورة الأعراف ، الآية " ١٩٥ " .

(٢) انظر الكشاف ١٣٨/٢ والبحر المحيط ٤٤٥/٤ وتفسير أبي السعود ٤٤٥/٢ وروح المعاني ١٤٥/٩ والتحرير والتنوير ٢٢٣/٩ وفي ظلال القرآن المجلد الثالث ص

فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً
ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ . (١)

تبين هذه الآية الكريمة هذا التحدي الصريح الذي تحدى به نوح عليه السلام
قومه بعد أن أُنذِرهم وذكرهم طويلاً بآيات الله البينات لكنهم كذبوه وما آمن معه
إلا قليل .

فالتعبير بقوله [فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم
غمّة ثم اقضوا إلي ولا تنتظرون] .

تحد صريح وتهكم لاذع وتوبيخ مرير ، أي فاجمعوا ماتريدون من إهلاكي
واحتشدوا فيه وابدلوا وسعكم في كيدي ولا تمهلوني ، وإنما قال ذلك إظهاراً لقلّة
مبالاته بهم وثقته بما وعده ربه من كلاءته وعصمته إياه وأنهم لن يجدوا إليه سبيلاً
وهذا التحدي الذي قذف به نوح وجوه قومه ليس غروراً أو تهوراً أو انتحاراً إنما
هو تحدي القوة الحقيقية الكبرى للقوى الهزيلة الضعيفة الفانية التي تتضاءل
وتتصاغر أمام أصحاب الإيمان . (٢)

ومنه قوله تعالى على لسان هود عليه السلام تحدياً لقومه وتهكماً بهم غير
مبال بهم وبآلهتهم [... قال إني أشهد الله وأشهدوا أنني بريء مما
تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون] . (٣)

فالنهي في قوله [لا تنظرون] للتحدي كما هو واضح من السياق بمعونة
القرائن وأحوال التراكيب .

(١) سورة يونس ، الآية " ٧١ " .

(٢) انظر الكشاف ٢٤٥/٢ وتفسير أبي السعود ٦٩٢/٢ والتحرير والتنوير
٢٣٩/١١ وظلال القرآن المجلد الثالث ص ١٨١١ .

(٣) سورة هود ، الآيتين " ٥٤ - ٥٥ " وراجع الكشاف ٢٧٦/٢ والتفسير الكبير
١٤/١٨ وتفسير أبي السعود ٥٩ / ٢ وروح المعاني ٨٣/١٢ والتحرير والتنوير
١٠٠/١٢ .

الإهانة

لأسلوب الإهانة في البيان القرآني طرق عديدة جاء عن طريقها منها الأمر والنهي والإستفهام وفي هذا الموضوع نتناول أساليب الإهانة التي وردت عن طريق النهي وهي على قلتها ترتبط بها بعض المعاني الثانوية كالتهكم والتبكيك والتوبيخ ، ونلاحظ تعانق الأمر مع النهي في إفادة الإهانة ، كما أنها قد تكون لونا من ألوان التعذيب الذي يصبه الله على المشركين يوم القيامة .

من ذلك قوله تعالى خطاباً للمعذبين { رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ أَخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ } (١)

تصور هذه الآيات مشهداً من مشاهد الآخرة يتجلى فيه الضيق والنفار بهؤلاء المشركين حيث قال لهم { اخسأوا فيها } أي ذلوا وانزجروا كما تنزجر الكلاب (٢) ، فهي زجر وشتم وتأكيد بأنهم خاسئون ، ومعناه عدم إستجابة طلبهم ، ثم نهاهم الله عن خطابه بقوله { ولا تكلمون } في رفع العذاب وتخفيفه والمقصود تئيسهم من النجاة مما هم فيه (٣) ، حيث تجاوزوا حدهم وأسأوا أديهم فلم يكن مأذوناً لهم إلا بالاجابة على قدر السؤال ، بل لعله سؤال لا يطلب عليه جواب ، فهم يزجرون زجراً قاسياً عنيفاً . (٤) .

فالنهي في قوله { لا تكلمون } للإهانة كما ذكر كثير من البلاغيين (٥) ،

ويتضح لنا في هذه الآية الكريمة سمو البيان القرآني حيث تعانق الأمر والنهي

(١) سورة المؤمنون ، الآيتين " ١.٧ - ١.٨ " .

(٢) انظر الكشاف ٤٤/٣ والتفسير الكبير ١٢٦/٢٣ والبحر المحيط ٤٢٣/٦ وتفسير أبي السعود ٨٦/٤ .

(٣) انظر التحرير والتنوير ١٨ / ١٢٩ .

(٤) مشاهد القيامة في القرآن ص ٢٠١ .

(٥) انظر عروس الأفراح ٣٢٧/٢ والبرهان ١٠٠/٢ ، ٣٢١/٢ والاتقان ٢٤٤/٣ ومعترك الأقران ٤٤٤/٨ ودلالات التراكيب ص ٢٥٧ .

{ اَخْسَاؤًا فِيهَا لَا تَكَلِّمُونَ } في إبراز هذا المعنى وتأكيدَه في قوة وعنف شديدين ، فكان التعبير بهما لطمة قاسية وإهانة مريرة لهؤلاء المشركين .
ومن أساليب النهي التي أفادت معنى الإهانة والتبكيك والتوبيخ قوله تعالى خطاباً للمشركين في الآخرة في سياق محاورة بينت السبب الذي دفع المشركين إلى الجحيم وهو منع الخير في إهانة سحقرة ونبذ وإلقاء في النار كشيء تافه حقير قال تعالى { قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْفَيْتَهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْبَعِيدِ } (١) .

نلاحظ في هذا السياق محاولة القرين حيث يسعى جاهداً ليبرىء نفسه من تهمة إغوانه حيث صرح بذلك في قوله { ربنا ما أطفيته ولكن كان في ضلال بعيد } .

ويكشف السياق عن الإهانة والتبكيك لهذا الضال وقريته من خلال التعبير بقوله { لا تختصموا لدي } فما هذا يوم الخصام والجدال إنما هو يوم الحساب والجزاء فلا فائدة من ذلك ، ولعلمه سبحانه باستوائهما في الكفر الذي يستحقان عليه العذاب الأليم .

وفي التعبير بقوله { وقد قدمت إليكم بالوعيد } تينيس لهم من النجاة من هذا العذاب أي لا تطمعوا في أن تدافعكم في البقاء التبعة ينجيكم من العقاب بعد حال إنذاركم بالوعيد في حياتكم فما أكثرتم به فلا تلوموا إلا أنفسكم . وما يبدل القول لدي { فلا تبديل ولا تعديل فيما حوته السجلات } { وما أنا بظلام للبعيد } إنما يجزى كل أمرىء بما أسلفت يده ، والتعبير عنه بالظلم لبيان

(١) سورة ق ، الآيتين " ٢٧ - ٢٩) .

كمال نزاهته تعالى عن الظلم ، وصيغه المبالغة لتأكيد هذا المعنى ونفي أدنى ظلم
تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . (١)

(١) أنظر الكشاف ٩/٤ وتفسير أبي السعود ١٩١/٥ وروح المعاني ١٨٦/٢٦
ومابعدهما ومشاهد القيامة ص ٩٠ .

التينيس .-

تأدى التينيس في القرآن الكريم بأساليب عديدة ، وقد جاءت متفاوتة متباينة من حيث الزمن في الدنيا أو الآخرة .

أولاً ، في الدنيا :

أفاد النهي معنى التينيس في القرآن في قوله تعالى خطاباً للمنافقين في الدنيا وقد تخلفوا عن الخروج للجهاد { لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ } (١)

تنبض هذه الآية الكريمة بالتينيس والتهكم والتوبيخ والتهديد لهؤلاء المنافقين حيث لم يعبأ سبحانه باعتذاراتهم الفارغة لكذبهم ، وصرح بكفرهم نتيجة استهزائهم بالله وآياته ورسوله .

فجملة { لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ } من جملة القول الذي أمر الله رسوله أن يقول لهم ، وهي إرتقاء في توبيخهم ، أي لاتشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة فإنها لاتنفعكم بعد ظهور سرکم . (٢) فالنهي مستعمل في التينيس من التوبة (٣) ونظيره قوله تعالى { يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ ... } (٤) ثانياً ، في الآخرة :-

قوى التينيس في الآخرة لأنه لاسبيل إلى الرجوع إلى الدنيا للتوبة ، من

(١) سورة التوبة ، الآية " ٦٦ " .

(٢) انظر الكشاف ٢٠٠/٢ وتفسير أبي السعود ٥٧٢/٢ والتحرير والتنوير ٢٥١/١٠

(٣) انظر عروس الأفراح ٣٢٧/٢ والاتقان ٢٤٤/٣ والأساليب الإنشائية ص ٦٩

وأساليب بلاغية ص ١١٨ وبلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٩١ .

(٤) سورة التوبة ، الآية " ٩٤ " وراجع بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني

ذلك قوله تعالى تينيساً للمعذبين في النار في الآخرة { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا
لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } (١)

تصور هذه الآية الكريمة مشهداً من مشاهد الآخرة ، مشهد الكافرين وهم
يجبهون بهذا التينيس والتهكم اللاذع حيث يقال لهم عند دخولهم النار
{ لا تعتذروا لأنه لا عذر لكم أو لأنه لا ينفعكم الاعتذار في هذا اليوم ،
فهذا يوم الجزاء والعقاب على ما كان من عمل ، وقد عملتم ما تجزون
عليه بهذه النار } (٢)

فالنهي في قوله { لا تعتذروا } للتينيس . (٣)
ومنه قوله تعالى خطاباً للمعذبين { لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا
وَأَدْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا } (٤) .

توضح هذه الآية حال الكرب واليأس الذي وصل إليه المشركون مما حل بهم
من العذاب الشديد حيث يضرعون إلى الله سبحانه في أن يخرجهم من النار أو أن
يهلكهم لكنهم يجابون بهذا التهكم الساخر والتينيس القاسي { لا تدعوا اليوم
ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً } فهلاك واحد لا يجدي شيئاً ولا يكفي ،
ووصف الثبور بالكثير إما لكثرة ندائه بالتكرير وهو كناية عن عدم حصول الثبور
لأن إنتهاء النداء يكون بحضور المنادى ، أو يأس يقتضي تكرير التمني
والتحسر (٥)

(١) سورة التحريم ، الآية " ٧ " .

(٢) انظر الكشاف ١٢٩/٤ وتفسير أبي السعود ٣٥٣/٥ وظلال القرآن المجلد السادس
ص ٣٦١٨ .

(٣) انظر معترك الأقران ٤٤٤/٨ ودلالات التراكيب ص ٢٥٧ والأساليب الإنشائية
ص ٦٩ وبلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٩١ .

(٤) سورة الفرقان ، الآية " ١٤ " .

(٥) انظر في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٥٥٤ والتصوير الفني ص ٧٤
والتحرير والتنوير ٣٣٤/١٨ .

ومنه قوله تعالى : [حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ
يَجَارُونَ لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ] (١)

تبدأ هاتان الآيتان بتصوير حالة المعذبين إذا نزل بهم العذاب حيث ترتفع
أصواتهم بالاستغاثة والضجيج لشدة ما هم عليه فيقال لهم على وجه التبكيث
والتئيس والإقنات { لاتجاروا اليوم } فإن الجوار غير نافع لكم ولا يدفع عنكم
ما يريد الله إنزاله بكم ، وتخصيص اليوم بالذكر لتحويله والإيدان بتفويتهم وقت
الجوار { (٢) .

ويبدو أن أخذ المترفين - كما تشير الآية - تهديد دنيوى وليس واقعاً
أخروباً بدليل قوله تعالى : [وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا
فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا] (٣)

ومن المعاني القوية القريبة من التئيس التبكيث وماينضم معه من معان
آخر كالتهمك والتوبيخ والتأنيب مع مابينها من تقارب في الدلالة .

من ذلك قوله تعالى [فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ
لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ] (٤)

هذه الآيات توضح سيطرة الخوف والهلع الشديد على نفوس هؤلاء المعذبين
حين رأوا عذاب الله قد حل بهم ، فنراهم يركضون ظناً منهم أن هذا الركن
ينجيه من عذاب الله وعقابه ، عندها يتلقون التبكيث الأليم والتهمك المرير
[لاتركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون] وما عاد هنالك

(١) سورة المؤمنون ، الآيتين * ٦٤ - ٦٥ .

(٢) انظر الكشاف ٣/٢٦ والتفسير الكبير ١١/٢٣ وتفسير أبي السعود ٧٤/٤ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية * ١٦ .

(٤) سورة الأنبياء ، ١١ - ١٣ .

مجال لسؤال ولا لجواب إنما هو التهكم والاستهزاء والتبكيث (١) .
ومنه قوله تعالى : [وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ إِيْمَانِهِمْ لَنُنَّ أَمْرَتَهُمْ
لِيُخْرِجَنَّا قُلُوبَهُمْ لَاتَقْسِمُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةَ إِنْ أَلَّاهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ] (٢) .

بين الحق سبحانه في هذه الآية كذب المنافقين ، وافتضاح أمرهم حيث أمر
رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم { لاتقسموا طاعة معروفة .. } رداً عليهم
وزجراً وتبكيثاً لهم عن التفوه بها وإظهاراً لعدم القبول لكونهم كاذبين فيها (٣) .

أما قوله [إن الله خير بما تعملون] فهو تعليل للنهي وللحكم بأن طاعتهم
طاعة نفاقية ، وباطنهم خلاف ظاهرهم ، أي إن الله يعلم ما في ضمائرهم ولا يخفى

عليه شيء من سرائرهم وأنه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم . (٤)
ومنه قوله تعالى : [يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلُوبَهُمْ لَاتَمْنُوا عَلَيَّ
إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] (٥)

في هذه الآية الكريمة إرشاد وتعليم لهؤلاء الأعراب مشوب بالتأنيب
والتوبيخ والتبكيث ، حيث منوا على الرسول صلى الله عليه وسلم إسلامهم ، فأمر
الله رسوله أن يرد عليهم بقوله : [لاتمنوا على إسلامكم بل الله يمن
عليكم] توبيخاً وتبكيثاً لهم .

وفي سياق النظم الكريم من اللطف ما لا يخفى ، فإنهم لما وسموا ما صدر
عنهم إيماناً ومنوا به ، نفى كونه إيماناً وسماء إسلاماً ، قيل يمنون عليك بما هو في

(١) انظر الكشاف ٥٦٥/٢ وفي ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٣٧١ .

(٢) سورة النور ، الآية " ٥٣ " .

(٣) انظر تفسير أبي السعود ١٣٧/٤ وما بعدها .

(٤) انظر الكشاف ٧٢/٣ والتفسير الكبير ٢٣/٢٤ والبحر المحيط ٤٦٨/٦ وحاشية
الشهاب ٣٩٦/٦ وتفسير أبي السعود ١٣٨/٤ وروح المعاني ١٩٩/١٨ وما بعدها
وتفسير سورة النور للمودودي ص ٢١٢ .

(٥) سورة الحجرات ، الآية " ١٧ " .

الحقيقة إسلام وليس بجدير بالمن بل لو صح إدعائهم للإيمان فله المنة عليهم بالهداية لا لهم (١)

وقد ضمت هذه الآية كثيراً من اللطائف والصور البلاغية منها إيثار التعبير بالفعل المضارع { يمنون عليك } لإستحضار حالة منهم مع العلم بأن منهم قد حصل فيما مضى ، كما أن في إضافة الإسلام إليهم { إسلامكم } وإيراد الإيمان مطلقاً بياناً للتفاوت بين إسلامهم وبين الإيمان بحيث لا يخفى على المتأمل .
كما أنه عبر بالمضارع ((بل الله يمن عليكم)) للإيدان بأنه سيمن عليهم بالإيمان .

وفي التعبير بقوله { إن كنتم صادقين } بيان لكونهم غير صادقين في دعواهم وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه تقديره إن كنتم صادقين في إدعائكم الإيمان فله المنة عليكم وفي هذا مزيد من التأكيد . (٢)
ومنه قوله تعالى : { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } (٣) .

بعد أن علمت قريش وأيقنت أن للقرآن تأثيراً كبيراً على النفوس بادرت بتدبير أمر يمنع الناس عن استماع القرآن فأوصى بعضهم بعضاً برفع أصواتهم وباللغو واللفظ بالباطل وبالتصغير والمكاءكي يشوشوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن ، على نحو ما هو مفصل في أسباب النزول . (٤)

-
- (١) أنظر الكشاف ٥٧١/٣ وما بعدها وتفسير أبي السعود ١٨٢/٥ .
(٢) انظر الكشاف ٥٧٢/٣ وتفسير أبي السعود ١٨٢/٥ والتحرير والتنوير . ٢٧٠/٢٦ .
(٣) سورة فصلت ، الآية " ٢٦ " .
(٤) أنظر الطبري ٧٠/٢٤ والكشاف ٥٤٢/٣ والتفسير الكبير ١٢٠/٢٧ وتفسير أبي السعود ٤٤/٥ .

وصنيعهم هذا كان دلالة على الحقد والكراهية للقرآن الكريم وللرسول صلى
الله عليه وسلم .

وذكر بعض المعاصرين وكأنه إجتهد منه أن قولهم { لاتسمعوا لهذا القرآن }
تحذير وأستهزاء بالقرآن . (١) . وهذا رأى قريب جداً .

واسم الإشارة مستعمل في التحقير ، وتسميتهم إياه بالقرآن حكاية لما
يجري على السنة المسلمين من تسميته بذلك . (٢)

فهذه كلمة يوصى بها الكبراء من قريش أنفسهم ويغرون بها العامة ، وقد
عجزوا عن مغالبة أثر القرآن في أنفسهم وفي نفوس العامة ، { وألغوا فيه لعلمكم
تغلبون } وهي مهاترة لاتليق لكنه العجز عن المواجهة بالحجة والمقارعة ينتهي إلي
المهاترة والإستهزاء . (٣) .

(١) التحخير والتنوير ٢٤ / ٢٧٧ .

(٢) المصدر السابق الموضع نفسه .

(٣) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٣١٢ والتصوير الفني ص ٢٦ .

التهويل والتفخيخ :-

من معاني النهي البلاغية في الذكر الحكيم التهويل والتفخيخ نحو قوله تعالى : { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسَالُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ } (١) .

نوضح هذه الآية الكريمة حال الكفار وما آل إليه أمرهم من النكال والعذاب ، وفي قراءة " لا تسأل " على صيغة النهي تعظيم لما وقع فيه الكفار من العذاب كما تقول كيف فلان سائلاً عن الواقع في بلية ؟ ، وإيدان بكمال شدة عقوبتهم وتهويل لها كأنها لفظاعتها لا يقدر المخبر على إجرائها في لسانه أو لا يستطيع السامع أن يسمع خبرها لإيحاشه وإضجاره . (٢)

وفي التعبير عنهم بأنهم أصحاب الجحيم دون الكفر أو التكذيب ونحوهما وعيد شديد وإيدان بأنهم مطبوع عليهم لا يرجى منهم الإيمان قطعاً .

وقيل إن هذه الآية نزلت في نهي صلى الله عليه وسلم عن السؤال عن حال أبويه في الآخرة كما ذهب إلى ذلك الزمخشري والبيضاوي (٣) ، ورده أبو السعود وبين أن حمل النهي على أنه نهي للنبي صلى الله عليه وسلم عن السؤال عن حال أبويه مما لا يساعده النظم الكريم . (٤)

ومنه قوله تعالى : { وَإِذَا طَلَقْتِ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } (٥) .

في هذه الآية بيان لأحكام فترة مابعد الطلاق ، وإرشاد للمؤمنين لاتباع أحكام الله ، وتحذير شديد عن التضيق على النساء بمنعهن من الزواج .

(١) سورة البقرة ، الآية ١١٩ .

(٢) انظر الكشاف ٣٠٨/١ وتفسير أبي السعود ٢٤٧/١ وراجع التفسير الكبير ٣٣/٤ والبحر المحيط ٣٦٨/١ ودلالات التراكيب ص ٢٦١ .

(٣) الكشاف ٣٠٨/١ وتفسير البيضاوي على هامش حاشية الشهاب ٢٣١/٢ .

(٤) أنظر تفسير أبي السعود ٢٤٧/١ والبلاغة في تفسير أبي السعود ص ٢٠٨ .

(٥) سورة البقرة ، الآية ٢٣٢ .

والسياق يزخر بصور بلاغية عديدة ، وبألوان من التأثير النفسي ليلمس التشريع القلوب ولتستجيب له النفوس ، وهذا من جلال القرآن وجماله أن يكون قاهر البلاغة حتي في آيات التشريع .

وطبعي أن النهي في قوله { لاتعضلوهن } نهى حقيقي ، فيه كما يقول أبوالسعود { تهويل لأمر العضل وتحذير منه وإيدان بأن وقوع ذلك بين ظهرانيهم وهم ساكتون عنه بمنزلة صدوره عن الكل في استتباع اللائمة وسراية الفائلة (١) والتعبير بقوله { لا تعضلوهن } يوحي بجرسه وصوته الغليظ بهذا التهويل والتفطيع الشديد .

(١) تفسير أبي السعود ٢٥٦/١ وراجع روح المعاني ١٤٥/٢ .

متفرقات :-

هناك بعض الأغراض البلاغية التي يفيدها النهي في البيان القرآني ، وقد جاءت في أساليب قليلة : منها :-

١- الكراهية :-

نص السيوطي (١) على إفادة النهي للكراهية في قوله تعالى [وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا] (٢) فالنهي في قوله : [لا تمش] للكراهة ، وقوله [في الأرض] تقييد لزيادة التقرير والاشعار بأن المشي عليها مما لا يليق به المرح ، والجملة الخبرية [إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً] ((تعليل للنهي وتهكم بالمختال وإيذان بأن ذلك مفاخرة مع الأرض والجبال وتكبر عليهما ، فليس أكثر قوة ولا أكبر ولا أشد منهما تعريضاً بما عليه المختال من رفع رأسه ومشيه على صدور قدميه والفناء يدب فيه)) (٣) .

٢- ومن معاني النهي البلاغية الاحتقار والتقليل كما في قوله تعالى خطاباً لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم [لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ] . (٤)
أشار كثير من الأصوليين والبلاغيين إلى أن النهي في قوله [لا تمدن عينيك

(١) انظر الاتقان ٢٤٤/٣ ومعتك الأقران ٤٤٣/١ وراجع عروس الأقران ٢٢٥/٢ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية " ٣٧ " .

(٣) انظر تفسير أبي السعود ٤٤٩/٣ والأساليب الإنشائية ص ٦٨ وفي البلاغة

القرآنية للدكتور صباح دراز ص ١٣٦ وأساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ص ٤٨٨ .

(٤) سورة الحجر ، الآية " ٨٨ " .

للاحتقار والتقليل أي فهو قليل حقير ، (١) والتحقيق هنا في المتعلق وليس في النهي لأن الخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا يقول الزمخشري [فإن قلت : كيف وصل هذا بما قبله ؟ قلت : يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : قد أوتيت النعمة العظمى التي كل نعمة وإن عظمت فهي إليها حقيرة ضئيلة وهي القرآن العظيم ، فعليك أن تستغني به ولا تمدن عينيك إلى متاع الدنيا] (٢) .

٣ - ومن أغراض النهي البلاغية في القرآن الكريم الإباحة كما في قوله تعالى في معرض نصيحة قارون { إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ، وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ } . (٣)
ذهب بعض المفسرين إلى أن النهي في قوله { لا تنس نصيبك } مستعمل في الإباحة والنسيان كناية عن الترك . (٤) .

٤ - ومَعَانِي النهي البلاغية في الذكر الحكيم الدوام وقد أشرت في مبحث الإلهاب والتهبيج إلى بعض صورته في القرآن ومنها أيضاً قوله تعالى { كَلَّا لَا تَطَعُهُ ^{وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ} } (٥) .

اختتمت سورة العلق بالردع والزجر لأبي جهل بقوله تعالى { كلا } ثم تلاها النهي للنبي صلى الله عليه وسلم (لا تطعه) أي اثبت على ما أنت عليه من عصيانه كقوله - فلا تطع الكاذبين - { واسجد } ودم على سجودك يريد الصلاة

(١) انظر الإحكام في أصول الأحكام ٤٨/٢ والابهاج في شرح المنهاج ٦٧/٢ والمختصر في أصول الفقه ص ١٠٢ والمدخل إلى المذهب الإمام أحمد ص ١٠٦ وعروس الأفراح ٣٢٥/٢ والاتقان ٢٤٤/٣ ومعتزك الأقران ٤٤٤/٨ وأساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ص ٤٨٩ .

(٢) الكشاف ٣٩٧/٢ .

(٣) سورة القصص ، ٧٧-٧٦ .

(٤) انظر التفسير الكبير ١٦/٢٥ والتحرير والتنوير ١٧٩/٢ .

(٥) سورة العلق ، الآية ١٩ .

{واقترب} أي تقرب إلى ربك بالصلاة وازدد منها { (١) }
ومنه قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ
وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ .. } (٢) فالؤمنون لا يتصور منهم الخيانة فالنهي في
قوله { لا تخونوا } للدوام (٣) ، أي داموا على عدم خيانة الله ورسوله صلى الله
عليه وسلم .

ومنه قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ
وَالْأَدَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ ... } (٤) فالنهي في قوله
{ لا تبطلوا } للدوام والاستمرار لأن المؤمنين لا يتصور منهم المن والأذى ، وقد
نص الرازي على ذلك قائلاً { وقوله } { لا تبطلوا أعمالكم } يحتمل وجوهاً
{ أحدها } داموا على ما أنتم عليه ولا تشركوا فتبطل أعمالكم ... (٥)

وهذه الآية الكريمة بنيت بناء محكماً واتخذت أسلوباً بليغاً في التأثير
قوياً في الدلالة فهي أولاً تتوجه بالخطاب إلى المؤمنين وفي ذلك مبالغة في
إيجاب العمل بمقتضى النهي بتذكيرهم بالإيمان الذي يقتضي الطاعة
والاستسلام ، وهي ثانياً تنص على صراحة على أن المن والأذى يبطلان ثواب
الصدقة ويمحوان أثرها .

ولاتقف الآية عند هذا الحد بل تتبعه بتشبيه أثر المن والأذى في هذا الإبطال
بأثر الرياء وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر زيادة في التنفير والتبشيع (٦) .

(١) انظر الكشاف ٢٧٢/٤ وراجع التفسير الكبير ٢٦/٣٢ والبحر المحيط ٤٩٥/٨
وتفسير أبي السعود ٥٥٦/٥ والتحرير والتنوير ٤٥٢/٣٠ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية " ٢٧ " .

(٣) انظر بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٩١ .

(٤) سورة البقرة ، الآية " ٢٦٤ " .

(٥) التفسير الكبير ٢٨ / ٧٢ .

(٦) أسلوب الدعوة القرآنية ص ٢٠١ .

٥ - ومن معاني النهي البلاغية في القرآن التفويض كما في قوله تعالى : [قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا] . (١)

أشار بعض الأصوليين إلى أن النهي في قوله [فلا تسألني] للتفويض . (٢)

٦ - ومن أغراض النهي البلاغية في القرآن المشورة كما في قوله تعالى على لسان أخوة يوسف عليه السلام [اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ يَلْتَقِطَهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ] (٣) .

نلمس من خلال هذا السياق سيطرة الحق الدفين الذي سيطر على أخوة يوسف ودفعهم إلى أن يصنعوا به ماتحكيه هذه الآيات حيث تشاوروا فيما بينهم في قتله أو نفيه لكن السياق يبين ما أشار به أحدهم قائلاً [لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين] أي إن كنتم على أن تفعلوا ما يحصل به غرضكم فهذا هو الرأي (٤) فالنهي في قوله [لا تقتلوه] مستعمل في المشورة كما هو واضح من السياق والمقام .

٧ - ومن أغراض النهي البلاغية التحنن والتلطف والتحبيب كما في قوله تعالى [قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ] . (٥)

أورد الزركشي وتابعه السيوطي هذه الآية في خطاب التحنن والاستعطاف (٦) والخطاب في هذه الآية تضمن من المعاني ما يفيض بالرحمة والترفق والاستعطاف والاشفاق منه تعالى على عباده ترغيباً لهم في الإقبال عليه

(١) سورة الكهف ، الآية " ٧٠ " .

(٢) انظر التمهيد في أصول الفقه ١/٣٦١ .

(٣) سورة يوسف ، الآيتين " ٩ - ١٠ " .

(٤) الكشاف ٢/٢٠٥ وراجع التفسير الكبير ١٨/٩٧ وما بعدها والحبر المحيط ٥/١٥٨ .

(٥) سورة الزمر ، الآية " ٥٣ " .

(٦) انظر الدهان ٢/٢٥٠ ، الاتقان ٣/١٠٤ ، معتوك الأقران ١/٢٢٧ .

والانابة إليه ترهيباً من التفريط بالتولي والاعراض عنه (١) .

فالسباق كله مشعر بهذه المعاني حيث صدرت الآية بالنداء { يا عبادي } وأضافهم إليه لأن شرف الإضافة كما ذكر الرازي يفيد الأمن من العذاب ، (٢) وفي هذا مزيد من العناية والتكريم * كما أنه تعالى سمي المذنب بالعبد والعبودية مفسره بالحاجة والذلة والمسكنة ، والمناسب بالرحيم الكريم افاضة الخير والرحمة على المحتاج المسكين ، وفيه التفات من الخطاب { يا عبادي } إلى الغيبة { أسرفوا } ولعل سره أن العبودية شرف توجب مخاطبة المدعويين بها ، أما الإسراف فمبعد عن ساحات الرحمة وفي ذلك إشارة إلى بعد المسرف عن شرف الخطاب حتى يحقق معنى العبودية بالطاعة والانقياد لله تعالى . (٣)

ثم إنه قال { لاتقنطوا من رحمة الله ، حيث نهاهم عن القنوط ، كما إنه تعالى قال أولاً { يا عبادي } ولم يقل { لا تقنطوا من رحمتي } بل { لاتقنطوا من رحمة الله } لأن قولنا الله أعظم أسماء الله وأجلها فالرحمة المضافة إليه يجب أن تكون أعظم أنواع الرحمة والفضل (٤) ، وحيث كان القصد إلى مزيد المبالغة في الوعد بالرحمة أعيد ذكر الاسم الأعظم وأكدت الجملة بإن المفيدة لأعظم وجوه التأكيد ثم أردف بلفظ دال على التوكيد فقال { جميعاً } وهذا أيضاً من المؤكدات ، ثم إنه تعالى وصف نفسه بكونه غفوراً رحيماً للمبالغة في الغفران والرحمة ، فكان قوله { إنه هو الغفور } إشارة إلى إزالة موجبات العقاب ، وقوله { الرحيم } إشارة إلى تحصيل موجبات الرحمة والثواب .

كما أن التعبير بقوله : { إنه هو الغفور الرحيم } يفيد الحصر ومعناه أنه

(١) وجوه المخاطبات في القرآن الكريم ص ١٨٦ .

(٢) التفسير الكبير ٢٧ / ٥ .

(٣) السابق نفس الموضع ووجوه المخاطبات ص ١٨٦ .

(٤) التفسير الكبير ٢٧ / ٥ .

لا غفور ولا رحيم إلا هو وذلك يفيد الكمال في وصفه سبحانه بالغفران
والرحمة . (١)

٨ - ومن معاني النهي البلاغية في القرآن الكريم التوبيخ والتنذيم كما في قوله
تعالى من محاورة إبليس اللعين لاتباعه يوم القيامة [... وَمَا كَانَ لِي
عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمُزُونِي وَلَوْ مَوَا
أَنْفُسَكُمْ] (٢)

في هذه الآية الكريمة توالى النهي والأمر لإفادة معني التوبيخ والتنذيم في
قوله [فلا تلموني ولوموا أنفسكم] .

(١) السابق نفس الموضع وينظر وجوه المخاطبات ص ١٨٧ وما بعدها .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية " ٢٢ " .

تبادل الأساليب وأسوارها البلاغية :-

هذه قضية واسعة تخص عدداً من الأساليب من ذلك خروج الاستفهام إلى معنى الأمر ، وخروج الأمر عن دلالة الأصلية إلى معنى الخبر أو العكس أي خروج الخبر إلى معنى الأمر أو الطلب ، وخروج الخبر والاستفهام إلى معنى النهي .

١ - الأمر بمعنى الخبر :-

أفاد الأمر في مواضع عديدة في البيان القرآني معنى الخبر ، ولعل السر البلاغي من وراء التعبير بالأمر عن الخبر للدلالة على أنه حتم واجب لا يكون غيره كما ذكر الزمخشري وتابعه كثير من العلماء (١) عند تفسير قوله تعالى :

{ فليضحكوا قليلاً وليبكون كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون } . (٢)

معناه فسيضحكون قليلاً ويبكون كثيراً ، فهو أمر مستعمل في معنى الخبر .

ومنه قوله تعالى (قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَآيُوعِدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمْأ السَّاعَةِ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا) (٣) .

يقول الزمخشري ((أي مد له الرحمن : يعنى أمهله وأملى له في العمر ، فأخرج على لفظ الأمر إيداناً بوجوب ذلك ، وأنه مفعول لا محالة كالمأمور به الممثل لتقطع معاذير الضال)) (٤) .

(١) الكشاف ٢/٥٠٢ وانظر التفسير الكبير ١٦/١٥٣ والبحر المحيط ٥/٨٠ وأبا السعود ٢/٥٨٥ وحاشية الشهاب ٤/٣٥ .

(٢) سورة التوبة ، الآية * ٨٢ * .

(٣) سورة مريم ، الآية * ٧٥ * .

(٤) الكشاف ٢/٥٢١ وانظر التفسير الكبير ٢١/٢٤٨ والبحر المحيط ٦/٢١٢ وغرائب القرآن على هامش تفسير الطبري ١٦/٦٨ وأبا السعود ٣/٦٠٠ وحاشية الشهاب ٦/١٧٧ وروح المعاني ١٦/١٢٦ .

ومنه قوله تعالى : { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَاهُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } (١)

يقول أبو حيان نقلاً عن ابن عطية * وقال ابن عطية وقوله { لنحمل } أخبر أنهم يحملون خطاياهم على جهة التشبيه بالنقل لكنهم أخرجوه في صيغة الأمر لأنها أوجب وأشد تأكيداً في نفس السامع من المجازاة * (٢)

٢ - الخبر بمعنى الأمر :-

نص المفسرون والبلاغيون (٣) على أن الخبر يخرج إلى أغراض بلاغية كثيرة تفهم من السياق وقرائن الأحوال ، من بينها الأمر نحو قوله تعالى : {والمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ} (٤)

والسر البلاغي من وراء إثارة التعبير بالخبر عن الأمر أن المأمور كما يقول الزمخشري : ((كأنه سورع إلى الامتثال فهو يخبر عنه)) (٥) .

ويقول في تفسير الآية السابقة ((وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله ، فكانهن امتثلن الأمر بالتربص فهو يخبر عنه موجوداً ، ونحوه قولهم في الدعاء رحمك الله ، أخرج في صورة الخبر ثقة بالاستجابة كأنما وجدت الرحمة فهو يخبر عنها)) (٦) ويقول في موضع آخر : ((وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في

(١) سورة العنكبوت ، الآية * ١٢ .

(٢) البحر المحيط ١٤٢/٧ وراجع التحرير والتنوير ٢١٩/٢٠ - ٢٢١ .

(٣) انظر الكشاف ٣٦٥/١ والتفسير الكبير ٩٢/٦ والبحر المحيط ١٨٥/٢ والأمالى الشجرية ٢٧٠/٨ وأساليب بلاغية ص ١٠٥ والأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٤) سورة البقرة ، الآية [٢٢٨] .

(٥) الكشاف ٢٩٣ / ١ وانظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٣٠٩ .

(٦) الكشاف / ١ / ٣٦٥ .

إيجاب إيجاد المأمور به فيجعل كأنه يوجد فهو يخبر عنه { (١) } .
ولابن قيم الجوزية (٢) رأى مختلف حيث يقول : ((وفيه طريقة أخرى وهي أفقه معنى من هذه ، وهو أن هذا إخبار محض عن وجوب ذلك واستقرار حسنه في العقل والشريعة والفترة)) (٣) .
وذكر علماء البلاغة المتأخرون أسراراً عديدة لخروج الخبر إلى معنى الطلب { الأمر } لاتخرج عما ذكره الزمخشري وغيره ، تتلخص فيما يلي :-

- ١ - قصد التفاؤل بالوقوع نحو وفقك الله للتقوى فعبر بلفظ الماضي تفاضلاً لوقوعه .
- ٢ - إظهار الحرص في وقوعه : فالطالب إذا عظمت رغبته في شيء يكثر تصوره إياه فربما يخيل إليه حاصله نحو رزقني الله لقاءك .
- ٣ - الاحتراز عن صورة الأمر كقول العبد للمولى إذا حول عنه وجهه : ينظر المولى إلي ساعة .
- ٤ - حمل المخاطب على المطلوب بأن يكون المخاطب ممن لا يجب أن يكذب الطالب أي ينسب إليه الكذب ، كقولك لصاحبك الذي لا يجب تكذيبك [تأتيني غدا] مقام

(١) المصدر السابق ٢/٢٢٥ وانظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٢٠٩
(٢) هو أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي الحنبلي المعروف بان قيم الجوزية فقيه ، أصولي ، مفسر ، نحوي ، محدث ، ولد بدمشق وتفقه وأفتى ، ولازم ابن تيمية وسجن معه في قلعة دمشق وتوفي سنة ٧٥١ ودفن بسفح قاسيون بدمشق من مؤلفاته روضة المحبين وزاد المعاد ، وإعلام الموقعين عن رب العالمين . انظر ترجمته الأعلام ٦/٢٨٠ وما بعدها ومعجم المؤلفين ١٠٦/٩ - ١٠٧ .
(٣) بدائع الفوائد ١٠٣/٨ وما بعدها .

اثنني تحمله بالطف وجه على الإتيان لأنه إن لم يأتك غداً صرت كاذباً من حيث الظاهر لكون كلامك في صورة الخبر (((١) .
وإفادة الخبر لمعنى الأمر في النظم القرآني جاء في معارض التشريع وفي خطاب الله لإنبيائه عليهم السلام ، وغير ذلك مما نوضحه في السطور القادمة بعون الله ومشيبته .

١- في التشريع :

أفاد الخبر في كثير من الأمور التشريعية الأمر نحو قوله تعالى في شأن المطلقات { وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ } (٢) وقوله تعالى :
{ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة } (٣)
أي ليرضعن أولادهن فهو خبر في معنى الأمر .

وقوله تعالى { فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُم فَاسْتَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى } (٤) فقوله { فسترضع } خبر في معنى الأمر أي فلترضع له أخرى . (٥)

ومنه قوله تعالى في أحكام الحج { فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ .. } (٦) .

(١) انظر مفتاح العلوم تحقيق نعيم زرزور ص ٣٢٤ والايضاح ٢٤٥/١ . وشروح التلخيص ٢٣٨/٢ - ٢٤٠ وأساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ص ٢٠٥ وما بعدها .

(٢) سورة البقرة ، الآية " ٢٢٨ " .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٣٣ " وانظر الكشاف ٣٦٩/١

(٤) سورة الطلاق ، الآية " ٦ " .

(٥) البحر المحيط ٧/ ٢٨٥ .

(٦) سورة البقرة ، الآية " ١٩٦ " .

ومثله قوله تعالى { وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ } (١) .

ومنه قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } (٢) .

يقول الزمخشري { فقوله ((تؤمنون)) خبر في معنى الأمر ولهذا أوجب بقوله " يغفر لكم " وتدل عليه قراءة ابن مسعود " آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا " فإن قلت لم جيء به على لفظ الخبر ؟ قلت للإيدان بوجوب الامتنال وكأنه امتثل فهو يخبر عن إيمان وجاهد موجودين (٣)
ب - على لسان يوسف عليه السلام :

ورد الخبر مراداً به الأمر في قصة يوسف عليه السلام في قوله تعالى : { قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ } (٤)

يقول الزمخشري : { تزرعون } خبر في معنى الأمر ، .. وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد المأمور به فيجعل كأنه يوجد فهو يخبر عنه } (٥) .

ج - في خطاب الله لزهكيا عليه السلام :-

قال تعالى : { يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا } (٦) .

(١) سورة آل عمران ، الآية ٩٧ وانظر الاساليب الانشائية ص ١٠٣ .

(٢) سورة الصف ، الآيتين " ١٠ - ١١ " .

(٣) الكشاف ٩٩/٤ وما بعدها .

(٤) سورة يوسف ، الآية " ٤٧ " .

(٥) الكشاف ٢ / ٣٢٥ .

(٦) سورة مريم ، الآية " ٧ " .

فقوله " اسمه يحيى " بمعنى سمه يحيى ، فهذا الكلام خبر مستعمل في الأمر ، (١) فهذه بشرى من الله لعبده زكريا عليه السلام وإجابة لدعائه ، كما أن في تعيين اسمه عليه السلام تأكيداً للوعد وتشريفاً له عليه السلام ، وقد أكد الحق سبحانه وتعالى ذلك بقوله [لم نجعل له من قبل سمياً] أي لم نجعل له شريكاً في الاسم حيث لم يسم أحد قبله بيحيى وفي هذا مزيد من التشريف والتفخيم له عليه السلام ما لا يخفى ، وقيل إن المراد بقوله [سمياً] أي شبيهاً في الفضل والكمال كما في قوله تعالى [رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً] (٢) والأول أقرب .

د - المنافقون :-

قال تعالى تهكماً وسخرية بالمنافقين [يَحْذَرُ الْمُنَافِقِينَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ] (٣)

فقوله " يحذر " خبر مستعمل في الأمر أي ليحذر المنافقون ويدل عليه " إن الله مخرج ما تحذرون " (٤)

وإضافة إلى ما سبق ذكره من الأساليب الخبرية التي أفادت الأمر في القرآن الكريم فقد وردت في القرآن الكريم أساليب خبرية في اللفظ أمراً في المعنى من مثل أمر ، ويأمر ، وقضى ، وكتب ، وأحل لكم وغير ذلك ، وقد تنبه القراء إلى ذلك . (٥)

(١) التحرير والتنوير ١٦ / ٦٩ .

(٢) سورة مريم ، الآية " ٦٥ " وأنظر تفسير أبي السعود ٥٦٩/٣ .

(٣) سورة التوبة ، الآية " ٦٤ " .

(٤) انظر البحر المحيط ٦٦/٥ والتحرير والتنوير ٢٤٨/١٠ .

(٥) راجع البرهان ٨/٢ وما بعدها والاتقان ٣٥/٤ - ٣٧ ومعترك الأقران ٢٤/٨ - ٢٧

فمن شواهد قوله تعالى : { وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. } (١) .

وقوله { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ
عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } (٢) ، وقوله تعالى :
{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ
تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا } (٣)

وقد ألمح أبو السعود إلى بلاغة هذا النوع بقوله : ((ففي تصدير الكلام
بكلمة التحقيق وإظهار الاسم الجليل وإيراد الأمر على صورة الإخبار من الفخامة
وتأكيد وجوب الامتثال والدلالة على الاعتناء بشأنه مالا مزيد عليه)) (٤)

على الرغم من أن الإخبار عن الإنشاء يخرج عن طبيعة الأساليب الإنشائية
تنبض هذه الأساليب بالطلب - أي بالأمر والنهي - وواضح فيها معنى الالتزام .
فقوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ... } (٥) ولما
لها من سر بلاغي ترقى فوق قولنا مثلاً ((أدوا الأمانات)) .
٢ - الاستفهام بمعنى الأمر :-

أشار كثير من المفسرين والبلاغيين وبعض النحاة (٦) ، إلى خروج
الاستفهام عن معناه الأصلي إلى معنى الأمر من ذلك قوله تعالى : { وَقُلْ لِلَّذِينَ

(١) سورة الإسراء ، الآية " ٢٣ " .

(٢) سورة النحل ، الآية " ٩٠ " .

(٣) سورة النساء ، الآية " ٥٨ " .

(٤) تفسير أبي السعود ٧٢١/٨ وراجع روح المعاني ٦٤/٥ حيث نقل الألووسي كلام
أبي السعود حرفياً .

(٥) سورة النساء ، الآية " ٥٨ " .

(٦) انظر الكشاف ٤١٩/٨ والتفسير الكبير ٢٣٠/٧ والبحر المحيط ٤١٣/٢ والأمامي
الشجرية ٢٦٤/١ - ٢٦٥ والايضاح ٢٣٥/١ وشروح التلخيص ٢٩٣/٢ وبغية
الايضاح ٤٥/٢ وأساليب بلاغية ص ١٢٤ والتفسير البلاغي للاستفهام ص ١٣١
وما بعدها ومن بلاغة النظم العربي ١١٣/٢ .

أوتُوا الْكِتَابَ وَالْأَمِّيِّينَ آسَلَمْتُمْ فَإِنِ آسَلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا .. { (١)

وقوله تعالى : { فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ } (٢)

وقوله تعالى : { فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ } (٣)

وقد حصر بعض الدارسين - في رسالة قيمة عن الاستفهام القرآني - أساليب الاستفهام التي أفادت معنى الأمر في القرآن الكريم منبهاً على أن هذه الأساليب وإن أفادت الأمر فهي متضمنة لبعض المعاني البلاغية الأخرى التي تستفاد من السياق كالتعجيز والتهكم والتشويق وغير ذلك . (٤)

والسر البلاغي من وراء التعبير بالاستفهام عن الأمر أن الاستفهام ((يعطي لوناً من الإثارة والتشويق وسياسة النفوس والتأثير فيها ، وإشراكها في عملية الاقتناع ، ولذا كانت له مقاماته الخاصة المثيرة للوجدان والانفعال هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يمثل قمة الطلب إن صح التعبير)). (٥)

والآن نكتفي بذكر بعض الشواهد وتحليلها :

من ذلك قوله تعالى في الدعوة إلى الاسلام : { وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأَمِّيِّينَ آسَلَمْتُمْ فَإِنِ آسَلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ } (٦)

(١) سورة آل عمران ، الآية " ٢٠ " .

(٢) سورة المائدة ، الآية " ٩١ " .

(٣) سورة القمر ، الآية " ٤٠ " .

(٤) أنظر أساليب الاستفهام في القرآن الكريم ص ٢٢٢ - ٢٢٤ .

(٥) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية ص ٢٦٤ .

(٦) سورة آل عمران ، الآية " ٢٠ " .

أشار كثير من المفسرين إلى أن الاستفهام في قوله : { أأسلمتم } يفيد الأمر . (١)

ومن ذلك ما ذكره الرازي ((فهو استفهام في معرض التقرير والمقصود منه الأمر ، قال النحويون : إنما جاء بالأمر في صورة الاستفهام لأنه بمنزلة في طلب الفعل والاستدعاء إليه ، إلا أن في التعبير عن معنى الأمر بلفظ الاستفهام فائدة زائدة ، وهي التعبير بكون المخاطب معانداً بعيداً عن الانصاف ، لأن المنصف إذا ظهرت له الحجة لم يتوقف بل في الحال يقبل ، ومع أن الإمام الرازي كأبي حيان وأبي السعود وغيرهما نقل عن الكشاف تحليله البلاغي فقد انفرد بفكرة الانصاف والعناد وظهور الحجة ، بيد أن هذه القاعدة ليست مطردة لإن كثيراً من الأساليب جاءت خالية من عناد المخاطب ، وتفيد ألواناً من المعاني البلاغية . (٢)

ومنه قوله تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا } (٣)

الخطاب في هذه الآية الكريمة للرسول صلى الله عليه وسلم تسلية عن إعراض قومه عن الإسلام ، ولذلك عقب بقوله { أتصبرون } وهو استفهام مستعمل في الحث والأمر كقوله ((فهل أنتم منتهون)) .

وموقع ((وكان ربك بصيراً)) موقع الحث على الصبر المأمور به أي هو عليم بالصابرين ، وإيذان بأن الله لا يضيع جزاء الرسول صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من قومه وأنه ناصرهم عليهم لا محالة . (٤)

ومنه قول المؤمن في الجنة لمن معه عن قرينه الذي كان ينكر البعث فسي

(١) انظر الكشاف ٤١٩/٨ والتفسير الكبير ٢٣٠/٧ والبحر المحيط ٤١٣/٢ وأبا

السعود ٤٥٦/٨ والفتوحات الإلهية ٢٥٣/٨ والتحرير والتنوير ٢٠٢/٣ .

(٢) التفسير الكبير ٢٣٠/٧ وانظر الأساليب الإنشائية ص ٢٦٤ .

(٣) سورة الفرقان ، الآية " ٢٠ " .

(٤) التحرير والتنوير ١٨ / ٢٤٥ .

الدنيا قال تعالى : { قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ إِنَّكَ بَيْنَ الْمَصْدِقَيْنِ . إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا إِنََّّا لَمُدِينُونَ . قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ فَاطَّلَعَ قَرَآءَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ } (١) فالاستفهام في قوله ((هل أنتم مطلعون)) يفيد مع الأمر التشويق (٢) بمعنى اطلعوا . أي إن كنتم تحبون أن تطلعوا على أهل النار لأريكم ذلك القرين فتعلموا أين منزلتهم .

وفهم الرازي من صياغة الفعل أنه " تكلف أمراً اطلع معه لأنه لو كان مطلعاً بلا تكلف لم يكن إلى إطلاعه حاجة فلذلك قال بعضهم إنه ذهب إلى بعض أطراف الجنة فاطلع عندها إلى النار " ولهذا قدر الزمخشري في قراءة { مطلعون } بكسر النون قبله مفعولاً أي مطلعون إياي . (٣)

فما ذهب إليه الرازي كما يقول بعض الباحثين (٤) بعيد جداً لأنه ليس هناك تكلف ولا حجاب يحجز الرؤية والصوت بين الجنة والنار حيث ذكر بعض المفسرين أن في الجنة كوى ينظر أهلها منها إلى أهل النار . (٥) ((ثم إن القراءات في { مطلعون } (٦) تدل على أن صياغة الخبر ملائمة لمعنى الاستفهام وهو إثارة التشويق والأمر بلطف وتودد)) (٧) .

ومنه قوله تعالى على لسان الضعفاء من المعذبين في النار { وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ } (٨) فالاستفهام في قوله : { فهل أنتم مغنون عنا } للأمر

(١) سورة الصافات ، الآية " ٥١ - ٥٥ " .

(٢) انظر أساليب الاستفهام ص ٢٣٢ .

(٣) انظر الكشاف ٣/٢٤١ والتفسير الكبير ٢٦/١٣٩ وتفسير أبي السعود ٤/٥٣٥ وما بعدها .

(٤) انظر الأساليب الانشائية ص ٢٦٥ .

(٥) انظر البحر المحيط ٧/٣٦١ وتفسير أبي السعود ٤/٥٣٦ .

(٦) انظر البحر المحيط الموضوع السابق وكتاب السبعة لابن مجاهد ص ٥٤٨ .

(٧) الأساليب الانشائية ص ٢٦٥ .

(٨) سورة إبراهيم ، الآية " ٢١ " .

أي اغنوا عنا شيئاً من العذاب على سبيل التعجيز والتحدي والتهكم
والتوبيخ { (١) }

ومنه قوله تعالى لآل داود عليه السلام : [وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ
لِتَحْمِصَنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ] (٢) بمعنى أشكروا فهو أمر تودد
وامتنان لعباد الله المؤمنين .

ومن أساليب الاستفهام التي أفادت الأمر في القرآن أساليب { آرايت } (٣)
سواء جاء بعدها الشرط أو المفعول به فهي بمعنى أخبرني من ذلك قوله تعالى :
[قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ] (٤) وقوله تعالى :
[أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى . وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى] (٥) .

((وما يتضمن معنى الأمر من أساليب الاستفهام في البيان القرآني ما
أفاد إنكار الواقع في النفي - (٦) وهذا إصطلاح خاص بأبي السعود أفاد منه صاحب
أساليب الإستفهام - وبخاصة على السنة الأنبياء عليهم في الدعوة إلى الله من ذلك
قوله تعالى : [إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ] (٧) أي اتقوا الله ونظائرها

(١) أساليب الاستفهام ص ٢٣٢ .

(٢) سورة الأنبياء " ٨٠ " وانظر الأساليب الإنشائية ص ٢٦٥ .

(٣) راجع المعجم المفهرس ص ٢٨١ وما بعدها وأساليب الاستفهام ص ٢٣٢ والتفسير
البلاغي للاستفهام ص ٦٤ وما بعدها . .

(٤) سورة الملك ، الآية " ٣٠ " وأساليب الاستفهام ص ٢٣٢ .

(٥) سورة النجم ، الآية " ٣٣ - ٣٤ " .

(٦) المقصود بإنكار الواقع في النفي بمعنى أن المخاطبين قد تركوا فعلاً ماكان ينبغي
أن يتركوه ، فترك الفعل قد وقع منهم ، وهذا معنى إنكار الواقع في النفي ،
وهذه الأساليب تفيد التوبيخ على هذا الترك ، وتفيد أيضاً طلب هذا الفعل
المتروك " أنظر أساليب الاستفهام ص ٥٣ .

(٧) الشعراء ، الآية " ١٠٦ " وانظر معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم ص ٢٧
وما بعدها .

مما جاء على لسان ابراهيم عليه السلام مخاطباً الأصنام أو ضيفيه من الملائكة قال تعالى : { فَرَاغَ إِلَىٰ إِلَهِهِمْ فَقَالَ آلَا تَأْكُلُونَ } (١) بمعنى كلوا ، فابراهيم عليه السلام يعلم أنها جماد ولكنه طلب منها أن تأكل سخرية بها واستخفافاً .

ومنها قوله تعالى : { قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ آلَا تَسْتَمِعُونَ } (٢) أي استمعوا . وقوله تعالى : { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } (٣) .

فالاستفهام في قوله { أفلا تعقلون } يفيد الأمر أي اعقلوا .

((ومن إنكار الواقع في النفي الذي دل على الأمر ما جاء في أساليب "مالك" وفروعه كقوله تعالى { وَمَالِكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } (٤) وقوله تعالى { مَالِكٌ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ } (٥) فالاستفهام " بما " انكار لعدم الإيمان وأمر به ، وإنكار لعدم الأمن وأمر به " (٦)

وبهذا يتضح لنا أن كثيراً من أساليب الإستفهام تفيد الأمر بمعونة السياق والمقام وتزيد عن الأمر بالتأثير وإثارة النفوس وهز المشاعر .

٤ - الخبر بمهني النهي :-

يعبر بالخبر عن الأمر في القرآن الكريم حيث يقتضي المقام اعتناء بالمنهي عنه والسر في التعبير بالخبر عن النهي كما يقول الزمخشري وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي لأنه كأنه سورع إلى الامتثال فهو يخبر عنه . (٧)

(١) الصافات " ٩١ " وانظر أساليب الإستفهام ص ٥٣ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية " ٢٥ " .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٤٤ " .

(٤) سورة الحديد ، الآية " ٨ " .

(٥) سورة يوسف ، الآية " ١١ " .

(٦) أساليب الاستفهام في القرآن الكريم ص ٢٣٣ .

(٧) الكشاف ٢ / ٢٩٣ .

وشواهد في الذكر الحكيم كثيرة نكتفي بالإشارة إلى بعضها من ذلك قوله تعالى: { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ... } (١)

فقوله " لا تعبدون " خبر في معنى النهي ويؤيده قراءة عبدالله بن مسعود وأبي ((لا تعبدوا)) بالجزم .

ومنه قوله تعالى: { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ } (٢)

أي لا تستغفروا لهم فهو خبر أفاد معنى النهي .

ومنه قوله تعالى: { أَلِهَآكُمُ التَّكَاثُرُ } (٣) معناه لا يلهكم التكاثر كما قال

تعالى في آية أخرى { لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ . } (٤)

ومنه قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا

يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ } (٥) أي لا تطيعوهم . (٦)

وقد توقف العلماء حول بعض أساليب النفي المنفية هل هي نفي مطلقاً أو

دالة على النهي بمعنى أن النفي أفاد النهي نحو قوله { لَا يَمَسُّهُ إِلَّا

الْمُطَهَّرُونَ } (٧)

وإضافة إلى هذا ففي القرآن الكريم أساليب خبرية في اللفظ إنشائية في

المعنى - أعني تفيد النهي من مثل نهى وينهى وحرم ولا يحل لكم ، إلى آخره ، وقد

تنبه القدماء إلى ذلك . (٨)

(١) سورة البقرة ، الآية " ٨٣ " .

(٢) سورة التوبة ، الآية " ١١٣ " .

(٣) سورة التكاثر ، الآية " ١ " .

(٤) سورة المنافقون ، الآية " ٩ " .

(٥) سورة آل عمران ، الآية " ١٤٩ " .

(٦) الأماثل الشجرية ٢٧٢/٨ .

(٧) الواقعة " ٧٩ " وراجع الكشاف ٥٩/٤ والتفسير الكبير ١٩٤/٢٩ والبحر المحيظ

٢١٤/٨ وتفسير أبي السعود ٢٦٧/٥ والأساليب الإنشائية ص ١٠٤ وما بعدها .

(٨) راجع البرهان ٨/٢ والاتقان ٣٦/٤ .

من ذلك قوله تعالى : [إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ...] (١)
وقوله تعالى [حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ ...] (٢) .

٥ - الاستفهام بمعنى النهي :-

أفاد الاستفهام معنى النهي في القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى :
[اتَّخَشُونَهُمْ فَإِنَّ لَهُ أَهَقًا أَنْ تَخْشَوْهُ] (٣) بدليل قوله { فلا تخشوهم } ومنه قوله
تعالى : [مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ] (٤) أي لا تغتر . وقوله تعالى : [أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
السُّفَهَاءُ] (٥) أي لا تهلكنا (٦) .

(١) سورة النحل ، الآية " ٩٠ " .

(٢) سورة المائدة ، الآية " ٣ " .

(٣) سورة التوبة ، الآية " ١٣ " .

(٤) سورة الإنفطار ، الآية " ٦ " .

(٥) سورة الأعراف ، الآية " ١٥٥ " .

(٦) انظر البرهان ٢/٣٣٩ والاتقان ٣/٣٣٨ وأساليب بلاغية ص ١٢٤ .

الفصل الثالث

بين النفي والنهي

في

القرآن الكريم

من الأمور المسلم بها لدى علماء العربية أن النهي فرع من النفي ، كما أن للنفي أدواته الموضوعية له الخاصة به ، ولذا لا أريد أن أتحدث هنا بالتفصيل عن أوجه الشبه والاختلاف بين النفي والنهي في القرآن وإنما لهذه القضية دراسة أخرى تفصل القول فيها في القريب العاجل بإذن الله وتوفيقه .

وإنما أتناول بعض القضايا منها دخول النفي أو النهي على القيد أو المقيد في القرآن الكريم ، فقد يدخل النفي أو النهي على جملة فينفي أحد جزأها أو هما معاً ، أو بعبارة أخرى ينصب النفي أو النهي على القيد أو المقيد أو هما معاً والحاكم في ذلك دلالة السياق والمقام وقرائن الأحوال وخصائص التراكيب . (١)

فالسباق وحده هو الذي يحدد هل النفي أو النهي انصب على القيد أم القيد والمقيد معاً ؟

ولنشرع الآن في تفصيل هذه القضية وإيراد بعض الشواهد وتحليلها :-

١ - إنصباب النفي أو النهي على القيد :-

قال تعالى { لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى } (٢)

النهي في هذه الآية ليس نهياً عن الصلاة لأن الصلاة لاينتهي عنها ، وإنما نهى الله عن قربانها في حالة السكر لذهاب العقل ، فالنهي منصب على القيد دون المقيد .

ومنه قوله تعالى : { لَا تَمْشِي فِي الْأَرْضِ مَرْحًا } (٣)

فالنهي منصب على القيد ((مرحاً)) وليس على المشي مطلقاً بل مقيداً

(١) راجع الأساليب الإنشائية ص ٧٤ والنبا العظيم ص ١٢٢ .

(٢) سورة النساء ، الآية " ٤٣ " .

(٣) سورة الإسراء ، الآية " ٣٧ " .

بالمرح والاختيال ، كما أن التعبير بقوله [في الأرض] لزيادة التقرير والإشعار بأن المشي عليها مما لا يليق به المرح والتكبر . (١)

ويجوز أن يتوجه النهي إلى المقيد فيكون النهي عن صورة من صور المشي أي لاتمش مشياً مارحاً ، وهذا بعيد جداً كما ترى وإنما السياق يدل على توجه النهي إلى القيد .

ومنه في النفي قوله تعالى : [قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ] (٢)

لا أريد أن أطيل الوقوف عند هذه الآية لاستخراج لطائفها البيانية فقد كفانا مؤونة ذلك العلماء قديماً وحديثاً . (٣)

فالنفي في هذه السورة الكريمة منصب على القيد دون المقيد ، فالنفي ليس نفيًا للعبادة على إطلاقها بل مقيد بالمفعول إتماماً للفائدة . (٤)

٢ - انصباب النفي أو النهي على القيد والمقيد معاً :-

في القرآن الكريم أمثلة كثيرة توجه فيها النفي أو النهي إلى القيد والمقيد معاً من ذلك قوله تعالى [لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ] (٥)

الخطاب في هذه الآية موجه للفقراء ، وقال تعالى خطاباً للأغنياء [وَلَا تَقْتُلُوا

(١) أنظر تفسير أبي السعود ٤٤٩/٣ .

(٢) -سورة الكافرون ، الآية " من ١ - ٦ " .

(٣) راجع نتائج الفكر في النحو للسهيلى تحقيق الدكتور محمد إبراهيم البنا ص

١٨٣ وما بعدها . والتفسير القيم لابن القيم ص ٥٢٥ : ص ٥٢٩ . والأساليب

الإنشائية ص ٧٥ وما بعدها .

(٤) الأساليب الإنشائية ص ٧٥ .

(٥) سورة الأنعام ، الآية " ١٥١ " .

أَوْلَادِكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ } (١) .

فالنهي في هاتين الآيتين الكريمتين منصب على القيد والمقيد معاً فهو نهى عن القتل مطلقاً ، فلا يجوز هنا أن يتوجه النهي إلى القيد وإلا لكان المعنى النهي من قتل الأولاد بسبب الفقر وجواز قتلهم بغير هذا السبب وهذا فاسد قاطعاً لا يدل عليه السياق ، بل النهي منصب على القيد والمقيد معاً .

وذكر هذا القيد وصفاً لما كانوا عليه ، ولأنه كان العلة في قتل الأولاد عندهم ذماً وتبشيعاً وتشنيعاً وعدم ثقة في الرزاق المتين ، ولذا كان التعقيب في كلتا الآيتين مناسباً لسياقه وغرضه مقررأ لسبب النهي { نحن نرزقكم وإياهم } { نحن نرزقهم وإياكم } حيث بدأ في الآية الأولى بقوله { نحن نرزقكم } خطاباً للأبء وتبشيراً لهم بزوال الإملاق وإحالة الرزق على الخلاق الرزاق ثم عطف عليهم الأولاد ، أما في الآية الثانية فظاهر التركيب أنهم موسرون وأن قتلهم إياهم إنما هو لتوقع حصول الإملاق والخشية منه فبدىء فيها بقوله { نحن نرزقهم } إخباراً بتكفله تعالى برزقهم فلستم أنتم رازقيهم فعطف عليهم الأبء . (٢)

ومنه قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفاً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (٣)

النهي منصب على القيد والمقيد معاً ، فهو نهى عن أكل الربا مطلقاً لأنه محرم بقوله تعالى : { وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا } (٤) وذكر القيد { أضعافاً مضاعفة } ((وصفاً للحال الشنعاء التي كانوا يوقعون الربا عليها وفيه توبيخ لهم لتضعيفه ، فهذا الوصف ليس قيدياً في النهي إذ ما لا يقع أضعافاً مضاعفة مساو في التحريم لما كان أضعافاً مضاعفة)) (٥) .

(١) سورة الإسراء ، الآية " ٣١ " .

(٢) انظر البحر المحيط ٢٥١/٤ وما بعدها والبرهان في توجيه متشابه القرآن ص ٦٩ ومعتك الأقران ٩٣/١ . والأساليب الإنشائية ص ٨٣ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية " ١٣٠ " .

(٤) سورة البقرة ، الآية " ٢٧٥ " .

(٥) انظر الكشاف ٤٦٣/١ البحر المحيط ٥٤/٣ .

ويضيف الدكتور صباح دراز قائلاً ((وخص الأكل مراداً به المعاملة والانتفاع لأن الأكل غالب في الانتفاع به وهو المقصود الأعظم من المال وأكبر الدوافع للضرب في الأرض والارتزاق وطلب العيش والسعي ، وفعل الأكل حين يأتي منهيأ عنه في القرآن فهو كناية مصورة للشراهة والالتهايم غالباً)) (١)

ومنه قوله تعالى خطاباً لليهود { وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونَ } (٢)

فالنهي في هذه الآية توجه إلى القيد والمقيد معاً والمعنى لا تكفروا به ، والآية تدعوهم إلى الإيمان بالقرآن الذي ذكر كنياته { بما أنزلت } لتكون دعوى بدليلها أي لأنني أنزلته فإذا كانت التوراة منزلة فالقرآن مثلها ، وهو لا يناقضها بل نزل { مصدقاً لما معكم } أما النهي في قوله { ولا تكونوا أول كافر به } فقد دل على أمر من مفهوم السياق أي كونوا أول مؤمن به تعريضاً بسوء تقديرهم وهذا ما صرح به الزمخشري بقوله ((وهذا تعريض بأنه كان يجب أن يكونوا أول من يؤمن به لمعرفةهم به وبصفته ولأنهم كانوا المبشرين بزمان من أوحى إليه والمستفتحين على الذين كفروا به وكانوا يعدون أتباعه أول الناس كلهم ، فلما بعث كان أمرهم على العكس)) (٣) .

ويضيف أبو حيان قائلاً ((وخص الأولية بالذكر لأنها أفحش لما فيها من إبتداء الكفر وبخاصة إذا كانوا موقنين)) (٤) .

ومنه قوله تعالى وصفاً للفقراء المتعفين الذين لا يبدون فاقتهم لا بلسان الحال ولا المقال تعففاً وتجملاً { لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

(١) الأساليب الإنشائية ص ٨٣ وما بعدها .

(٢) سورة البقرة ، الآية " ٤١ " .

(٣) الكشاف ١ / ٢٧٦ .

(٤) البحر المحيط ١ / ٧٧ وراجع الأساليب الإنشائية ص ٨٤ .

لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَلُّفِ
تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً } (١)

النفي في هذه الآية الكريمة منصب على القيد والمقيد معاً فهو نفي للسؤال والإلحاف ، وقد نص على ذلك جمهور البلاغيين (٢) ، ويجوز أن يكون النفي منصباً على القيد فيكون المعنى على هذا ثبوت سؤالهم ونفي الإلحاف أي وإن وقع منهم سؤال فإنما يكون بتلطف وتستر لا بإلحاح (٣) ، ويجوز أن يكون منصباً على المقيد أي نفي عنهم السؤال مطلقاً سواء كان بإلحاف أو غير إلحاف ، لكنني أرجح كما رجح الرازي وجمهور البلاغيين أن يكون النفي منصباً على القيد والمقيد معاً أي نفي عنهم السؤال والإلحاف جميعاً . (٤)

وانتقد أبو حيان تنظير العلماء هذه الآية ونظائرهما ببيت امرئ القيس (٥)

على لاحب لا يهتدى بمناره ... إذا سافه العود النباطي جرجرا

ولحظ أن الشبه في مطلق إنتفاء الشئئين لأنه يلزم من نفي المنار نفي

الهداية التي هي بعض لوازمه أي لامنار ولا إهتداء ، ولا يلزم من نفي الإلحاف نفي

السؤال مطلقاً بل يلزم من نفي السؤال نفي الإلحاف إذ نفي العام يدل على نفي

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢٧٣ " .

(٢) أنظر بديع القرآن ص ١٥٢ وتحرير التحبير ص ٢٧٧ والاتقان ٢٣٠/٣ ومعتك

الأقران ٤٢٧/٨ والأساليب الإنشائية ص ٩٥ .

(٣) أنظر البحر المحيط ٢/٢٢٩ والكشاف ١/٢٩٨ .

(٤) أنظر الكشاف ١/٢٩٨ والتفسير الكبير ٧/٨٨ وتفسير أبي السعود ١/٤١١

وبديع القرآن ص ١٥٢ وتحرير التحبير ص ٢٧٧ والاتقان ٢٣٠/٣ ومعتك

الأقران ٤٢٧/٨ .

(٥) ديوان امرئ القيس ص ٦٦ والبيت في الأمالي الشجرية ١/١٩٢ والخصائص

١٦٥/٣ وخزانة الأدب تحقيق عبدالسلام هارون ١٠/١٩٣ ، ١٠/٢٥٨ .

الخاص ، فالتشابه التام بينهما بعيد وغير صواب كما نص على ذلك أبو حيان (١)
ويضيف الدكتور صباح دراز قائلاً ((ويبقى أن نقول إن بين الهداية والمنار

عموماً وخصوصاً ولا يلزم من نفي أحدهما نفي الآخر)) (٢)

ومنه قوله تعالى : { مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ } (٣)

فالنفي انصب على الموصوف وصفته أي لاشفيع فيطاع إذ ليس للكافر شفاعة كقول
بعض العرب (٤) : لا ترى الضب بها ينحجر (٥)

ومنه قوله تعالى { فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ } (٦) يقول أبو حيان

((ليس المعنى أنهم يشفع لهم فلا تنفع شفاعة من يشفع لهم وإنما المعنى نفي
الشفاعة فانتنفى النفع أي لا شفاعة شافعين لهم فتنفعهم من باب على لاحب لايهتدى
بمناره ، أي لا منار له فيهتدى به ، وتخصيصهم بانتفاء شفاعة الشافعين يدل على

أنه قد تكون شفاعات ينتفع بها ، ووردت أحاديث في صحة ذلك . (٧)

الصفة للتأكيد لا للتقييد :-

يقول السيوطي نقلاً عن السابقين ((هو أن تنفي الشيء مقيداً والمراد نفيه

مطلقاً مبالغة في النهي وتأكيداً له ومنه قوله تعالى : { وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا

(١) البحر المحيط ٢ / ٣٣٠ .

(٢) الأساليب الإنشائية ص ٩٦ .

(٣) سورة غافر ، الآية " ١٨ " .

(٤) انظر التفسير الكبير ٥١/٢٧ وما بعدها والبحر المحيط ٤٥٧/٧ والأساليب
الإنشائية ص ٩٦ .

(٥) هذا عجز بيت وصدوره : لاتفزع الأرنب أهوالها "نسبه ابن الأنباري في شرح
المفضليات إلى عمرو بن أحمر انظر خزانة الأدب ١٩٣/١٠ والبيت في
الخصائص ١٦٥/٣ والأمالى الشجرية ١٩٢/١ والمثل السائر ٢٤٨/٢ والخزانة
١٩٢/١٠ .

(٦) سورة المدثر ، الآية " ٤٨ " .

(٧) البحر المحيط ٢٨٠/٨ وراجع الاتقان ٣/٢٢٠ وما بعدها ومعتك الأقران ٤٢٧/١ .

أَخْرَ لَا بَرْهَانَ لَهُ { (١) فليس ثم إله مع الله بل المراد نفي الإله الباطل على أبلغ وجه لأن الوصف مؤكد لامقيد كقوله [يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ] (٢) ومنه قوله تعالى : { سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا } . (٣) في هذه الآية تسلط النفي على الإنزال والمقصود نفي السلطان ، أي إلهة لا سلطان في إشراكها ، فالبرهان الحق والسلطان الأبلغ طريقه تبين الله ، والالهة الباطلة مستحيل أن يكون لها دليل أو برهان ، فالمراد نفي السلطان والنزول معاً مبالغة في نفي الشريك بنفي لازمه بالطريق البرهاني كما نص عليه الشهاب (٤)

ومنه قوله تعالى : { وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ } (٥) فإن قتلهم النبيين لا يكون إلا بغير حق ، ومثله قوله تعالى : { رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا } (٦) { فإنها لا عمد لها أصلاً } (٧)
نفي الشيء لنفي ثمرته :-

يقول السيوطي ((قد ينفي الشيء أصلاً لعدم كمال وصفه أو إنتفاء ثمرته)) (٨) ، وذلك أن الشيء إذا فقد ثمرته كان نفيه أولى من إثباته ، بيد أنه قد يثبت الفعل ثم ينفيه في سياق واحد ، والإثبات هنا لصورة الفعل فحسب وشكله

(١) المؤمنون " ١١٧ " وانظر البرهان ٤٢٠/٢ والاتقان ٢٣١/٣ ومعتك الأقران ٤٢٧/١ .

(٢) الأنعام " ٢٨ " وانظر البحر المحيط ٤٢٥/٦ وحاشية الشهاب ٣٥٠/٦ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية " ١٥١ " .

(٤) راجع الكشاف ٤٧٠/١ والبحر المحيط ٧٧/٣ وحاشية الشهاب ١٦٥/٣ والاساليب الإنشائية ص ٩٨ .

(٥) سورة البقرة ، الآية " ١ " .

(٦) سورة الرعد ، الآية " ٢ " .

(٧) انظر البرهان ٤٢٠/٢ وما بعدها والاتقان ٢٣١/٣ ومعتك الأقران ٤٢٧/١ .

(٨) انظر الاتقان ٢٣١/٣ ومعتك الأقران ٤٢٧/١ .

دون فحواه كقوله تعالى في صفة أهل النار { لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى } (١) نفى عنه الموت لأنه ليس بموت صريح .

ومنه قوله تعالى { وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا إِنَّمَ الْكُفْرَ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ } (٢) .

يقول الزمخشري : ((فإن قلت كيف أثبت لهم الأيمان في قوله { وَإِنْ نَكَثُوا

أيمانهم } ثم نفاها عنهم ؟ قلت : أراد أيمانهم التي أظهروها ثم قال لا أيمان لهم على الحقيقة ، وأيمانهم ليست بأيمان)) (٣) وعلى هذا ((فقد أثبت لهم أيماناً نفاها عنهم على وجه التأكيد لأنهم نقضوها نقضاً بعد توثيقها وتأكيدها ، وتأمل موقع " من " الدالة على تثبيت العهد والإقامة عليه زمنياً ، ومن ثم يكون هذا النقض أدخل في باب الإجمام والقبح)) (٤)

ومنه قوله تعالى : { وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرُّوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } (٥) في هذه الآية الكريمة أثبت لهم العلم أولاً ثم نفاها عنهم بقوله { لو كانوا يعلمون } على وجه التوكيد .

ومنه قوله تعالى : { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى } (٦) أثبت

في هذه الآية الكريمة الرمية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن صورتها وجدت منه ، ونفاها عنه لأن أثرها الذي لا يطيقه البشر فعل الله عز وجل ، فكان الله هو فاعل الرمية على الحقيقة وكأنها لم توجد من الرسول صلى الله عليه وسلم أصلاً { (٧) .

(١) سورة الأعلى ، الآية " ١٣ " .

(٢) سورة التوبة ، الآية " ١٢ " .

(٣) الكشاف ٢ / ١٧٧ .

(٤) الأساليب الإنشائية ص ٩٨ .

(٥) سورة البقرة " ١٠٢ " وراجع الآية في الكشاف ٢ / ٣٠٢ ومفتاح العلوم تحقيق نعيم زرزور ص ١٧٢ والإيضاح ٩١ / ١ وما بعدها والاتقان ٢٣١ / ٣ ومعتك الأقران ٤٢٨ / ١ وبغية الإيضاح ٤٤ / ١ والأساليب الإنشائية ص ٩٩ .

(٦) سورة الأنفال ، الآية " ١٧ " .

(٧) الكشاف ٢ / ١٥٠ .

قضية النهي عن الكون على صفة في القرآن الكريم :

النهي في القرآن الكريم قسمان لا ثالث لهما ، إما أن يكون نهياً صريحاً مباشراً نحو قوله تعالى على لسان لقمان يعظ ابنه (... يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (١) وإما أن يكون نهياً عن الكون على صفة من الصفات وهو أبلغ من النهي الصريح المباشر من ذلك قوله تعالى (مَنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (٢)

والواقع أن النواهي الصريحة - القسم الأول - في القرآن الكريم جاءت في مقامات التشريع والآداب والأخلاق التي دعا القرآن المسلمين إلى اتباعها والتمسك والتحلي بها ، وهي أكثر النواهي في القرآن منها قوله تعالى :
[وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا . إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا . وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا . وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا . وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا . وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا] (٣)

أما النهي عن الكون على صفة فقد جاء في مقامات تحتاج قدراً من التأكيد والمبالغة ، وهذا ما صرح به الدكتور صباح دراز حيث يقول ((وهذا للقصد إلى التأكيد والمبالغة وإنما يكون هذا في مقامات يتطلب النهي عن الكون على صفة دون النهي عن نفس الصفة)) (٤)

(١) سورة لقمان ، الآية " ١٣ " .

(٢) سورة الروم ، الآية " ٣١ " .

(٣) الإسراء الآيات " ٢٩ - ٣٤ " .

(٤) الأساليب الإنشائية ص ٩٠ .

وقد كثر في القرآن النهي عن الكون على صفة من الصفات حيث جاء في اثنين وثلاثين موضعاً (١) . وهي كثيرة في ذاتها قليلة بالإضافة إلى النهي المباشر الصريح .

وقد أشار أبوحيان إلى أسرارها البلاغية عند تفسير قوله تعالى [الحق من ربك فلا تكونن من الممترين] (٢) حيث يقول ((نهي أن يكون منهم ، والنهي عن كونه منهم أبلغ من النهي عن نفس الفعل فقولك " لا تكن ظالماً " أبلغ من قولك " لا تتظلم " لأن " لا تتظلم " نهي عن الالتباس بالظلم ، وقولك " لا تكن ظالماً " نهي عن الكون بهذه الصفة ، والنهي عن الكون على صفة أبلغ من النهي عن تلك الصفة إذ النهي عن الكون على صفة يدل بالوضع على عموم الأكوان المستقبلية على تلك الصفة ويلزم من ذلك عموم تلك الصفة ، والنهي عن الصفة يدل بالوضع على عموم تلك الصفة ، وفرق بين ما يدل على عموم ويستلزم عموماً وبين ما يدل على عموم فقط ، فلذلك كان أبلغ ، ولذلك كثر النهي عن الكون ...

والكينونة في الحقيقة ليست متعلق النهي والمعنى لا تتظلم في كل أكوانك أي في كل فرد فرد من أكوانك فلا يمر بك وقت يوجد فيه منك ظلم فتصير " كان " فيه نصاً على سائر الأكوان بخلاف " لا تتظلم " (((٣)

وحين ننعم النظر في أساليب النهي عن الكون في الذكر الحكيم نجدها تتفاوت من حيث المخاطب والمتكلم على نحو ما يتضح في الصفحات التالية :

أ - الرسول صلى الله عليه وسلم :-

أكثر أساليب النهي عن الكون في القرآن جاءت خطاباً للرسول صلى الله عليه وسلم تسلياً وتثبيتاً وربطاً على قلبه الشريف ، فقد بلغ عدد الأساليب التي

(١) راجع المعجم المفهرس ص ٦٢٨ - ٦٤٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية " ١٤٧ " .

(٣) البحر المحيط ٤٣٦/٨ وما بعدها وراجع دراسات لأسلوب القرآن القسم الأول ج٢ ص ٥٢٠ وأساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ص ٤٧٨ وما بعدها والأساليب الإنشائية ص ٩٠ .

خوطب بها تسعة عشر أسلوباً (١) ، وقد جاءت على ثلاث صور نبه إليها صاحب الأساليب الإنشائية وهي :-

١- جاء النهي عن الكون بحذف النون من الفعل " يكن " في ثلاثة مواضع (٢) ، قال تعالى { فَلَاتَكُ فِي مَرْيَةِ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ } (٤) وقوله تعالى { وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي هَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ } (٥) ونلاحظ أن النهي عن الكون في هذه الايات جاء بحذف النون وهذا ((للدلالة على القلة الضئيلة فهو نهي عن التعرض لأدنى ضيق من مكر المشركين وخداعهم أو أدنى شك في بطلان عبادتهم)) (٦) .

٢- جاء النهي مع إثبات النون من الفعل " يكن " في سبعة مواضع (٧) ، منها قوله تعالى { الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَاتَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ } (٨) وقوله تعالى { وَأَذْكُرُ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعاً وَخَيْفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ } (٩) فالتعبير بقوله { لاتكن من الممترين } و { لاتكن من الغافلين } أبلغ من قولك لاتكن ممتزياً ولاتكن غافلاً ، وقد نبه الزمخشري إلى سر هذا التركيب حيث يقول عند تفسير قوله تعالى { إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ } (١٠) يقول " من القالين " أبلغ من أن يقول إني لعملكم قال كما تقول

-
- (١) انظر المعجم المفهرس ص ٦٣٨ - ٦٤٠ .
 - (٢) انظر المعجم المفهرس ص ٦٣٨ .
 - (٣) سورة هود ، الآية " ١٧ " .
 - (٤) سورة هود ، الآية " ١٠٩ " .
 - (٥) سورة النحل ، الآية " ١٢٧ " .
 - (٦) الأساليب الإنشائية ص ٩١ .
 - (٧) انظر المعجم المفهرس ص ٦٣٨ - ٦٤٠ .
 - (٨) سورة آل عمران ، الآية " ٦٠ " .
 - (٩) سورة الأعراف ، الآية " ٢٠٥ " .
 - (١٠) سورة الشعراء ، الآية " ٦٨ " .

فلان من العلماء فيكون أبلغ من قولك فلان عالم لأنك تشهد له بكونه معدوداً
في زمرةهم... (١)

ومنها أعني ومن أساليب النهي عن الكون التي خوطب بها النبي صلى الله
عليه وسلم قوله تعالى (وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ
مَكْضُومٌ) (٢) وقوله تعالى (كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي مَدْرِكَ حَرَجٍ
مِنَهُ لِيُنْذِرَ بِهِ وَيُذَكِّرَ لِلْمُؤْمِنِينَ) . (٣)

في هذه الآية الأخيرة توجه النهي إلى الحرج مع أن المراد نهيه صلى الله عليه
وسلم للمبالغة في تنزيهه عليه الصلاة والسلام عن الشك فيما ذكر فإن النهي
عن الشيء مما يوهم إمكان صدور المنهي عنه عن المنهي وإما للمبالغة في
النهي فإن وقوع الشك في صدره عليه الصلاة والسلام سبب لاتصافه به ،
والنهي عن السبب نهى عن المسبب بالطريق البرهاني ونفي له من أصله بالمرّة
كما قال أبو السعود . (٤)

وقد فسر الزمخشري الحرج بالشك حيث يقول : ((أي شك منه ... وسمى
الشك حرجاً لأن الشاك ضيق الصدر حرجه كما أن المتيقن منشرح الصدر
منفسحه أي لا تشك في أنه منزل من الله ولا تحرج من تبليغه)) (٥) .
أما الرازي فقد ذكر في تفسير الحرج وجهين هما الضيق ، والشك (٦) ، وضعف
أبوحيان هذه الآراء وقال ((وإن صح هذا عن ابن عباس فيكون مما توجه فيه
الخطاب إليه لفظاً وهو لأمته معنى أي ولا يشكوا بأنه من عند الله)) (٧)

-
- (١) انظر الكشاف ١٢٥/٣ وراجع حاشية الشهاب ٧١/٤ والأساليب الإنشائية ص ٩٢
 - (٢) سورة القلم ، الآية ٤٨ .
 - (٣) سورة الأعراف ، الآية ٢ .
 - (٤) تفسير أبي السعود ٢ / ٣١٨ .
 - (٥) الكشاف ٦٥/٢ وما بعدها .
 - (٦) انظر التفسير الكبير ١٨/١٤ .
 - (٧) البحر المحيط ٤ / ٢٦٦ .

" وهو نظير قولهم لأرينك ههنا ففي الظاهر للمتكلم وفي الواقع للمخاطب أي لاتكن ههنا بحيث أراك إذ الرؤية مترتبة على الوجود في المكان ففيه كناية ففي قوله [فلا تكن في صدرك حرج] كناية مترتبة على كناية والمعنى لو كان الحرج مما ينهى عنه لنهيناك عنه فلا تتعرض له ضيقاً أو شكاً أو غيرهما كالخوف (١) ، وفيه تنزيه للنبي صلى الله عليه وسلم عن النهي المباشر لأن ثم ما يزيه ويكون سبباً لشرح الصدر وطمأنينة القلب وهو القرآن العظيم (٢) .
ومنه قوله تعالى تسلية للرسول الكريم وتسرية إعراض المشركين عن دعوته { وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ } (٣) ونظيرها قوله تعالى { وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ } (٤) فهذه الآية نزلت تصبر النبي والمؤمنين في شهاداء أحد وفي مقدمتهم عمه حمزة بن عبدالمطلب وقد ملأ الحزن والأسى القلوب فنزلت تسلي النبي وأصحابه والمقام رفيف حزين وقد حذفت النون مبالغة في التسلية وبياناً لتركه أدنى ضيق مما يكر به المشركون (٥) .
أما الآية الأولى ونظائرها فقد جاء الفعل فيها على الأصل " يكن " بثبوت النون تلازماً وتناسباً مع السياق الذي جاءت فيه .

٣ - جاء فعل الكون مؤكداً بالنون ملائمة لمقامه وخصوص سياقه حيث جاء في تسعة مواضع (٦) ، منها قوله تعالى بعد آيات تحويل القبلة { الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَاتَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ } (٧) ليس المراد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم

-
- (١) انظر البحر المحيط ٤ / ٢٦٦ .
 - (٢) الأساليب الإنشائية ص ٩١ وما بعدها .
 - (٣) سورة النمل ، الآية " ٧٠ " .
 - (٤) سورة النحل ، الآية " ١٤٧ " .
 - (٥) الأساليب الإنشائية ص ٩٣ وراجع البرهان في توجيه متشابه القرآن ص ١١٥ .
 - (٦) راجع المعجم المفهرس ص ٦٣٩ .
 - (٧) سورة البقرة ، الآية " ١٤٧ " .

عن الشك لأنه غير متوقع منه ، وحاشاه صلى الله عليه وسلم أن يكون ممترياً
وإنما هو من باب الإلهاب والتهبيج ، فهو نهى عما يوقع في الريب والشك
باكتساب المعارف المزيحة للشك على الوجه الأبلغ . (١)

وتلحظ أن النهي في هذه الآية جاء مؤكداً بالنون لأنه صلى الله عليه وسلم
ووجه بحملة تشكيك - على حد التعبير المعاصر كما يقول بعض الباحثين - من
اليهود والمنافقين وهم مزدوج فكان الحسم وتأكيد النهي . (٢)

ومنه قوله تعالى { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْجَاهِلِينَ } (٣) بعد أن ذكر أبو حيان الآراء العديدة التي تجعل الخطاب للرسول
صلى الله عليه وسلم ردها في حزم وجعل الخطاب للسامع على العموم ، وهذا
كلامه بإيجاز والذي أختاره أن هذا الخطاب ليس للرسول وذلك أنه تعالى قال
ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فهذا إخبار وعقد كلي أنه لا يقطع في الوجود
إلا ما شاء وقوعه ولا يختص هذا الإخبار بهذا الخطاب بالرسول لأنه عالم
بمضمونه مأمور بتبليغه فالخطاب للسامع دون الرسول فكأنه قيل ولو شاء
الله أيها السامع الذي لا يعلم أن ما وقع في الوجود بمشيئة الله جمعهم على
الهدى لجمعهم عليه فلا تكونن أيها السامع من الجاهلين . (٤)

ومنه قوله تعالى : { وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ
مِنَ الْخَاسِرِينَ } (٥) .

يقول الزمخشري : ((أي فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك
والتكذيب بآيات الله ، ويجوز أن يكون على طريق التهبيج والإلهاب كقوله :

(١) راجع تفسير أبي السعود ٢٨٣/١ .

(٢) الأساليب الإنشائية ص ٩٣ وراجع البرهان في توجيه متشابه القرآن ص ٤٧ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية " ٣٥ " .

(٤) انظر البحر المحيط ١١٦/٤ وراجع الأساليب الإنشائية ص ٩٣ .

(٥) سورة يونس ، الآية " ٩٥ " .

{ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ . وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ
أُنزِلَتْ إِلَيْكَ } . (١) ولزيادة التثبيت والعصمة (((٢) .

ب - نوح عليه السلام وابنه :-

ورد النهي عن الكون في القرآن الكريم على لسان نبي الله نوح عليه السلام خطاباً لابنه قال تعالى : { وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ } (٣) " فجملة " يابني اركب معنا " بيان لجملة " ونادي نوح " وهي إرشاد له ورفق به ، أما جملة " ولاتكن من الكافرين " فهي معطوفة على الجملة السابقة لإعلامه بأن إعراضه عن الركوب يجعله في صف الكافرين ، إذ لا يكون إعراضه عن الركوب إلا أثراً لتكذيبه بوقوع الطوفان " (٤) وقد عبر نوح عليه السلام بقوله { ولاتكن مع الكافرين } دون قولنا " ولاتكن من الكافرين " وذلك تصويراً وتجسيداً لخوفه وهلعه على ابنه وتنفيراً له من أن يكون في زمرة الكافرين ، واستمالة له في أن يكون معه لا مع الكافرين الذين حق عليهم العذاب .

ج - الملائكة وإبراهيم الخليل عليه السلام :-

ورد النهي عن الكون في القرآن على السنة الملائكة خطاباً لإبراهيم عليه السلام في قوله تعالى { قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ } (٥) لما كان إبراهيم عليه السلام منزهاً عن القنوط من رحمة الله جاء خطابهم غاية في الأدب تشریفاً له وإحتراماً لقدره ، حيث نهوه عن أن يكون من زمرة

(١) سورة القصص " ٨٦ - ٨٧ " .

(٢) الكشاف ٢ / ٢٥٣ .

(٣) سورة هود ، الآية " ٤٢ " .

(٤) التحرير والتنوير ٧٦/١٢ .

(٥) سورة الحجر ، الآية " ٥٥ " .

القائطين تحذيراً له مما يدخله في تلك الزمرة المتصفة بالقنوط من رحمة الله تعالى . (١)

د - شعيب عليه السلام وقومه :-

ورد النهي عن الكون في القرآن الكريم على لسان نبي الله شعيب عليه السلام خطاباً لقومه في قوله تعالى { أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ، وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ } (٢) .

قبل هذه الآية بدأ شعيب عليه السلام بما بدأ كل رسول قومه إلى عبادة الله وحده ، وفي هذه الآية أخذ يواجههم بما هو من خاصة أمورهم فأمرهم بإيفاء الكيل وأكده بقوله { ولا تكونوا من المخسرين } وهو أبلغ من قولنا " ولا تكونوا مخسرين " لأنه يدل على الأمر بالتبرؤ من أهل هذا الصنيع (٣) .

هـ - المؤمنون :-

جاء النهي عن الكون في القرآن خطاباً للمؤمنين في ثمانية مواضع (٤) ، تحذيراً لهم من التشبه بالضالين من الأمم السابقة ومن المشركين والمنافقين ، وتجريداً للإيمان الخالص وإقامة للخلق الإسلامي الرفيع وتربية للشخصية الإسلامية في إطار النظرة الإسلامية العامة للسلوك السوي (٥) ، وفي هذه الأساليب يظهر بوضوح - كما أشرنا من قبل - معنى الإلهاب والتهبيج ، من ذلك قوله تعالى { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } (٦) وقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

(١) راجع التحرير والتنوير ٦٠/١٤ .

(٢) سورة الشعراء " ١٨١ - ١٨٢ " .

(٣) راجع التحرير والتنوير ١٨٤/١٩ وفي ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٦١٥ .

(٤) انظر المعجم المفهرس ص ٦٣٩ .

(٥) انظر الأساليب الإنشائية ص ٩٤ .

(٦) سورة آل عمران ، الآية " ١٠٥ " .

لَاتَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا
غُزًى لَوْ كَانُوا هُنْدًا مَآمَاتُوا وَمَآ قَتَلُوا... { (١) وقوله تعالى : [وَلَا تَكُونُوا
كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ] (٢) وقوله تعالى : [وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي
نَقَضَتْ فَرْجَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا] (٣) إلى آخر هذه الأساليب ، ولعلك تلحظ
معني أن التشبيه في هذه الآيات منفي أو مسلوب والطرفان من ألوان الطباق
المتقابل بين الشخصيات المتصفة بصفات متقابلة تصويراً وترغيباً وترهيباً كما
صرح بذلك الدكتور صباح دواز . (٤)

كما جاء النهي عن الكون دون تشبيه في قوله تعالى [مُنِيبِينَ إِلَيْهِ
وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ
وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ] (٥) ، فالنهي في هذه الآية للإلهاب
والتهيج جيء به توكيداً للأمر بالتقوى وإقامة الصلاة ، وفيه إيحاء وإيماء بأن في
التقوى والصلاة لله وحده الوسيلة والغاية دون هذا التفرق الغريب بين المشركين
الذين تفرقوا شيعاً وتباينت عقائدهم من شرك وكفر وإلحاد (٦) .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٥٦ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٢١ .

(٣) سورة النحل ، الآية ٩٢ .

(٤) الأساليب الإنشائية ص ٩٤ .

(٥) سورة الروم ٢١ - ٢٢ .

(٦) أنظر الأساليب الإنشائية ص ٩٤ .

الباب الثالث

النسق في توالي أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم

و

أسراره البلاغية

المدخل

جاءت أساليب الأمر والنهي في القرآن في تواليها على صور مختلفة ، فقد يتبع الأمر بأمر أو نهي ، وقد يأتي النهي قبل الأمر أو يتلوه نهي آخر ، ومن هنا تتنوع المعالجة حسب هذه الصور ، ولا شك أن المقام والغرض من وراء هذا التنوع مما نبه إليه الإمام عبد القاهر في أسرار النظم مما يدخل تحت التلائم والتناسب بين الكلم أو الجمل .

قال عبد القاهر : ((وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى : { وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَأْسَمَاءِ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } (١) ، فتجلى لك منها الإعجاز وبهرك الذي ترى وتسمع أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط الكلم بعضها ببعض ، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة والرابعة وهكذا إلى أن تستقر إليها إلى آخرها ، وأن الفضل نتائج ما بينها وحصل من مجموعها؟

إن شككت فتأمل : هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت

لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية ؟ (((٢)

(١) سورة هود ، الآية (٤٤)

(٢) دلائل الإعجاز ، تحقيق : محمود محمد شاكر ص ٤٥

الفصل الأول

توالي أساليب الأمر في القرآن الكريم

و

بلاغته ذلك

إجتماع أساليب الأمر وتواليها وتقديم بعضها على بعض في القرآن الكريم يخضع لأسباب بلاغية راقية ، وقد نبه العلماء بوجه عام إلى أسرار التقديم ، وتقديم بعض الكلم على بعض بل والجمل كالسهيلي والزرکشي والسيوطي وغيرهم .

وننبه هنا إلى أن مذكروه من أسباب للتقديم ، كالتقديم بالطبع أو الفضل أو السبق ليس ضربة لازب ، وليس منهجاً مُلتزماً فقد يكون هناك سبب آخر للتقديم أقوى من التقدم بالطبع أو غيره ، ويدخل في المتشابه القرآني الذي احتفى به جمهرة من العلماء كالإسكافي والكرماني والفيروزآبادي والرازي .

وصفوة القول إننا نضع الأساليب نصب أعيننا ثم نلتمس لتقدم بعضها على بعض سبباً قريباً .

كما أن العلل لا تتزاحم كما يقولون ، فقد تجتمع أسباب عدة لهذا التقديم ، وقد أثرنا تنزيل الترتيب بين الأوامر حسب الدواعي والأسباب البلاغية المتعالة عند العلماء على نحو ما يتبين لك في الصفحات القادمة ، ونرجو من الله التوفيق والعون .

١ - التقدم حسب ترتيب الأفعال في الصلاة والوضوء :

من ذلك قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (١)

في هذه الآية الكريمة أمر الله سبحانه أولاً بالركوع ، ثم بالسجود والترتيب في هذين الأمرين واضح ومعلوم حيث جاء وفقاً لترتيب الأفعال في الصلاة ، ثم انتقل من الخاص إلى العام وهو الأمر بالعبادة مطلقاً ، ثم عم بالحث على فعل الخير .

(١) سورة الحج ، الآية (٧٧)

(٢) راجع بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٢٦ وما بعدها ؛ ومن بلاغة

ومنه قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا
وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى
الكَعْبَيْنِ } (١) .

فترتيب الأوامر في هذه الآية قد روعي فيه الزمن أو الفعل والعمل حيث جاء
وفقا لترتيب الوضوء الذي فصلته السنة النبوية الشريفة .
٢ - التقدم بالزمن :

من ذلك قوله تعالى : { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا
لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } (٢) .

الترتيب في هذه الآية الكريمة قد روعي فيه الزمن مع الأهمية أيضا ، فالصلاة
كما نعلم فرضت على المسلمين أولاً ثم فرضت الزكاة ، ولهذا جاء الترتيب وفقا لهذا
النظام الدقيق .

ومنه قوله تعالى : { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا
الرَّسُولَ ... } (٣)

فكل آية في القرآن فيها أمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، فالأمر بإقام الصلاة
مقدم على الأمر بإيتاء الزكاة ، لهذا السبب ولأنها أهم و أخطر لأن الصلاة عماد
الدين (٤) .

أما قوله تعالى : { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ
الرَّاكِعِينَ } (٥) .

فقد أمر أولا بالصلاة ثم أمر بإيتاء الزكاة ، وترتيبهما جاء حسب الترتيب
الزمني لكنه عاد سبحانه مرة أخرى إلى الأمر بالصلاة بقوله : { وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ } (٥)

(١) سورة المائدة ، الآية (٦) ، وراجع من بلاغة القرآن ص ١١٥

(٢) سورة البقرة ، الآية (١١٠)

(٣) سورة النور ، الآية (٥٦)

(٤) انظر البرهان : ٢٣٥/٣ ؛ وبلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٢٨

(٥) سورة البقرة ، الآية (٤٢)

فما السر في ذلك ؟

السر في ذلك أن الخطاب في هذه الآية موجه لليهود ، فمعنى [اقيموا الصلاة وأتوا الزكاة] أي صلاة المسلمين وزكاتهم ، [واركعوا مع الراكعين] أي : واركعوا مع الراكعين منهم ، لأن اليهود لاركع في صلاتهم ، ويجوز أن يراد بالركوع الصلاة كما يعبر بالسجود ، وأن يكون أمرا بأن تصلى مع المصلين ، يعني في الجماعة ، كأنه قيل: وأقيموا الصلاة وصلوها مع المصلين لا منفردين (١) .

فحينئذ ولهذا السر لا يكون في الآية تكرار لأن الأمر أولا بالصلاة وثانيا بالصلاة في الجماعة اهتماما بها وحضا عليها (٢) .

ونضيف : يجوز أن يراد بالركوع الطاعة والخضوع والانقياد لأن هيئة الركوع استسلام وانقياد وخضوع لله تعالى ، فالمراد بالركوع مطلق الطاعة وليس المراد به الصلاة ، وحينئذ لا تكرار في الآية والله أعلم .

٣ - التقديم لعلو شأن المقدم والاهتمام به :

كما في قوله تعالى : [وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ] (٣) .

جاء النسق على هذا الترتيب بتقديم طاعة الله على طاعة الرسول لعلو شأن المقدم والاهتمام به وتعظيمه ، فطاعة الله مقدمة على طاعة الرسول ، لأن طاعة الرسول منبثقة من طاعة الله ، فلهذا جاء النسق على هذا الترتيب المحكم السيد .

ومنه قوله تعالى : [قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ] (٤) .

(١) انظر الكشاف : ٢٧٧/٨

(٢) راجع بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني : ص ٢٧

(٣) سورة آل عمران ، الآية (١٣٢)

(٤) سورة آل عمران ، الآية (٣٢)

وقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ... } (١) .

فترتيب الأوامر في هاتين الآيتين وتقديم بعضها على بعض جاء اهتماما
بالمقدم لعلو شأنه وتعظيمه (٢) .

وهكذا كل آية فيها أمر بطاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم (٣) .

لكن لم يكرر فعل الأمر { أطيعوا } في الآية الأخيرة ؟

كرر للاهتمام بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم والتأكيد على وجوب
طاعته ، وفي هذا يقول الطاهر بن عاشور ((أعيد فعل " أطيعوا الرسول " مع أن
حرف العطف يغني عن إعادته إظهارا للاهتمام بتحصيل طاعة الرسول لتكون أعلى
مرتبة من طاعة أولي الأمر ، ولينبه على وجوب طاعته فيما يأمر به ، ... ولذلك
لانجد تكريرا لفعل الطاعة في نظائر هذه الآية التي لم يعطف فيها أولوا الأمر مثل
قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ
تَسْمَعُونَ } (٤) وقوله تعالى : { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا
فَتَفْشَلُوا } (٥) { وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَائِزُونَ } (٦) إذ طاعة الرسول منبثقة عن طاعة الله لأن الرسول هو المبلغ عن
الله فلا يتلقى أمر الله إلا منه ، وهو منفذ أمر الله بنفسه ، فطاعته طاعة تلق وطاعة

(١) سورة النساء ، الآية (٥٩)

(٢) راجع من بلاغة القرآن : ص ١١٦

(٣) راجع بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني : ص ٢٨

(٤) سورة الأنفال ، الآية (٢٠)

(٥) سورة الأنفال ، الآية (٤٦)

(٦) سورة النور ، الآية (٥٢)

امتثال لأنه مبلغ منفذ بخلاف أولي الأمر فإنهم منفذون لما بلغه الرسول فطاعتهم طاعة امتثال خاصة (((١)

٤ - التقدير بالشرف والفرخ :

كما في قوله تعالى خطابا لمريم عليها السلام : { ... وَاسْجُدِي لِرَبِّكَ وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ } (٢) .

أشرت الى أن الأمر بالركوع مقدم على الأمر بالسجود في القرآن ، بيد أنه يتقدم الأمر بالسجود على الأمر بالركوع كما في الآية السابقة وهذا لا يكون إلا لإسرار بلاغية ولطائف بيانية .

والتقديم هنا للشرف والفضل لأن السجود أفضل من الركوع ، قال عليه الصلاة والسلام : ((أقرب ما يكون العبد إلى الله إذا كان ساجدا)) (٣) .

ويضيف السهيلي قائلاً ((فإن قيل : فالركوع قبل السجود بالزمان وبالطبع والعادة ، لأنه انتقال من علو إلى انخفاض ، وا لعلو بالطبع قبل الانخفاض ، فهلا قدم في الذكر على السجود لهاتين العلتين ؟

فالجواب أن يقال لهذا السائل : انتبه لمعنى هذه الآية من قوله : { واركعي مع الراكعين } ، ولم يقل : { اسجدي مع الساجدين } ، فإنما عبر بالسجود عن الصلاة كلها وأراد صلاتها في بيتها ، لأن صلاة المرأة في بيتها أفضل لها من صلاتها مع قومها .

(١) التحرير والتنوير : ٩٧/٥

(٢) سورة آل عمران ، الآية (٤٣)

(٣) ورد هذا الحديث في صحيح مسلم الصلاة بلفظ " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد " ٣٥٠/١ .

ثم قال لها : [واركعي مع الراكعين] أي : صلي مع المصلين في بيت المقدس (١) .
ونضيف أن المراد بالمعية في قوله : [مع الراكعين] المشاركة في مطلق الطاعة

على نحو يوافق آداب التشريع الإلهي .

ومما قدم للشرف والفضل قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ
إِلَى الصَّلَاةِ فَانصَلُوا وَجُوهَكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمُرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ } (٢) .

ومنه قوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } (٣)

فإن الصلاة أفضل من السلام ، فلهذا السبب قدم الأمر بالصلاة على الأمر
بالسلام (٤) .

ومن ذلك قوله تعالى : { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اقِمُوا الصَّلَاةَ وَامْرُؤًا بِالْمَعْرُوفِ وَإِنهَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } (٥) .

في هذه الآية الكريمة أوامر عديدة بني بعضها على بعض بناءً محكماً ،
والترتيب راجع إلى الشرف والفضل ، فلهذا قدم الأمر بالصلاة على الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر ، ولأبي حيان حول أسرار ترتيب الأوامر في هذه الآية كلام طيب ،
يقول : ((لما نهى عن الشرك وأخبره ثانياً بعلمه تعالى وباهر قدرته أمره بما يتوسل به
إلى الله من الطاعات ، فبدأ بأشرفها وهو الصلاة حيث يتوجه إليه بها ثم بالأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر ثم بالصبر على ما يصيبه من المحن جميعها أو على ما يصيبه
بسبب الأمر بالمعروف ممن يبعثه عليه والنهي عن المنكر ممن يذكره عليه ...)) (٦) .

(١) نتائج الفكر : ص ٢٧٢ : وراجع البرهان : ٢٤٥/٣

(٢) سورة المائدة ، الآية (٦) وراجع نتائج الفكر ص ٢٦٩ والبرهان ٢٥٦/٣

(٣) سورة الأحزاب ، الآية (٥٦)

(٤) البرهان : ٢٥٦/٣

(٥) سورة لقمان ، الآية (١٧)

(٦) البحر المحيط : ١٨٨/٧ : وراجع التفسير الكبير : ١٤٩/٢٥ وما بعدها .

٥ - التقديم بالطبع والحاجة :

من ذلك قوله تعالى : [**كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ**] (١).

الترتيب في هذه الآية روعي فيه الطبع والعادة ، فإن الأكل مقدم على الشرب ، ولهذا جاء النسق على هذا الترتيب الذي لا يصلح غيره ولا يتم الجمال بدونه .
ومن قوله تعالى : [**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ**] (٢)

وقد توالى الفعلان [**كُلُوا وَاشْرَبُوا**] في البيان القرآني بتقديم الأكل على الشرب ولم يخرج عن هذا الترتيب (٣) .
والسر في ذلك متعالم - وقد بيناه فيما مضى - لا يخفى على كل ذي لب .

٦ - التقديم بالداعية أو الرتبة أو السببية :

قد تجتمع أكثر من علة للتقديم في السياق الواحد ، كما في قوله تعالى :
[**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ**] (٤).
فهذه الآية الكريمة تصلح شاهدا لهذه العلة الثلاث ، فتقديم فعل السير على النظر إما لأن السير داعية إلى النظر ، وإما لأن السير مقدم بالرتبة على النظر ، وإما لأن السير سبب في النظر والتأمل في عواقب المكذبين من الأمم السابقة .
ومنه قوله تعالى : [**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ**] (٥) .

(١) سورة البقرة ، الآية (٦٠)

(٢) سورة البقرة ، الآية (١٨٧)

(٣) راجع المعجم المفهرس : ص ٣٧٧

(٤) سورة الأنعام ، الآية (١١)

(٥) سورة النمل ، الآية (٦٩)

٧ - التقديم بالترقي والتدرج :

والترقي والتدرج في الحدث الى أعلى حسب المقامات ، وفي هذا التدرج تظهر قدرة المولى سبحانه وحكمته البليغة ، حتى في اوامر التشريع وتكاليفه روعي فيها مبدأ الخفة والتدرج ، وهي بلا شك تدل على حكمة الباري سبحانه ورحمته بعباده ، ولعل خير دليل يؤكد ويدل على مبدأ الخفة والتدرج في الأحكام الشرعية تحريم شرب الخمر فقد التزم القرآن في تحريمها منهجا تربويا فريدا حيث تدرج في تحريمها وكان تحريمها على مراحل كما هو مفصل في كتاب الله العزيز -

ومما قدم على حسب الترقى والتدرج قوله تعالى في علاج الزوجات :
وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا { (١) .

تبرز هذه الآية الكريمة الخطأ الذي تستحق المرأة بسببه العقاب ، وهذا ما يكشف عنه التعبير بقوله : { واللاتي تخافون نشوزهن } ، ثم بينت الآية العلاج التربوي الناجع لهذه المشكلة حيث يتركز على ثلاث وسائل تتخذ للإصلاح ، ويلاحظ تدرجها من الأخف الى الأقوى او الضعف الى القوة ، فقد أمر سبحانه أولاً بوعظهن ، والمراد بها النصيحة بالقول ، ثم هجرانهن ان لم تغد الوسيلة السابقة ، ثم بضربهن ضربا غير مبرح ان لم ينجح فيهن الوعظ والهجران ، وهي أقصى ما يملكه الرجل في تأديب زوجته حتى لا تتفكك الأسرة ولا تنهار نتيجة لهذا النشوز .

وقد جاءت الآثار الكثيرة تبين الضرب المباح بأن يكون غير مبرح ، وأن يتقي الوجه ، وألا يوالي الضرب في محل واحد الى غير ذلك مما يجعل هذه العقوبة وسيلة للإصلاح لا للانتقام والتعذيب . (٢)

(١) سورة النساء ، الآية (٣٤)

(٢) راجع الكشاف ٥٢٤/١ ؛ والبحر المحيط ٢٤٢/٣ ؛ وفي ظلال القرآن - المجلد الثاني ص ٦٥٢ وما بعدها؛ واسلوب الدعوة القرآنية ص ٢٥٨ - ٢٦٠ ، وبلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٢٤ .

فالترتيب في هذه الآية مراعى فيه مبدأ التدرج من الضعف إلى القوة بحيث لا يمكننا أن نقدم بعضها على بعض لأن سنة التدرج في عقاب الزوجات لا تقتضي غير هذا الترتيب الدقيق ، فانظر إلى جمال القرآن في دقة نظمه وحسن رصفه والتسام كلمه .

ومنه قوله تعالى : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا
وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] (١) .

يقول أبو حيان : ((أمر أولاً بمطلق الصبر ثم بخاص من الصبر وهو المصابرة على الجهاد في سبيل الله تعالى وقتال أعدائه ثم بالرباط وهو الإقامة في الثغور رابطين الخيل مستعدين للغزو)) (٢) .

وترتيب الأوامر في هذه الآية جاء على حسب التدرج حيث أمر سبحانه بالصبر على الدين وتكاليفه ، ثم بالمصابرة والمراد بها مغالبة أعداء الجهاد ، أي غالبوهم في الصبر على شدائد الحرب لا تكونوا أقل صبرا منهم وثباتا ، والمصابرة باب من الصبر ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه تخصيصا لشدة وصعوبته ، ثم أمر بالمرابطة أي أقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين مستعدين للغزو (٣) .

(١) سورة آل عمران ، الآية (٢٠٠)

(٢) النهر الماد من البحر المحيط : ١٤٨/٣

(٣) انظر الكشاف : ٤٩١/١ ؛ وبلاغة الأمر والنهي في النسخ القرآني ص ٢٥ .

٨ - التقدير في القصص القرآني :

تخضع قصص القرآن الكريم في موضوعها وطريقة عرضها وتسلسل أحداثها وبما لها من سمات فنية أخرى للأهداف والأغراض الدينية ، حيث جاءت في قالب فني وبتعبير دقيق محكم يأخذ بمجامع القلوب ويثير العواطف ويحرك النفوس البشرية إلى هذه الأهداف المبتغاة من وراء عرض القصة القرآنية .

وقد لاحظت أن أساليب الأمر الواردة في القصص القرآني جاءت مرتبة ترتيباً

زمنياً وفقاً لوقوع الأحداث وتواليها .

من ذلك ما نراه في قوله تعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تَأْمِينٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيُطَمِّنَنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } (١).

لاشك أن ترتيب الأوامر والأنفال في هذه الآية الكريمة جاء مرتباً على حسب

وقوع الأحداث .

فقد بدأ إبراهيم عليه السلام بالدعاء والطلب ثم استجاب له ربه عز وجل فقال له على هذا النحو خذ أولاً أربعة من الطير ، ثم صرهن اليك أي اضممهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم بعد ذلك ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم وهذه الآية تبين عظيم قدرة الله تعالى وحكمته ونفاذ أمره في مخلوقاته سبحانه وتعالى علواً كبيراً .

ومنه قوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام خطاباً للهدد : { اذْهَبْ

بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ } (٢)

(١) سورة البقرة ، الآية (٢٦٠)

(٢) سورة النمل ، الآية (٢٨)

جاءت الأوامر في هذه الآية الكريمة مرتبة ترتيباً زمنياً حسب وقوع الأحداث ،
فقد أمر سليمان عليه السلام الهدد بأمور جاءت متلاحقة متتالية زمنياً حيث أمره
أولاً بقوله : { إذهب بكتابي } وليس هذا فحسب بل أمره بإيصال الرسالة
وإلقائها إليهم ، ((فألقه إليهم)) وتلى هذه المرحلة مرحلة التولي والتواري في
مكان قريب يستطيع منه أن يسمع ما يدور بينهم لينقله لسليمان عليه السلام (١) ثم
تول عنهم فانظر ماذا يرجعون .

وتأمل قوله تعالى في قصة أصحاب الكهف : (... فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ
بِبَرِّقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ
وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا) (٢).

لا شك أننا لا نستطيع تقديم أمر على آخر لأن في ذلك إخلالاً لترتيب الأحداث
وتسلسلها.

وقد جاءت الأوامر في هذه الآية مرتبة ترتيباً زمنياً وفقاً لوقوع الأحداث على
نحو ما ينبىء عنه السياق حيث تشاوروا فيما بينهم فبعثوا أحدهم إلى المدينة لي جلب
لهم الطعام ونصحوه بل ألحوا عليه أن يتوخى الحذر والحيلة خوفاً من أن يفتضح
أمرهم وينكشف سرهم .

فانظر إلى هذه الدقة التي لانجدها بهذه الدرجة في كلام آخر غير القرآن الكريم
وهذا سر من أسرار إعجازه .

(١) راجع في الآية الكشاف : ٣ / ١٤٥ وما بعدها ؛ وبلاغة الأمر والنهي في النسق
القرآني ص ٢٦ .

(٢) سورة الكهف ، الآية (١٩) .

الفصل الثاني

توالي أساليب النهي في القرآن الكريم

و

سوره البلاغه

اجتماع أساليب النهي في القرآن الكريم وترتيبها على نسق خاص جاء في أساليب يسيره محدودة ، لأن النهي لا يكاد ينفك عن الأمر أو يستقل بنفسه إلا قليلاً .
وأساليب النهي في القرآن الكريم على قلتها تكاد تكون محصورة فيما يلي :-

أولاً :- أن تأتي أساليب النهي على سبيل الاستقلال كل نهى يعبر عن معنى مستقل كما في قوله تعالى [قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَمَسَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ...] (١)

ترتيب النواهي في هذه الآيات الكريمات جاء على نسق وترتيب لاتبديل لكلماته ، فكل نهى يعبر عن كبيرة من الكبائر التي حرم الله ارتكابها ، وقد نظمت هذه الكبائر على حسب خطورتها ، فبدأ الحق سبحانه أولاً بالنهي عن الشرك لأنه أخطرها وأكبر الكبائر ، ثم عطف عليه الأمر بالإحسان إلى الوالدين وذلك للإهتمام الشديد بهما ولتوفير الرعاية لهما على أكمل وجه ، وكما وصى الأبناء بالآباء وصى الآباء بالأبناء بقوله " وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ " ثم عطف عليه النهي عن عموم الفواحش بقوله { وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ } .

وتعليق النهي بقربانها إما للمبالغة في الزجر عنها لقوة الدواعي إليها ، وإما لأن قربانها داع إلى مباشرتها (٢) ، وقد أشرت في موضع سابق إلى أن النهي عن قربان الفعل أبلغ من النهي عن الفعل نفسه .

ثم عطف النهي عن قتل النفس على الرغم من أنه مندرج تحت عموم الفواحش لما فيه من وحشية وتعد على الكيان البشري الذي هو صنعه الخالق سبحانه .

(١) سورة الأنعام ، الآيتين ١٥٠ - ١٥٢ .

(٢) انظر تفسير أبي السعود ٢/٣٠٢ .

والتعبير بقوله ((التي حرم)) حواله على سبق العهد في تحريمها فلذلك وصفت بالتي ، والنفس المحرمة هي المؤمنة والذمية والمعاهدة ، وبالحق أي بالسبب الموجب لقتلها كالقصاص والردة وغير ذلك . (١)

ثم عطف على النهي السابق عن قربان مال اليتيم بقوله { ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن } حيث خص اليتيم - على الرغم من أن أموال الناس ممنوع من قربانها لايجوز أخذها بالباطل - لأن الطمع فيه أكثر لضعفه وقلة مراعاته . (٢)
فتأمل هذا التركيب الدقيق حيث رتبت النواهي في هذا السياق القرآني حسب خطورتها وأهميتها .

ونظيره قوله تعالى { ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً ولاتقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ولاتقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً } (٣)

جاءت أساليب النهي في هذا النظم القرآني مرتبة حسب خطورتها لانستطيع تقديم بعضها على بعض .

ومنه قوله تعالى إرشاداً وتاديباً للمؤمنين { ياأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولاتلوزوا أنفسكم بالألقاب ينس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون } . (٤)

(١) انظر البحر المحيط ٤ / ٢٥٢ .

(٢) السابق الموضع نفسه .

(٣) سورة الإسراء ، الآيتين ٣١ - ٣٤ .

(٤) الحجرات ١١ - والآية التي تليها .

ثانياً : أن يأتي النهي توكيداً لنهي سابق عليه :-

كما في قوله تعالى على لسان لقمان يعظ ابنه { وَلَا تَصَغَّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ
وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ } (١)

في هذه الآية الكريمة في قوله { لا تمش في الأرض } توكيداً للنهي السابق :
{ لا تصغر خدك للناس } أي أقبل على الناس بوجهك تواضعاً لهم ولا تولهم صفحة
وجهك كما هو ديدن المتكبرين . (٢)

كما أن التعبير بقوله { إن الله لا يحب كل مختال فخور } تعليل للنهيين ،
فتكرار النهي مع التعليل يبين شفاة هذا الكبر فلا يليق بالانسان أن يتكبر ويتعالى
على الناس .

ثالثاً : جاء النهي بعد النهي في صورة طريفة للتعبير معاً عن فكرة واحدة وهي
الدعوة إلى الاعتدال والتوسط فإن خير الأمور أوسطها كما يقولون .
كما في قوله تعالى { وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ
الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً } (٣)

تضمن النهيان في هذه الآية في قوله { لا تجعل يدك إلى عنقك } { ولا تبسطها كل
البسط } دعوة إلى الاعتدال والتوسط في الانفاق الذي هو بين الإسراف والتقتير . (٤)
فتأمل هذا النظم الدقيق كيف تعانق فيه النهيان وكمل أحدهما الآخر لإبراز
هذا المعنى الفريد .

ومنه قوله تعالى خطاباً لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم { وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ

(١) سورة لقمان ، الآية : " ١٨ " .

(٢) انظر الكشاف ٢٣٤/٣ وتفسير أبي السعود ٢٧٨/٤ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية " ٢٩ " .

(٤) راجع الكشاف ٤٤٧/٢ والتجريد والتنوير ٨٤/١٥ وما بعدها .

وَلَا تَخَافَتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا } (١) .

فالأمر في قوله [وابتغ بين ذلك] يبين المقصود من النهيين وهو التوسط والاعتدال ، أي ابتغ بين الجهر والمخافتة في الصلاة " سبيلاً " أمراً وسطاً فإن خير الأمور أوسطها(٢)

فانظر إلى إحكام النظم القرآني ودقته كيف أفاد النهيان هذا المعنى في تعبير محكم دقيق يعد آية من إعجاز القرآن الكريم .
وقد اقتضت طبيعة المنهج أن يكون هذا الفصل على هذا النحو لقلّة أساليب النهي في القرآن الكريم بالإضافة إلى الأمر .
ويبدو أن السر في كثرة الأوامر وقلّة النواهي في القرآن الكريم هو حاجة النفس الإنسانية دائماً إلى قدر أكبر من التوجيهات الإلهية فلهذا السبب كثرت الأوامر وقلت النواهي في القرآن والله أعلم .

(١) سورة الإسراء ، الآية " ١١٠ " .

(٢) راجع الكشاف ٤٧٠/٢ وتفسير أبي السعود ٤٩٠/٣ وفي ظلال القرآن المجلد الرابع

الفصل الثالث

توالي أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم

و

أسرارهِ البلاغية

تجتمع أساليب الأمر والنهي وتتوالى في القرآن الكريم فتأتي في ترتيب عجيب ونسق محكم دقيق لاتبديل لكلماته .

فقد يتقدم الأمر ويتلوه نهي يؤكد مضمونه ، وتارة يتقدم النهي فيأتي الأمر توكيداً له .

وهذا لا يكون إلا في المقامات الخطيرة التي تحتاج قدراً من التأكيد والعناية والاهتمام .

وقد نبه علماءنا رحمهم الله وخاصة أبا حيان إلى أسرار ترتيب الأوامر والنواهي في النسق القرآني ، فكانت له لفتات بارعة لو تابعها العلماء بعده لأثرت البحث البلاغي القرآني ، منها قوله في تفسير قوله تعالى { وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّاي فَاتَّقُونَ ، وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ } (١) ((يقول) وفي هذه الجمل - وإن كانت الواو لاتقتضي في الوضع ترتيباً - ترتيب عجيب من حيث الفصاحة وبناء الكلام (بعضه على بعض)) (٢) وقوله ((وقد تقدم لنا الكلام على أنه إذا كان أمر أو نهي بديء بالأمر وذكرنا الحكمة في ذلك)) (٣)

ولعل إشارة أبي حيان كانت مفتاح خير ونقطة بدء إنطلق منها بعض المحدثين فادلوا بدلهم في هذه القضية ، وكان لهم جهد مبارك مشكور . (٤)

وتخضع أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم في ترتيبها وتواليها لدقة خارقة وترتيب محكم دقيق .

فالغالب أن يأتي النهي بعد الأمر وقد يحدث العكس فيتقدم النهي على الأمر

(١) سورة البقرة ، ٤١ ، ٤٣ .

(٢) البحر المحيط ١٨١/١ .

(٣) المصدر السابق ٤٤٧/١

(٤) راجع الأساليب الإنشائية من ٨١ - ٨٢ .

والحاكم في ذلك طبيعة الغرض والمقام (١) على ما نوضحه في الصفحات التالية ونرجو من الله التوفيق والتيسير .

١ - بفو إسرائيل :-

قال تعالى خطاباً لبني إسرائيل (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ، وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ، وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاٰكِعِينَ) (٢) .

يقول أبو حيان ((وفي هذه الجملة وإن كانت معطوفات بالواو التي لا تقتضي في الوضع ترتيباً ترتيباً عجيب من حيث الفصاحة وبناء الكلم بعضه على بعض ، وذلك أنه تعالى أمرهم أولاً بذكر النعمة التي أنعمها عليهم إذ في ذلك ما يدعو إلى محبة المنعم ووجوب طاعته ثم أمرهم بإيفاء العهد الذي التزموه للمنعم ثم رغبتهم بترتيب إيفائه هو تعالى بعهدهم في الإيفاء بالعهد ثم أمرهم بالخوف من نعماته إن لم يوفوا فاكتنف الأمر بالإيفاء أمر بذكر النعمة والاحسان وأمر بالخوف من العصيان ، ثم أعقب ذلك الأمر بإيمان خاص وهو ما أنزل من القرآن ورغب في ذلك بأنه مصدق لما معهم فليس أمراً مخالفاً لما في أيديهم لأن الانتقال من الموافق أقرب من الانتقال إلى المخالف ، ثم نهاهم عن استبدال الخسيس بالنفيس ، ثم أمرهم تعالى باتقائه ، ثم أعقب ذلك بالنهي عن لبس الحق بالباطل وعن كتمان الحق فكان الأمر بالإيمان أمراً بترك الضلال والنهي عن لبس الحق بالباطل وكتمان الحق تركاً للضلال ، ولما كان الضلال ناشئاً عن أمرين إما تمويه الباطل حقاً إن كانت الدلائل قد بلغت المستتبع وإما عن كتمان الدلائل إن كانت

(١) راجع الأساليب الإنشائية ص ٨١ - ٨٢ .

(٢) سورة البقرة ، الآيتين " ٤٠ ، ٤٣ " .

لم تبلغه ، أشار إلى الأمرين بلاتلبسوا وتكتموا ثم قبح عليهم هذين الوضعين مع وجود العلم ثم أمرهم بعد تحصيل الإيمان وإظهار الحق بإقام وإيتاء الزكاة اذ الصلاة أكد العبادات البدنية والزكاة أكد العبادات المالية ، ثم ختم ذلك بالأمر بالانقياد والخضوع له تعالى مع جملة الخاضعين الطائعين ، فكان افتتاح هذه الآيات بذكر النعم واختتامها بالانقياد للمنعم وما بينها من تكاليف اعتقادية وأفعال بدنية ومالية ، وبنحو ماتضمنته هذه الآيات من الافتتاح والارداق والاختتام يظهر فضل كلام الله على سائر الكلام * (١)

٢ - المسلمون :-

١ - في العبادة :-

قال تعالى { **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** } (٢)

فالنهي في قوله { ولا تشركوا } جاء توكيداً للأمر بعبادة الله .

ومنه قوله تعالى { **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون** } (٣) .

نلاحظ في هذه الآية أن ترتيب التوكيد جاء تصاعدياً ذلك أن الأمر في قوله :

{ اشكروا } بمنزلة التوكيد لقوله { اذكروني } وذلك لما بينهما من تلازم ، أما النهي في

قوله { لا تكفرون } فهو توكيد للأمر بالشكر ، والكفر من كفر النعمة على تقدير حذف

مضاف أي { ولا تكفروا بي } للإيذان بأن كفر النعمة كفر للمنعم من باب أولى ، وليس

من الكفر ضد الإيمان كما قال أبو حيان لأنه لو كان منه لكان التعبير { ولا تكفروا } أو

{ ولا تكفروا بي } (٤) .

(١) البحر المحيط ١/١٨١ .

(٢) النساء ٣٦ * وراجع في الآية البحر المحيط ٣/٢٤٤ وفي ظلال القرآن المجلد الثاني

ص ٦٥٨ وما بعدها .

(٣) انظر البحر المحيط ١/٤٤٧ والأساليب الإنشائية ص ٨٠ .

ويضيف قائلاً ((وهنا ثلاث جمل الأمر بالذكر وجملة الأمر بالشكر وجملة النهي عن الكفران ، فبدىء أولاً بجملة الذكر لأنه أريد به الثناء والمدح العام والحمد له تعالى وذكر له جواب مترتب عليه ، وثنى بجملة الشكر لأنه ثناء على شيء خاص وقد اندرج تحت الأول فهو بمنزلة التوكيد فلم يحتج إلى جواب ، وختم بجملة النهي لأنه لما أمر بالشكر لم يكن اللفظ ليدل على عموم الأزمان ولا يمكن التكليف باستحضار الشكر في كل زمان فقد يذهل الإنسان عن ذلك في كثير من الأوقات ، ونهي عن الكفران لأن النهي يقتضي الامتناع عن المنهي عنه في كل الأزمان وذلك ممكن لأنه من باب الترك)) (١)

ولحظ الرازي ما بين الأمم من تفاوت في الأقدار والأعمال حيث يقول (فالكه تعالى ذكر بني إسرائيل بنعمه عليهم يعني قوله - اذكروا نعمتي عليكم - ولما آل الأمر إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ذكرهم بالمنعم (فانكروني أنكركم) فدل ذلك على فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأمم) (٢)

ب - التشريع :-

قال تعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ } (٣)

فالنهي في قوله (لاتقربوهن) جاء توكيداً للأمر (اعتزلوا) اهتماماً بخطورة هذا الشأن الخاص . (٤)

ومنه قوله تعالى في أحكام الطلاق { فَأَمَّا سَيِّكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَحوهُنَّ

(١) البحر المحيط ٤٤٧/١ .

(٢) التفسير الكبير ٣٥/٣ .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٢٢ " .

(٤) انظر الأساليب الإنشائية ص ٨٢ وراجع الكشاف ٣٦١/١ والبحر المحيط ١٧٤/٢

وحاشية الشهاب ٣٠٩/٢ .

بِمَعْرُوفٍ وَلَا تَمْسِكُوهُنَّ ضُرَاراً لِّتَعْتَدُوا ... } (١)

النهي في قوله [لاتمسكوهن] توكيد لقوله [امسكوهن بمعروف] وفي هذا يقول أبو السعود [فراجعوهن بغير ضرار أو خلوهن حتى ينقضي أجلهن بإحسان من غير تطويل ، وهذا كما ترى إعادة للحكم في بعض صورته إعتناء بشأنه ومبالغة في إيجاب المحافظة عليه ، " ولاتمسكوهن ضراراً " تأكيد للأمر بالإمساك بمعروف وتوضيح لمعناه وزجر صريح عما كانوا يتعاطونه أي لا تراجعوهن إرادة الإضرار بهن ... } (٢)
ج - الإنفاق في سبيل الله :-

قال تعالى [وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين] (٣) .

فالنهي في قوله [لاتلقوا] جاء تأكيداً للأمر بالإنفاق في سبيل الله ، ثم أمروا بالاحسان في الإنفاق وغيره من شئون الدين والدنيا تذييلاً ملائماً مؤكداً لما سبقه .
د - في الاعتصام بحبل الله جميعاً :-

قال تعالى [واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ...] (٤)

النهي في هذه الآية جاء توكيداً للأمر بالاعتصام بحبل الله .

هـ - الأكل والشرب :-

قال تعالى [... كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين] (٥) .

النهي في قوله تعالى [ولا تعثوا في الأرض مفسدين] توكيد للأمر بالأكل

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢٣١ " .

(٢) تفسير أبي السعود ١ / ٣٥٤ .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ١٩٥ " .

(٤) آل عمران " ١٠٣ " وراجع في الآية التفسير الكبير ٨ / ١٧٥ وما بعدها والبحر المحيط ٣ / ١٧ وما بعدها .

(٥) سورة البقرة ، الآية " ٦٠ " .

والشرب من رزق الله ذلك أن الإسراف والتبذير مظهر من مظاهر الفساد ، أو لأن
النعمة تنسي العبد حاجته إلى الخالق فيهجر الشريعة فيقع في الفساد . (١)
ومما جاء فيه النهي تأكيداً للأمر قوله تعالى : [يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي
الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ] (٢)
لاشك أن النهي في قوله [لا تتبعوا خطوات الشيطان] جاء تأكيداً للأمر بالاكل
الحلال الطيب . (٣)

فتقديم الأمر على النهي هو الأصل وذلك لشرف المتعلق في الأمر ودونه في
النهي ، لكن إن خولف وقدم النهي على الأمر فهذا لأن النهي يكون ألصق بسياق الكلام
قبله ، وغالباً ما يكون الفعل المحظور واقعاً ينهى عنه كما في قوله تعالى [فَلَا
تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي] (٤)

فقد تقدم النهي [لا تخشوهم] على الأمر لأن ذكر اليهود والأخبار موجود قبل
النهي مباشرة ، وكان الظاهر في مثل هذه الآية أن يكتفي بالنهي [فلا تخشوهم] لكن
جاء بعده الأمر [اخشون] تأكيداً للنهي ، " أي لا تخافوا مطاعنهم في قبلكم فإنهم
لا يضرركم [واخشون] أي ولا تخافوا أمري وما رأيت مصلحة لكم . (٥)
ومثله قوله تعالى [إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ
وَخَافُونِ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] (٦) .

-
- (١) انظر تفسير أبي السعود ١٨١/١ والتحرير والتنوير ٥١٩/١ وأسرار التنزيل
للشيخ محمد الخضر حسين ص ١٠١ وما بعدها .
(٢) سورة البقرة ، الآية " ١٦٨ " .
(٣) انظر بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٢٩ .
(٤) سورة البقرة ، الآية " ١٥٠ " .
(٥) انظر الكشاف ٣٢٢/١ وتفسير أبي السعود ٢٨٥/١ وبلاغة الأمر والنهي في النسق
القرآني ص ٣١ .
(٦) سورة آل عمران ، الآية " ١٧٥ " .

الامر في قوله { خافون } جاء تأكيداً للنهي { ولا تخافوهم } .
ويبدو أن السر في تقديم النهي على الأمر في هذه الآية أيضاً لأن النهي له
اتصال بسياق الكلام قبله . فالضمير في { لاتخافوهم } يعود على الناس المذكورين في
قوله { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ... } (١)
{ أي لاتخافوهم فتعدوا عن القتال وتجنبوا * وخافون * أي فجاهدوا مع
رسولي إلى ما يأمركم به { إن كنتم مؤمنين } يعني أن الإيمان يقتضي إثارة خوف الله
على خوف غيره ويستدعي الأمن من شر الشيطان وأوليائه * (٢)
ومنه قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا
انظُرْنَا ... } (٣)

في هذه الآية تقدم النهي وجاء الأمر توكيداً له حثاً للمسلمين على احترام
الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث * كان المسلمون يقولون لرسول الله عليه وسلم إذا
ألقى عليهم شيئاً من العلم : راعنا يارسول الله أي راقبنا وانتظرنا وتأن بنا حتى
نفهمه ونحفظه ، وكانت لليهود كلمة يتسابون بها عبرانية أو سريانية وهي راعينا ،
فلما سمعوا بقول المؤمنين { راعنا } افترضوه وخاطبوا به الرسول وهم يعنون به تلك
المسبة ، فنهى المؤمنون عنها وأمروا بما هو في معناها وهو { انظرننا } من نظره إذا
انتظره . (٤)
إبليس وأتباعه :

قال تعالى في سياق محاوراة بين إبليس وأتباعه في الآخرة { وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَا
قَضَى الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ
مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ } (٥)

(١) سورة آل عمران ، الآية * ١٧٣ .

(٢) انظر الكشاف ٤٨١/٨ وتفسير أبي السعود ٦٠٢/٨ .

(٣) سورة البقرة ، الآية * ١٠٤ .

(٤) الكشاف ٢٠٢/٨ وراجع بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٢٠ وما بعدها

(٥) سورة إبراهيم ، الآية * ٢٢ .

في هذه الآية نرى الشيطان يؤنب أتباعه ويدعوهم لتأنيب أنفسهم على اتباعهم وطاعتهم له ، ويهمه بالدرجة الأولى أن لا يلوموه بل يلوموا أنفسهم حيث اتبعوه بلا حجة ولا برهان ... (١)

فالامر في قوله [لوموا أنفسكم] جاء تأكيداً للنهي [لاتلوموني] .
يعقوب عليه السلام وأبناؤه :

قال تعالى على لسان يعقوب عليه السلام [وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَاتَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ...] (٢)

فالامر بالدخول جاء تأكيداً للنهي [لاتدخلوا] .
وأخيراً تأمل قول الحق سبحانه [وَمِن آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ] (٣)

تجد الامر بالسجود في قوله " اسجدوا لله " جاء تأكيداً للنهي السابق ، وبدأ بالنهي زجراً لمن يعبد هذه المخلوقات المسخرة بيد القدرة .
والواقع أن مجيء الامر بعد النهي في عديد من الأساليب السابقة يوضح أن النهي وكذلك الامر لا يتناولان الفعل فحسب بل بإعتبار تعلقه بالمفعول ، وهذا المفعول له خطورته في العقيدة أو السلوك كما تبين من تحليل الآيات السابقة .

(١) انظر الكشاف ٢/٢٧٤ وما بعدها وفي ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٠٩٧ وبلاغة

الامر والنهي في النسق القرآني ص ٢٢ .

(٢) سورة يوسف ، الآية " ٦٧ " .

(٣) سورة فصلت ، الآية " ٢٧ " .

الخاتمة

بعد هذه الرحلة المباركة التي عشنا فيها مع القرآن دراسة وتحليلاً يمكننا أن

نوجز أهم النتائج التي توصل إليها البحث وهي :-

- ١ - ظاهرة خروج الأمر - وكذلك النهي - إلى المعاني البلاغية ظاهرة أسلوبية عرفت منذ القدم مع بداية التأليف في فروع الثقافة الإسلامية .
 - ٢ - يعد منهج البلاغيين في دراسة الأمر من أمثل المناهج في التراث الإسلامي لدقته وغوصه وراء استجلاء المعاني الثواني .
 - ٣ - أن للأصوليين أثراً كبيراً وجهداً عظيماً في نمو المباحث البلاغية وخاصة فيما يتعلق بالمعاني .
 - أن المعاصرين ممن كانت لهم عناية بالتطور التاريخي لعلوم البلاغة لم يلتفتوا إلى جهود الأصوليين ومنهجهم في هذا المجال ، وهم بصنيعهم هذا يهملون حلقة من حلقات التطور التاريخي للبلاغة وعلومها .
 - ٤ - أن المفسرين هم أكثر الباحثين استجلاء لمعاني القرآن الكريم جليلها ودقيقها لأن تجربتهم الصق بالنص القرآني ودانرتهم أوسع فهم لايعتمدون على اختيار الشاهد والمثال وإنما يقفون أمام كل كلمة في كتاب الله فيدرسون النص في إطار من التوحد منظوراً فيه إلى ما قبله وإلى ما بعده ، وقلَّ أن تتوفر هذه الميزة لغيرهم .
 - ٥ - أن الأوامر والنواهي في القرآن الكريم نوعان :
- (أ) أوامر ونواهي حقيقية تكليفية تشريعية والمطلوب بها تحقيق أو ترك ما بعدها على الوجوب ، وتأتلف بها معان بلاغية تعين على تصوير المراد .

(ب) أوامر ونواهٍ ليس المقصود منها الأحكام الشرعية التكليفية بل المراد منها المعاني البلاغية التي تستفاد من السياق ، والمقام من ذلك النصح والإرشاد والرجاء والإباحة والتمني والالتماس والتخيير والتعجيز والتهديد والسخرية والإهانة والتكريم وغير ذلك .

(ج) والغريب أن هذا المعنى البلاغي الذي خرج إليه الأمر أو النهي كان هو أظهر المعاني ذلك أن الأسلوب القرآني فيه من الخصوبة والثراء ما يفيض بالمعاني البلاغية العالية .

٦ - قد يؤتى في القرآن بصيغة بدل أخرى مما نحن بصدده كإفادة الأمر معنى الخبر أو الخبر معنى الأمر ، أو الخبر بمعنى النهي ولا عكس لهذه الصورة في القرآن الكريم .

٧ - تبين من الدراسة أن النهي أو النفي في القرآن الكريم إذا كان مدخوله مقيداً فأحياناً يدخل على القيد والمقيد ، وأحياناً على القيد فقط ، وأحياناً على المقيد فقط .

٨ - تبين من الدراسة أن الأوامر والنواهي في القرآن الكريم تخضع في ترتيبها إلى توال متجانس (أمر وأمر) ، (نهي ونهي) وتوال غير متجانس (أمر ونهي) وهو كثير ، (نهي وأمر) وهو قليل في القرآن .

وكل ذلك لدواع وأسرار بلاغية كشفت الدراسة عن بعض أسرارها في مظانها من هذا البحث .

٩ - وقد بذل البحث جهداً في محاولة التفريق بين المصطلحات البلاغية المتقاربة كالنصح والإرشاد ، والتكوين والتسخير ، والتهكم والاستهزاء والسخرية .

١٠ - بين البحث ما بين الأفعال المتقاربة من فروق دقيقة كالسير والسياسة والسعي والمشي ، واجتنب ، " دع " و " ذر " و " اترك " و " أمسك " وفارق إلى غير ذلك مما إحتفى به علماء الأمة وبخاصة علماء الإعجاز القرآني والمتشابه القرآني .

- ١١- تمت المعالجة من خلال الأغراض القرآنية ، يجمع فيها النظير إلى النظير لتكون المعالجة أمثل ، وليظهر الأثر البلاغي في اختلاف النظم والسياق .
- ١٢- عني البحث بالجانب التحليلي وطبقه على عديد من الآيات القرآنية لأن هذا الجانب أخطر الجوانب في المعالجات البلاغية .
- ١٣- توخينا الإيجاز قدر الطاقة إلتزاماً بالمنهج العلمي حتى لا يتضخم البحث .
- ونسأل الله الكريم أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه تعالى ، وأن يغفر لنا زلات الفكر والقلم ، وأن ينفع به وأن يزيدنا علماً . والحمد لله أولاً وأخراً ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وبالله التوفيق ،،،

ثبت المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم
أولاً ، المصادر القديمة
- ٢- الابهاج في شرح المنهاج:
علي بن عبد الكافي السبكي ت (٧٥٦ هـ) وولده تاج الدين عبد الوهاب
علي السبكي ت (٧٧١ هـ) .
دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .
- ٣- الاتقان في علوم القرآن :
جلال الدين عبد الرحمن السيوطي : ت (٩١١ هـ)
تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم .
مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ -
١٩٦٧ م
- ٤- الإحكام في أصول الأحكام :
سيف الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر بن محمد الأمدي .
دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .
- ٥- أساس البلاغة :
جار الله محمود بن عمر الزمخشري .
تحقيق : عبد الرحيم محمود .
دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
- ٦- أسباب النزول :
أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي .
عالم الكتب ، بيروت ، (بدون تاريخ)
- ٧- الأطول على التلخيص :
عصام الدين ابراهيم بن محمد بن عرب شاه الإسفرائيني ت (٩٤٥ هـ) .
طبع بالمطبعة العامرة سنة ١٢٨٤ هـ .

٨ - الأمالي الشجرية :

- أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة العلوي ت (٥٤٢ هـ) .
- دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت (بدون تاريخ) .

٩ - الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الإعتزال :

- ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الاسكندري المالكي .
- دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

١٠ - الإيضاح :

• الخطيب القزويني .

- شرح وتعليق وتنقيح : د. محمد عبد المنعم خفاجي .
- منشورات دار الكتب اللبناني ، الطبعة الخامسة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

١١ - بدائع الفوائد :

شمس الدين محمد بن أبي بكر الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية
ت (٧٥١ هـ) .

• دار الفكر ، بيروت (بدون تاريخ)

١٢ - بديع القرآن :

• ابن أبي الأصبع المصري .

• تحقيق : د. حفني محمد شرف .

• طبع دار نهضة مصر ، الطبعة الثانية (بدون تاريخ) .

١٣ - البرهان في توجيه متشابه القرآن :

• محمود بن حمزة بن نصر الكرمانلي ت (٥٠٥ هـ) .

• تحقيق ودراسة وتعليق : عبد القادر أحمد عطا .

• دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

- ١٤ - البرهان في علوم القرآن :
بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي .
تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم .
الناشر : دار المعرفة ، بيروت ، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع بمكة
(بدون تاريخ)
- ١٥ - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز :
مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي .
تحقيق : محمد علي النجار .
المكتبة العلمية ، بيروت . (بدون تاريخ)
- ١٦ - البلاغة :
أبو العباس محمد بن يزيد المبرد .
تحقيق : د. رمضان عبد التواب .
مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
- ١٧ - تأويل مشكل القرآن :
أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢٧٦ هـ) .
تحقيق : السيد أحمد منقر .
دار التراث ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .
- ١٨ - تجريد العلامة البناني على مختصر السعد :
طبع بمطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٤٧ هـ .
- ١٩ - تحرير التحبير :
ابن أبي الأصيب المصري .
تحقيق : د. حفني محمد شرف ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة
١٣٨٣ هـ

- ٢٠ - تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم :
أبو السعود بن محمد العماري الحنفي ت (٩٨٢ هـ) .
تحقيق : عبد القادر أحمد عطا .
مكتبة الرياض الحديثة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .
- ٢١ - تفسير البحر المحيط :
محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي ت (٧٥٤ هـ)
دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
- ٢٢ - تفسير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن :
أبو جعفر بن محمد بن جرير الطبري ت (٢١٠ هـ) .
دار الفكر ، بيروت ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .
- ٢٣ - تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان :
نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري .
طبع بهامش تفسير الطبري ، دار الفكر - بيروت ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .
- ٢٤ - تفسير الفخر الرازي ، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب : محمد
الرازي فخر الدين بن ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الري ت (٦٠٤ هـ) .
دار الفكر - بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
- ٢٥ - التفسير القيم :
شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي المعروف بابن قيم
الجوزية ت (٧٥١ هـ) .
جمعه محمد أويس الندوي .
حقيقه : محمد حامد الفقي .
دار العلوم الحديثة ، بيروت ، ودار الفكر .
- ٢٦ - تفسير النهر الماد من البحر المحيط :
أبو حيان محمد بن يوسف .
نشر بهامش البحر المحيط .

- ٢٧ - تقرير الشمس الإنبائي على شرح سعد الدين التفتازاني :
طبع مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٣٠ هـ .
- ٢٨ - التمهيد في أصول الفقه :
محفوظ بن أحمد بن الحسن أبو الخطاب الكلوزاني الحنبلي ت (٥١٠ هـ) .
حقق الجزءين الأول والثاني : د. مفيد محمد أبو عمشة ، والجزءين الثالث والرابع محمد بن علي بن إبراهيم .
منشورات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى .
دارالمدني للطباعة والنشر ، جدة ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م .
- ٢٩ - حاشية الدسوقي على مختصر السعد :
محمد بن محمد عرفة الدسوقي ت (١٢٣٠ هـ) .
طبع ضمن شروح التلخيص ، طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه ، مصر .
- ٣٠ - حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي:
شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي .
المكتبة الإسلامية ، تركيا ، دار صادر ، بيروت .
- ٣١ - حاشية عبد الحكيم السيالكوتي على المطول :
عبد الحكيم السيالكوتي الهندي ت (١٠٦٧ هـ) .
دار الطباعة العامرة ١٢٦٦ هـ .
- ٣٢ - خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب :
عبد القادر بن عمر البغدادي .
تحقيق : عبد السلام محمد هارون ،
الناشر : مكتبة الخانجي .
- ٣٣ - الخصائص :
أبو الفتح عثمان بن جني .
حققه : محمد علي النجار .
عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

- ٣٤- الدر اللقيط من البحر المحيط :
تاج الدين الحنفي تلميذ أبي حيان .
طبع بهامش البحر المحيط .
- ٣٥ - درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز :
الخطيب الإسكافي .
منشورات دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٧ م .
- ٣٦ - دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية :
تحقيق : د. محمد السيد الجليند .
مؤسسة علوم القرآن ، دمشق وبيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م
- ٣٧ - دلائل الإعجاز :
أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ت (٤٧١ أو ٤٧٤ هـ)
قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر .
مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٨٤ م .
- ٣٨ - ديوان إمرئ القيس :
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ،
دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م .
- ٣٩ - ذم الهوى :
أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ت (٥٩٧ هـ) .
تحقيق : مصطفى عبد الواحد ، مراجعة محمد الغزالي .
دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م .
- ٤٠ - الرسالة التدمرية ، مجمل اعتقاد السلف .
أحمد بن عبد الحليم بن تيمية .
تحقيق : زهير الشاويش .
المكتب الإسلامي - بيروت ، دمشق ، الطبعة الرابعة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

- ٤١ - روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني :
شهاب الدين محمود الألوسي .
إدارة الطباعة المنيرية ، دار إحياء التراث الإسلامي ، بيروت .
- ٤٢ - شرح الكافية في النحو :
رضي الدين محمد بن الحسن الإسترابادي .
دار الكتب العلمية ، بيروت (بدون تاريخ) .
- ٤٣ - شرح المفصل للزمخشري :
موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي .
عالم الكتب ، بيروت ، ومكتبة المثنى ، القاهرة (دون تاريخ) .
- ٤٤ - شروح التلخيص :
طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر .
- ٤٥ - الصاحبي :
أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ت (٣٩٥هـ)
تحقيق : السيد أحمد صقر .
مطبعة عيسى البابي الحلبي . القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٧٧ م .
- ٤٦ - الصحاح ، تاج اللغة وصحاح العربية :
إسماعيل بن حماد الجوهري .
تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢ م .
- ٤٧ - صحيح مسلم :
أبو الحسين مسلم بن الحجاج ت (٢٦١هـ) .
تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .
دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، الطبعة الأولى ١٣٧٤هـ -
١٩٥٥ م .

٤٨ - طبقات الشافعية الكبرى :

تاج الدين عبد الوهاب بن علي السيكي ت (١٧٧١هـ) .

تحقيق : د . عبد الفتاح محمد الحلو والدكتور محمود محمد الطناحي .

عيسى البابي الحلبي ١٢٨٣هـ - ١٩٦٤م .

٤٩ - طبقات اللغويين والنحويين :

أبو بكر محمد بن حسن الزبيدي .

تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم .

دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٨٤م

٥٠ - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز :

يحيى بن حمزة العلوي اليميني .

دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢ م .

٥١ - عروس الأفراح :

بهاء الدين السبكي .

طبع ضمن شروح التلخيص ، طبع عيسى البابي الحلبي .

٥٢ - العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده :

أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ت (٤٥٦هـ) .

تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد .

دار الجيل . بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م .

٥٣ - فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري :

أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت (٨٥٢هـ) .

نشر وتحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، ومحب الدين الخطيب .

المكتبة السلفية .

٥٤ - الفتوحات الإلهية في توضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية :

سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمال ت (١٢٠٤هـ) .

مطبوعة عيسى البابي الحلبي وشركاه (بدون تاريخ) .

٥٥ - كتاب الإقناع في القراءات السبع :

أبو جعفر أحمد بن علي بن أحمد بن خلف الانصاري المعروف بابن الباذش ت
(٥٤٠هـ) تحقيق : د . عبد المجيد قطامش .

منشورات مركز البحث العلمي و احياء التراث الاسلامي بجامعة أم القرى ،
طبع دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ .

٥٦ - كتاب السبعة في القراءات . ابن مجاهد .

تحقيق : د . شوقي ضيف .

دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٨٠م .

٥٧ - كتاب الصناعتين :

أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ت (٣٩٥هـ) .

تحقيق : علي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم .

دار الفكر العربي الطبعة الثانية .

٥٨ - الكتاب لسيبويه :

أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر .

تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون .

مكتبة الخانجي بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٧٧م .

٥٩ - الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل :

أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري ت (٥٢٨هـ) .

دار الفكر ، بيروت - الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م .

٦٠ - الكليات ، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية :

أبو البقاء الكفوي .

تحقيق : د . عدنان درويش ، ومحمد المصري .

مطبوعات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ١٩٨١م .

٦١ - لِبَابِ النُّقُولِ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ :

جلال الدين السيوطي .

دار إحياء العلوم ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

٦٢ - لِسَانَ الْعَرَبِ ، ابْنُ مَنْظُورٍ

طبعة دار المعارف (بدون تاريخ) .

٦٣ - الْمَثَلُ السَّائِرُ فِي أَدَبِ الْكَاتِبِ وَالشَّاعِرِ . ضِيَاءُ الدِّينِ بْنِ الْأَثِيرِ :

قدمه وعلق عليه د . أحمد الحوفي ، ود . بدوي طيبانه .

دار نهضة مصر ، القاهرة .

٦٤ - مَجَازُ الْقُرْآنِ :

أبو عبيده معمر بن المثنى التميمي ت (٢١٠هـ) .

عارضه بأصوله وعلق عليه : محمد فؤاد سزكين

مؤسسة الرسالة بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

٦٥ - الْمُحْتَسَبُ فِي تَبْيِينِ وَجْهِ شَوَازِ الْقِرَاءَاتِ وَالْإِيضَاحِ عَنْهَا :

أبو الفتح عثمان بن جني .

تحقيق : علي النجدي ناصف و د . عبد الفتاح إسماعيل شلبي .

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، الجزء الأول ١٣٨٦هـ والجزء الثاني

١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م

٦٦ - الْمَحْصُولُ فِي عِلْمِ أَصُولِ الْفِقْهِ . فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي

ت (٦٠٦هـ) .

دراسه وتحقيق د . طه جابر فياض العلواني . مطبوعات جامعة الأمام

محمد بن سعود الإسلامية . الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

٦٧ - مُخْتَصَرُ السَّعْدِ عَلَى تَلْخِيصِ الْمَفْتَاخِ :

سعد الدين التفتازاني .

طبع ضمن شروح التلخيص .

- ٦٨ - المختصر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل :
علاء الدين أبو الحسن المعروف بابن اللحام .
تحقيق : د . محمد مظهر بقا .
مركز البحث العلمي وإحياء التراث الاسلامي بمكة ، فرع جامعه الملك
عبد العزيز
طبع في دار الفكر بدمشق ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .
- ٦٩ - المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل :
عبد القادر بن أحمد المعروف بابن بدران الدمشقي .
دار الفكر العربي (بدون تاريخ) .
- ٧٠ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان :
أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعي ت (٧٦٨هـ) .
منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، الطبعة الثانية
١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م .
- ٧١ - مسند الإمام أحمد بن حنبل :
المكتب الاسلامي للطباعة والنشر - بيروت ، الطبعة الثانية
١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م
- ٧٢ - المطول على التلخيص :
مسعود بن عمر المعروف بسعد الدين التفتازاني .
- ٧٣ - معاني القرآن الكريم :
أبو جعفر النحاس ت (٣٢٨هـ) . تحقيق محمد علي الصابوني .
مطبوعات معهد البحوث العلمي وإحياء التراث الاسلامي بجامعة أم القرى ،
شركة مكة للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

٧٤ - معاني القرآن:

أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء ت (٢٠٧هـ) .

تحقيق: أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار .

عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٠م .

٧٥ - معترك الأقران في إعجاز القرآن :

جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي .

تحقيق : علي محمد البجاوي .

دار الفكر العربي ، القاهرة (بدون تاريخ)

٧٦ - المعتمد في أصول الفقه :

أبو الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري المعتزلي ت (٤٣٦هـ)

تحقيق : محمد حميد الله

المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م .

٧٧ - معجم مقاييس اللغة :

أبو الحسين أحمد بن فارس .

تحقيق : عبد السلام محمد هارون .

دار الكتب العلمية . اسماعليا نجفي . ايران (دون تاريخ)

٧٨ - المغني في أصول الفقه :

جلال الدين بن محمد عمر بن محمد بن عمر الخبازي ت (٦٩١هـ)

تحقيق : د . محمد مظهر بقا .

مركز البحث العلمي وإحياء التراث الاسلامي بجامعة أم القرى ، الطبعة

الأولى ١٤٠٢هـ .

٧٩ - مغني اللبيب عن كتب الأعراب:

جلال الدين بن هشام الانصاري ت (٧٦١هـ) .

حقيقه د . مازن المبارك و محمد علي حمد الله .

وراجعه سعيد الافغاني - دار الفكر ، بيروت الطبعة الخامسة ١٩٧٩م .

٨٠ - مفتاح العلوم :

أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي .

تحقيق : نعيم زرزور .

دار الكتب العلمية بيروت توزيع دار الباز بمكة ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ -

١٩٨٣ م .

٨١ - المفردات في غريب القرآن :

أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ت (٥٠٢ هـ) .

تحقيق محمد سيد الكيلاني .

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الأخيرة ١٣٨١ هـ -

١٩٦٦ م .

٨٢ - المقتضب :

أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ت (٢٨٥ هـ)

تحقيق : محمد عبد الخالق عضيمة .

عالم الكتب بيروت (بدون تاريخ)

٨٣ - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم :

أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي ت (٥٩٧ هـ)

مطبعة دار المعارف الإسلامية بحيدر آباد الدكن . الهند . الطبعة الأولى

١٣٥٧ هـ - ١٣٥٩ هـ .

٨٤ - المنصف .

أبو الفتح عثمان بن جني النحوي .

تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين .

شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الأولى

١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م .

٨٥ - الموافقات في أصول الاحكام :

أبو اسحاق ابراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي
ت(٧٩٠هـ)

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت (دون تاريخ) .

٨٦ - مواهب الفتاح :

ابن يعقوب المغربي .

طبع ضمن شروح التلخيص .

٨٧ - نتائج الفكر في النحو :

أبو القاسم السهيلي ت (٥٨١هـ) .

تحقيق د. محمد إبراهيم البنا

دار الاعتصام - مصر - الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٨٨ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :

أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ت(٦٨١هـ)

تحقيق : د . إحسان عباس .

دار صادر بيروت ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

ثانياً : الرسائل العلمية

٨٩ - البلاغة في تفسير أبي السعود :

الشحات محمد عبد الرحمن أبو ستيت - رسالة دكتوراه - كلية اللغة

العربية - جامعة الأزهر .

٩٠ - خصائص التعبير في القرآن الكريم وسماته البلاغية :

عبد العظيم محمد ابراهيم المطعني - رسالة دكتوراه . كلية اللغة العربية

جامعة - الأزهر .

٩١ - وجوه الخطاب في القرآن الكريم ومواقعها البلاغية .

محمد علي أبو زيد عبد الصمد . رسالة دكتوراه . كلية اللغة العربية .

جامعة - الأزهر

ثالثاً : المطبوعات الحديثة :

٩٢ - أثر النحاه في البحث البلاغي :

د . عبد القادر حسين

دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهره ١٩٧٥م

٩٣ - أساليب الاستفهام في القرآن الكريم :

عبد الحلیم السيد فوده .

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعيه .

٩٤ - الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن :

د . صباح عبید دراز .

مطبعة الأمانة بمصر الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م .

٩٥ - أساليب بلاغية :

د . أحمد مطلوب .

وكالة المطبوعات بالكويت . الطبعة الاولى ١٩٨٠م .

٩٦ - أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين :

د . قيس إسماعيل الأوسي .

جامعة بغداد - طبع بيت الحكمة للنشر والترجمة والتوزيع ١٩٨٨م .

٩٧ - أسرار التنزيل :

محمد الخضر حسين .

جمعه وحققه : علي الرضا التونسي .

المطبعة التعاونية ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م .

٩٨ - أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجا :

د . عبد الغني محمد سعيد بركه .

مكتبة وهبه - القاهره ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٣م .

٩٩ - أسلوب السخريه في القرآن الكريم :

د . عبد الحلیم حفني . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م .

- ١٠٠ - أسلوب المحاورة في القرآن الكريم .
د . عبد الحليم حفني:
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ١٩٨٥ م.
- ١٠١ - الإعجاز البلاغي:
د . محمد أبو موسى .
مكتبة وهبه . الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- ١٠٢ - الأعلام
خير الدين الزركلي
دار العلم للملايين . بيروت . الخامسة ١٩٨٠ م.
- ١٠٣ - الأمر ودلالته على الأحكام الشرعية ،
د . محمود أحمد عبد الله .
دار المنار للنشر والتوزيع القاهره . الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- ١٠٤ - الأمر والنهي وما يتوقف عليه المطلوب
د . علي مصطفى رمضان . دار الهدى للطباعة . القاهره ١٢٤٠ هـ - ١٩٨١ م.
- ١٠٥ - بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح
عبد المتعال الصعيدي
مكتبة الآداب ومطبعتها . القاهره (دون تاريخ)
- ١٠٦ - بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني .
السيد عبد الرحيم عطيه .
السلام العالمية للطبع والنشر والتوزيع . الطبعة الأولى ١٩٨٥ م.
- ١٠٧ - البلاغة : تطور وتاريخ .
د . شوقي ضيف . دار المعارف بمصر . الطبعة الثالثة ١٩٧٦ م.
- ١٠٨ - بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار
د . عبد الفتاح لاشين . دارالفكر العربي . القاهره . الطبعة الأولى

- ١٠٩ - البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية
د . محمد أبو موسى . دار الفكر العربي . (بدون تاريخ)
- ١١٠ - البيان العربي .
د . بدوي طبانة . مكتبة الانجلو المصرية . الطبعة السادسة ١٣٩٦ هـ -
١٩٧٦ م .
- ١١١ - تاريخ الأدب العربي .
كارل بروكلمان . نقله إلى العربية د . عبد الحليم النجار . الجزء ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ .
السيد يعقوب بكر و د . رمضان عبدالقواب الجزء ٤ ، ٥ ، ٦ .
دار المعارف الطبعة الخامسة ١٩٨٣ م .
- ١١٢ - تاريخ نشأة علوم البلاغة العربية وأطوارها .
د . عبد العزيز عبد المعطي عرفة
دار الطباعة المحمدية . القاهرة . الطبعة الاولى ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .
- ١١٣ - التصوير البياني .
د . محمد أبو موسى
مكتبة وهبه . الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .
- ١١٤ - التصوير الفني في القرآن .
سيد قطب .
دار الشروق الطبعة الشرعية الثامنة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٣ م .
- ١١٥ - التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم ، الهمزة المجررة مع الفعل الماضي
د . عبد العظيم المطعني . المكتبة التوفيقية . القاهرة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .
- ١١٦ - التفسير البياني للقرآن الكريم
د . عائشة عبر الرحمن (بنت الشاطيء)
دار المعارف بمصر الطبعة السادسة ١٩٨٢ م .
- ١١٧ - تفسير التحرير والتنوير . محمد الطاهر بن عاشور .
الدار التونسية للنشر ١٩٨٤ م .

- ١١٨ - تفسير جزء عم الشيخ محمد عبده .
دار ومكتبة الهلال . بيروت ١٩٨٥م .
- ١١٩ - خصائص التراكيب .
محمد أبو موسى . مكتبة وهبة . القاهرة . الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ .
١٩٨٠م .
- ١٢٠ - خصائص التشبيه في سورة البقرة .
د . إبراهيم علي حسن داود .
مطبعة الأمانة القاهرة - الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
- ١٢١ - دراسات لأسلوب القرآن الكريم
محمد عبد الخالق عضيمة
مطبعة السعادة . القاهرة - ١٤٠٨هـ - ١٩٧٢م .
- ١٢٢ - دلالات التراكيب
د . محمد أبو موسى
مكتبة وهبة - القاهرة . الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م .
- ١٢٣ - دلالة الألفاظ عند الأصوليين
د . محمود توفيق محمد سعد
مطبعة الأمانة القاهرة . الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .
- ١٢٤ - الظاهرة القرآنية :
مالك بن نبي
ترجمة / د . عبد الصبور شاهين
دار الفكر (بدون تاريخ)
- ١٢٥ - علم المعاني
د . درويش الجندي
دار نهضة مصر . القاهرة (دون تاريخ)

١٢٦- فكرة إعجاز القرآن :

نعيم الحمصي

مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

١٢٧- في البلاغة القرآنية

د. صباح عبيد دراز

١٢٨- في ظلال القرآن

سيد قطب

دار العلم للطباعة والنشر جده . ودار الشروق للطباعة والنشر القاهرة

الطبعة الثانية عشرة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

١٢٩- المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع

د . عبد العظيم المطعني

مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الأولى (دون تاريخ)

١٣٠- مشاهد القيامة في القرآن

سيد قطب

دار الشروق .

الطبعة السابعة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

١٣١- المعاني الثانية في الأسلوب القرآني

د . فتحي أحمد عامر

منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٧٧ م.

١٣٢- معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم

د . إسماعيل أحمد عمايره و د. عبد الحميد مصطفى السيد

مؤسسة الرسالة بيروت .

الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م.

١٣٣- معجم ألفاظ القرآن الكريم . مجمع اللغة العربية

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر . الطبعة الثانية ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م.

- ١٣٤ - معجم المصطلحات البلاغية وتطورها
د . أحمد مطلوب .
الجزء الأول . مطبوعات المجمع العلمي العراقي . الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ -
١٩٨٣م .
- ١٣٥ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم
د . محمد فؤاد عبد الباقي
نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية الاسلامية . استنابول
(دون تاريخ)
- ١٣٦ - معجم المؤلفين . تراجم مصنفى الكتب العربية .
عمر رضا كحالة . دار إحياء التراث العربي . بيروت (دون تاريخ)
- ١٣٧ - مناهج البحث البلاغى فى الدراسات العربية
د . عبد السلام عبد الحفيظ
دار الفكر العربي . القاهرة . الطبعة الأولى ١٩٧٨م .
- ١٣٨ - مناهج بلاغية .
د . أحمد مطلوب .
الناشر وكالة المطبوعات بالكويت بمساعدة جامعة بغداد . الطبعة الأولى
بيروت ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .
- ١٣٩ - من أسرار التعبير القرآنى
دراسة تحليلية لسورة الأحزاب .
د . محمد أبو موسى
دار الفكر العربي . القاهرة (دون تاريخ)
- ١٤٠ - من أسرار التعبير القرآنى دراسة تحليلية لسورة الأحزاب
د . محمد أبو موسى
دار الفكر العربي . القاهرة (دون تاريخ)

- ١٤١ - من أسرار النظم في القرآن والحديث
د . عبد العظيم المطعني
طبع مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ
- ١٤٢ - من الإعجاز البلاغي للقرآن
د . صباح عبيد دراز
المكتبة التوفيقية . القاهرة . الطبعة الأولى ١٩٨٠م.
- ١٤٣ - من بدائع النظم القرآني
د . السيد عبد الفتاح حجاب .
دار الإعتصام ، الطبعة الأولى
- ١٤٤ - من بلاغة القرآن
أحمد أحمد بدوي
دار نهضة مصر . القاهرة ١٩٧٧م.
- ١٤٥ - من بلاغة النظم العربي
د . عبد العزيز عبد المعطي عرفة
عالم الكتب بيروت . الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤م.
- ١٤٦ - منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه
د . مصطفى الصاوي الجويني
دار المعارف بمصر . الطبعة الثالثة ١٩٨٤م.
- ١٤٧ - منهج الفن الاسلامي
محمد قطب .
دار الشروق . الطبعة السادسة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ١٤٨ - النبا العظيم
د . محمد عبد الله دراز
دار القلم . الكويت . الطبعة الرابعة ١٣٩٧هـ . ١٩٧٧م.

١٤٩ - النحو القرآني ، قواعد وشواهد

د. جميل أحمد ظفر .

مطابع الصفا بمكة المكرمة . الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

١٥٠ - النظم القرآني في سورة الرعد

محمد بن سعد الدبل

عالم الكتب . دار النصر للطباعة الإسلامية القاهرة ١٩٨١ م.

١٥١ - اليوم الآخر في ظلال القرآن

أحمد فائز .

مؤسسة الرسالة . بيروت . الطبعة الثامنة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

رقم الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
	الباب الأول :
٢٧١ - ٧	أساليب الأمر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية
٨	المدخل
٩	أسلوب الأمر
٩	الأمر بين الدلالة القرآنية واللغوية
١٠	الأمر عند البلاغيين
١١	صيغ الأمر
١٢	المعاني البلاغية لصيغة الأمر
	الفصل الأول :
٧٨ - ١٤	مناهج العلماء في معالجة أساليب الأمر
١٦	المبحث الأول : منهج اللغويين
٣٦	المبحث الثاني : منهج المفسرين
٥٤	المبحث الثالث : منهج الأصوليين
٦٩	المبحث الرابع : منهج علماء البلاغة والإعجاز ...
	الفصل الثاني :
٢٧١ - ٧٩	أساليب الأمر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية
٨٠	النصح والإرشاد
٨٠	دلالة النصح والإرشاد في اللغة والقرآن الكريم ...
٨١	الدلالة الاصطلاحية
٨٨	الرجاء
٨٨	دلالة الرجاء لغة واصطلاحاً
٩٩	التمني
١٠٥	المشورة
١٠٥	تعريف المشورة

رقم الصفحة	الموضوع
١٠٨	الالتماس
١٠٨	الالتماس لغة واصطلاحاً
١١٢	الدعاء
١١٢	دلالة الدعاء في اللغة والقرآن الكريم
١١٢	الدعاء عند البلاغيين
١١٩	الإلهاب والتهييج
١١٩	الإلهاب في اللغة
١١٩	في اصطلاح البلاغيين
١١٩	بلاغته
١٢٠	بين الإلهاب و التهييج و لدوام
١٢٨	أسلوب التأمل والاعتبار
١٢٨	التعجب
١٢٨	التعجب في اللغة
١٢٨	هل يقع التعجب من الله سبحانه وتعالى ؟
١٤٥	الإباحة والامتنان
١٤٥	دلالة الإباحة اللغوية والاصطلاحية
١٦٥	التخيير
١٦٥	بين الإباحة والتخيير
١٧٠	التسوية
١٧٠	دلالة التسوية لغة واصطلاحاً
١٧٥	التكوين والتسخير
١٧٥	الدلالة اللغوية
١٧٥	الدلالة الاصطلاحية
١٧٦	الفرق بين التكوين والتسخير
١٨٤	التسخير بمعنى الإلهام
١٨٦	التكريم
١٩١	الإهانة
١٩١	دلالة الإهانة في اللغة والاصطلاح

رقم الصفحة	الموضوع
٢٠٥	السخرية
٢٠٦	درجات السخرية
٢٠٦	أسباب السخرية ودواعيها
٢٠٧	أسباب السخرية القرآنية
٢٢٧	التعجيز والتحدي
٢٢٧	دلالة التعجيز اللفوية والاصطلاحية
٢٤٢	بين التحدي والتعجيز
٢٤٤	بين التعجيز والتكذيب
٢٤٥	التكذيب
٢٥١	التهديد
٢٥١	الدلالة اللفوية
٢٥١	في اصطلاح البلاغيين
٢٦٩	متفرقات
	الباب الثاني :
٢٧٢ - ٤١٨	أساليب النهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية
٢٧٣	المدخل
	الفصل الأول :
٢٧٥ - ٢٠٥	مناهج العلماء في معالجة أساليب النهي
٢٧٥	أولاً : منهج اللغويين والنحاة
٢٨٠	ثانياً : منهج المفسرين
٢٩٥	ثالثاً : منهج الأصوليين
٣٠٠	رابعاً : منهج علماء البلاغة والإعجاز
	الفصل الثاني :
٢٨٥ - ٣٠٦	أساليب النهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية
٣٠٧	النصح والإرشاد
٣١٤	الرجاء
٣١٨	التسوية

رقم الصفحة	الموضوع
٣٢١	الدعاء
٣٢٦	الحث والرغبة في الاتصاف بصفة معينة
٣٢٨	الالتماس
٣٣٤	التسكين والطمأنة
٣٤١	بيان العاقبة
٣٤٦	الالهاب والتهيج
٣٥٥	التهديد والوعيد
٣٥٩	بين النهي عن القرب والاعتداء في القرآن الكريم
٣٦٧	التحدي
٣٦٩	الإهانة
٣٧٢	التينيس
٣٧٨	التحويل والتفطيع
٣٨٠	متفرقات
٣٨٦	تبادل الأساليب وأسرارها البلاغية
٣٨٦	١ - الأمر بمعنى الخبر
٣٨٦	سره البلاغي
٣٨٧	٢ - الخبر بمعنى الأمر
٣٨٨	سره البلاغي
٣٩٢	٣ - الإستفهام بمعنى الأمر
٣٩٤	سره البلاغي
٣٩٨	٤ - الخبر بمعنى النهي
٣٩٩	٥ - الإستفهام بمعنى النهي
	الفصل الثالث :
٤٠٠ - ٤١٧	بين النفي والنهي في القرآن الكريم
٤٠١	انصباب النفي أو النهي على القيد
٤٠٢	انصباب النفي أو النهي على القيد والمقيد معاً

الموضوع	رقم الصفحة
الصفة للتأكيد لا للتقييد	٤٠٦
نفي الشيء لنفي ثمرته	٤٠٧
قضية النهي عن الكون على صفة في القرآن الكريم الباب الثالث :	٤٠٩
النسق في توالي أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية	٤١٨ - ٤٤٥
المدخل	٤١٩
الفصل الأول :	
توالي أساليب الأمر في القرآن الكريم وبلاغة ذلك ..	٤٢٠ - ٤٣١
١ - التقدم حسب ترتيب الأفعال في الصلاة	٤٢١
٢ - التقدم بالزمن	٤٢٢
٣ - التقديم لعلو شأن المقدم والاهتمام به	٤٢٣
٤ - التقدم بالشرف والفضل	٤٢٥
٥ - التقديم بالطبع والعادة	٤٢٧
٦ - التقديم بالداعية أو الرتبة أو السببية	٤٢٧
٧ - التقديم بالترقي والتدرج	٤٢٨
٨ - التقديم في القصص القرآني	٤٣٠
الفصل الثاني :	
توالي أساليب النهي في القرآن وسره البلاغي ...	٤٣٢ - ٤٣٦
الفصل الثالث :	
توالي أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية	٤٣٧ - ٤٤٥
الخاتمة	٤٤٦
ثبت المصادر والمراجع	٤٤٩ - ٤٧٠
فهرس الموضوعات	٤٧١ - ٤٧٦